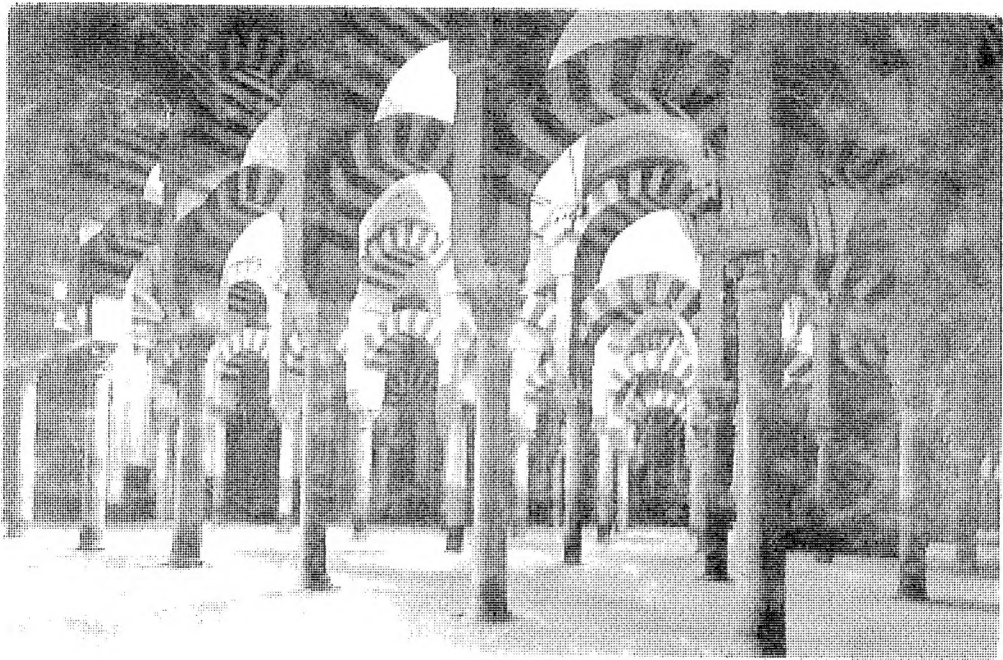


شِرق الأندلس في العصر الإسلامي

(٥١٥ - ٦٨٦ هـ / ١١٤١ - ١٢٨٧ م)

دراسة في التاريخ السياسي والحضاري



دكتور
محمد أحمد أبو الفضل

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة طنطا

١٩٩٦

دار المعرفة الجامعية

٤. بن سوثير - اسكندرية

٤٨٣.١٦٣ ت

تشرق الأندلس في العصر الإسلامي

(٥١٥ - ٦٨٦ هـ / ١١٤١ - ١٢٨٧ م)

دراسة في التاريخ السياسي والحضاري

دكتور
محمد أحمد أبو الفضل
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة طنطا

١٩٩٦

دار المعرفة الجامعية

٤٠ في مسوتير - الارابطة - ت ٤٨٣٠١٦٣

٣٨٧ في قنال السويس - الشاطبي ت ٥٩٧٣١٤٦

مقدمة

أولاً- موضوع البحث ومنهج الدراسة:

تشغل منطقة شرق الأندلس منذ انهيار دولة المرابطين وانتزاع محمد بن سعد بن مردنيش بها قدرًا كبيرًا من أحداث تاريخ الاسلام في الأندلس، وقد تتابعت الأحداث خلال هذه الفترة الانتقالية وتداخلت مناطق النفوذ وتشابكت تشابكًا عقد من طبيعة الأوضاع السياسية بحيث يستعصى على الباحث تأريخ هذه الفترة على نحو يتكافأ مع الأهمية التي تستحقها قبل أن تستقر أقدام الموحدين في شرق الأندلس، وقد حظيت هذه المنطقة باهتمام الموحدين لمثاقبتها للثغور المسيحية من جهة الشمال، كما نعمت في ظل سلطانهم باستقرار نسبي كان له أعظم الأثر فيما أصابته هذه المنطقة من رخاء وازدهار اقتصادي انعكس على الفنون والصناعات والعمارة. غير أن الأوضاع السياسية لم تلبث أن اضطربت في شرق الأندلس عندما انهار سلطان الموحدين السياسي لا سيما بعد هزيمة العقاب وما اجترمه الناصر الموحدي نحو زعماء الأندلس قبيل الاشتباك الذي أدى إلى هذه الهزيمة، بالإضافة إلى انقسام الموحدين على أنفسهم واختلافهم فيما بينهم، وسوء تصرف بعض المتأخرين من زعمائهم في الأندلس كما فعل السيد أبو زيد والي بلنسية حين لجأ إلى أراجون ليستعين بها واعتنق النصرانية، كل ذلك أدى إلى الإطاحة بهيبة الموحدين في نظر أهل الأندلس وإقدام هؤلاء على التخلص من سلطانهم، وعلى هذا النحو كانت منطقة شرق الأندلس في مقدمة مناطق الأندلس التي ثارت عليهم وإن كانت هذه الثورة قد أعادت المنطقة إلى نزعتها الإقليمية المعهودة، فاستقل بإمارة مرسية الأمير أبو عبد الله محمد بن هود الذي اتخذ مرسية قاعدة لإمارته وحكم معظم ما تبقى من مدن الأندلس تحت شعار العباسيين ورغبة منه في أن يحظى حكمه بنوع من الشرعية أمام منافسيه من أمراء الأندلس أمثال محمد بن نصر بن الأحمر، استرضاء للعامة الذين يتطلعون إلى الخلافة العباسية التي يستمدون منها القوى المعنوية والروحية. أما بلنسية فقد ثار فيها زيان بن مردنيش، أحد سلالة بني مردنيش على أميرها الموحدي السيد أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن وأخرجه منها، واستمر زيان يقاوم الأرغونيين زهاء عشر سنوات من سنة ٦٢٦هـ إلى سنة ٦٣٦هـ اضطرب بعدها إلى أن يسلم بلنسية إلى جاقمه (خايمي الأول). ولم تلبث قواعد شرق الأندلس بعد ذلك أن تساقطت تباعاً خلال سنوات قلائل في أيدي الأرغونيين والقشتاليين إلى أن انتهى الأمر بقيام دولة بني الأحمر في نطاق ما بقي من ملك الاسلام في الأندلس.

لقد كان إحساسى بخطورة الدور الذى لعبته هذه المنطقة فى الفترة موضوع الدراسة وأهميته بالنسبة لتاريخ الأندلس مع ندرة الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع كان ذلك العامل الرئيسى الذى شجعتنى على اختيار منطقة «شرق الأندلس فى عصر دولة الموحدين» موضوعاً للبحث، وكان يحدونى عند اختياره الأمل فى أن أتوصل إلى حقائق قد تسلط مزيداً من الأضواء التى تتيح إزالة ما اكتنف هذا التاريخ من غموض. ومن الجدير بالذكر أن الدراسات الأسبانية المتعلقة بالتاريخ المحلى القومى وليدة النزاعات الإقليمية فى أسبانيا كان لها أعظم الأثر فى تسهيل مهمتى لدراسة هذه المنطقة دراسة شاملة متكاملة، وأعظم ما كتب فى هذا المجال الكتاب الذى وضعه الأستاذ امبروزو أويشى ميراندا عن مدينة بلنسية فى العصر الإسلامى ويتألف من ثلاثة أجزاء بعنوان :

Huici Miranda (A), Historia de Valencia y su region, 3 Tomos, Valencia, 1970.

والبحت الذى أصدره أندريه أبارس عن بلنسية أيضاً بعنوان:

Ibars (A), Valencia Arabe, Tomo I, Valencia, 1901.

وعن مدينة مرسية الإسلامية الكتاب الذى أصدره جاسبار ريميرو بعنوان:

Gaspar Remiro (M): Historia de Murcia Musulmana, Zaragoza, 1905.

والكتاب الذى ألفه روكى شاباس عن مدينة دانيه، تكلم فى الجزء الثانى منه عن تاريخها فى العصر الإسلامى بعنوان:

Roque Chabas (LLorens), Historia de la Ciudad de Denia, Tomo II, Tercera Edicion, Alicante, 1972.

والكتاب الذى أعده أرست جسيرت عن أوربولة وعنوانه:

Eresto Gisberte Ballasteros, Historia de Orihuela, Orihuela, 1901.

وكتاب السيد/ كانوباس كوينيو عن تاريخ مدينة لورقة وعنوانه:

Canovas Cabeno, Historia de la Ciudad de Lorca, Lorca, 1903.

ثم المختصر التاريخى عن جزر البليار فى العصر الإسلامى الذى وضعه ألبارو كامبانير أى فورتيس بعنوان :

Alvaro Campaner y Fuertes, Bosquejo Historico de la Dominacion Islamita en las Islas Baleares.

ولقد حاولت منذ البداية أن أتوصل إلى هدفين أساسيين قامت عليهما الرسالة، أولهما إبراز الدور الأساسي الذي لعبته المنطقة في تاريخ الأندلس، وثانيهما، إجلاء الصورة الحضارية للمنطقة موضوع الدراسة علمياً واجتماعياً واقتصادياً مع الإشارة إلى أهم آثارها الباقية. وقد حاولت أيضاً خلال دراستي للموضوع أن أنقصى الحقائق التاريخية متبعاً في كل ذلك المنهج العلمي القائم على المقابلة بين النصوص والتحليل توطئة لاستنباط الحقائق التي يمكن أن يدور عليها البحث، ومستعيناً بعدد كبير من المصادر العربية والأسبانية التي تعرضت من قريب أو من بعيد لموضوع الدراسة، ومعظمها لا يعدو بحثاً تاريخياً تسجل أحداثاً وحوليات تتضمن روايات المؤرخين لم تصل إلينا كتبهم. كما عشت فترات متقطعة - أتاحها وجودي في أسبانيا خلال ثلاث سنوات - في مناطق الأحداث كنت أطوف خلالها مع قلة الإمكانات المتاحة بالمراكز العمرانية القديمة الواقعة داخل نطاق المجموع العام للعمارة المدنية لهذه المنطقة وكنت أنفحص التخطيطات القديمة وأقابلها بالتخطيطات المعاصرة بغية الخروج من تلك المقابلات بحقائق تعينني على تصور ما كانت عليه مدن هذه المنطقة في عصر الموحدين، ولم أكن أتردد في تجشم متاعب الرحلة إلى المواقع التاريخية التي شهدت المعارك الدامية بين الفئات المتصارعة أو حتى في ارتياد المواقع الصعبة التي تقوم عليها القلاع والتحصينات في مختلف أنحاء شرق الأندلس.

وعلى هذا النحو قسمت موضوع الدراسة إلى باين رئيسيين، تسبقهما دراسة تمهيدية، أولهما ويتعلق بالتاريخ السياسي يتضمن خمسة فصول في حين أفردت الباب الثاني لدراسة بعض مظاهر حضارة شرق الأندلس وضمته أربعة فصول - وفيما يلي عرض عام لفصول الرسالة:

في الباب الأول: خصصت الفصل الأول منه لدراسة شرق الأندلس في السنوات الأخيرة من عصر المرابطين، فتعرضت صدى الأحداث المغربية في هذه الفترة في الأندلس ويتمثل في الثورة العارمة ضد المرابطين التي اجتاحت مدن الأندلس من غربها إلى شرقها، كما أوضحت دوافع الثورة القرطبية أولى الثورات المحتدمة في الأندلس ضد الوجود المرابطي، مبيناً أسباب الحكم المرابطي التي لم تكن تتسم بكثير من الرفق والكياسة، وعجز المرابطين عن مواجهة أخطار المد المسيحي الشمالي الذي تمثلته حملة ألفونسو الأول المحارب على بلنسية والأندلس، وهي الحملة التي أظهرت مدى عجز المرابطين عن حماية قواعد الأندلس، ثم الحملات الأرغونية التي تبعتها مبيناً موقف المرابطين منها، واستجابتهم لمطلب محمد بن يوسف يدر والي شرق الأندلس في توجيه يحيى بن غانية إليه لمعاونته لما يتميز به من شهرة حرية فائقة في

غرب الأندلس آنذاك، ومبرزاً الدور الذى لعبه ابن غانية فى أحداث شرق الأندلس وغيرها، وفى انتصار المرابطين فى يوم إفراغه، وهو الانتصار الذى أدى إلى إرغام راميرو الراهب ملك أرغون على عقد هدنة مع ابن غانية لمدة عامين، كما أدى إلى استرداد المرابطين لمدينة مكننسة وإحكام الحصار حول أريلييه. ثم انتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن الثورة العامة ضد المرابطين فى بلنسية ومرسيه وإنهيار سلطانهم فيها، فبدأت الحديث بعرض مقتضب لطبيعة الثورة الأندلسية ضد المرابطين ثم تعرضت للحديث عن ثورة ابن قسى فى غرب الأندلس ودور ابن غانية فى إخماها، ثم عن ثورة قرطبة بزعامه قاضيه أبى جعفر حمدين بن محمد بن على بن حمدين وانتقال رياحها العاصفة إلى شرق الأندلس حيث هب أهل بلنسية على المرابطين الذين تخلوا عنها بعد أن فر عنها واليهما أبو محمد عبد الله بن غانية واستيلاء قاضيه مروان بن عبد العزيز على زمام الحكم، مع ذكر تفاصيل الصراع بين الوالى المرابطى وقاضى المدينة، ثم انتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن ثورة أبى محمد بن الحاج فى مرسيه وما تبع ذلك من أحداث مبرزاً دور سيف الدولة بن هود فيها، واستيلاء قائده عبد الله بن فتوح الثغرى على المدينة، الذى لم يلبث أهل مرسيه، أن خلعه من ولايتها، مقدمين عليهم الفقيه أبى جعفر بن عبد الله بن أبى جعفر الخشنى الذى لم يتردد فى الدعوة لابن حمدين صاحب قرطبة، وأوضحت الدور الذى لعبه الخشنى فى إيجاد مروان بن عبد العزيز فى شاطبة وابن أضحي فى غرناطة، ثم تكلمت عن ولاية أبى عبد الرحمن بن طاهر على مرسيه نائباً عن سيف الدولة بن هود، ثم لنفسه بعده، ثم إقدام أهل مرسيه على خلع ابن طاهر ومبايعتهم لمحمد بن عبد الرحمن بن عياض نائباً عن سيف الدولة ابن هود، وانتقلت بعد ذلك إلى ذكر أحداث بلنسية وتتناول خلع واليه مروان بن عبد العزيز وتولية ابن عياض باسم سيف الدولة مع التعريف به وبدوره فى شرق الأندلس، ثم موقعة البسيط التى دارت بين القشتاليين وقوات شرق الأندلس بقيادة سيف الدولة وابن عياض مع ذكر الأسباب والنتائج وأهمها مصرع ابن هود وانفراد ابن عياض بالسلطة مستقلاً بمدينتى بلنسية ومرسيه، وفى ختام هذا الفصل تعرضت لذكر الأحداث المتلاحقة فى المنطقة، من انتزاع عبد الله الثغرى بحكم مرسيه مرة ثانية ثم استعادة ابن عياض لإمارته فيها ثم مبايعه أهل مرسيه وبلنسية لمحمد بن سعد بن مردنيش نائب ابن عياض الذى كان قد توفى آنذاك مبيناً الاستقرار النسبى لهذه المنطقة طوال خمس وعشرين عاماً حكمها ابن مردنيش.

أما الفصل الثانى، فخصصته لدراسة موقف الموحدى من ابن مردنيش، فعرفت بشخصية محمد بن سعد بن مردنيش، ثم عرضت لعلاقاته الودية مع الممالك

المسيحية، ثم تحدثت عن نائبه إبراهيم بن همشك وانتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن استيلاء النصارى على نجر المريه وعلى طرطوشة ولارده وإفراغه موضعاً موقف ابن مردنيش من هذه الأحداث، ثم تحدثت عن موقف الموحدين من انتزاع ابن مردنيش فى بلنسية ومرسيه موضعاً الأسباب الحقيقية فى موقفهم السلبى من حركته وأهمها يرجع إلى الثورات التى احتدمت ضد الموحدين فى أرض المغرب كثورة الماسى، وثورات قبيلتى برغواطة ودكالة وحركة ابن تمرديد، ومؤامرات أخوى المهدي بن تومرت وانبعث ذلك بالحديث عن الثورتين اللتين واجههما ابن مردنيش وكادتا تطيحان بدولته وأعنى بهما ثورة ابن هلال فى بنشكلة، وثورة ابن شلبان فى بلنسية ثم تابعت الحديث عن ابن مردنيش فأشرت إلى حملاته التى انتهت باستيلائه على بسطة ووادى آش، كما تعرضت فى نفس الوقت إلى ذكر موقف الموحدين من تحركاته، ونجاحهم فى استرداد نجر المريه وبياسة وأبده ثم عاودت من جديد الحديث عنه فذكرت افتتاحه لمدينة جيان وغاراته المتكررة على مدينة قرطبة ودور قوات شرق الأندلس بقيادة ابن همشك فى مناوأة الموحدين أمام قرمونة وغرناطة وتناوب الفريقين السيطرة على هاتين المدينتين، ثم عالجت بعد ذلك أبرز الأحداث التى تلت ذلك من هزيمة ابن مردنيش فى موقعة فحص الجلاب، وتوحيد ابن همشك وإقدام الموحدين على انتزاع أندوجر وغيرها من سيطرة ابن مردنيش، واختتمت هذا الفصل بالحديث عن حملة الموحدين على مرسيه وبلنسية وهى الحملة التى انتهت بسيطرتهم عليهما ودخول منطقة شرق الأندلس بأكملها فى طاعتهم.

أما الفصل الثالث ويتعلق بموقف الموحدين من بنى غانية أصحاب الجزائر الشرقية (البليار)، فقد بدأته بالحديث عن محمد بن على المسوفى المعروف بابن غانية الوالى المرابطى للجزائر الشرقية وعن ظروف توليته لها والآراء التى قيلت فيه، وعن موقفه من انهيار دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين فى المغرب والأندلس، وعن ارتباطه برابطة الولاء للمرابطين، وهى رابطة تمثلت فى استقلاله بجزر البليار وتمسكه بإعلان الخطبة لأمر المسلمين المرابطى ولبنى العباس، هذا بالإضافة إلى تلقيه لمن كان يلجأ إلى أكنافه من فلول المرابطين بالجزائر وإحاطته لهم بحمايته ورعايته موضعاً أن قيام دولة ابن مردنيش فى شرق الأندلس طوال خمس وعشرين عاماً كانت عامل اطمئنان واستقرار لابن غانية، إذ كانت دولته بمثابة دولة حاجزة بينه وبين الموحدين، ثم تحدثت عن خلفه إسحاق بن محمد بن غانية مبيناً ازدهار أحوال الجزائر الداخلية فى عهده وتفوق قوته البحرية غرب البحر المتوسط الأمر الذى دعا جمهوريات جنوة وبيزه والبندقية إلى السعى إلى تجديد المعاهدات أو الارتباط معه بمعاهدات جديدة، كذلك

قمت بتوضيح موقف إسحاق بن غانية من الموحدين خاصة بعد أن استكملوا سيطرتهم على منطقة شرق الأندلس مشيراً إلى أنه عمل على موادعتهم ومسالمتهم بعد أن استقرت لهم السيادة الفعلية في شرق الأندلس، ثم تحدثت عن استشهاده في إحدى المعارك التي خاضها مع النصاري واستخلاف ابنه محمد بن إسحاق الذي تسجل ولايته الاعتراف بسيادة الموحدين، فتحدثت عن سفارة أبي الحسن على بن الربرير مبعوث الموحدين إليه بهدف الدخول في طاعتهم وبينت استجابة محمد بن إسحاق لطلبهم رغم معارضة إخوانه وأكابر أصحابه الأمر الذي أدى إلى قيامهم بالثورة عليه وإقدامهم على اعتقاله واعتقال المبعوث الموحدى بعد أن قدموا للإمارة أخاهم علياً الذي لم يتردد في إعلان رفضه طاعة الموحدين بل إنه انتهر فرصة استشهاد الخليفة أبي يعقوب يوسف في شتتين وعمل على انتزاع بجاية من أيدي الموحدين، ثم انتقلت مرة أخرى إلى الحديث عن أحداث ميورقة وتغلب المبعوث الموحدى ابن الربرير على قصبة ميورقة واستعادة محمد بن إسحاق بن غانية حكمه عليها وبذلك عاد نفوذ الموحدين مؤقتاً إلى الجزائر الشرقية، على أن هذا النفوذ لم يدم طويلاً إذ استطاع عبد الله بن غانية أن يعود من أفريقية وتمكن بمساعدة وليام الثانى صاحب صقلية من استرداد الجزائر الشرقية وطرد أخاه منها وأعادها مرة ثانية إلى حظيرة بنى غانية وقد أوضحت بهذه المناسبة كيف أن إخفاق الموحدين الاستيلاء على ميورقة أدى إلى تركيز همهم للسيطرة على جزيرتى يابسة ومنورقة، ثم تحدثت عن ميورقة فى ظل إمارة عبد الله بن غانية، وقد اختتمت هذا الفصل بالحديث عن سيطرة الموحدين على ميورقة وكان لزاماً على لاستيفاء هذا الموضوع أن أعرض الصراع العنيف بين على بن إسحاق بن غانية ثم خلفه يحيى بن إسحاق وبين الموحدين فى أفريقية وذلك قبل أن انتقل إلى ذكر أحداث ميورقة التى انتهت بخضوع الجزر بأكملها للسيطرة الموحدية ونهاية دولة بنى غانية فى جزر البليار.

أما فى الفصل الرابع فقد خصصته لدراسة فترة السيطرة الموحدية على شرق الأندلس، ومهدت له بالإشارة إلى إذعان أبي القمر هلال بن سعد بن مردنيش بالطاعة للموحدين وتنازله لهم عن أملاكه عقب وفاة والده، ثم بدأت دراستى بالحديث عن حملة وبذه واشتراك قوات شرق الأندلس فيها مفصلاً خط سير الحملة وهجومها الأول على أعمال وبذه ثم مواجهتها للقوات القشتالية مشيراً إلى أن جيش الموحدين فى هذه المعركة عاد إلى قواعده عبر أراضي شرق الأندلس، ثم تحدثت عن أسيرة محمد بن سعد بن مردنيش فى خدمة الموحدين، وأصهار الخليفة أبو يعقوب منهم بزواجه من الزرقاء بنت محمد بن سعد بن مردنيش، ثم عن اختيار هلال بن محمد

بن سعد بن مردنيش المستشار المفضل بمجلس الخليفة العالي واشترك أخيه غانم مع القوات الموحدية في بعض الحملات، ثم انتقلت إلى الحديث عن اشتراك قوات بلنسية ومرسيه مع الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف في حملة شتريين فتحدثت عن وإلى بلنسية أبي الحجاج يوسف بن مردنيش وعن السيد أبي يوسف بن عبد المؤمن وإلى مرسيه وعن أحداث الأندلس قبل غزوة شتريين والاستعدادات الموحدية لهذه الغزوة، ثم تكلمت عن غزو وإلى مرسيه الموحدى السيد أبو حفص عمر الملقب بالرشيد وسيرته في شعب مرسيه إلى أن لقي مصرعه، ثم تعرضت بوجه عام إلى ذكر موقعة الأرك بواعثها وظروفها وانتصار الموحدين فيها، وعقد الهدنة مع قشتالة لمدة عشر سنوات، مشيراً إلى الهجوم القشتالي على شرق الأندلس، وانتقلت إلى الحديث عن هزيمة الموحدين في رقعة العقاب مع تفصيل أحداثها وذكر أهم نتائجها بالنسبة لمصير الأندلس عامة وشرق الأندلس بوجه خاص، ثم تعرضت للحديث عن شرق الأندلس في أعقاب هذه الهزيمة وموقف أبي محمد عبد الله بن المنصور وإلى مرسيه من الخلافة وإعلان نفسه خليفة وتلقبه بالعدل مع ذكر العقبات التي صادفته إلى أن تولى الخلافة في مراكش، ثم انتقلت إلى الحديث عن المأمون أخ العادل الذي تلقب بالخلافة ومدى تأثير هذه الأحداث على منطقة شرق الأندلس حتى ظهور محمد بن يوسف بن هود الذي غير مصير هذه المنطقة تماماً.

أما الفصل الخامس والأخير من الباب الأول فقد أفردته للحديث عن تفكك الأندلس في آخر عصر الموحدين وسقوط قواعده، فبينت أثر ثورة العادل في مرسيه وخروجه على الخليفة أبي محمد عبد الواحد وتلقبه بالخلافة في إحياء النزعة القومية في نفوس أهل شرق الأندلس الأمر الذي أدى إلى قيام محمد بن يوسف بن هود بالشورى في هذه المنطقة وتمكنه من السيطرة على مرسيه وإيقاعه الهزيمة بواليتها الموحدى أبي العباس بن أبي موسى بن عبد المؤمن، وأبرزت دور السيد أبو العلا وإلى أشبيلية من ثورة ابن هود وما اتخذته من إجراءات في هذا الشأن لولا عدوله المفاجئ عن متابعة هذه المواجهة ومحاصرة مرسيه بعد أن قرعزمه فجأة العودة إلى أشبيلية، وأبرزت أثر ذلك في امتداد سيطرة ابن هود على قواعد الأندلس الوسطى والجنوبية، كما أوضحت صدى ثورة ابن هود في بلنسية وموقفه من انتزاع أبي جميل زيان ببلنسية، وأوضحت أن هذه المنازعات أتاحت الفرصة لألفونسو التاسع ملك ليون أن يحقق مشاريعه ويستولى على مدينة لاردة بعد أن أخفق ابن هود عن إيجاد أهلها، ثم انتقلت إلى الحديث عن السيد أبي زيد وإلى بلنسية وتعاونته مع الأرغونيين وبخوله إلى النصرانية، وكان لازماً على مادمت بصدد الحديث عن ابن هود أن أشير إلى علاقته

بإخلافة العباسية واعترافه بسلطتها الروحية وتلقيه من الخليفة العباسي الراية والتقليد، ثم تحدثت عن المد الأرغوني على حساب أراضى الاسلام مشيراً إلى استيلاء جايىمى الأول على ميورقه عام ٦٢٧هـ وكيف أن الوضع الاسلامى كان يحتم ظهور قائد يجمع شمل المسلمين ويعيد توحيد صفوفهم ولم شعثهم وأن هذا الزعيم قدر له أن يظهر متمثلاً فى شخصية محمد بن الأحمر المنافس الأول لابن هود والذى قدر له أن يؤسس مملكة بنى الأحمر التى عاشت تصارع المسيحية فى أسبانيا طوال قرنين ونصف من الزمان، ثم تحدثت عن الدفع القشتالى وكيف انتهى بسقوط قرطبة ثم تعرضت لذكر الظروف السيئة التى لقي فيها ابن هود مصرعه بالمريه وتولية ابنه اللواتى حكم شرق الأندلس، ثم انتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن سقوط قواعد شرق الأندلس فى أيدي النصارى فعرضت مقدمات سقوط بلنسية على أيدي جايىمى الأول ممثلة فى معركة أنيشة التى كانت كارثة على المسلمين، ثم تحدثت عن خلفاء المتوكل ابن هود على مرسية، وانتزاع أبى بكر عزيز بن خطاب فيها، ثم إسناد أهل مرسية ولايتها إلى زيان بن مردنيش، مفصلاً الأحداث التى وقعت فى هذه الفترة حتى سقوط المدينة نهائياً فى أيدي النصارى، ثم اختتمت هذا الفصل بالإشارة إلى سقوط جزيرة منورقة فى أيدي النصارى وانتهاء الوجود الاسلامى نهائياً فى منطقة شرق الأندلس.

أما الباب الثانى ويتضمن أربعة فصول فقد أفردته لدراسة بعض مظاهر الحضارة فى شرق الأندلس، وأول هذه الفصول يتعلق بالحياة الاجتماعية، وذلك لعرض صورة المجتمع فى هذه المنطقة وهى صورة أساسية لتسجيل أحد الجوانب الرئيسية للحضارة فى شرق الأندلس، فتحدثت عن طبقات المجتمع المدنى وانتقلت إلى دراسة بعض المظاهر الاجتماعية كالزى والأطعمة والأشربة وفن الموسيقى والغناء ، كما تناولت بالدراسة الاحتفالات والأعياد. ففىما يتعلق بطبقات مجتمع شرق الأندلس كان طبيعياً أن أتعرض للحديث عن الفئات المختلفة وبمعنى أصبح الطوائف التى كانت تشكل المجتمع وتتفاعل فيه وتتواصل وأعنى بها العناصر المؤلفة للسكان ومنهم العرب والبربر وبعض العناصر التى تنتمى إلى أصول صقلية وأيبانية وهم المولدون وأخيراً العجم أو المستعربون. وفيما يتعلق بالأزياء فقد ميزت بين أزياء العامة وأزياء الخاصة فى فصلى الصيف والشتاء، موضحاً الأثر العراقى الذى رسخ فى الأندلس منذ عصر الإمارة الأموية فى فن الأزياء، متناولاً بالدراسة الأنواع المختلفة للملابس الرجال والنساء والتعريف بكل نوع منها. أما الأطعمة والأشربة فقد صنفت الأنواع المعروفة منها فى هذا العصر على قدر الإمكان ومعظمها مغربية وإن كان بعضها ما يزال يحتفظ بالتقليد

الشرقي الذي يته زرياب في الأندلس.

وعندما تطرقت إلى فن الغناء والموسيقى رأيت من الأنسب أن أمهد له بدراسة عامة عن هذا الفن منذ عصر الدولة الأموية مبيّناً تأثير زرياب في رسوخ التأثيرات الفارسية في هذا المجال في أرض الأندلس وتمازجها مع الفنون المحلية والمغربية ثم تطورها بعد ذلك تطوراً أكسبها أصالة تتجلى بوضوح فيما وصلنا عن أخبار هذا الفن في المصنفات العربية، وأوضحت ازدهار هذا الفن في شرق الأندلس منذ عصر ابن مردنيش معدداً أسماء الآلات الموسيقية المعروفة آنذاك. ثم اختتمت هذا الفصل بدراسة الاحتفالات والأعياد في شرق الأندلس ومظاهر ذلك وأهم هذه الأعياد عيدي الفطر والأضحى والاحتفال بليلة القدر وعيدى النيروز والمهرجان مع بيان أصل هذين العيدين ومظاهر الاحتفال بهما.

وعالجت الجانب الاقتصادي وهو في اعتباري أهم مقومات الحضارة على الإطلاق في الفصل الثاني فقدمت دراسة تفصيلية تتضمن الحرف الثلاثة التي يعتمد عليها الانتاج البشري بوجه عام وعليها تتوقف النظم الاقتصادية دعامة الحياة الإنسانية وال عمران المدني وأعني بها الزراعة في المجال الأول، ثم الصناعة القائمة على الزراعة وعلى استثمار الخامات المعدنية المتوافرة في شرق الأندلس وأخيراً التجارة سواء الداخلية أو الخارجية والبحرية أو النهرية وما يتعلق بذلك بالضرورة من دراسة الأسواق والسلع والعملات. أما الزراعة وهي حرفة ازدهرت في شرق الأندلس بوجه خاص لسهولة أرضه وخصب تربته ووفرة مياهه ودفع مناخه وهي المقومات الأساسية لهذه الصناعة فقد أوليتها جانباً رئيسياً من اهتمامي. ومهدت دراستي بعرض أوضحت فيه مدى اهتمام علماء الأندلس بصناعة الفلاحة معرفاً بأهم المصنفات التي وضعت في هذا المجال في العصر موضوع الدراسة.

ثم تحدثت عن العوامل التي ساعدت على تقدم الانتاج الزراعي في المنطقة، وانتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن أهم المحاصيل الزراعية في إقليم شرق الأندلس كالزيتون والكروم والبرتقال وما إلى ذلك ثم تحدثت عن نظم الري في الإقليم والمواسم الزراعية مشيراً إلى محكمة الماء التي انفردت بها المنطقة كإرث عن مسلمي شرق الأندلس.

وفي مجال الصناعة فقد بدأت بدراسة أهم الصناعات القائمة على الانتاج الزراعي ومنها صناعة السفن واستخراج الدقيق واستخراج الزيوت وصناعة الورق، ثم تحدثت عن الصناعات القائمة على الطبيعة الجغرافية والمواد الخام كالخزف بوجه خاص ولأهمية هذه الصناعة في منطقة شرق الأندلس، قدمت تصنيفاً لمجموعات

صناعات الخزف مع عرض نماذج لكل مجموعة، ثم تحدثت عن مراكز صناعة الخزف في شرق الأندلس وأهمها بطرنة ومنيشة والجزائر الشرقية، ثم تحدثت عن صناعة النسيج والبسط الصوفية والوطاء وصناعة آلات الصفر والحديد وصناعة الحصر المستخرجة من نبات الحلفاء وصناعة الزجاج.

ثم عالجت الجانب الثالث من جوانب النشاط الاقتصادي وهو التجارة التي ترتبط بالانتاجين الزراعى والصناعى ارتباطاً وثيقاً، وبدأت الحديث عن طرق التجارة الداخلية والخارجية سواء البرية أو النهرية أو البحرية، ثم انتقلت إلى الحديث عن حركة المصادر والوارد وتشتمل على التجارة الداخلية والخارجية وأهم السلع الواردة أو الصادرة.

ثم انتقلت إلى دراسة التنظيمات الاقتصادية، فتحدثت عن الأسواق والقياسيات والفنادق في مدن شرق الأندلس، ثم تحدثت عن العملة لما لها من أهمية في التبادل التجارى، فقدمت لها بدراسة موجزة عن تطور العملة في الأندلس حتى عصر الموحدين مع ذكر نماذج لعملات شرق الأندلس في عصر ابن مردنيش وعصر الموحدين وعصر ما بعد الموحدين، وأخيراً تحدثت عن أنواع المكايل والموازين المستخدمة في هذا العصر وأوجه استخدامها.

وأفردت الفصل الثالث للحياة العلمية، وفيه تعرضت للحديث عن الموقف الإيجابى الذى وقفه الموحدون من الحركة الفكرية ودعمهم للحياة العلمية فى مختلف حواضر الخلافة الموحدية، ومن هذا المنطلق تناولت بالدراسة جانبين رئيسيين من العلوم، الأول العلوم الدينية التى تخدم مباشرة القرآن الكريم والحديث الشريف مصدرا التشريع الإسلامى، وتشمل علم القراءات والتفسير وعلوم الحديث والفقه، وفى مجال هذا الجانب من العلوم أوضحت الازدهار الكبير الذى أصابته شرق الأندلس مدللاً على ذلك بأسماء كثير من العلماء الذين برزوا فى كل فرع منها مع ذكر أهم مصنفاتهم فيها. أما القسم الثانى فأعنى به العلوم اللغوية وآدابها، وهى علوم خضعت فى تطورها لطبيعة منطقة شرق الأندلس وتأثرت بالظروف السياسية والاجتماعية وتطور الأوضاع الحضارية فى المنطقة المذكورة وصلاتها مع بقية الأندلس من جهة والعالم الإسلامى من جهة ثانية، وقد أوضحت فى هذه الدراسة أن المشرق الإسلامى كان المصدر الرئيسى لهذه العلوم الأدبية منه استمدت صورها ومنه اقتبست قوالبها المعبرة مؤكداً أن بيئة شرق الأندلس أثرت بدورها وبشكل واضح على ما وصل إلينا من الانتاج الأدبى لهذا العصر، وقد تعرضت للحديث عن أغراض الشعر التى تناولها شعراء هذه المنطقة مع ذكر نماذج من أشعارهم، كما تحدثت عن الموشحات والأزجال وأتيت

ببعض الأمثلة لكل منهما ثم عن النثر الفنى وتطوره منذ عصر الخلافة حتى العصر موضوع الدراسة مع الإشارة إلى صوره المتعددة من رسائل ديوانية وإخوانيات ومفاخرات معرقاً بأبرز من برع من كتاب النثر الفنى فى شرق الأندلس وعلى الأخص شخصيتين برزتا فى هذا الفن هما : أبو المطرف بن عميرة، وعبد الله بن الآبار، ثم تعرضت لدراسة علوم اللغة ثم علمى التاريخ والجغرافيا وبعض العلوم العقلية كالطب والرياضيات والهندسة وهى علوم تألفت فى سماء شرق الأندلس مشيراً إلى من برز فى هذه العلوم من علماء المنطقة وأهم مصنفاتهم.

أما الفصل الرابع والأخير من الباب الثانى فقد خصصته لدراسة العمران المدنى وأهم آثاره الباقية فى شرق الأندلس، وبدأت دراستى بالحديث عن التوسع العمرانى فى الإقليم ويشمل ذلك مدينتا مرسية وهى مستحدثته وبلنسية القاعدة الهامة فى إقليم شرق الأندلس، كما تعرضت فى هذه الدراسة لذكر النطاق العمرانى فى المدينتين وأعنى به الأسوار وما يفتح فيها من أبواب وما يدخل فى نطاقها من منشآت دينية ومدنية وما يقع خارجها من أرباض ومتنزهات. ثم انتقلت إلى دراسة الآثار الباقية فقسمتها قسمين، الآثار المدنية من حمامات وقصور وشواهد قبور وصهاريج مياه وقناطر وقد قمت بدراستها تاريخياً وأثرياً، ثم الآثار الحربية وتتعلق بدراسة ما تبقى من أسوار وقلاع ومن بينها حصن Olocau، والزيادات الموحدية فى قلعة شاطبة، وآثار برج بوفيا، وبقايا برج موسى، وآثار برج ترياس.

وانتهيت من دراستى عن شرق الأندلس بخاتمة ضمنيتها أهم النتائج التى توصلت إليها على مدى الرسالة.

ولا يسعنى فى النهاية إلا أن أتقدم بوافر الشكر والامتنان والعرفان بالجميل لأستاذى الجليل الأستاذ الدكتور عبد العزيز سالم الذى لا أجدر الكلمات المناسبة التى أعبر بها لسيادته عن شكرى وامتنانى وعظيم تقديرى فقد كان هذا الكتاب فى أصله رسالة تقدمت بها للحصول على درجة الدكتوراة من جامعة الإسكندرية تحت إشراف سيادته، لقيت خلال إعدادها من سيادته كل رعاية وحسن توجيه، فقد أفسح لى صدره للسؤال والاسترشاد وحسن الاستفادة طوال فترة إشرافه على رسالتى، وفتح لى مكتبته العامرة، ولم يخل علىّ بأكثر الكتب ندرة وأعظمها فائدة، وكثيراً ما قام سيادته بالاتصال بالجهات العلمية الأسبانية لتسهيل مهمتى فى جمع المادة العلمية وإعداد بحثى، هذا كله فضلاً عن الرعاية الاجتماعية والمادية والأدبية التى حبانى بها أثناء إقامتى بأسبانيا، ولهذا فلست مبالغاً فى القول بأن كلمتى تعجز عن التعبير لسيادته عن شكرى وعظيم تقديرى، حفظه الله وأدامه ذخراً للعلم وأهله.

هذا ولا يفوتني أن أقدم شكرى وتقديرى أيضاً للسيد الأستاذ فرانسيسكو أوتراى مدير المعهد الأسباني العربى للثقافة بمديرى الذى قدم لى مشكوراً منحة دراسية لمدة ثلاث سنوات مكنتنى من السفر إلى أسبانيا لجمع المادة العلمية المتعلقة ببحثى وزيارة المعالم الأثرية بشرق الأندلس، وتفضل بتذليل بعض الصعاب التى واجهتنى هناك وأولانى من رعايته وعنايته الشئ الكثير، فجزاه الله عنى خير الجزاء.

ثانياً - عرض لأهم مصادر البحث:

اعتمدت فى بحثى على عدد من المصادر العربية المتخصصة فى التاريخ والجغرافيا والأدب والتراجم والحسبة، بعضها معاصر للأحداث، وبعضها الآخر متأخر عن العصر موضوع الدراسة، ولكنها تتضمن نقولاً عن مصادر معاصرة لأحداث الفترة التى أعالجها ولم تصل إلينا، وهنا تكمن القيمة العلمية الحقيقية لهذه المصادر. كذلك اعتمدت على عدد كبير من المراجع الحديثة المتخصصة بعضها مصنفات عربية أو معربة لباحثين محدثين تعمقوا فى دراسة تاريخ الأندلس ببحوثهم العديدة أمثال الأستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابيه «عصر الطوائف» و«تاريخ الأندلس فى عصر دولتى المرابطين والموحدين» والدكتور أحمد مختار العبادى فى كتابه «دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس»، والدكتور السيد عبد العزيز سالم فى كتابه «المغرب الكبير وقرطبة حاضرة الخلافة والمرية قاعدة أسطول الأندلس»، ومعظم المراجع الحديثة لمصنفين أسبان ومستعربين أثروا المكتبة العربية الأندلسية ببحوثهم القيمة التى أسهمت فى تفسير كثير من القضايا التاريخية الغامضة أمثال كوديرا فى بحثه «انهيار دولة المرابطين وسقوطها» وأوى ميراندا فى بحوثه العديدة عن المرابطين والموحدين وجسار ريميرو فى دراسته عن مرسية الإسلامية وليفى بروفنسال فى بحوثه المجموعة بكتاب «الاسلام فى المغرب والأندلس»، وفيما يلى عرض لأهم مصادر الرسالة:

أولاً - المصادر التاريخية:

١ - ابن عذارى المراكشى، (ت : فى أواخر القرن السابع الهجرى)

«البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب»

يعتبر بحق أهم مصادر تاريخ المغرب والأندلس فى العصر الإسلامى وحتى الفترة التى تسبق نهاية دولة الموحدين عرض فيه هذا التاريخ منذ الفتح الإسلامى حتى ما بعد منتصف القرن السابع الهجرى سنة ٦٦٤هـ، إذ اعتمد فيه على مصادر مغربية وأندلسية ترجع إلى القرنين الخامس والسادس الهجريين، أشار إليهما ابن عذارى فى مؤلفه ونخص بالذكر منها البكرى وابن الرقيق والقضاعى وابن شرف وابن صاحب

وقد اعتمدت في بحثي بوجه عام على القسم الخاص بعصر دولتي المرابطين والموحدين (٢)، فقيما يتعلق بعصر دولة المرابطين أفدت كثيراً من النصوص التي أوردها البيان وتعلق بتفاصيل حملة ألفونسو الأول الطويلة على بلنسية والأندلس، والحملة الأغرغونية على شرق الأندلس، فضلاً عما تضمنه من أخبار عن يحيى بن غانية ودوره في استرداد مدينة مكننسة، وما أورده من أخبار عن معركة الرينسل أو أرينسل، كما أفدت من نصوصه المتعلقة بعصر الموحدين في تنبؤي للأخبار المتعلقة باستيلاء الموحدين على مدينتي بياسة وأبد، واستيلاء ابن مردنيش على مدينة جيان ثم استيلاء ابن غانية على بجاية وعن الصراع بين بني غانية والموحدين في أفريقية والأحداث المترنة باسترداد الموحدين لميوقرة، وخضوع محمد بن إسحاق بن غانية للموحدين، وموقف الموحدين من يحيى بن إسحاق بن غانية في أفريقية كما اعتمدت على هذا القسم اعتماداً خاصاً فيما يتعلق بأخبار جزيرة ميوقرة قبل خضوعها نهائياً للموحدين، وذكر ولاية الموحدين عليها. كما اعتمدت في الفصل الرابع من القسم الخاص بالتاريخ السياسي على الروايات التي أوردها المؤرخين معاصرين للأحداث فقدت كتبهم أمثال ابن صاحب الصلالة، لا سيما الروايات التي كان يحتويها السفر الأول والثالث من مصنفه وتعلق بسيرة هلال بن محمد بن سعد بن مردنيش وأخيه غانم في ظل البلاط الموحدي، وأخبار أبي الحجاج يوسف ابن مردنيش، وغزوة شنترين واستشهاد الخليفة أبو يعقوب، وتمرد والي مرسية أبي حفص عمر الملقب بالرشيد وسيrote في مدينة مرسية حتى مصرعه، وكذلك ما تضمنه من أخبار عن موقعة الأرك وموقف الموحدين من الهجمات الأغرغونية، وعن موقعة العقاب هذا وقد اعتمدت في الفصل الخامس من هذه الرسالة على ما أورده من أخبار عن ابن هود، وامتداد نفوذه على قواعد الأندلس الوسطى والجنوبية، وعن مصير السيد أبي زيد والي بلنسية السابق من قبل الموحدين بالإضافة إلى أخبار محمد بن يوسف بن الأحمر والأحداث التي سبقت سقوط مدينة مرسية في أيدي القشتاليين. والقيمة التاريخية للبيان المغرب تتمثل في تفاصيله الدقيقة للأحداث التاريخية المعاصرة لموضوع الرسالة هي تفاصيل عاصرها ابن عذارى أو اعتمد فيها على مصادر أكثر معاصرة لها، هذه التفاصيل تسلط أضواء كافية على تلك الفترة المضطربة التي تعرض فيها شرق الأندلس لثورات شعبية وحملات

(١) انظر: السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج٢، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦، ص ١٠١.

(٢) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، القسم الخاص بالمرابطين، بيروت، لبنان،

١٩٦٧، والقسم الثالث تحقيق الأستاذ أبي ميراندا وآخرون، تطوان، ١٩٦٠.

عسكرية وغزوات متعددة متشابكة ومتداخلة فيما بينها وبفضلها استطعت أن أوضح الصورة الحقيقية لأحداث المنطقة.

٢ - ابن الخطيب (لسان الدين)، (ت : ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) :

يعتبر ابن الخطيب آخر كاتب عظيم أنجبته الأندلس^(١) ، لكثرة مصنفاته التاريخية والأدبية وأهم هذه المصنفات التي اعتمدت عليها في دراستي ما يلي :

- كتاب «أعمال الأعلام فيمن برع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام»^(٢) :

كتاب هام في تاريخ المغرب والأندلس وإن كانت تغلبه السرد العام دون التفاصيل وهو لهذا لا يرقى إلى مستوى كتاب البيان. وقد اعتمدت في بحثي على القسم الأندلسي من هذا الكتاب لارتباطه الوثيق بدراستي موضوع الدراسة، ويتضمن روايات هامة تتعلق بشجرة ابن هلال على ابن مردنيش وانتزاعه بينشكله وباستيلاء ابن مردنيش على مدينتي بسطة ووادي آش فضلاً عن تفاصيل لها قيمتها وأبعادها التاريخية تتعلق ببعض الشخصيات البارزة في عصر دولتي المرابطين والموحدين بشرق الأندلس.

- كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة» :

ويقع في أربع مجلدات^(٣)، وهو كتاب تراجم لشخصيات أندلسية لها علاقة بتاريخ غرناطة، وتتضمن هذه التراجم بعض الأخبار المتناثرة هنا وهناك تتعلق بأحداث شرق الأندلس، وقد استطعت أن أستخرج من هذه التراجم حقائق تاريخية هامة أفادتني كثيراً في تأريخي لأحداث المنطقة إبان مرحلة الانتقال بين دولتي المرابطين والموحدين،

(١) بالنشأ (جوناثان)، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٢٥٩، وراجع أيضاً حول ترجمة ابن الخطيب، المرجع السابق، من ص ٢٥٢ إلى ص ٢٥٧، السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج٢، من ص ١٠٥ إلى ص ١٠٧، أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب العربي الأسباني، مقال بمجلة عالم الفكر، من ص ٦٥ إلى ص ٦٧، محمد بن أبي بكر التطواني، ابن الخطيب من خلال مكتبته، تطوان، ١٩٥٤.

(٢) ابن الخطيب (لسان الدين)، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، تحقيق الأستاذ ليفي برونفسال، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦.

(٣) ابن الخطيب (لسان الدين)، الإحاطة في أخبار غرناطة، أربعة مجلدات، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان، القاهرة، المجلد الأول، الطبعة الثانية، ١٩٧٣، المجلد الثاني، ١٩٧٤، المجلد الثالث، ١٩٧٥، المجلد الرابع، ١٩٧٧.

ومنها خبر يشير إلى طلب تقدم به وإلى بلنسية في عصر المرابطين محمد بن يوسف يدر إلى الأمير على ابن يوسف ليوجه إليه يحيى بن غانية ليعاونه في صد الخطر الأرغوني المتواصل على ثغور بلنسية يضاف إلى ذلك أن من بين التراجم الهامة التي أوردها المؤلف تراجم لشخصيات وليقة الصلة بشرق الأندلس مثل ابن مرديش ونائبه ابن همشك، هذا إلى جانب إشارات واردة في ثنايا التراجم لها صلة باسترداد الموحدون لثغر المريه، وأهم ما استخرجته من تراجم الإحاطة التأريخ للحركة العلمية في شرق الأندلس في عصر الموحدين.

٣- ابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي)، (ت في أواخر المائة السادسة)؛

«تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين»، السفر الثاني، تحقيق الأستاذ عبد الهادي التازي، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٤.

هو أندلسي الأصل من بلدة باجة ولذلك نسب إليها، عاش في المائة السادسة وتوفي في أواخرها (١). ولم يصل إلينا من مؤلفاته سوى السفر الثاني من تاريخ المن بالإمامة الذي حققه الدكتور عبد الهادي التازي، كذلك لم يصل إلينا مصنفه الآخر بعنوان: «تاريخ في ثورة المريدين» الذي أشار إليه ابن صاحب الصلاة في سياق حديثه عن ثورة محمد بن سعد بن مرديش في شرق الأندلس.

ويعتبر كتاب «المن بالإمامة» من أهم مصادر تاريخ دولة الموحدين، فضلاً عن كونه مرجعاً لمعظم المؤرخين المتقدمين منهم والمتأخرين الذين اعتمدوا عليه في نقولهم مثل ابن القطان في كتابه نظم الجمان، وابن عذارى في البيان المغرب (٢)، الذي يعتمد في تأريخه منذ سنة ٥٣٤هـ اعتماداً كاملاً على ابن صاحب الصلاة، كما اعتمد عليه ابن الأبار في كل من كتابيه «الحلة السيرة» و«التكملة»، وابن أبي زرع في كتابه «روض القرطاس»، وابن الخطيب في «الإحاطة»، وابن خلدون في «العبر»، والمقرئ في «نفخ الطيب»، وابن سماك العاملي في «الحلل الموشية»، ولا شك أن لهذه النقول قيمة كبيرة إذا اعتبرنا أن معظم الكتاب مفقود وأنه لم ينشر منه سوى السفر الثاني فقط بينما ضاع سفراء الأول والثالث. وما يرفع من قيمة كتاب «المن» والنصوص التي نقلت من سفره المفقودين أن المؤلف كان معاصراً للأحداث

(١) راجع ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٢٦ من مقدمة المحقق والدراسة التي عقدها في هذا الشأن.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٧، ص ٤٨، من مقدمة المحقق.

الموحديّة وأنه عاين مواضعها في معظم الأحوال ولهذا اعتمدنا علينا اعتماداً خاصاً واعتبرناه المصدر الأساسي لتاريخ شرق الأندلس في عصر الموحدين خاصة ما يتعلق بابن مردنيش وأسرته.

٤ - عهد الواحد المراكشي، (ت : النصف الثاني من القرن السابع الهجري)

كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» (١)

يعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر التاريخية لعصر الموحدين لأن مؤلفه نشأ في كنف هذه الدولة وعاصر كثيراً من أحداثها، ومن هنا يمكننا أن نثق في كثير مما أورده من روايات، هذا إلى جانب قيمته الأدبية العظمى النابعة من كونه مصدراً تاريخياً وحضارياً عاماً للأندلس (٢).

وقد استعنت بهذا المصدر في كثير من فصول الرسالة واعتمدت عليه بوجه خاص عندما تعرضت للحديث عن الصراع بين ابن مردنيش وبين الموحدين.

٥ - ابن القبطان (أبو الحسن علي بن محمد الكتامي الفاسي) : (ت : ٦٢٨ هـ - ١٢٣٠ م)

جزء من كتاب «نظم الجمان في أخبار الزمان» (٣)

هو قطعة من موسوعة ضخمة في تاريخ المغرب والأندلس وتتضمن هذه القطعة أخبار ثلاث وثلاثين عاماً (من سنة ٥٠٠ هـ - ٥٣٢ هـ) حققها الأستاذ الدكتور محمود علي مكي. وترجع أهمية هذه القطعة إلى أنها تضمنت نقولاً من كتب ضاعت نص ابن القبطان عليها، نخص بالذكر منها كتاب : «فضائل المهدي لأبي القاسم المؤمن المغربي»، وكتاب لابن الراعي لم يورد عنوانه، وكتاب «المغرب في أخبار محاسن أهل المغرب» لليسع بن عيسى بن تجزم بن اليسع الغافقي، و«المقياس في أخبار المغرب والأندلس وفاس» لعبد الملك بن موسى الوراق وغيرها، فضلاً عن أن علاقة المؤلف بالخليفة المرتضى واشتغاله في ديوان رسائله مكتبته من الاطلاع على

(١) عهد الواحد المراكشي، كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب، الطبعة الأولى، تحقيق الأستاذان محمد

سميد العريان ومحمد العربي العلمي، مصر، ١٩٤٩.

(٢) انظر : سالم، المرجع السابق، ج ٢، صفحات ١٠٨، ١٠٩، أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي

الأندلسي، بيروت، ١٩٧٢، ص ١٥٠، ليفي برونسفال، مجموع رسائل موحديّة من إنشاء كتاب الدولة

المؤمنية، رباط الفتح، ١٩٤١، ص ١ من مقدمة المحقق.

(٣) ابن القبطان (أبو الحسن علي)، نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق الدكتور محمود علي مكي، الرباط،

١٩٦٤.

بعض الوثائق الرسمية للدولة وهي وثائق نقل بعضها في مؤلفه^(١).

وبالرغم مما اتسمت به كتابة ابن القبطان من تعصب ظاهر لدولة الموحدين ومهاجمته خصومها بشدة، إلا أن الكتاب يضم تفاصيل موسعة لكثير من أحداث الأندلس والمغرب مرتبة على السنين استفدت منها كثيراً في دراستي للتمهيد التاريخي والتأريخ السياسي لمنطقة شرق الأندلس.

٦ - كتاب الحلال الموشيه في ذكر الأخبار المراكشية، لمؤلف مجهول^(٢) (القرن الثامن الهجري):

تم تصنيف هذا الكتاب في ١٢ ربيع الأول ٧٨٣هـ/١٣٨١م في عهد كل من السلطانين، محمد الخامس - الفنى بالله - ملك غرناطة، وأبى زيد ابن عبد الرحمن بن أبى الحسن المريني ملك المغرب.

أما عن مؤلف هذا الكتاب فقد اختلف في ذكر اسمه ويمكننا أن نرتب فيما يلي المراحل التي انتهت إلى التوصل لمعرفة اسمه الحقيقي:

١ - نسب هذا الكتاب خطأ إلى ابن الخطيب عندما نشر في تونس لأول مرة في سنة ١٣٢٩هـ/١٩١٠م.

٢ - اتفق بعض المؤرخين المغاربة المحدثين على نسبته إلى أديب مالقى اسمه عبد الله بن أبى المعالى ابن السماك العاملى، كان ما يزال حياً في أواخر القرن الثامن الهجري^(٣).

٣ - رجحت الدكتورة ماريّا خيسوس روبيرا في بحث نشرته بالفرنسية بعنوان «حول مؤلف محتمل للدولة الحلال الموشية» رجحت فيه نسبة هذا الكتاب إلى نفس كاتب «الزهرات المنثورة في نكت الأخبار الماثورة» وهو محمد بن أبى المعالى بن السماك المالقى^(٤).

(١) راجع ابن القبطان، نفس المصدر، ص ٢، من مقدمة المحقق.

(٢) كتاب الحلال الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول، والمنسوب خطأ لابن الخطيب، طبعة تونس، ١٩١٠م.

(٣) انظر: مقال الدكتور أحمد مختار العبادى، دراسة حول كتاب الحلال الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مجلة تطوان، العدد الخامس، ١٩٦٠، ص ١٣٩، وانظر أيضاً ما أورده نفس المؤلف من لبث بهؤلاء المؤلفين المغاربة بنفس المرجع وانظر له أيضاً: في التاريخ الباسى والأندلسى، ص ٥٥٦.

(4) Maria Jesus Rubiera: Sur un possible auteur de la chronique intitulée Al-Hulal al - mawsiyya fi dikir al - ajbar al - marrakusiyya, en II coloquio Hispano - Tunecino de estudios Arabes (Madrid - Barcelona), Mayo, 1972. 143-146.

٤ - أخيراً قدم الأستاذ الدكتور محمود على مكى دراسة تحليلية دقيقة وقيمة قدم بها لكتاب «الزهرات المنشورة في نكت الأخبار المأثورة» عالج فيها الحجج التي ساقتها الدكتورة ماريا خيسوس مع دراسة مقارنة لكتايب «الزهرات» وكتاب «الحلل»، رجح فيها الدكتور مكى أن الكتايب يمكن أن ينسب لمؤلف واحد وهو محمد بن أبى العلاء محمد بن سماك العاملى^(١).

وأما ما كان الأمر فإن كتاب «الحلل الموشية» بما يتضمنه من تفصيلات تاريخية عن عصر دولتى المرابطين والموحدين يعتبر من المصادر التاريخية الهامة للفترة موضوع الدراسة، فهو يتناول تاريخ المغرب والأندلس فى عصر المرابطين والموحدين حتى نهاية خلافة عبد المؤمن بن على بشىء من التفصيل، وقد اعتمد مؤلفه فى تصنيفه على مصادر معاصرة ذكر أسماء أصحابها منهم ابن الصيرفى وابن القطان وغيرهما، كما اعتمد فى عصر الموحدين على رواية أبى بكر الصنهاجى الملقب بالبليذق^(٢). وقد استفدت من هذا المصدر فى دراستى للباب الأول من الرسالة وهو القسم المتعلق بالتاريخ السياسى.

٧ - ابن أبى زرع (أبو الحسن على بن محمد بن أحمد بن عمر)، (ت: فى منتصف القرن السابع الهجرى)؛

«الأيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس»^(٣)؛

مؤلف هذا الكتاب كان كاتباً للسلطان أبى سعيد عثمان المرينى (٧١٩-٧٣١هـ)، ولعل اشتغاله فى هذا المنصب يسر له توفير المادة التاريخية لمصنفه الذى يعتبر لذلك من أهم مصادر تاريخ المغرب والأندلس وأكثرها ثقة إذ ضمنه المؤلف أخباراً هامة لتاريخ المغرب الأقصى من سنة ١٤٥هـ إلى سنة ٧٢٦هـ، تتعلق بالدول الخمس التى تتابعت على حكم المغرب فى هذه الفترة، وهى دولة الادارسة ودولة زناتة (المغراويين، اليفرانيين)، ثم دولتى المرابطين والموحدين ثم دولة بنى عبد الحق أو بنى مرين^(٤)، ولكن الأخبار التى أوردها المؤلف لتاريخ الحقب السابقة على عصره

(١) انظر : محمود على مكى، الزهرات المنشورة فى نكت الأخبار المأثورة لابن سماك العاملى، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، العدد العشرون، ١٩٨٠، ص ٣٥-٤١.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ج-٢، ص ١١٠.

(٣) ابن أبى زرع (أبو الحسن على)، الأيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق كارل يوسن توبيرغ، أبساله، ١٨٤٣م.

(٤) أحمد مختار العبادى، فى التاريخ العباسى والأندلسى، ص ٥٥٧، ٥٥٨.

يشوبها الخطأ في كثير من الأحيان^(١). ومع ذلك فإن ما أورده عن أخبار الدولة الموحدية ودولة بنى عبد الحق يدعو للثقة والاطمئنان. وقد أفادنى هذا المصدر فى دراستى لكثير من جوانب التاريخ السياسى وعلى الأخص فى الفصل الرابع. ثانياً - كتب الجغرافيا:

١ - العذرى (أحمد بن عمر بن أنس)، (ت: ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م)؛

(ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك،^(٢)؛

مصدر هام عن جغرافية الأندلس وتاريخها، أولى مؤلفه منطقة شرق الأندلس اهتماماً خاصاً، والقسم المحقق من الكتاب على حد قول محققه لا يتجاوز عشر حجوم الكتاب^(٣). والكتاب يجمع بين المادة الجغرافية والأخبار التاريخية المتعلقة ببعض المواضيع التى يتعرض لها المؤلف، على النحو الذى انتهجه جغرافيو الأندلس الأوائل أمثال الرازى والبكرى.

وقد اعتمدت اعتماداً خاصاً على نصوبه الخاصة بتاريخ مدن شرق الأندلس مثل تدمير وبلنسية وشاطبه ولورقة إذ تتضمن إلى جانب المادة الجغرافية والتاريخية نصوباً هامة عن خصائص هذه المدن وما تتميز به من صناعات أو التاج زراعى أو ما اشتهرت به اقتصادياً على الرغم من أن المؤلف كان يعيش فى القرن الخامس أى قبل أن يتدخل المرابطون عسكرياً فى الأندلس، فإن النصوب التى أوردها أفادتني كثيراً فى دراستى عن العمران وعن بعض مظاهر الحياة الاقتصادية.

٢ - الإدريسى (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك بن إدريس) المعروف بالشريف الإدريسى (ت: ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م)

«صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس»، مأخوذة من كتاب «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق»^(٤)

يعتبر هذا الكتاب أعظم مصدر جغرافى عربى خاصة القسم الخاص بالأندلس

(١) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ج ٢، ص ١١٥.

(٢) العذرى (أحمد بن عمر بن أنس)، المعروف بالدلائى، (ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق الدكتور عبد الحزى الأهواى، مدريد، ١٩٦٥ م.

(٣) انظر: نفس المصدر، ص ١ من مقدمة المحقق.

(٤) الإدريسى (الشريف) محمد، «صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس»، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، نشره دى غوبه ودوزى، لندن، ١٨٦٦ م.

والكتاب غنى بمادته الجغرافية والملاحظات الاجتماعية والاقتصادية التي سجلها المؤلف كشمرة لمشاهداته أثناء سفراته ورحلاته عبر مدن الأندلس لا سيما ما يتعلق بمدن شرق الأندلس، وفيها يذكر شهرة كل موضع في الانتاج الصناعى والزراعى وقد يتعرض للذكر أسواقه ومتاجره أو أسواره وقصابه وحماماته وجامعه وكثيراً ما يصف بعض هذه الآثار الأمر الذى يمين الباحث على دراسة التطور العمرانى لمدن المنطقة وإعادة تصور ما كانت عليه فى العصر موضوع الدراسة، وإن كان الإدريسى يسبقه بما يقرب من نصف قرن، والواقع أن التطور الحضارى لا يساير قط التطور التاريخى لأن الأول بطيء والثانى سريع ولهذا يعمل دائماً على المصادر الجغرافية فى تصوير الجانب الحضارى لأن نصوصها خاصة القرية من العصر الذى نتناوله بالبحث يمكن تطبيقها إلى حد ما على نفس العصر ذلك أن القيم الحضارية ترسخ عادة لقرون عديدة. وهكذا كان نزعة المشتاق عظيم الفائدة لدراستى عن العمران المدينى فى شرق الأندلس.

٣ - الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم)، (ت: ٨٦٦هـ / ١٤٦١م)؛

كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار^(١)

وعلى الرغم من أن الحميرى من رجال القرن التاسع الهجرى إلا أن مصنفه يعتبر ركيزة هامة للباحثين فى تاريخ الأندلس وحضارتها فى العصر الاسلامى^(٢)، فهو إلى جانب كونه معجماً جغرافياً لمدن الأندلس، يتضمن أخباراً تاريخية هامة لها اتصال مباشر بتاريخ المدن التى أوردتها وأهم الأحداث المتعلقة بها، نقلها من مصادر قديمة ضاعت وعيبه أنه لا ينص على هذه المصادر التى نقل منها. وقد اعتمدت على هذا الكتاب فى كثير من موضوعات الرسالة لا سيما ما يتعلق بالمواقع التى دارت فى شرق الأندلس كموقعة فحص الجلاب واستيلاء الموحدى على جزر البليار هذا بالإضافة إلى ما أوردته عن الأسباب التى أدت إلى تأسيس مرسىه، وعرضه الرائع لخصائص هذه المدينة وشهرتها فى الصناعات المختلفة وما تتميز به بطنسيه وشاطبه من صناعات فنيه أعانتنى كثيراً فى إعداد القسم الخاص بالصناعات بالرسالة، زد على ذلك أن الكتاب باعتباره معجماً لأسماء مواضع الأندلس يضم أسماء أماكن وحصون وقلاع فى شرق الأندلس ورد ذكرها فى كثير من النصوص التاريخية، ولهذا اعتمدت على كتاب الحميرى فى التعريف بها وذكر تفاصيل عنها.

(١) الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم)، صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب

الروض المعطار فى خبر الأقطار، نشر الأستاذ ليفى بروفنسال، القاهرة، ١٩٣١م.

(٢) البتية، تاريخ الفكر الأندلسى، ص ٣١١.

٤ - كتاب «جغرافية الأندلس وتاريخه» لمؤلف مجهول^(١) :

كالتشأن في كتب الجغرافية الأندلسية يشتمل هذا الكتاب على مادة جغرافية وتاريخية في آن واحد، نهج مصنفه في تأليفه نهج الرازي، ففصل المادة الجغرافية عن المادة التاريخية، كما اعتمد في كتابته على نقول من مؤرخين سابقين صرح كثيراً بأسمائهم، مثل أحمد بن أبي الفياض والدلائى (أبى العدرى)، وابن القوطية وابن حيان والرازي وغيرهم^(٢)، ومن خلال المعلومات التي أوردها يتضح لنا أن المؤلف رجل عارف بما يكتب مطلع على أحوال الأندلس ملم بتاريخه، وقد أفدت كثيراً من كتاباته عن جغرافية شرق الأندلس.

٥ - ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله)، (ت: ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) :

«معجم البلدان»^(٣) :

معجم جغرافى للعالم الاسلامى، يمتاز باتساع مادته وغزائتها ويجمع بين المادة التاريخية والأدبية والجغرافية، وتظهر فيه معرفة مؤلفه الواسعة بالعالم الاسلامى من خلال تجارته وأسفاره فى أنحاءه، فلقد زار مصر والشام والعراق وفارس وبلاد العرب وبلاد ما وراء النهر بالإضافة إلى اعتماده على النقل من كتب التاريخ والجغرافية بأمانة، مسنداً كل ما ينقله من مادة جغرافية إلى مصادرها الأصلية^(٤)، وقد اعتمدت عليه، خاصة فى التمهيد الجغرافى وفى تحقيق بعض المواضع الأندلسية بالإضافة إلى تنبى للغلات الزراعية فى إقليم شرق الأندلس.

ثالثاً - كتب التراجع :

١ - أبو بكر الصنهاجى المكنى بالبليدق :

كتاب «أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين»^(٥) :

من المصادر الهامة التى تحدثت بتفصيل عن سيرة المهدي بن تومرت مؤسس

(١) جغرافية الأندلس وتاريخه، لمؤلف مجهول، نسخة مصورة بالمعهد المصرى للدراسات الإسلامية من المخطوطة المحفوظة بالخزانة العامة بالرباط.

(٢) انظر : حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٧م، ص ٥٩٩.

(٣) ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله)، معجم البلدان، الطبعة الأولى، المجلد الخامس، القاهرة، ١٣٢٣هـ.

(٤) انظر : السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، دار الكاتب العربى، ١٩٦٧، ص ١٩٦.

(٥) أبى بكر الصنهاجى المكنى بالبليدق، كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، تحقيق الأستاذ لطفى بروفنسال، باريس، ١٩٢٨.

الدعوة الموحدية وقيام دولة الموحدين في المغرب بل المصدر الوحيد المعاصر لحركة المهدي ودعوته وقيام دولة الموحدين، لا سيما إذا وضعنا في الاعتبار أن البيذق كان يرافق المهدي صاحب الدعوة الموحدية وكان تلميذاً له يأخذ عليه ورفيقاً يصاحبه في رحلاته ويعمل في خدمته، حضر معظم غزوات المهدي ومعركة البحيرة، كما رافق عبد المؤمن في غزوه للمغربين الأقصى والأوسط، وأهمية الكتاب وقيمته تكمن في أن مؤلفه كان شاهد عيان شهد أهم الأحداث وعاصرها ووصفها بدقة وأمانة، كما أنه سجل في كتابته صورة واضحة من المجتمع الذي عاش فيه فكتابه على هذا النحو وثيقة هامة للباحث الاجتماعي الذي يعني بدراسة الحياة اليومية في المغرب في العصر الذي نتناوله بالدراسة. وقد أفدت من هذا الكتاب في دراستي التمهيدية كما اعتمدت على بعض رواياته في دراستي للباب الأول من الرسالة.

٢ - ابن الآبار (محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي)؛ (ت: ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م)؛

كتاب «الحلة السيرة» (١)

أى الثوب المخطط كناية عما يتضمنه من أدب وشعر وتاريخ (٢)، والكتاب يتناول أخبار المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن السابع الهجري، وهو مقسم إلى قرون مستقلة تبدأ بالقرن الأول الهجري وينتهي الكتاب إلى المائة السابعة. وقد استفدت مما أورده من روايات عن بعض أمراء شرق الأندلس في دراستي للباب الأول.

- كتاب «الكملة لكتاب الصلة» (٣)؛

وهو تكملة لصلة ابن بشكوال، لا يعدو تراجم لأسماء علماء الأندلس وأمرائها مرتبة حسب حروف الهجاء، وقد استفدت كثيراً من هذا الكتاب في دراستي للباب الحضاري وخاصة في الفصل الذي عقده لدراسة الحركة العلمية، كما استخرجت من تراجم لعلماء الأندلس مادة طيبة عن أسماء المواضع والحصون والمساجد بقواعد شرق الأندلس.

(١) ابن الآبار (محمد بن عبد الله)، كتاب الحلة السيرة، الجزء الثاني، نشر الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣.

(٢) انظر: أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص ٥٤٥.

(٣) ابن الآبار (محمد بن عبد الله)، كتاب التكملة لكتاب الصلة، جزءان، طبع بمناية كوديره وزيدان، مجلد، ١٨٨٦.

٣ - ابن عبد الملك (محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري) ، (ت: في أواخر محرم ٧٠٣هـ) :

- كتاب «الدليل والتكملة لكتايب الموصول والصلة» :

هو تذييل لكتاب «تاريخ علماء الأندلس» لابن الفرضي وكتاب «الصلة» لابن بشكوال، وتتمة لمن جاء بعد ابن بشكوال من أئمة، واستدراك لما فاته وفات ابن الفرضي^(١). والكتاب يضم تراجم لرجال الأندلس ومن رحل إليها من المغاربة والمشاركة حتى أواخر القرن السابع الهجري مرتبة على حروف المعجم، وكان يقع في تسعة أجزاء، سبعة منها لأهل الأندلس، واثنا للغرباء الداخلين إليها، وأخيراً يضم الكتاب تراجم للنساء الأندلسيات والمغربيات اللاتي زرن الأندلس^(٢). ولقد ضاعت بعض أجزاء هذا الكتاب، وأما الأجزاء الباقية فيقوم على نشرها الأستاذان إحسان عباس ومحمد شريفة وقد ظهر منها حتى الآن:

- السفر الأول - القسم الأول والثاني، بتحقيق الدكتور محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت.

- بقية السفر الرابع، بتحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

- السفر الخامس، القسم الأول والثاني، بتحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

والكتاب من الموسوعات الهامة التي تهتم بتراجم الرجال استفدت منه كثيراً في دراستي للحركة العلمية بشرق الأندلس.

رابعاً - كتب الرحلات:

١ - ابن سعيد المغربي (أبو الحسن علي بن موسى):

- «المغرب في حلي المغرب»^(٣) :

هذا المؤلف ضاع معظمه ولم يبق منه سوى أجزاء بسيطة تضمنت تراجم لبعض الشخصيات البارزة في الأندلس وأشهر الشعراء والكتاب حتى نهاية عصر

(١) انظر: ابن عبد الملك، الدليل والتكملة لكتايب الموصول والصلة، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ص ٢٢، ص ٥١ من مقدمة المحقق.

(٢) انظر: أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ٥٤٧.

(٣) ابن سعيد المغربي (أبي الحسن علي بن موسى)، المغرب في حلي المغرب، الجزء الثاني، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ١٩٥٣.

الموحدين، أعاننى كثيراً فى دراستى لسير الشخصيات الهامة فى شرق الأندلس، فضلاً عما تضمنه من معلومات جغرافية عن قواعد شرق الأندلس على جانب كبير من الأهمية، وقد حفظ لنا المؤرخون المتأخرون أجزاء كثيرة من هذا الكتاب، أمثال ابن خلدون فى تاريخه، والمقرئ فى نفخ الطيب لاسيما فى الجزء الأول منه.

- اختصار القدح المعلق فى التاريخ المجلد (١) :

ترجم فيه لطائفة مختارة من علماء وأدباء الأندلس الذين قضى جلهم خلال النصف الأول من القرن السابع الهجرى فى صميم الفترة التى أعالجها فى دراستى ولهذا اعتمدت عليه فى دراستى عن الحركة العلمية.

٢ - التجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد)، (ت: ٧١٨هـ) :

- رحلة التجانى، (٢) :

ينتسب مؤلفه إلى بيت التجانى من أعظم بيوتات تونس، الذين ينحدر أصلهم إلى قبيلة «تجان» المغربية، وأول من وفد منهم إلى تونس هو أبو القاسم التجانى، إذ اشترك فى الجيش الذى سيره عبد المؤمن الموحدى لفتح أفريقية، ثم استقر التاجينيون فى تونس وساهموا بنصيب وافر فى النهضة العلمية التونسية فى عصر الموحدين ثم فى عصر بنى حفص (٣).

وقد سجل التجانى فى رحلته التى رافق فيها شيخ الموحدين الأمير أبو يحيى زكريا بن الليثاني، الذى قربه إليه وصحبه معه عندما عزم على تفقد بلاده استعداداً لمحاربة الأسبان المفتصبين لجزيرة جربة وذلك فى سنة ٧٠٩هـ تلك الرحلة التى استمرت نحو عامين وثمانية أشهر وبضعة أيام، سجل فيها التجانى مشاهداته فى البلاد الأفريقية بأسلوب سلس ودون انطباعاته عن العمران التونسى فى المدن والقرى مع التعريف بأخبارها وذكر النابهين من أبنائها (٤).

(١) ابن سعيد المغربى (أبى الحسن علي بن موسى)، اختصار القدح المعلق فى التاريخ المجلد، تحقيق الأستاذ إبراهيم الإيبارى، القاهرة، ١٩٥٩.

(٢) التجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد)، رحلة التجانى، تقديم الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، تونس، ١٩٥٨.

(٣) راجع مقدمة الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب لرحلة التجانى صفحات ٣-١٩م؛ وانظر أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص ٢٣٣.

(٤) راجع: حسن حسنى عبد الوهاب، صفحات ٤١، ٤٢، ٤٣ من المقدمة، وانظر أيضاً: سالم، نفس المرجع، ص ٢٣٤.

خامساً - كتب الأدب:

١ - مجموع رسائل موحدية^(١):

عبارة عن مجموعة من الوثائق من إنشاء كتاب الدولة الموحدية، تتكون من سبعة وثلاثين رسالة، ذات قيمة من الناحية التاريخية والأدبية، فأما من الناحية التاريخية فإنها تعرض لنا بياناً مباشراً دقيقاً منظمًا لأهم الحوادث التي وقعت في أيام الموحدين. من تدابير سياسية وإصلاحات اجتماعية وغزوات وانتصارات حربية، وأما من الناحية الأدبية فإنها تفيد كل من يدرس الأدب الموحدي لما تتضمنه من نماذج شتى عن فن الكتابة الديوانية في هذا العهد، وقد أمكنني أن أستنبط من هذه الرسائل حقائق هامة تتعلق بكثير من حوادث شرق الأندلس وأن أستشهد بها ورد فيها لتأكيد حدوثها.

٢ - ابن المرباط (محمد بن علي بن عبد الرحمن المرادي):

كتاب «زواهر الفكر وجواهر الفکر»، مخطوط الأسكوريال رقم ٥٢٠:

ترجع أهمية هذا الكتاب لما احتواه من معلومات تاريخية هامة، فضلاً عما تضمنه من عدد كبير من الرسائل الديوانية والإخوانيات من القرن السابع الهجري على جانب كبير من الأهمية. ويضم المخطوط ١٩٤ لوحة، وأول من أشار إلى محتوياته الفزيرى الذى اعتمد على ما جاء فى الصفحة الأخيرة من المخطوط^(٢)، وفيها يرجع تاريخ الفراغ من تأليفه بقاس إلى عام ٧٢١هـ/١٣٢١م، وتابعه فى هذا الرأى نيرنبرج^(٣)، وقام المستشرق الأسباني ملتشور أنطوليا^(٤) بعمل تحليل موجز ودقيق عن المخطوط مسلطاً الأضواء من جديد على أهميته التاريخية، وعلى الأخص من الناحية الأدبية، كما أعطى بروكلمان^(٥) موجزاً عن المخطوط مع الاهتمام بتحقيق اسم مؤلفه أو مصنفه وعنوان المخطوط، ومكان وجوده ورقمه فى مكتبة

(١) مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة الموحدية، اعتنى بإصدارها الأستاذ ليفى بروفنسال،

رباط الفتح، ١٩٤١.

(2) Casiri (M); Bibliotheca Arabico-Hispano Escorialensis, t. I, Madrid, 1970, p. 151.

(3) Derenbourg (H); Les manuscrits Arabes de - L'Escorial, T. I, Paris, 1884, pp. 347-348.

(4) Antuna (M); Notas sobre dos Mss escorialensis mal catalogdos, en Al-Andalus, VI, 1941, p. 276.

(5) Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literatur, Supplementhan, II, Leyden, 1937-1949, p. 331.

الأسكوريال، وبين أن المخطوط الحالي لا توجد له نسخة أخرى مسجلة في أى مركز علمي آخر، وأن مخطوط الأسكوريال هو النسخة الوحيدة المعروفة حتى الآن. وينقسم المخطوط إلى ثلاثة أقسام منفصلة:

القسم الأول : بعنوان «كتاب زواهر الفكر وجواهر الفقر»، مؤلفه أو مصنفه، محمد بن علي بن عبد الرحمن المرادي المشهور بابن المراتب وكنيته أبو العلاء.

القسم الثاني : يتألف من جزئين ممتوري الأول والآخر، عبارة عن قطع شعرية أدبية تشابه أسلوب ابن المراتب، ويعتقد الأستاذ أميليو لوبث أن هذه القطع تنتمي إلى كتاب مفقود إلى اليوم أمر بتأليفه سعيد بن حكيم صاحب منورقة، وكان يحمل عنوان «كتاب لباب الألباب من نظم الشعراء ونثر الكتاب»، مجهول المؤلف حتى الآن، وأن مؤلفه كان شخصية قريبة من البلاط المنورقي (١).

القسم الثالث : عبارة عن آخر لوحة من المخطوط، وهي منفصلة، عبارة عن ورقة كتبها المؤلف وخصصها لعالم سبته عبد المهيم بن محمد بن عبد المهيم الحضرمي، تتعلق بكتاب أبو بكر محمد بن إدريس القيوشى، معنون «كتاب في عروض الذوبتين» وهي ورقة مكتوبة في فاس ليلة الجمعة ١٧ رمضان ٧٢١هـ.

ولقد استفدت من الرسائل الواردة في هذا المخطوط في دراستي للفصل الخامس من الباب الأول وتتضمن أخباراً عن إمارة المتوكل بن هود وعلاقاته بحاكم بلنسية زيان بن مردنيش، كما ذلت رسالتى بقطعتين من المخطوط كملاحق.

سادساً - الموسوعات:

١ - المقرئ (أبا العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي الميث)، (ت: ١٠٤١هـ / ١٦٣١م)، «نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب» (٢).

يعتبر هذا الكتاب من المصادر الأساسية في تاريخ الأندلس والمغرب، وتنحصر

(1) Emilio Molina Iopéz, Murcia y el Levante español en el Siglo XIII (1224-1226) A través de la correspondencia oficial personal y diplomática, Granada, 1978, p. 9.

(٢) المقرئ (أبا العباس أحمد)، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الشيخ محمد محيي

الدين عبد الحميد، عشرة أجزاء، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٤٩.

أهميته لما تضمنه من روايات هامة للمؤلفات سابقة ضاع معظمها، وقد أورد مصنفه هذه الروايات في موسوعته في غير نظام ولكن في دقة وضبط حسن (١).

وقد استفدت كثيراً من هذا الكتاب ولا سيما فيما أوردته من أخبار عن ولاية الموحدين على ميورقة، ورواية المخزومي في كتابه المفقود عن كائنة ميورقة، وعن أسباب غزو النصاري لها، ثم ما أوردته من أخبار عن ثورة أبي عثمان سعيد بن حكم القرشي بمنورقة وانتزاعه بها بعد سقوط جزيرة ميورقة في يد خايي الأول، وكذلك فيما أوردته من معلومات جغرافية، وتراجم لبعض علماء شرق الأندلس، انتفعت بها في دراستي للباب الحضاري.

٢ - القلقشندي (أبو العباس أحمد)، (ت: ٨٢١هـ)

«صبح الأعشى في صناعة الإنشاء»:

كتبه في ديوانه الإنشاء بمصر، ورتبه على مقدمة وعشرة فصول وخاتمة (٢)، والكتاب بحق يعتبر موسوعة علمية وأدبية كبيرة لا غنى عنها للباحثين.

وقد استفدت من الرسالة الواردة فيه في دراستي للفصل الخامس من الباب الأول وتتضمن رغبة زيان بن مردنيش في عقد السلم مع فرناندو الثالث ملك قشتالة واستعداده للتفاوض مع من يرسله إليه ملك قشتالة من رجاله لهذا الغرض. وما أوردته القلقشندي من معلومات عن صناعة الإنشاء وخاصة في عصر الموحدين أعانني في دراستي للباب الحضاري.

سابعاً - المراجع الأجنبية والعربية:

كما اعتمدت على العديد من المراجع الأجنبية والعربية التي تتصل بموضوع رسالتي وأهمها:

- كتاب «تاريخ بلنسية الإسلامية» للأستاذ امبروزو أويشي ميراندا:

ويقع في ثلاثة أجزاء، الأول يتناول تاريخ بلنسية من الفتح الإسلامي حتى عصر ملوك الطوائف، والثاني، يدور حول مشروعات السيد القمبيطور التوسعية في منطقة شرق الأندلس ابتداءً من استيلائه على بلنسية إلى أن استعادها المرابطون،

(١) بالنياء، تاريخ الفكر الأندلسي، ص ٣٠٣.

(٢) راجع، عبد اللطيف حمزة، القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، مجموعة أعلام العرب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦١، ص ٦٠، وانظر أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ١٩٩.

والثالث، يعالج تاريخ بلنسية فى ظل دولة المرابطين وعلاقات مسلمى بلنسية بمسيحيى أرغون وموقف يحيى بن غانية والى بلنسية من قبل المرابطين حتى نهاية سيطرة المرابطين عليها، كما يتضمن دراسة تفصيلية عن دولة محمد بن سعد بن مردنيش فى شرق الأندلس خلال خمسة وعشرين عاماً وعن دخول بلنسية فى طاعة الموحدين والمصير الذى آل إليه آخر ولاتها الموحدين ثم التزاء زيان بن مردنيش بحكم بلنسية حتى سقوطها نهائياً فى يد جايمنش بن بطره (خايمى الفاخ) ملك أرغون.

ويعتبر هذا الكتاب من المراجع الرئيسية لدراسة مدينة بلنسية الاسلامية بوجه خاص وشرق الأندلس بوجه عام، وترجع أهميته إلى اعتماد مؤلفه على مصادر عربية أسبانية معاصرة بحكم معرفته باللغة العربية الأمر الذى ساعده كثيراً على مقابلة النصوص العربية والأسبانية، وأكثر ما اعتمدت من هذا الكتاب الهام الجزء الثالث الذى أفدت منه فى الرجوع إلى بعض المدونات المسيحية المتعلقة بموضوع الدراسة.

- كتاب «اضمحلال وإهيار دولة المرابطين فى أسبانيا»، للمستعرب الأسباني فرانسيسكو كوديرا؛

يتناول هذا الكتاب تاريخ دولة المرابطين فى أسبانيا، والثورات التى اشتعلت ضدهم، كما يؤرخ للإمارات المستقلة التى قامت على إثر هذه الثورات، ومنها إمارة محمد بن سعد بن مردنيش وعلاقاته بالنصارى، واتساع ملكه فى شرق وجنوب الأندلس، مع عرض لتاريخ جزر البليار فى ظل المرابطين، فضلاً عن بحثه الذى خصصه لدراسة العملات فى عصر المرابطين. وقد أفادنى هذا المرجع فى دراستى لفترة عصر الطوائف الثانى لاسيما عندما تعرضت لدراسة عصر محمد بن سعد بن مردنيش، كما اعتمدت عليه كذلك فى دراستى عن النظام النقدى وذلك فى الباب الذى خصصته للنظم الحضارية.

- كتاب «مرسبة الاسلامية» للأستاذ جاسبار ريمبرو؛

يتناول تاريخ مدينة مرسية منذ الفتح الاسلامى حتى نهاية دولة الاسلام فى الأندلس، اعتمد فيه على أهم المصادر العربية المعروفة فى زمن تأليفه للكتاب وعلى الرغم مما بذله المصنف من جهد فى إبراز أحداث مرسية فى العهد الاسلامى الأخير إلا أن تشابه الأحداث وقلة ما اعتمد عليه من المصادر العربية أدى كل ذلك إلى اضطراب عرضه وخاصة وقد فاته الرجوع إلى بعض المصادر التى كانت مخطوطة زمن تأليفه لهذا الكتاب وقدر لها أن تتحقق فى تاريخ لاحق كالجزم الثالث من «البيان المغرب» لابن عذارى بتحقيق الأستاذ أوثنى ميراندا وآخرين وكتاب «المن بالإمامة» لابن صاحب الصلاة وهى مصادر سلطت كثيراً من الأضواء على تاريخ مرسية الاسلامية، ومع ذلك فالكتاب دراسة هامة لا غناء عنها للباحث فى تاريخ شرق

الأندلس بوجه عام وإسهام لا شك فيه في تاريخ أسبانيا الإسلامية، وقد رجعت إلى آرائه الشخصية واجتهاداته في تفسير بعض الأحداث وذلك عندما تعرضت لدراسة التاريخ السياسي للمنطقة موضوع الدراسة.

ومن أهم المراجع العربية الحديثة، كتاب «عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، العصر الثالث»، القسم الأول والثاني للأستاذ محمد عبد الله عنان؛

يعتبر هذا الكتاب من أهم المؤلفات العربية التي تناولت التأريخ لهاتين الدولتين بإسهاب، وترجع أهميته إلى أن مؤلفه لم يعتمد فقط على العديد من النصوص العربية المعاصرة مطبوعة كانت أم مخطوطة، وإنما تجاوز ذلك إلى المدونات المسيحية الأمر الذي أتاح له فرصة المقابلة والنقد والتحليل، بالإضافة إلى اهتمامه بمعاينة مواقع الأحداث واعتماده على المشاهدة سواء في المغرب أو الأندلس مما كان له أكبر الأثر في تيسير فهم طبيعة الحروب الأهلية التي جرت خلال هذه الفترة ودوافعها وبواعثها.

وقد استعنت بهذا المرجع في دراستي للباب السياسي، هذا بالإضافة إلى أنه أرشدني إلى بعض الكتب المخطوطة مثل مخطوط «زواهر الفكر وجواهر الفقر» لابن المرابط، الذي يعالج الفترة الأخيرة من أحداث شرق الأندلس على الأخص في أوربولة ومرسية ويتضمن عدداً من الرسائل الرسمية التي تستنبط منها بعض الأخبار التاريخية الهامة.

— كتاب «دراسات في تاريخ المغرب والأندلس» للأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادي؛

هو مجموعة بحوث في تاريخ المغرب والأندلس تتضمن العديد من النصوص التاريخية، ويعتبر بحثه عن دولتي المرابطين والموحدين من أهم ما كتب في المصنفات العربية الحديثة لاعتماده على كثير من المخطوطات العربية بالإضافة إلى تحليله العميق للنصوص العربية بحيث أمكنه أن يستخرج منها مادة علمية أصيلة.

— كتاب «قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس» للأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم؛

يقع في جزئين، ويتناول أولهما تاريخ مدينة قرطبة في العصر الإسلامي. حتى سقوطها نهائياً في أيدي القشتاليين، وثانها يتناول تخطيط وعمران مدينة قرطبة مع دراسة في جوانب الحضارة القرطبية المختلفة. ويعتبر هذا الكتاب أول مصنف عربي في دراسة تاريخ مدينة قرطبة وحضارتها في العصر الإسلامي، وهو كتاب أقل ما يقال عنه أنه جامع مانع تعرض فيه المؤلف أستاذي الدكتور السيد عبد العزيز سالم إلى دراسة كل تاريخ أسبانيا الإسلامية في شخص قرطبة كما عالج عدة موضوعات حضارية

على مستوى الأندلس كلها كفن الغناء والموسيقى، وقد اعتمد على العديد من المصادر العربية المعاصرة والمدونات المسيحية والمراجع الأسبانية المتخصصة مما أتاح لى فرصة الاستفادة من مادته الغزيرة سواء فى معالجتي للباب السياسى أو الحضارى من البحث.

== كتاب «تاريخ المغرب العربى الكبير» لنفس المؤلف:

موسوعة ضخمة، تعرف بتاريخ المغرب الاسلامى كوحدة مرتبطة بذاتها لأول مرة فى المكتبة العربية فهو يتناول تاريخ المغرب العربى منذ الفتح الاسلامى حتى نهاية دولة الموحدين، تاريخياً وحضارياً، ويعتبر بحق من المراجع الهامة فى تاريخ المغرب والأندلس التى لا يستغنى عنها أى باحث فى تاريخ المغرب والأندلس، وقد فتح هذا المؤلف أفاقاً كثيرة أمام الباحثين والدارسين على السواء..

دراسة قهيدية

أولا : المسرح الجغرافى .

أ - كورة بلنسية .

ب - كورة تدمير .

ج - الجزائر الشرقية

ثانياً : حقائق تاريخية عن دولة الموحدين .

مفهوم شرق الأندلس :

يعنى شرق الأندلس أو Levante من الناحية الجغرافية المناطق الأسبانية التى تطل على ساحل البحر المتوسط الغربى ^(١)، أى المنطقة الممتدة من طركونة شمالا حتى مرسية ولورقة جنوباً والتي تشمل كور طرطوشة وبلنسية وقدمير وجزر البليار، بما فى ذلك كورتى سهلة بنى رزين والشغر حسبما يشير ابن سعيد ^(٢).

وقد بدأ هذا المفهوم يتحدد سياسياً منذ انتزاع الفتيان العامرية بهذه المنطقة بعد تغلب البربر على حكومة قرطبة وانتهاء الدولة العامرية بمقتل عبد الرحمن شنجول وتربع محمد بن هشام المهدي على كرسى الخلافة فى جمادى الآخرة سنة ٣٩٩هـ/فبراير ١٠٠٩م، فتوجس الفتيان العامريون غدر البربر، ففروا من قرطبة إلى شرق الأندلس، وانتزى فحولهم مثل مجاهد الذى غلب على مدينة دانية والجزائر الشرقية ولبيب الذى غلب على طرطوشة، ومظفر ومبارك على بلنسية، ونبيل على شاطبة، وخيران العامرى بالإضافة إلى المرية على مرسية وأريولة.

ومنذ ذلك الوقت خرجت منطقة شرق الأندلس من سيطرة الحكومة المركزية وقامت بها دويلات الطوائف، حتى أننا نجد اصطلاح شرق الأندلس يتداول فى كتابات المؤرخين ^(٣). واستمر الحال كذلك حتى استطاع المرابطون فرض سيطرتهم تماماً على هذه المنطقة، فاحتلوا مرسية فى شوال سنة ٤٨٤هـ/أكتوبر ١٠٩١م، ثم استولوا فى العام التالى ٤٨٥هـ على شاطبة وشقورة ودانية، وبدخول المرابطين بلنسية فى شهر شعبان سنة ٤٩٥هـ/مايو ١١٠٢م انضوت هذه المنطقة نهائياً تحت سيطرتهم.

وكانت منطقة شرق الأندلس فى عصر المرابطين تشمل ولاية بلنسية ومرسية والجزائر الشرقية التى كانت دائماً تلحق به، وكان يتبع بلنسية سائر الأراضى والقواعد الممتدة شمالاً من شاطبة حتى الشغر الأعلى، ومن البحر غرباً حتى قونقة، ويتبع مرسية سائر الأراضى والقواعد الواقعة على ضفتى نهر شقورة والممتدة جنوباً حتى ولاية المرية، أما الجزائر الشرقية فكانت تشتمل على جزر ميورقة ومنورقة وبابسة وفومنتيرا. أ - كورة بلنسية:

تشغل هذه الكورة السواحل الشرقية لشرق الأندلس شرقى كورة تدمير

(١) انظر مادة Levane فى :

Enciclopedia Universal, Tomo XXX, Espasa Calpe, Madrid - Barcelona, p.

291.

(٢) انظر : المغرب فى حلى المغرب، ج٢، ص ٢٩٢.

(٣) راجع على سبيل المثال، العدرى، ترصيع الأخبار، ص ١٦؛ ابن خلدون، المعبر، ج٤، ص ٣٥٥.

(مرسية)، وكانت على حد قول الرازي : كورة كبيرة، جمعت البر والبحر والزرع والضرع، وأرضها سهلية خصبة تخترقها في بعض المواضع سلاسل جبلية، وتشقها الأنهار، وتضم هذه الكورة عدداً من المدن العظيمة الجبلية نذكر منها : بلنسية Vale-ncia، وشاطبة Jativa، ومريبطر Murviedro^(١)، ودانية Denia، وجزيرة شقر Jucar^(٢) وأندة Onda^(٣).

وسنلقى فيما يلي بنظرة مختصرة عن جغرافية كل مدينة، نعرف بها اسماً وموقعاً جغرافياً ومناخاً وبيئة.

١ - مدينة بلنسية (قاعدة الكورة) :

إحدى قواعد شرق الأندلس في العصر الإسلامي، أسسها الرومان عام ١٣٨ ق.م^(٤) وكان موضعها عند الفتح الإسلامي فرضه (مرسى صغير) تسمى فالنشيا^(٥)، ثم عريت إلى بلنسية وأصبحت تسمى في المصادر الإسلامية بهذا الاسم.

تقع مدينة بلنسية على مسافة تبعد ثلاثة أميال من ساحل البحر المتوسط وسط سهل زراعي خصب يمتد بمحاذاة ساحل البحر وترويه شبكة من القنوات تتفرع من النهر الأبيض المعروف Guadalaviar أحد فروع نهر توريا Turia المسمى بالنهر الأحمر وينبع من جبال أرطونة ويصب في البحر المتوسط شمالي بلنسية^(٦)، وبلنسية ميناء

(١) راجع نص الرازي في : Provençal (L.), La description de L'Espagne D'Ahmad Al-Razi, en Al-Andalus, Vol. XIII, Fascel, 1953, pp.71-72.

ابن غالب (محمد بن أيوب)، نص أندلسي جديد، قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، تحقيق الدكتور لطفي عبد البديع، فصله، مطبعة مصر، ١٩٥٦، ص ١٦، المقرئ (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج١، تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى، مطبعة المعادة، ١٩٤٩م، ص ١٢٨، ص ١٢٩، حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مدريد، ١٩٦٧، ص ٦٦.

(٢) العذري (أحمد بن عمر بن أنس)، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٥، ص ١٩.

(٣) الحميري (أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم)، صفة جزيرة الأندلس متخية من كتاب الروض المعطار، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٣٧، ص ٣١.

(٤) ليفي بروفنسال، مادة بلنسية في دائرة المعارف الإسلامية، ج٤، ص ١١٢٨.

(٥) حسين مؤنس، فجر الأندلس، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ٢٧٥.

(٦) أبو الفدا (عماد إسماعيل بن محمد بن عمر)، تقويم البلدان، تحقيق de Slane, Reinaud باريس ١٨٤٠، ص ١٧٩، الحميري، المصدر السابق، ص ٤٧-٥٥؛ تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي، مدريد، ١٩٧١، ص ٨٤، ص ٢، ليفي بروفنسال، مادة بلنسية في دائرة المعارف الإسلامية، ج٤، ص ١١٢٨.

يسمى جراو Grao^(١)، ونظراً لما تميزت به من شهرة زراعية أطلق عليها عدة تسميات وردت في كتب الجغرافية الأندلسية فعرفت بـ «مدينة التراب» لاتساع محاراتها ومزارعها وخصوبة أرضها^(٢). وكان الأندلسيون يطلقون عليها «مطيب الأندلس» لكثرة بساتينها^(٣) كما عرفت بـ «بستان الأندلس»^(٤). وتمتد غرب مدينة بلنسية سلسلة جبلية وفي جنوبها يوجد جبل لقنت، وفي جنوبها أيضاً بحيرة مشهورة تسمى Al Bufera تقع بالقرب من ساحل البحر^(٥).

ومناخ مدينة بلنسية طيب معتدل، ومتنزهاتها وبساتينها وجنتاتها كثيرة تدور بها من البر، وجميع أقاليمها وجبالها مغروسة بأنواع الأشجار^(٦)، ونبت بها الزعفران ويزرع الأرز بكثرة^(٧). ومن أكثر بساتينها ورياضها شهرة منية الرصافة ومنية ابن أبي عامر^(٨). وقد أسهب الشعراء وأبدعوا في وصف بساتينها وجنتاتها^(٩).

(١) ليفي بروفنسال، نفس المرجع، ج٤، ص ١١٢٨.

(٢) العذري، المصدر السابق، ص ١٧، ابن غالب الأندلسي، المصدر السابق، ص ١٦.

(٣) المقرئ، المصدر السابق، ج٤، ص ٢٠٧.

(٤) ابن سعيد المغربي (أبي الحسن علي بن موسى)، كتاب الجغرافيا، تحقيق الأستاذ إسماعيل العربي، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٧٠، ص ١٦٧.

(٥) ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج٢، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ١٩٥٣، ص ٢٠٧.

(٦) ابن غالب، المصدر السابق، ص ١٦، العذري، المصدر السابق، ص ١٨.

(٧) مخطوط جغرافية الأندلس لمؤلف مجهول، صورة بالمعهد المصري للدراسات تحت رقم م ٣٦، عن الأصل الموجود بالخزانة العامة بالرباط، لوحة ٣٤/٣٣، وراجع أيضاً: العذري، المصدر السابق، ص ١٧.

(٨) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٩٨، المقرئ، المصدر السابق، ج٤، ص ١٦٨، ومنية الرصافة كما وصفها ابن سعيد، مناظر وبساتين ومياه جارية وهي من أبدع متفرجات الأندلس، انظر: (ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٤٢)، وتقع جنوب شرقي بلنسية، راجع: الحميري، المصدر السابق، ص ٧٨، والترجمة الفرنسية، ص ٩٧، هـ ١.

(٩) يقول الشرف أبو جعفر بن مسعدة الفرناطي:

هي الفردوس في الدنيا جمالا . لسكنها وكارهاها البعوض
انظر: المقرئ، المصدر السابق، ج٤، ص ١٦٨.
وفيها يقول الشاعر ابن الزقاق البلنسي:

بلنسية - إذا فكرت فيها . وفي آياتها - أسنى البلاد
وأعظم شأدهي منها عليها . وأن جمالها للعين بادى
كسأها رثها ديباج حسن . لها علمان من بحر ووادى

وتتضمن بلنسية عدداً كبيراً هائلاً من القرى والأقاليم يقال أنها تبلغ ١٦٠٠ قرية في كسل قرية جامع ومنبر^(١)، وقد ذكر العذري عدداً من هذه القرى والأقاليم هي حسب ما ذكره : إقليم المنارة، إقليم أنده، إقليم شرب، إقليم زناته، إقليم كنانة، إقليم شلنيه، إقليم أولهيل، إقليم لبايه، ولها رتبة أولية، إقليم سمح، إقليم شارقة، جزء الساحل، جزء قلييره، جزء الجزيرة، جزء البيضاء وفلنار، جزء الإسناد، جزء فحس شاطبة، جزء براكانة، جزء مدينة التراب، جزء مصمودة، جزء بنى غتيل، جزء قسطنطينية، جزء فقيرة، جزء مسل، جزء مريبطر^(٢). وهناك قرى أخرى أورد ذكرها ابن سعيد وابن الأبار والحميري نذكر منها: قرية المنصف وتقع غربها^(٣)، وقرية بطرنة^(٤)، وقرية بثة^(٥)، وقرية

= انظر : المقرئ، المصدر السابق، ج١، ص ١٦٨. ويقول ابن سعيد عن والده عن مروان ابن عبد الله بن عبد العزيز

كان بلنسية كعاب : . . . ولبسها سندس أخضر

إذا جثتها سمرت لنفسها : . . . بأكمامها فهي لا تظهر
انظر : المقرئ، نفس المصدر والجزء والصفحة، بينما ينسب ياقوت الحموي هذه الأبيات إلى أبي العباس أحمد بن الزقاق في وصف بلنسية، راجع : معجم البلدان في معرفة المدن والقرى والخراب والعمار والسهل والمرعى في كل مكان، المجلد الثاني، القاهرة، ١٢٣٣، ص ٢٧٩.

وفي وصف بلنسية يقول الشاعر أبو عبد الله محمد الرصافي :
خليلي ما للبلد قد عبت نشرًا : . . . وما لرؤوس الركب قد رجحت سكرًا

هل المسك مقترباً بدرجة الصبا : . . . أم القوم أجروا من بلنسية ذكراً
انظر : ياقوت الحموي المصدر السابق، ج٢، ص ٢٧٩.

وفي أبيات لأبي الحسن بن حريق المرسي :

بلنسية نهاية كل حسن : . . . يحدث صبح في شرق وغرب

فإن قالوا محل غلاء سعر : . . . ومسقط دمنتي طعن وضرب

نقل هي جنة حلفت رباها : . . . بمكروهين من جوع وحرب

انظر : ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٧٩.

(١) مخطوط جغرافية الأندلس لمؤلف مجهول، لوحة رقم ٣٤/٣٣.

(٢) برصميص الأخيار، ص ٢٠، والإقليم عند الأندلسيين هو القرية الكبيرة الجامعة، راجع : ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج١، ص ٣٢٩.

(٣) ابن الأبار (أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي)، التكملة لكتاب الصلة، ج١، طبع بعناية كوديرا وزيدان، مجرط، ١٨٨٦، ص ٨٣، ترجمة ٢٧٧ (طارق بن موسى ابن يعيش ابن الحسين بن علي بن هشام الهزومي، ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٥٤).

(٤) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٥٥، المقرئ، المصدر السابق، ج١، ص ١٧٠.

(٥) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٦١، وراجع أيضاً : الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة)، بغية الملتصق في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق كوديرا وزيدان، مجرط، ١٨٨٤، ص ١٨٢، ترجمة ٤٤٢، (أحمد عبد المولى البتي).

ألبونست^(١)، وقرية شون^(٢)، وقرية قشتليون^(٣)، وفريسة بقانة^(٤)، وقرية أسيلة^(٥) وبريانة^(٦) وقرية بنبول^(٧)، ومن ثغورها : أبيشة^(٨) وركانه^(٩). ومن حصونها: حصن منيطة^(١٠)، وحصن كواليه^(١١)، وحصن شريون^(١٢)، وحصن شارقة ويقال لها قلعة الأشراف^(١٣)، وحصن طرته^(١٤).

ومن أعمال كورة بلنسية:

٢ - مدينة شاطبة:

من الاسم الروماني Saetabis^(١٥)، وهي مدينة أزلية^(١٦)، تقع على بعد ثلاثين ميلا إلى الجنوب الغربي من بلنسية^(١٧)، ولها حصن يضرب به المثل في الحصن

-
- (١) الحميري، المصدر السابق، ص ٥٦.
 (٢) ابن الآبار، التكملة، ج١، ص ٢٠٢، ترجمة ٩٠٧ (محمد بن حسين بن عبد الله بن عمر ابن هرون بن موسى)، و ص ٢٣٩، ترجمة ٧٧٨ (محمد بن يوسف بن غزلون بن مطرف).
 (٣) ابن الآبار، التكملة، ج١، ص ٢٣، ترجمة ٥٣ (حسن بن عبد العزيز بن إسماعيل التجيبي).
 (٤) نفس المصدر والجزء، ص ١٦٤، ترجمة ٥٨٠ (محمد بن أحمد بن غالب بن خلف بن محمد ابن عبد الله اللخمي).
 (٥) نفس المصدر والجزء، ص ٢٥٥، ترجمة ٨٢٣ (محمد بن جعفر بن أحمد بن خلف بن حسين ابن مأمون الأموي).
 (٦) نفس المصدر والجزء، ص ١٦٩.
 (٧) نفس المصدر والجزء، ص ٢٨٢، ترجمة ٨٧٣ (محمد بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز البندري).
 (٨) نفس المصدر والجزء، ص ١٦٧، ترجمة ٨٥٠ (محمد بن عبد العزيز بن محمد بن هذيل البندري).
 (٩) ابن الآبار، التكملة، ج١، ص ٤٨، ترجمة ١٦١، (خلف بن أحمد بن داود الصديقي).
 (١٠) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ج٢، ص ٣٦١، المقري، المصدر السابق، ج١، ص ١٧٠.
 (١١) ابن الآبار، المصدر السابق، ج١، ص ٨٧، ترجمة ٢٨٩.
 (١٢) نفس المصدر والجزء، ص ١٦٠، ترجمة ٥٦٤ (محمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن خلصة)، ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٥، ص ٢٦١.
 (١٣) ابن الآبار، المصدر السابق، ج٢، ص ٥٥١، ترجمة ٥٥٦ (عبد الرحمن بن العاص الأنصاري الخرجي)، ابن غالب المصدر السابق، ص ١٦.
 (١٤) ابن سعيد المغربي (أبي الحسن علي بن موسى)، اختصار القندح المعلق في التاريخ المعلق، اختصره أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل، تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٨٤، ترجمة ٥٣ (أبو سليمان داود الطرقي).

(١٥) أن الكرويس، المصدر السابق، ص ٩٦، ج٣، وراجع أيضا: Carrero (Carlos Sarthou), El Castillo de Jativa y sus historicos prisioneros, tercero edición, Valencia, 1951, p. 11.

- (١٦) مخطوط جغرافية الأندلس المؤلف مجهول، لوحة رقم ٣٤.
 (١٧) الإدريسي (أبو عبد الله محمد الشريف الإدريسي)، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن ١٦٦٨، ص ١٩٢.

والمنعة^(١)، يقع على مرتفع، ولها بساتين جميلة وفيها الزرع والضرع والشمر^(٢).
ومن أعمالها قرية النشيان^(٣)، وقرية متيشة^(٤)، وقرية انشيان^(٥)، ومن
متفرجاتها البطحاء والغدير والعين الكبيرة^(٦)، وإليها ينسب العالم الكبير الشيخ محمد
بن سليمان الماعزى الشاطبي نزيل الإسكندرية^(٧).

٣- مدينة مريطور:

وتقع إلى الشمال الشرقى من بلنسية على بعد نحو ١٢ ميلا، على مقربة من البحر
المتوسط، وهى بلدة تحيط بها الضياع وتكتنفها الغابات والأشجار^(٨)، وكان لها حصن
وقصر قديم^(٩)، كما كانت تضم من الآثار الرومانية الملعب القديم^(١٠)، وتعرف اليوم
باسم ساجونتو Sagunto واسمها هذا مشتق من الاسم الرومانى Saguntum^(١١).

٤- مدينة بريانة:

وهى من المدن التابعة لبلنسية وكانت مدينة عامرة جليلة وتقع إلى شماليها
على بعد نحو ٧٢ ميل^(١٢)، وبينها بين البحر ثلاثة أميال، وأرضها سهلية خصبة
تكثر بها الأشجار والكروم^(١٣).

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) العذرى، المصدر السابق، ص ١٨.

(٣) المقرئ: المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٦١، ورد فى ترجمة أبو أحمد جعفر بن لب اليحصي.

(٤) ابن الأبار: التكملة، ج ١، ص ١٥٤، ترجمة ٥٤٤ (محمد بن عبد الرحمن بن يونس بن
عياض الخزومي).

(٥) نفس المصدر والجزء، ص ١٨٣، ترجمة ٦٤٦ (محمد بن عبد العزيز بن يونس بن ميمون
اليحصي).

(٦) ابن سعيد: المغرب، ج ٢، ص ٣٨.

(٧) المقرئ: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٤٠.

(٨) الأدرسي: المصدر السابق، ص ١٩١.

(٩) العذرى: المصدر السابق، ص ١٩.

(١٠) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج ٨، ص ١٤، الحميري: المصدر السابق، ص ١٨٠، ابن سعيد

المغربى: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٧٥.

(11) Madoz (Pascual): Diccionario Geografico - Estadistico: de Espana, Tomo
XI, Madrid, 1848, pp. 773 - 784.

(١٢) الأدرسي: المصدر السابق، ص ١٩١.

(١٣) نفس المصدر، ص ١٩١، الحميري: المصدر السابق، ص ٤٤.

٥ - مدينة دانية:

وتقع جنوبي بلنسية على ساحل البحر المتوسط، واسمها العربى والأسباني مشتق من اسمها الروماني القديم دانيوم Danium^(١).

وكانت في العصر الإسلامي مدينة حصينة مسورة، لها قصبة منيعة في أعلى جبلها^(٢)، وهي الآن مركز إداري تابع لمحافظة لقنت Alicante^(٣)، وإليها ينسب في العصر الإسلامي دار صناعة السفن^(٤)، التي أسست زمن عبد الرحمن الناصر، وكان يتبع هذه البلدة عدد من القرى كسيت جميعاً بأشجار الكروم والتين والزيتون^(٥).

ومن أعمالها قسنطينية Cocentania^(٦)، وأنداره^(٧)، وحصن بكيران Bocai-rente^(٨)، وهو حصن عامر منيع كالمدينة له سوق وبه عمارات متصلة، وحصن بيران Bairan^(٩).

٦ - جزيرة شقر:

اسم شقر أو Jucar يطلق من الناحية الجغرافية على نهر بهذا الاسم يعرف بوادي شقر، وينبع من الجبال الواقعة شمال شرقي مدينة كونكة ويصب في البحر المتوسط جنوبي بلنسية، ويحصر فرعاً مصبه جزيرة أطلق عليها المسلمون اسم جزيرة شقر، ومنها الترجمة الأسبانية الحالية لمدينة Alcira^(١٠).

(١) زيولد، مادة دانية في دائرة المعارف الإسلامية، جـ ١، ص ٩٦٣.

(٢) الأدرسي: المصدر السابق، ص ٢٩٢، الحميري: المصدر السابق، ص ٧٦، العذري: المصدر السابق، ص ١٩.

(٣) الحميري: المصدر السابق، الترجمة الفرنسية، ص ٩٥، هـ ١.

(٤) الأدرسي: المصدر السابق، ص ١٩٢، الحميري: المصدر السابق، ص ٧٦.

(٥) ابن غالب الأندلسي: المصدر السابق، ص ١٦، راجع أيضاً:

Roque C habas (Liorens: Historia de la Ciudad de Denia tercera edición, tomo II, Instituto de Estudios Ali Cantinos, Alicante, 1977, p. 167.

(٦) ابن الأبار: المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٨٨، ترجمة ٩٨٨ (محمد بن اسماعيل بن محمد ابن اسماعيل بن خميس الجمحي).

(٧) ابن الأبار: المصدر السابق، جـ ١، ص ١٧٧، ترجمة ٦٢١ (محمد بن عبد الملك المعافري).

(٨) ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤١٧.

(٩) ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، جـ ٢، ص ٤١٩، ياقوت الحموي: المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٢٧.

(١٠) راجع الحميري: المصدر السابق، الترجمة الفرنسية، ص ١٢٦، هـ ٢، ابن غالب الأندلسي: المصدر السابق، ص ١٦، زيولد، مادة Alcira في دائرة المعارف الإسلامية، جـ ١، ص ٢٥١، ص ٢٥٢.

وجزيرة شقر تبعد عن بنسية بمقدار ١٨ ميلا، وكانت حسنة البقعة كثيرة الأشجار والثمار والأنهار^(١).

ب- كورة تدمير:

تقع كورة تدمير جنوبي كورة بنسية، وكانت هذه الكورة غنية بأشجارها وثمارها وأهمها الكمثرى والرمان والسفرجل^(٢)، وتتميز بخصوبة تربتها وبأن جميع أراضيها تروى عن طريق النهر على نفس طريقة الري في مصر، كما تتوفر في أرضها المعادن فبساحلها يستخلص معدن الفضة بكميات وفيرة^(٣)، كما تتوفر في أرضها معادن الرصاص^(٤)، وقبد لخص الرازي في عبارة واحدة مزايا هذه الكورة فقال: «وهي تجمع بين مزايا البحر والبر، ففيها السهول الخصبة والمدن الرائعة والمواضع الحصينة»^(٥).

وينسب مؤرخو العرب تسمية هذه الكورة بتدمير إلى تدمير بن عبدوس أو غندريس^(٦) Teodomiro B. Ergobado الذي كان يتولى إمارتها من قبل ملك القوط^(٧)، لكن أحد الباحثين المحدثين يفسر التسمية المذكورة خطأ بأن عبد الرحمن الأوسط سماها تدمير باسم تدمر الشام^(٨). والحقيقة أن عبد الرحمن الأوسط الذي ينسب إليه بناء مدينة مرسية على أنقاض مدينة إله Ello القديمة لم يسمها باسم تدمر الشام كما يزعم هذا المؤرخ المحدث، إذ أن تدمير هو اسم الكورة فقط، وأما مرسية

(١) الأندلسي: المصدر السابق، ص ١٩٢، العذري: المصدر السابق، ص ١٩، ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٣٦٣.

(٢) العذري: المصدر السابق، ص ٢.

(٣) راجع العذري، نفس المصدر والصفحة، ويستدل على كثرة هذا المعدن من رواية العذري عند تعرضه لثورة ديسم بن اسحق بتدمير، فقد ذكر أن هذا الثائر عثر على معادن الفضة بتدمير فغضب الدراهم على اسمه، ثم عاد وضربها على اسم الأمير عبد الله (تصحيح الأخبار، ص ١٢)، كما ورد في رواية العذري بشأن زيادة المنصور بن أبي عامر للخازن أحمد بن عبد الرحمن المعروف بدحييم بن مروان بن خطاب في مرسية، فقد ذكر أن هذا الخازن أهدى إلى المنصور قناطر من الفضة الخالصة، (نفس المصدر السابق، ص ١٥).

(٤) العذري: نفس المصدر، ص ٢.

(5) Provençal (L.): La description de L'Espagne D'Ahmad El Razi, pp. 70-71.

وراجع أيضاً: ابن غالب الأندلسي المصدر السابق، ص ١٥، ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤٥ (نقلاً عن الرازي).

(٦) العذري: المصدر السابق، ص ٤.

(٧) الحميري: المصدر السابق، ص ٦٢ المقرئ: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٧، وراجع أيضاً: السيد عبد العزيز سالم: مدينة مرسية، موطن الشيخ الزاهد العارف بالله القطب الأكبر «أبو العباس المرسى»، (فصل من مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية، ١٩٦٩، ص ٤).

(٨) محمد محمود زيتون: الأمام أبو العباس المرسى، الاسكندرية ١٩٦٧، ص ٢٣.

فمدينة إسلامية اسمها عربى قد يكون مشتقاً من المراساة بمعنى الشدة^(١)، أو التمرس بمعنى الجلد على التواب^(٢).

وقد شبهت تدمير بمصر لأن أرضها تسقى بنهر كالنيل بمصر^(٣)، فهو يفيض عليها فى وقت معين من السنة، ثم ينضب عنها، فتزرع كما تزرع أرض مصر^(٤). ويذكر العذرى أن الموضع الذى كان يعرف بالفندون منها بمائل النيل لأنه كان يسقى مرة واحدة^(٥)، ونهر تدمير المعروف بالنهر الأبيض أو وادى لببى أو وادى شقرة Segura^(٦)، قسيم الوادى الكبير يتفرع قرب مصبه إلى دلتا ذات شعبتين أو فرعين، كدلتا مصر على نحو مصغر، أحدهما يسقى قبلى مرسية، والثانى يسقى جوفيه^(٧). وكانت كورة تدمير تضم فى زمن الفتح الإسلامى عدداً من المدن منها : أوريوhle Orihuele وبلتنه Baltana، وموله Mula، وبلانه Villena ولورقة Lorca، وإله Ello، ولقنت Alicante^(٨).

وستتناول بالدراسة أهم مدن هذه الكورة وأعمالها؛ مرسية، وأوريوhle، ولقنت، ولورقة.

١ - مدينة مرسية (قاعدة الكورة):

تقع إلى الجنوب الشرقى من شبه جزيرة أيبيريا، وتبعد عن البحر المتوسط بنحو ٦٤ كم، وفرضتها قرطاجنة الحلفاء Cartagena^(٩). ومرسية مدينة إسلامية محدثة

(١) الزبيدى: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق الأستاذ محمود الطناحى، الكويت، ج ١٦، ١٩٧٦، ص ٥٠١ (مادة مرسى).

(٢) نفس المراجع، ص ٥٠٢.

(٣) العذرى: المصدر السابق، ص ١.

(٤) الحميرى: المصدر السابق، ص ١٨١، المقى: المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٥.

(٥) العذرى: المصدر السابق، ص ٢.

(٦) ليفى بروفنسال: مادة مرسية فى دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣، ص ٧٨٣ - ص ٧٨٤.

(٧) الحميرى: المصدر السابق، ص ١٨٣.

(٨) الحميرى: المصدر السابق، ص ٦٣، راجع أيضاً، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، الاسكندرية، ص ١١١.

(٩) ليفى بروفنسال: مادة مرسية فى دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣، ص ٧٨٣ - ص ٧٨٤، وراجع أيضاً:-

Torres Balbas (L.): Ciudades Hispano - musulmanas de nueva Fundacion, en Etudes d'orientalisme dédiées a la mémoire de Lévi - Provençal, Paris, 1962, pp. 788-789.

أمر الأمير عبد الرحمن الأوسط ببنائها في ٤ ربيع الأول سنة ٢١٠ هـ / ٢٣ أبريل ٨٢٥م لتحل محل مدينة إله أو (أية حسب تسمية العذري) ^(١) الحاضرة القديمة لكورة تدمير، وكان الأمير عبد الرحمن قد أمر جابر بن ليث عامله على إله بتهديمها بسبب الفتنة التي احتدمت في هذه الحاضرة بين العصبيتين المضرية واليمينية واستمرت قائمة حتى عام ٢١٣ هـ / ٨٢٨م، ومنذ أن أسست اتخذت داراً للعمال وقراراً للقواد ^(٢) وترفع مرسيه بمقدار ١٤٠ قدم فوق مستوى سطح البحر في موضعها المعروف بحدائق مرسيه، ويروى نهر شقورة ^(٣)

وتقع مدينة مرسيه وسط بساتين نضرة بحيث تبدو واحة خضراء وسط مناطق فقيرة جرداء ^(٤)، ولذلك عرفت باسم «بستان الشرق» ^(٥)، لكثرة جناتها المحيطة بها، وكان لتوافر المياه في بقعتها أعظم الأثر في كثرة بساتينها وفرة فواكهها وأشهرها كالتين والكروم ^(٦).

ولمدينة مرسيه عمل كثير وحصون وقرى متصلة تمتد إلى ما يزيد على ستين ميلاً ^(٧) ومن أعمالها موله Mula وتقع في غربها وهي ذات بساتين بهجة، وقرية الحرلة Alherilla وتقع على نهر مرسيه ^(٨)، وقرية مستنانة وتسندة Cutanda ^(٩) وبليانة Villena ^(١٠)، وملينة Molina ^(١١)، وبقصره ^(١٢) والش

(١) ترصيع الأخيار، ص ٦.

(٢) نفس المصدر، ص ٦، وراجع أيضاً:

Lévi - Provençal: Espana musulmana, en Histoire de Espana, dirigida por Ramon menéndez pidal, t. V, Espasa - Calpe, Madrid, 1957, p. 217.

(٣) ليفي بروفنسال: مادة مرسيه في دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣، ص ٧٨٣ - ص ٧٨٤، وراجع أيضاً: Joaquin Vallve Bermejo: La division territorial en La Espana Musulmana (II) La cora de "Tudmir (Murcia), en Al - Andalus, Vol. xxxVII, Fasc I, 1972, pp. 173- 177.

(٤) ليفي بروفنسال: المرجع السابق، ص ٧٨٣ - ص ٧٨٤.

(٥) ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤٥، المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ص ١٥٥.

(٦) الإدريسي: المصدر السابق، ص ١٩٤، وأنظر أيضاً: الحميري: المصدر السابق، ص ١٨٢.

(٧) مخطوط جغرافية الأندلس المؤلف مجهول، لوحة ٣٣.

(٨) ابن سعيد الحميري: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٧١، أبو الفداء، المصدر السابق، ص ١٧٨، ومازالت هذه القرية تعرف حتى اليوم باسمها العربي، أنظر: Joaquin vallve Bermejo: op. cit, p. 176.

(٩) ابن سعيد: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٦٢، ص ٢٦٤.

(١٠) نفس المصدر والجزء، ص ٢٧٢.

(١١) ابن الأبار: التكملة، ج ١، ص ٣٣٣، ترجمة ٩٧٥ (محمد بن موسى بن هشام الهذلي).

(١٢) نفس المصدر والجزء، ص ٣٢، ترجمة (حبيب بن سيد الجذامي).

Elche^(١) وجملة Jumilla^(٢) ومن حصونها، حصن يكة Yecla^(٣)، ومن متفرجاتها ومتنزهاتها المشهورة الرشاقة والزنقات وجبل أيل^(٤).

٢ - أوريوالة:

وتفسير أوريوالة باللاتيني الذهبية^(٥)، وهى مدينة قديمة أولية، وكانت أحد المواضع السبعة التى صالح عليها تدمير بن عبدوس عبد العزيز بن موسى بن نصير^(٦) وتقع إلى الشمال الشرقى من مرسيه على مسافة تبعد عنها بنحو ٢٣ كم^(٧)، ويروىها نهر شقورة فكان لوفرة المياه فيها أعظم الأثر فى كثرة بساتينها وعظم منتجاتها الزراعية، وكانت لهذه المدينة على قمة جبلها قصبة غاية فى المنعة^(٨)، ومن أشهر أعمالها قرية طوس^(٩).

٣ - لقنت :

كانت مرسى مرسيه يجوز منها التجار إلى أفريقية^(١٠)، وأهم أعمال كورة تدمير، وكانت فى العصر الإسلامى مدينة صغيرة عامرة، لها قصبة منيعة على قمة جبل^(١١) كما كانت لها داراً لصناعة السفن، تصنع فيها المراكب السفرية والحراريق^(١٢). وقد اشتهرت لقنت فى العصر الإسلامى بكثرة فواكهها وعلى الأخص التين والأعناب^(١٣).

(١) نفس المصدر والجزء، ص ٦١، ترجمة ١٩٥ (خفاجة بن عبد الرحمن بن أحمد الأسلمى).

(٢) ابن الأبار: التكملة، جـ ١، ص ٣٠٠، ترجمة ٩١٣ (محمد بن محمد عبد السلام بن محمد بن يحيى المرادى).

(٣) ابن سعيد المغربى: المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٦٦، وراجع أيضاً:

Torregrosa (Fausto soriano): Historia de yecla, desde la prehistoria hasta los tiempos actuales, Imprenta - Editorial J. Doménech, Valencia, 1972, p. 89.

(٤) ابن سعيد: نفس المصدر، جـ ٢، ص ٢٤٦، أبو الفدا: المصدر السابق، ص ١٧٨.

(٥) العذرى: المصدر السابق، ص ١٠، الحميرى: المصدر السابق، ص ٣٤.

(٦) العذرى: نفس المصدر، ص ٤، ص ٥، وأنظر أيضاً: الغنى (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة): بنية الملتمس، دار الكاتب العربى، ١٩٦٧، ترجمة رقم ٦٧٥ (حبيب بن أبى عبيدة)، ص ٢٧٤.

الحميرى: المصدر السابق، ص ٣٤.

(٧) الحميرى: المصدر السابق، الترجمة الفرثية، ص ٤٣، هـ ١.

(٨) الأدريسى: المصدر السابق، ص ١٩٢.

(٩) العذرى: المصدر السابق، ص ١١.

(١٠) ابن سعيد المغربى: المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٧٤.

(١١) الأدريسى: المصدر السابق، ص ١٩٣، الحميرى: المصدر السابق، ص ١٧٠.

(١٢) الأدريسى: نفس المصدر، ص ١٩٣، الحميرى: المصدر السابق، ص ١٧٠.

(١٣) الأدريسى: نفس المصدر، ص ١٩٣، الحميرى: المصدر السابق، ص ١٧٠.

٤ - لورقة :

يفسر الحميري لورقة باللاتينية «الزرع الخصيب»^(١)، في حين يفسرها العذري عن اللاتينية أيضاً بالدرع الحصين^(٢)، وتفسير العذري أدق لأن اللفظ اللاتيني الذي صار في الأسبانية Loriga يعنى الدرع^(٣). وقد كانت لورقة أحد المعاقل السبعة التي صالح عليها المسلمون تدمير^(٤).

وتقع مدينة لورقة على بعد نحو ٤٠ ميلا جنوب غرب مرسية على ظهر جبل يقوم عليه حصن منيع^(٥)، وبنيها سوق كان يحيط به سور، وكانت يفتتها في العصر الإسلامي من المواضع الخصبة، كثيرة الزرع والضرع، إذ يشق أرضها نهر له مجريان أحدهما أعلى من الآخر، أقيمت عليه السواقي، وتخرج منه شبكة من الجداول العظيمة^(٦)، ويمتدح ابن سعيد لورقة - نقلا عن المسهب - خضرة أراضيها ووفرة نباتيتها وبهجة وادبها ومنعة قصبها^(٧).

ومن أعمالها فحص الفندون La vega de al-fundun^(٨)، وفحص شنقنيره I.a vega de Sangonera^(٩)، وحصن سرنيط وهو من حصونها البرانية^(١٠)، ومن قراها، تازة^(١١)، ولبس^(١٢).

(١) الروض المعمار، ص ١٧٢.

(٢) ترصيع الأخبار، ص ١.

(٣) أنظر، العذري، المصدر السابق، حاشية، ص ١٢٩.

(٤) الحميري، المصدر السابق، ص ١٧١، وراجع أيضاً،

ليفى بروفنسال، مادة لورقة في دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣، ص ٣٣، وأنظر أيضاً:-

Joaquin Vallve Bermejo: op. cit., pp. 169- 172.

(٥) الأدرسي، المصدر السابق، ص ١٩٦.

(٦) الحميري، المصدر السابق، ص ١٧٢.

(٧) ابن سعيد، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٧٥.

(٨) الحميري، المصدر السابق، ص ١٧٢ وأنظر أيضاً،

Maria Arcos campoy: EL "iqlim" de lorca, contribucion al estudio de la division administrativa y a los itinerarios de al-Andalus, en Cuadernos de Historia del Islam, serie miscelanea - islamica occidental - No I, Granada 1971, p.87.

(٩) العذري، المصدر السابق، ص ١٠.

(١٠) الحميري، المصدر السابق، ص ١٧١.

(١١) نفس المصدر، ص ١٧٢.

(١٢) ابن الأبار: التكملة، ج ١، ص ٣٦، ترجمة ٢١٣ (رفاعة بن محمد).

ج - الجزائر الشرقية Islas Baleares

وتشمل أربعة جزائر أكبرها ميورقة Mallorca وأوسطها منورقة Menorca ويابسة Ibiza^(١) وأصغرها فرمنتيرا Formentera^(٢)، وتقع جنوبى جزيرة يابسة^(٣)، والإسمان الأولان من أصل لاتينى. فى حين أن الاسم الثالث عبرى خالص، وتمتد هذه الجزر بحذاء الساحل الشرقى من شبه جزيرة أيبيريا تجاه سواحل دانية وبلنسية وريانة وطرطوشة من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى، ولذلك فإن هذه الجزائر تدخل فى نطاق شرق الأندلس وتاريخها جزء لا يتجزأ من تاريخه^(٤). وتتوسط جزيرة ميورقة أكبر هذه الجزر كلا من جزيرتى منورقة فى الشمال الشرقى ويابسة فى الجنوب الغربى.

وقد أثبتت الدراسات الجغرافية أن هذه الجزر كانت قديماً جزءاً من شبه جزيرة أيبيريا ثم انفصلت عنها بفعل الحركات الأرضية، وأقرب هذه الجزر من ساحل شرق الأندلس لا يتجاوز ٨٥ كم، وأبعدا ٣٣٢ كم^(٥).

وكان للموقع الاستراتيجى الهام الذى تشغله هذه الجزر فى أقصى الطرف الغربى من حوض البحر المتوسط أعظم الأثر فى التنافس الشديد بين قوى المنطقة على السيطرة عليها فى العصور الوسطى^(٦)

أ - جزيرة ميورقة :

اشتق اسمها من اللاتينية Majorica أى الكبرى، وسميت هكذا لأنها أكبر الجزر التى يتألف منها الأرخبيل^(٧)، المسمى بالبليار والذى يسميه العرب الجزائر الشرقية^(٨). ولا تتجاوز المسافة بين جزيرتى ميورقة ومنورقة خمسين ميلا، بينما يفصل بين ميورقة ويابسة سبعون ميلا، وجزيرة ميورقة مسطحة تخلو من المرتفعات ولهذا اهتم امراؤها بتحصينها، ويبلغ طول جزيرة ميورقة من الغرب إلى الشرق سبعون

(١) السيد عبد العزيز سالم : الجزر الشرقية فى (دائرة معارف الشعب)، العدد ٦١، ص ٨٤.

(٢) محمد عبدالله عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى فتح المرابطى، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٨٥.

(٣) نفس المرجع، ص ٢٠٢.

(٤) عثمان الكعاك: الحضارة العربية فى حوض البحر المتوسط، مجموعة محاضرات ألقى بمعهد

الدراسات العربية بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٤٢.

(5) Torrero (José): Geografia de Espana, Barcelona, 1958, p. 883.

(6) Torrero: Ibid, p. 884.

(7) Torrero: Ibid, p. 889.

(٨) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ٢٧٨.

ميلا وعرضها خمسين ميلا^(١)، وبوسطها بحيرة دورها تسعة أميال، ويحيط بميورة سور مرتفع يتقدمه سور أمامي أقل ارتفاعاً يفصل بينهما خندق ويتوسط المدينة مسجدها الجامع وإلى جواره تقع قيسارية العطارين، أما دار الصناعة فتقع قريباً من البحر^(٢). وقد عرفت ميورة في العصر الإسلامي بوفرة مزرعاتها^(٣)، ومن المعروف أن بقعتها «من أخضب بقاع الأندلس تربة، وحاضرة ميورة مدينة بلمة، وتوزع حولها القرى العديدة وأشهرها قرية قطين»^(٤).

ب- منورقة:

كان يطلق عليها زمن الفينيقيين La Nura، وهي أكثر الجزائر بعداً عن ساحل شبه جزيرة أيبيريا^(٥)، فهي تقع إلى أقصى الشمال الشرقي من مجموعة جزائر البليار وتقابل الساحل الممتد من طرطوشة في الشمال إلى قسطلونة جنوباً^(٦). ويتوسط الجزيرة حصن مانع^(٧) ومن أهم مدنها ماهون Mahon وثيراتاديللا Ciudadela^(٨).

ج- يابسة:

كانت قديمة مستعمرة فينيقية تعرف باسم ايبيسوس Ebussos, Ebyssos وفي عام ٦٥٤ ق.م أسس القرطاجنيون فيها قاعدة بحرية^(٩).

وأقرب بر لجزيرة يابسة مدينة دائية^(١٠)، ويبعد مرساها بنحو مائة ميل^(١١)، ولقد كان لطبيعة سواحل هذه الجزيرة أثر في تعدد مراسيها الصالحة للملاحة، فيذكر الحميري أنه كان بها عشرة مراسى^(١٢)، وبها أنهار جارية وقرى كثيرة وعمائر متصلة ونبت بها شجر الصنوبر الجيد العود الصالح لبناء السفن، وتتصل بجزيرة يابسة

(١) الحميري: المصدر السابق، ص ١٨٨، وراجع أيضاً:

Al Fred Bel: les Banou chanya, paris, 1903, p. 17.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، الجزر الشرقية (دائرة معارف الشرقية)، ص ٨٧.

(٣) المقرئ: المصدر السابق، ج ٤، ص ٢١٧.

(٤) الضبي: بغية الملتبس، ص ٤٣٩، ترجمة رقم ١٢٧٤.

(5) Torrero: op. cit, p. 899.

(٦) يذكر الأديب أنها تقابل مدينة برشلونة، راجع (المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ص ٢١٤).

(٧) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ج ٢، ص ٤٦٩.

(٨) زيولد: مادة جزر البليار، دائرة المعارف الإسلامية، ج ١، ص ٦١٧، ص ٦١٨.

(9) Torrero: op. cit, p. 886.

(١٠) الأديب: المصدر السابق، ص ٢١٤، الحميري: المصدر السابق، ص ١٩٨.

(١١) الحميري: نفس المصدر والصفحة.

(١٢) نفس المصدر والصفحة.

من الجنوب جزيرتان بينها وبينهما مجازات تسمى الأبواب^(١)، وإحدهما الجزيرة المعروفة اليوم بفرمنتيرا. وجزيرة يابسة أشجار الصنوبر الكثيفة من النوع المسمى باليشبين^(٢)، وقد عرفت بكثرة كرومها وأعناها^(٣)، ولذلك فإن اسم الجزيرة يتناقض مع معناه فهي كثيرة الشجر والخصب^(٤).

ثانياً - حقائق تاريخية عن دولة الموحدين

كانت حالة العالم الإسلامى قبيل قيام دولة الموحدين فى المغرب لا تبشر بخير ولا تبعث على الاطمئنان، فالخلافة العباسية فى بغداد والخلافة الفاطمية فى القاهرة بلغتا طور أقصى درجات الإعياء والكهولة، ودولة المرابطين بالمغرب كانت فى نظر المهدي ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين ونظر أتباعه كإفتراف مجسمة، وكان ابن تومرت قد أدرك خلال رحلته إلى المشرق فى طلب العلم هذه الحالة السيئة التى انزلت إليها شعوب الإسلام وأيقن أن علاج ذلك كله يتركز فى تأسيس خلافة تستهدف تحقيق إصلاح دينى شامل، وقد قدر له أن يضع الأسس الأولى لهذه الحركة لتحقيق على يد خليفته سراج الموحدين عبد المؤمن بن علي.

نشأ ابن تومرت متعطشاً للتحصيل وطلب العلم الدينى، ففى عام ٥٠١ هـ جاز البحر إلى الأندلس لهذا الغرض فدرس بقرطبة حيناً، ثم جاز من ثغر المرية إلى المشرق^(٥) فقصده إلى الإسكندرية، ومنها إلى مكة حيث أدى فريضة الحج، ثم تابع الرحلة إلى بغداد ليستزيد من معارفه على شيوخها فدرس أصول الفقه وأصول الدين على أبى بكر الشاشى وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار وغيره من

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) ابن أبى دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، القاهرة، ١٩٥٤، ص ١٣٠، وراجع أيضاً أميلو جارشا جوميث: الشعر الأندلسى، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، ص ١٠٤، عندما احتاج بن علي بن موسى أمير ميروقة سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) إلى أسطول يحميه من ملوك النصارى عزم على استغلال الأخشاب من غابات يابسة، راجع (المقرئ: لفتح الطيب، ج ٦، ص ٢١٢).

(٣) الأدريسى: المصدر السابق، ص ٢١٤.

(٤) ابن سعيد المغربى: المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٧، وأنظر أيضاً: ابن دحية المصدر السابق، ص ١٣٠.

(٥) راجع: ابن القطان (ابن الحسن على بن محمد الكتانى الفاسى): نظم الجمال فى أخبار الزمان، تحقيق الدكتور محمود على مكي، الرباط، ١٩٦٤، ص ٤، ابن خلدون (عبد الرحمن)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المجلد السادس، دار الكتاب اللبنانى، ١٩٥٩، ص ٢٦٢، الحلل الموشية، تونس، ١٩١١، ص ٧٥.

المحدثين^(١)، وتقول بعض الروايات الموحدة أنه التقى بحجة الاسلام أبي حامد الغزالي وأنه درس عليه وأن هذا اللقاء كان من الأسباب الرئيسية التي دفعته إلى القيام بدعوته، وتقول الرواية أن الغزالي عندما أحيط علماً بما فعله المرابطون بكتبه التي وصلت إلى المغرب من إحراقها وإفسادها، وكان ابن تومرت موجوداً وقتئذ في مجلس الغزالي، فعلق الغزالي قائلًا: «ليذهبن عن قليل ملكه (أى ملك على بن يوسف بن تاشفين)، وليقتلن ولده، وما أحب المتولي لذلك إلا حاضراً مجلسنا»^(٢)، وأحس ابن تومرت أنه يعنيه ويومئ إليه بهذه العبارة فأحس في قرارة نفسه بأنه صاحب هذه الرسالة.

وإذا جاز الشك في صحة هذه الرواية على زعم أن الغزالي كان قد ترك التدريس في ذلك الوقت وعكف على حياة الزهد والتصوف، فمن المقبول أن تؤخذ الرواية على أنها تعبير عن تأثير ابن تومرت بتعاليم الغزالي^(٣).

قضى ابن تومرت ما يقرب من أحد عشرة سنة يجوب عواصم المشرق الإسلامي، فلما اكتملت معارفه اعتزم العودة إلى المغرب، وكان قد قطع في دراسته وبحوثه مرحلة بعيدة المدى، حتى غدا على قول ابن خلدون «بحراً متفجراً من العلم، وشهاباً واريماً من الدين»^(٤). مر بمصر في عهد الأمر بن المستعلي الفاطمي، وقضى بالإسكندرية بعض الوقت، تردد خلال مقامه بها على مجلس الفقيه أبي بكر الطرطوشي، ويبدو أنه كان ساخطاً على مظاهر الترف التي أقبل عليها أهل الإسكندرية، ولم يطق صبراً على ذلك مما اضطر متولياً الإسكندرية حينئذ إلى طرده على إحدى المراكب المتوجهة نحو تونس^(٥). فغادرها عائداً إلى المغرب وظل خلال رحلته هذه يثتعاليمه سواء في تونس أو الجزائر أو المغرب الأقصى، ولم يأل جهداً في الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة البدع، وكثيراً ما استخدم عصاه واشتبك مع الأهالي وخرج هارباً ساخطاً من بلد إلى آخر وما ناله بسبب ذلك

(١) المراكشي (عبد الواحد)، المعجم في تلخيص أخبار المغرب، الطبعة الأولى، تحقيق الأستاذان محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، المكتبة التجارية، ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م، ص ١٧٨، وأنظر أيضاً: سعد زغلول عبد الحميد، محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس، محاضرة ألقيت في جامعة بيروت العربية، بيروت، ١٩٧٣، ص ١٤، السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج ٢، الإسكندرية، ١٩٦٨، ص ٧٧٠.

(٢) المراكشي، المعجم في تلخيص أخبار المغرب، ص ١٧٨.

(٣) سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص ١٥.

(٤) ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السادس، ص ٤٦٦.

(٥) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الإسكندرية، ١٩٦١، ص ١٧٨، وراجع أيضاً له، المغرب الكبير، الجزء الثاني، ص ٧٧١.

من الأذى لشخصه «احتسبها من صالح أعماله»^(١). والتقى أثناء عودته إلى المغرب بعبد المؤمن بن علي أثناء إقامته بملاله فأدناه إليه وقربه من نفسه واختاره الخليفة من بعده.

وفيما يتعلق بنظرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي اتخذها ابن تومرت شعاراً لدعوته، فنظريته تقوم على التضامن لحماية المجتمع من الرذائل التي ينهى عنها الدين، وقد تناول ابن حزم القرطبي هذه النظرية في كتابه الجامع «الفصل في الملل والأهواء والنحل»^(٢)، وشرح فيه أصول هذه الفكرة ومغزاها، وفي تطبيق هذا الشعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فابن تومرت أخذ هذه النظرية شعاراً له، وكان المرابطون، حكام المغرب والأندلس في ذلك الوقت، جماعة سلفية على مذهب أهل السنة والجماعة، يتمسكون بمذهب مالك بن أنس، ويكرهون المتكلمين وعلم الكلام، وينفرون من الرأي والتأويل والخوض في مسائل التوحيد، ويرون الاقتداء بالسلف في قبول النصوص على علانها، وإقرار التشابهات كما وردت والإيمان بها كما هي. من هذه الناحية هاجم ابن تومرت المرابطين وفقهاء المالكية، ونادى بضرورة تأويل النصوص ونفى الصفات والتشبيه عن الخالق، واتهمهم بالتجسيم والشرك لأنهم يقررون الصفات إلى الله تعالى وهي شبهة إشراك غيره معه، بينما سعى أصحابه «الموحدين» تعريضاً بالمرابطين في أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم^(٣). وقد اضطر ابن تومرت إلى الاصطدام بالمرابطين عندما عمد إلى تطبيق أفكاره وآرائه فأخرج من كل موضع وطفته قدماء، ثم حل بأغصات آن وإبلان ومنها إلى أغصات ربيعة ونزل بموضع منها يقال له إيغيل، ثم مضى بعد ذلك إلى قرنته إيجليز من هرغة فنزل داره في عام ٥١٤ هـ وأقام رابطة للعبادة، ثم عكف على تدريس العلم، ووفدت إليه الناس من كل فج يدرسون عليه. وبعث الخاصة من أتباعه للتبشير بدعوته بين القبائل.

ولما أيقن ابن تومرت بأن دعوته قد أنت ثمراتها وأصبح الطريق لها ممهداً، قام

(١) ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٦٧.

(٢) ابن حزم (أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج ٤، القاهرة، ١٣٢١ هـ، صفحات ١٧١، ١٧٢، ١٧٦.

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق، المجلد السادس، ص ٤٦٩ - ص ٤٧١، وراجع أيضاً: أحمد مختار العبادي، الموحدون والوحدة الإسلامية، مقال في مجلة التربية الوطنية المغربية، العدد ١، ٢١، مارس - إبريل، ١٩٦٢.

في الخامس من شهر رمضان عام ٥١٥هـ/ديسمبر ١١٢١م خطيباً في أصحابه وأتباعه وأعلنهم أنه الإمام المهدي المنتظر ودعاهم إلى بيعته ^(١). فكان أول من بايعه عبد المؤمن بن علي ثم سائر أصحابه، وتلقب بالمهدي، وصرح بدعوى العصمة لنفسه، وأنه المعصوم فأقبل إليه الأشياع والأتباع من سائر قبائل المغرب الأقصى، ولم تزل طاعة المصاندة لابن تومرت تزداد، وفتنتهم به تشتد، وتعظيمهم له يتأكد حتى بلغوا في ذلك إلى حد «لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء» ^(٢).

ولما تمت بيعة ابن تومرت، ولقبه أنصاره بالمهدي الإمام المعصوم، وسمى المهدي أصحابه وأهل دعوته بالموحدين تعريضاً بلمتونه في أخذهم بالعدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم، وضع لهم كتابه «التوحيد» باللسان البربري، فصار هذا التوحيد عند قبائل المصاندة كما يقول صاحب «روض القرطاس»: «كالقرآن العزيز لأنه وجدهم قوماً جهلة لا يعرفون شيئاً من أمر الدين ولا من أمر الدنيا» ^(٣)، كما صنف لهم تصانيف في العلم منها كتاب «أعز ما يطلب» وعقائد في أصول الدين ^(٤)، ومنذ ذلك الحين أخذت دعوة المهدي في الانتشار، ووفد الناس عليه في جموع غفيرة من كل صوب يبايعونه بالإمامة حتى كثر جمعه وذاع صيته وأضحت دعوته تمثل خطراً حقيقياً على دولة المرابطين.

وعندما استوثق من أتباعه دعاهم إلى القيام معه أولاً على صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن هذا المنطلق وجههم إلى قتال «المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين» ^(٥). وأسفر أول اشتباك بين الموحدين وقوى المرابطين في قلعة إيجليز عن انتصار حاسم للموحدين تم في شعبان سنة ٥١٦هـ/أغسطس ١١٢٣م.

واستمرت الاشتباكات الأولى بين الموحدين والمرابطين منذ عام ٥١٦هـ حتى

(١) ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله)، الأليس المطرب بروض القرطاس، تحقيق كارل يوحنا تورنبرغ، أبساله، ١٨٤٣م، ص ١١٣، ابن الخطيب (لسان الدين) تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، تحقيق الدكتور أحمد مختار العباري والأستاذ إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، ١٩٦٤، ص ٢٦٩، الزركشي (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم)، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق الأستاذ محمد ماضور، الطبعة الثانية، تونس، ١٩٦٦، ص ٦.

(٢) المراكشي، المصدر السابق، ص ١٩١.

(٣) روض القرطاس، ص ١١٤.

(٤) المراكشي، المصدر السابق، ص ١٨٨.

(٥) المراكشي، المصدر السابق، ص ١٩٢.

عام ٥١٧هـ، وبلغت على حد قول صاحب البيهقي - تسع غزوات متوالية كانت كلها ضد المرابطين إلا واحدة منها وجهت ضد قبيلة هسكورة^(١).

وفي سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م غادر المهدي جبل ايجليز بعد أن أقام به ثلاث سنوات وارتحل في أتباعه إلى تينملل التي اتخذها قاعدة لقواته ومستقرًا له ولأتباعه وقدر له من هناك أن يسيطر على كل منطقة السوس، ثم بدأ يتأهب للمرحلة التالية في صراعه مع المرابطين وكانت خطته في البداية تهدف إلى التزام الدفاع في معاقلة الجبلية الوعرة دون أن يهبط إلى الساحل، لكي يحمل أعدائه المهاجمين على أن يصعدوا إليه إذا شاءوا قتاله.

ومنذ سنة ٥٢٤هـ أخذت هذه الاشتباكات تأخذ طابعًا عسكريًا عنيفًا مع جيوش المرابطين يعتمد في جوهره على الهجوم بدلا من الدفاع، ففي هذه السنة انهزمت قواته أمام جيوش المرابطين في الموضع المعروف بالبحيرة خارج مراكش^(٢)، ومرض ابن تومرت على إثر هذه الهزيمة، وعندما شعر بقرب نهايته جمع أصحابه وخطب فيهم، وأشاد بالراشدين وثبات دينهم، وأشار إلى ما انتاب العالم الإسلامي من الفتن بعدهم، وبين لهم كيف أن الله خصهم بحقيقة توحيده وهداهم بعد الضلال وجمعهم بعد الفرقة، وأخيرا حذرهم من الفرقة واختلاف الكلمة، ونصحهم بأن يكونوا يداً واحدة على عدوهم^(٣)، ثم توفي وسمى الموحدون هذه السنة التي توفي فيها المهدي باسم عام البحيرة^(٤)، ثم آلت خلافة المهدي إلى عبد المؤمن بن علي.

قضى عبد المؤمن زهاء سنة ونصف ينظم شؤون الموحدين ويؤلف قلوبهم، ويحشد جموعهم، ويستنفرهم إلى الجهاد، فلما تم له ذلك بدأ يتفرغ إلى مهمة تحقيق هدف الدعوة الموحدية، تمهيدا لتأسيس دولة الموحدين، وبينما كان يسعى إلى اكتساب طاعة القبائل الجبلية وزيادة أتباعه واستنفارهم ضد المرابطين بحيث أمكنه في أمد قصير أن يحول البرابر في سائر أقطار المغرب على لمتونة^(١). وكان لا ينقطع عن

(١) أبو بكر الصنهاجي المكنى بالبيهقي، كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، تحقيق الأستاذ ليفي برونفسال، باريس، ١٩٢٨، ص ٧٤ - ص ٧٨، ابن القطان، المصدر السابق، ص ٩١ - ص ٩٢.

(٢) راجع البيهقي، المصدر السابق، ص ٧٩، المراكشي، المصدر السابق، ص ١٩٣.

(٣) المراكشي، المصدر السابق، ص ١٩٤ - ص ١٩٥.

(٤) أنظر: ابن القطان، المصدر السابق، ص ١٢٢، ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد)، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد، ج ٤، الطبعة، ١٩٤٨، ص ١٤٤.

تعزير قواته وتدريبهم على مقاتلة المرابطين، ووفقت هذه القوات الموحدية فى سنة ٥٣٣هـ وما يليها فى إيقاع الهزيمة بقوات تاشفين بن علي ومرتزقة النصارى برئاسة الروبرير المرة بعد المرة، ثم التقى الجيشان مرة أخرى، المرابطى بقيادة تاشفين تعززه قوات المرتزقة النصارى والموحدى بقيادة عبد المؤمن فى موضع منداسن، لجأ فيه الموحدون إلى خطة حربية مبتكرة وهى خطة المربع الموحدى ^(٢)، الذى غدا فيما بعد عماد خطط الدفاع الموحدية فى الميدان المكشوف، واستمر القتال بينهما أربعة أيام، أسفر عن انتصار حاسم أحرزه الموحدون على المرابطين واستولوا على محلاتهم، لكن عندما ارتد عبد المؤمن بغنايمه صوب الصخرتين من أحواز تلمسان، اعترضه الروبرير فى قواته وهاجمه بشدة واسترد منه معظم الغنائم، وقتل من كومية، قبيلة عبد المؤمن، نحو أربعمائة رجل؛ لم سار فى قواته وغنائمه إلى تلمسان وانضم هناك إلى قوات الأمير تاشفين.

وسرعان ما تطورت الأحداث بعد ذلك سريعاً، فلم يلبث الروبرير أن لقي مصرعه ففت ذلك فى الوقت المرتزقة التى رحلت إثر مصرعه إلى طليطلة، حيث نزلوا فى كنف ألفونسو ريموندس «ألفونسو السابع» ملك قشتالة. وكان لهذا أسوأ الأثر فى نفوس المرابطين وفى الحال كتب تاشفين إلى عماله يستعجلهم موافاته بحشود جديدة، وما أن وصلت التعزيزات المرابطية من الأندلس حتى وقع الاشتباك فى معركة عنيفة دارت ظاهر الصخرتين شمال غربى تلمسان، فانهزمت قوى المرابطين، وأرسل قائدهم إلى عبد المؤمن يعلمه بتوجيه سرّاً ويعدّه بفتح بجاية وغيرها. أما تاشفين فقد السحب إلى وهران وتخصن فى قلعتها البحرية التى كان قد ابتناها، ولكن الموحدين لم يتركوه يهناً بالراحة فتبعوه إلى وهران وأضرموا النار حول الحصن، فخشى تاشفين الهلاك، وخرج من الحصن فوق فرسه آملاً فى أن يصل إلى بعض قطع أسطوله لتحملة إلى الأندلس، واتجه إلى مرتفعات الجبل لكن فرسه تردت به تحت جناح الظلام فسقطت به فى هوة سحيقة وهلك تاشفين، وفى الصباح عثر الموحدون على جثته فصلبوا، واحتزوا رأسه، وبعث بها عبد المؤمن إلى تينملل فعلقت فى الشجرة التى بإزاء مسجد المهدي. وكان مصرع تاشفين فى ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٥٣٩هـ/ ٢٢ فبراير ١١٤٥م ^(٣).

وعلى إثر ذلك، اقتحم الشيبخ أبو حفص بقواته وهران، وألخن فى المرابطين حتى

(١) أنظر ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٧٣.

(٢) راجع ما جاء فى وصف خطة المربع الموحدى فى الحلل الموشية، ص ٩٨.

(٣) ابن عذارى (أبو العباس أحمد بن محمد)؛ للبيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، القسم الثالث، تحقيق الأستاذ أربى ميراندا وآخرون، تطوان ١٩٦٠، ص ١٦، ١٧.

أفنى معظمهم، ولجأت جماعة منهم إلى الحصن، فحاصروهم وقطعوا عنهم الماء، حتى سلموا بعد ثلاثة أيام، وتم ذلك يوم عيد الفطر سنة ٥٣٩هـ^(١).

ولم تلبث معاقل المرابطين أن سقطت الواحد إثر الآخر، وتمكن الموحدون من السيطرة على تلمسان ثم فاس في ذى القعدة سنة ٥٤٠هـ/أبريل ١١٤٦م^(٢). فأمر عبد المؤمن بهدم أسوارها فهدم معظمها، وبقيت فاس بلا أسوار مدة إلى أن قام بتشييدها من جديد، حفيدة الخليفة يعقوب المنصور ثم أتمها ولده الناصر، وذلك في سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م^(٣).

ثم سار عبد المؤمن بعد ذلك إلى مكناسة واحتلها، ثم دخل سلا، وأثناء ذلك وفدت على عبد المؤمن رسل أهل سبته يحملون إليه ببيعتهم، فقبلها منهم، وندب لولاية سبته يوسف بن مخلوف التينمللي من مشيخة هنتاة^(٤).

وتابع عبد المؤمن زحفه نحو مراكش الحاضرة في غرة المحرم سنة ٥٤١هـ/١٣ يونيو ١١٤٦م، واحتل بقواته جبل ايجليز الواقع غربها، وضرب فوقه قبته الحمراء، وبنى الموحدون حوله محلة أو مدينة كبيرة يتوسطها مسجد وصومعة عالية، تشرف على مراكش، وكان إقامة هذه المدينة دليلاً على ما كان يتوقعه الموحدون من طول المقاومة والحصار. واستمر حصار الموحدين لمراكش أكثر من تسعة أشهر أحكموا خلالها الحصار حولها، وظلت مراكش صامدة بقيادة أميرها إبراهيم بن تاشفين إلى أن نفذت أقواتها ونضبت مواردها، وتساقط الآلاف من أهلها جوعاً، وفي ١٨ شوال تمكن الموحدون من تسلق الأسوار بالسلالم، واقتحموا المدينة ودخلوها وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها، وبمقتل أميرها إسحاق بن إبراهيم بن تاشفين سقطت دولة المرابطين نهائياً. في المغرب^(٥). وهكذا أصبح عبد المؤمن بعد فتح مراكش سيداً على المغرب كله.

ثم تطلع عبد المؤمن بعد ذلك إلى السيطرة على قواعد المرابطين في الأندلس وقد ساعده على تحقيق هذا الهدف سوء الأوضاع في الأندلس في هذه الفترة، فقد اجتاحت الأندلس في هذه الفترة التي تمكن فيها عبد المؤمن من القضاء على قوة

(١) نفس المصدر والجزء، ص ١٧.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٠.

(٣) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٣٣.

(٤) ابن عذارى، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١، ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٧٩.

(٥) راجع البيهقي، المصدر السابق، صفحات ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤ الحلل الموشية، ص ١٠٤، السيد عبد

العزیز سالم: المغرب الكبير، ج ٢، ص ٧٨٦، ص ٧٨٧.

المرابطين في المغرب ثورات جامحة ضد المرابطين، وبدأ عهد جديد من دويلات الطوائف فيما تبقى من دولة الإسلام في الأندلس، انتزى خلالها القادة والقضاة والرؤساء كل في بلده، وتخلصوا من سلطان المرابطين على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها هؤلاء في الذب عن الإسلام في الأندلس وما حققوه من انتصارات مذهلة في أقلش وفي أفراغه.

وكان من بين هؤلاء الثوار بالأندلس علي بن عيسى بن ميمون، الذي استقل بقادس ودخل في طاعة الموحدين، وخطب أول خطبة لهم في قادس سنة ٥٤٠هـ^(١)، كذلك قام بمرتلة الثائر أحمد بن قسي الصوفي، فلما استولى أبو محمد سدرای على مرتلة جاز ابن قسي إلى عبد المؤمن بن علي بمراكش سنة ٥٤١هـ، ورغبه في امتلاك الأندلس فسير عبد المؤمن بصحبته جيشاً بقيادة براز بن محمد المسوفي في شعبان سنة ٥٤١هـ^(٢)، ثم أمده بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد وثالث بقيادة عمر بن صالح الصنهاجي^(٣)، فلما عبرت هذه الجيوش الثلاثة بحر الزقاق ونزلت بالأندلس، هاجمت أبا القمر بن عزون المنتزى بشريش ورنده، فدخل في طاعة الموحدين^(٤)، ثم قصدوا لبله وأخضعوا يوسف بن أحمد البطروجي^(٥)، ثم مضوا إلى مرتلة، فدخلوها، وبعد ذلك افتتحوا شلب وباجة وبطليوس من غرب الأندلس^(٦)، فدخل أبو محمد سدرای بن وزير في طاعتهم، ولم تلبث أشبيلية أن الضوت تحت لوائهم في سنة ٥٤١هـ فاتخذوها حاضرة لهم بالأندلس^(٧). ثم دخلت مالقة في العام نفسه في طاعتهم^(٨)، إلا أن شلب وقادس وبطليوس لم تلبث أن أعلنت استقلالها، فأرسل عبد المؤمن جيشاً بقيادة يوسف بن سليمان الذي نزل أشبيلية وتمكن من بسط نفوذ الموحدين على بطليوس، وشتتمريه وقادس وشلب

(١) ابن خلدون، الجزء ٦، ص ٤٨٥.

(٢) ابن الأبار، الحلة السهراء، ج ٢، ص ١٩٩، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص

٢٥١، ص ٢٦٥، ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٤٨٥، ٤٨٦.

(٣) ابن خلدون، نفس المصدر والجزء، ص ٤٨٦.

(٤) ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٨٦.

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٦) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٧) ابن الأبار، المصدر السابق، ج ٦، ص ٢٠٠، ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٨٦، ابن

الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، المكتبة التجارية، ص ١٤، بينما يقول ابن أبي زرع أن فتح

أشبيلية كان سنة ٥٤٠هـ. راجع (روض القرطاس، ص ١٢٣).

(٨) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٢٣.

ولبله^(١)، ولم يمض عام على ذلك حتى دخلت قرطبة وجيان في طاعة الموحدين^(٢).

ولم يبدأ عام ٥٤٥هـ حتى كان رؤساء الأندلس الذين كانوا قد أعلنوا ثورتهم على المرابطين واستقلوا بمدنهم، قد بايعوا الموحدين ودخلوا في طاعتهم. وفي سنة ٥٥١هـ، تغلب الموحدون على غرناطة^(٣) وبذلك توطن نفوذهم في جنوب الأندلس.

وفي سنة ٥٥٥هـ أمر عبد المؤمن ولده أبا سعيد عثمان ببناء جبل الفتح وتخصيصه فتم بناؤه على يدى الحاج يعيش المهندس، وعلى إثر ذلك جاز عبد المؤمن من طنجة إلى الأندلس، فنزل بهجبل الفتح، وأقام شهرين أشرف خلالها على أحوال الأندلس حيث وفد إليه فيها قوادها وأشياخها لتحيته، ومنها أمر بغزو غرب الأندلس، وسير الشيخ أبا محمد عبد الله بن أبي حفص من قرطبة ففتح حصن أطرفكش من أحواز بطليوس، واستولى الموحدون على بطليوس وباجه وبابرة وحصن القصر، ثم عاد عبد المؤمن بعد ذلك إلى مراكش.

وهكذا بسط الموحدون سلطانهم على قواعد الأندلس، التي دانت لهم بالطاعة فيما عدا منطقة شرق الأندلس التي ظلت بمنأى عن سيطرة الموحدين بزعماء محمد بن سعد بن مردنيش حتى سنة ٥٦٧هـ. وهو ما سنعالجه تفصيلا في الفصلين الأول والثاني من الباب الأول

(١) ابن خلدون: المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٨٧، ص ٤٨٨.

(٢) ابن خلدون: نفس المصدر، ج ٦، ص ٤٨٨، ص ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٣) ابن الأبار: الحلة السراء، ج ٢، ص ٢١٥، ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص ١٢٧، ابن عذاري: المصدر السابق، ق ٣، ص ٣٣.

الباب الأول
التاريخ السياسي

الفصل الأول

شرق الأندلس فى السنوات الأخيرة

من عصر المرابطين

- (١) ثورة أهل قرطبة على المرابطين فى عام ٥١٥هـ.
- (٢) التوسع الأرقونى بعد سقوط سرقسطة عام ٥١٢هـ:
 - أ - حملة الفونسو الخارب ونتائجها.
 - ب - موقعة قليبره وما تبعها من حملات أرقونية.
- (٣) مرحلة الإفاقة المرابطية:
 - أ - دور ابن غانية فى انتصارات المرابطين فى المراه.
 - ب - نتائج انتصار المراه.
- (٤) ثورة شرق الأندلس على المرابطين وبداية انهيار سلطانهم فيه:
 - أ - مقدمات الثورة.
 - ب - ثورة بلنسية على المرابطين.
 - ج - ثورة مرسية.
- (٥) تطور الأحداث فى شرق الأندلس بعد انهيار سلطان المرابطين:
 - أ - الوضع فى مرسية.
 - ب - اضطراب الأحوال فى بلنسية.
 - ج - ولاية محمد بن سعد بن مردنيش على شرق الأندلس.

كان شرق الأندلس في عصر المرابطين، يشتمل بعد سقوط سرقسطة في الثالث من رمضان عام ٥١٢هـ (١٨ ديسمبر ١١١٨م)^(١)، على ولايتي بلنسية ومرسية والجزائر الشرقية التي كانت تلحق به دائماً، وكان يتبع بلنسية سائر الأراضي والقواعد الممتدة شمالاً من شاطبة حتى الثغر الأعلى، ومن البحر غرباً حتى كونكة، ويتبع مرسية سائر الأراضي والقواعد الواقعة على ضفتي نهر شقوره، وتمتد جنوباً حتى ولاية المرية، أما الجزائر الشرقية فكانت تشتمل على جزر ميورقة ومنورقة وياپسه.

وكان من الطبيعي أن تكون لأحداث المغرب من غلبة الموحدين عسكرياً على قوة المرابطين وانقراض الدولة المرابطية صداها السريع في شبه الجزيرة الأيبيرية، حيث كانت دولة المرابطين المحتضرة في المغرب تبسط سلطانها على سائر القواعد الأندلسية، وقد اتخذ هذا الصدى منذ البداية، صورة ثورة أندلسية عامة ضد سلطان المرابطين، اجتاحت الأندلس سريعاً من غربه إلى شرقه.

(١) ثورة أهل قرطبة على المرابطين

وأول مظاهر رد الفعل الأندلسي ضد دولة المرابطين، وإن لم يكن لذلك علاقة ما بحركة الموحدين، يتمثل في الثورة العاتية التي قام بها أهل قرطبة في سنة ٥١٥هـ/١١٢١م ضد السيطرة المرابطية، وتعتبر هذه الانتفاضة أول تعبير مادي للشعور القومي تجاه عسف الحكم المرابطي، أما عن أحداث هذه الثورة فقد أوردها المؤرخون العرب وإن كانت أسبابها ودوافعها متضاربة إلى حد ما في رواياتهم، فصاحب «الحلل الموشية» يلخصها في أن أمير المسلمين كان قد ولي على قرطبة الأمير أبا يحيى بن رواده، فحدث بينه وبين أهل قرطبة نفور أدى إلى ثورتهم عليه، ونهب العامة قصر الوالي، ودور المرابطين^(٢).

(١) ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله)، الحلة السيرة، الجزء الثاني، نشر الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٢٥، بينما يضع المقرئ تاريخ سقوطها يوم الأربعاء الرابع من رمضان، راجع (نفع الطيب، جـ ٢، ص ٥٨٥)، انظر أيضاً،

José María la carra, la conquista de Zaragoza por Alfonso I (18 diciembre, 1118), en Al-Andalus, XII (1974), Afif Turk; El reino de Zaragoza en el siglo XI de cristo (Vde la Hégira), Madrid, 1978, pp. 183, 190.

(٢) مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، المنسوب خطأ للسان الدين بن الخطيب، الطبعة الأولى، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، ص ٦٣.

أما رواية ابن الأثير عن هذه الثورة فأكثر تفصيلاً حيث يقول أنه لما كان يوم عيد الأضحى من عام ٥١٤ هـ خرج الناس متفرجين فمد عبد من عبيد أبي بكر بن يحيى ابن رواده يده إلى امرأة وأمسكها، فاستغاثت فأغاهاها الناس، فوقع بين العبيد وأهل قرطبة فتنة عظيمة، ونشب القتال بينهم حتى دخل الليل، ووصل الخبر إلى الوالي الأمير أبي بكر، واجتمع إليه الفقهاء والأعيان، واقترحوا عليه تهدة للحال أن يقتل واحداً من مثيرى الفتنة، فأنكر عليهم ذلك، وفي اليوم التالى استعد للقتال وأظهر السلاح والعدد، فاجتمع لقتاله أهل قرطبة بزعامة الأعيان والفقهاء وهزموه، فتحصن بالقصر فحاصروه، وفر منهم بعد مشقة، فنهبوا القصر، وأحرقوا دورالمرابطين، ونهبوا أموالهم، وأخرجوهم من قرطبة على أقبح صورة^(١).

وعندما بلغ أمير المسلمين خبر هذه الثورة وأدرك مدى خطورتها، تخوف من انتقال أصدائها إلى قواعد الأندلس الأخرى، فبادر بالقدوم إلى الأندلس لمعالجة الموقف فوصل في حشود ضخمة إلى ظاهر قرطبة في شهر ربيع الآخر عام ٥١٥ هـ/ يوليو ١١٢١ م، بفرض القضاء على الثورة بها، فوجد أن أهلها قد تأهبوا للدفاع عنها، وفي نفس الوقت استفتى أهل قرطبة فقهاءهم فأفتوا بأنه متى عرضت حقائق الموقف على أمير المسلمين علي بن يوسف، وتبين منها أن الأمر لم يكن عدواناً من أهل قرطبة، وإنما كان موقفهم دفاعاً عن الحرم والدماء والأموال، فإن أصر أمير المسلمين على موقفه وأصغى لنصح المفسدين وجب القتال في هذه الحالة دفاعاً عن النفس والحرم^(٢).

وعندما قدم أمير المسلمين في قواته باذر بحصار قرطبة، فقاتله أهلها قتالاً من يريد أن يحمي دمه وحريمه وماله، فلما لمس الأمير شدة قتالهم جنح للسلم، ودخل السفراء بينه وبينهم، وسعوا في الصلح^(٣).

وأغلب الظن أنه لم يحدث قتال، والظاهر أن علي بن يوسف اكتفى بمخاطبتهم أولاً بالتقريع والتهديد، ثم أقام أمام المدينة محاصراً لها فترة حتى تردد عليه أعيان قرطبة يسألونه الصلح، فوقع الاتفاق على أن يؤدوا إليه مالا عوضاً عما

(١) ابن الأثير (أبى الحسن علي بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني)، الكامل فى التاريخ، جـ ١٠، القاهرة، ١٢٩٠ هـ، ص ١٩٧، انظر أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس، الجزء الأول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧١، ص ١٤٣، ص ١٤٤.

(٢) الحلل الموشية، ص ٦٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ ١٠، ص ١٩٧.

نهب من المرابطين^(١). ولم تطل إقامة الأمير علي بن يوسف بالأندلس، إذ وافته أنباء مزعجة من مراكش، عن قيام المهدي محمد بن تومرت ببلاد السوس الأقصى واستفحال أمره^(٢).

لا شك أن هذه الانتفاضة التي قام بها أهل قرطبة ضد الحكم المرابطي، كانت رد فعل لسياسة العنف والبطش التي جرى عليها المرابطون في حكمهم العسكري الغاشم والتزامهم بسياسة التقشف التي لم يعتد عليها أهل الأندلس ثم للتسلط الفكري الذي فرضوه على الأفكار والعقائد.

(٢) التوسع الأرغوني بعد سقوط سرقسطة سنة ٥١٢هـ

أ - حملة ألفونسو الحارث على الأندلس ونتائجها:

تطلع ألفونسو الأول الحارث^(٣)، بعد أن انتزع سرقسطة من عماد الدولة عبد الملك بن أحمد المستعين بن هود سنة ٥١٢هـ، وتوالت انتصاراته بعد ذلك في الثغر الأعلى، إلى توسيع رقعة أراضيه ناحية شرق الأندلس مستهدفاً السيطرة على بلنسية لكثرة ما تنعم به من خيرات وثروات وليتخذوها معبراً إلى الشرق تحقيقاً لحلمه في المشاركة في الحركة الصليبية.

وقد واثته الفرصة لتحقيق هذا الحلم ممثلة في تخريض النصارى المعاهدين لكي يغزو الأندلس، وبعثوا إليه بزماء يشتمل على اثني عشر ألفاً من أنجاد رجالهم على أهبة الاستعداد لنصرته، وأنه يوجد غيرهم جموع غفيرة تحت طلبه ونظره، وكتبوا له في نفس الوقت عن مدينة غرناطة، قاعدة الحكم المرابطي في الأندلس، وما تنعم به من خيرات وثروات، وما تتميز به أرضها من وفرة عيون وكثرة مياه، بالإضافة إلى ما تمتاز به من حسن الموقع، وروعة البناء وازدهار العمران، وكان لهذه الدعوة المقترنة

(١) الحلل المرشية، ص ٦٣، انظر أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ج ١، ص ١٤٤.
Codera (Francisco), Decadencia Y desaparicion de los Almoravides en Espana, Zaragoza, 1899, pp. 237-238.

(٢) الحلل المرشية، ص ٦٤، ص ٧٤.

(٣) عن ألفونسو الحارث Alfonso I El Batallador، انظر:

- Aguado Bleye (Pedro), Manuel Historia de Espana, Tomo I, Sexta edición, Espasa Calpe, Marid, 1947, pp. 628-630;
- José María Iacarra, Alfonso el Batallador, Guara editorial, Zaragoza, 1978, pp. 17-25.

بتقديم العون والأنجاد أبلغ الأثر في نفس ألفونسو المحارب^(١).

خرج ألفونسو المحارب من مدينة سرقسطة في سرية تامة على رأس قوة عدتها ٤ ألف فارس^(٢)، وقيل خمسة آلاف انضم إليهم من الرجالة والرماة أعداد كبيرة بحيث وصل عدد عسكريه نحو ١٥ ألف^(٣)، وذلك في أول شعبان سنة ٥١٩هـ/ سبتمبر ١١٢٥م مخالفاً بذلك ما كان متبعاً من تقاليد الصوائف معرضاً جيشه على هذا النحو لتقلب الطقس وما يتوقع أن يقابله من مصاعب في فصل الشتاء التالي^(٤).

وظلت خطة ألفونسو المحارب في طى الكتمان إلى أن وصل قبيل بلنسية^(٥)، فاجتاح أراضيها وانتسف زروعها وأحرق قراها، وعندما شن هجومه عليها تصدت له حاميتها بقيادة واليها أبي محمد بدر بن ورقاء (أواخر شهر رمضان)، وفي أثناء ذلك كانت جموع النصاري المعاهدين تفد للانضمام إلى جيشه حيثما وجد حتى اجتمعت لديه أعداد غفيرة منهم، وكانوا يدلونه على الطرق والمسالك، ويكشفون له عورات المسلمين في المدن والحصون التي يمر بها، ثم زحف نحو جزيرة شقر (Alcira) فقاتلها أياماً، ثم رحل عنها إلى دانية (Denia) في ٣١ أكتوبر، فخرّب نواحيها، وقاتلها ليلة عيد الفطر من هذه السنة، ثم واصل زحفه مخترقاً شرقي الأندلس مرحلة مرحلة، منازل سائر قواعده وحصونه، فاستولى على (Pena Ca-diella)^(٦) وجاز بشاطبة دون أن يلقي أية مقاومة، ثم تابع تقدمه نحو مرسية لينحرف تجاه بيره Vera فالمنصورة فبرشانة، وهناك ضرب مخيمه ثمانية أيام، ثم رحل دون أن يلقي أية مقاومة، متجهاً نحو بسطة (Baza) وأخفق في افتتاحها رغم ضعف تحصيناتها، فغادرها إلى وادي آش ومكث يحاصرها مدة شهر دون أن يظفر منها

(١) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، القسم الخاص بالمرايطين، دار

الثقافة، بيروت، ١٩٦٧، ص ٦٩، راجع أيضاً، الحلل الموشية، ص ٦٦، ص ٦٧.

(٢) الحلل الموشية، ص ٦٧.

(٣) ابن عذاري، المصدر السابق، ص ٦٩.

(4) Huici Miranda (A), Historia de Valencia y su region, tomo II, Valencia, 1969, p. 53.

(٥) ابن عذاري، المصدر السابق، ص ٦٩، انظر أيضاً:

Huici Miranda (A), Ali ben yusuf y sus emprsos en el Andalus, (en Tamuda VII, Tetuan), 1959, p. 97.

(٦) وهي قلعة هامة لعبت دوراً هاماً أيام «السيد» El Cid في غلق الطرق المؤدية نحو الجنوب، ولكن المراكطين تمكنوا من استردادها بعد موته، راجع: Huici Miranda, Historia de Valencia, Tomo III, p. 53; José Maria Lacarra, op.cit., p. 85.

بطائل، ثم تركها فى أوائل شهر ذى القعدة من السنة المذكورة إلى قرية القصر (Alcazar) القرية منها حيث احتفل بعيد الميلاد، وبلغت أخبار هذه الغزوة الأمير علي بن يوسف، الذى لم يتردد فى إصدار أمره بعبور قوات المرابطين إلى الأندلس للدفاع عن غرناطة، وكان يتولى شئون الأندلس آنذاك الأمير أبو الطاهر تميم، فلما وصلت عسكر المرابطين إلى غرناطة وانضمت إليه قوات مرسية وبلنسية وأشبيلية، وأحاطت جيوش المرابطين بغرناطة إحاطة السوار بالمعصم، حتى صارت كالدائرة، وصارت المدينة فى وسطها كالنقطة (١).

وفى أوائل شهر يناير ١١٢٦م (ذو الحجة سنة ٥٢٠هـ)، تحرك ألفونسو المحارب من وادى آش، ونزل بقرية دجمة (Diezma) غربى وادى آش فى منتصف المسافة بينهما وبين غرناطة فاشتد القلق بغرناطة وصلى الناس صلاة الخوف يوم عيد النحر، واستعدوا بالسلاح، ويصف ابن عذارى حال غرناطة فيقول : «وجاءت الطلائع منبهة بها فعميت.. وانقطعت السابلة والواردة وقلت المرافق، وتزاحم الناس فى المدينة وسكنت المساجد والمصاطب والرحاب والخراب، وكشر الجزع والأرجاف والموجان بالنهار والليل... والأسوار معمورة بأهل البلدة، وليس فى الدور غير الصبية والنسوة (٢)». وفى ظهر اليوم التالى وصل النصرارى إلى قرية النبيل (Nívar) على بعد خمسة كيلو مترات من شرق مدينة غرناطة، وضرب ألفونسو المحارب محلته «لبضع عشرة ليلة لم تسرح له سارحه ولا شنت غزوه ولا انفصل بعض جيشه عن بعض، وذلك لتوالى الأمطار وكثرة الجليد» (٣).

وهكذا لبث ألفونسو المحارب فى قواته بعض عشرة ليلة وهو غير قادر على الحركة بسبب الجليد والأمطار وقاسى الجيش الأرغونى أهوال الطقس البارد، وكان النصرارى المعاهدون فى غرناطة قد تناجوا باستدعائه، فافتضح تدبيرهم وهم أميرها باعتقالهم، فأعياه ذلك وتسلى المعاهدون من كل صوب إلى محلته (٤)، وأخذوا يزودونه بالمؤن والأقوات، وعندما رأى استحالة الاستيلاء على غرناطة ألقع عنها بجيشه فى ٢٦ ذى الحجة عام ٥٢٠هـ (٢١ يناير ١١٢٦م)، وارتفع طمعه عنها، لما لمسه من وفرة الجيوش المدافعة عنها، وانحى باللائمة على النصرارى المعاهدين وزعيمهم ابن القلاس لعدم وفائهم بما عاهدوا عليه، ومبالغتهم فى تصوير سهولة الاستيلاء على

(١) الحلل الموشية، ص ٦٨.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، القسم الخاص بالمرابطين، ص ٧١.

(٣) الحلل الموشية، ص ٦٨.

(٤) ابن عذارى، المصدر السابق، القسم الخاص بالمرابطين، ص ٧٠، الحلل الموشية، ص ٦٨.

المدينة، التي لم يجزؤ أحد على فتح أبوابها له، ومن جهة أخرى عزا المعاهدون فشل ألفونسو المحارب في الاستيلاء على غرناطة لبطئه وتلوميه، مما أتاح فسحة من الوقت أمام قوات المرابطين لتجميع قواتهم وإعدادها للدفاع عن غرناطة، تاركاً بذلك النصارى المعاهدين عرضة لانتقام المرابطين^(١).

تراجع ألفونسو إلى مرسانة Maracena وبينش Pinos-Puente تجاه قلعة يحصص Eci-Alcala la Real ونهبت قواته جميع نواحي لكة Luque وبياه Baena، واستجه Eci-ja، وقبره Cabra عدة أيام، كما أقدمت قواته على نهب كل ريف قرطبة خلال أسابيع ستة دون أن يشرع في حصارها، ولما توالى حشود الجيش المرابطى بقيادة الأمير أبى الطاهر تميم وإلى غرناطة، توجه ألفونسو نحو أليسانة Lucena بهدف تمزيق هذه الحشود، وتم الاشتباك بين قواته وقوات المرابطين فى أرينسول فى ٩ مارس ١١٢٦م^(٢). ونستخلص من روايتى صاحب البيان المغرب وصاحب الحلل الموشيه أن عسكر المرابطين شن هجومه بغتة على المعسكر المسيحي، وعند ذلك اندفع ألفونسو المحارب بجنده للقتال وأطبق عسكره على الجيش المرابطى وأوقع به الهزيمة، ففرع تميم وعزم على نقل معسكره فى المساء من الوهدة التى كان يعسكر فيها إلى ربوة مرتفعة، وقد ترتب على تلك الحركة وقوع اضطراب فى معسكر المسلمين استغله ألفونسو المحارب وبادر بالهجوم مقتحماً معسكر المسلمين من جديد واشتد القتال طوال اليوم إلى أن حل المساء وكانت هزيمة قاسية على المسلمين^(٣).

أسفرت هذه المعركة عن استرداد ألفونسو الأول ثقتة بنفسه وقواته، وأيقن بتفوق قوته، وعندئذ راودته فكرة غريبة أن يعبر من إقليم ريه (Reyo) الذى يضم مالمقه (Malaga)، أرشدونه (Archidona)، والبشرات (Alpujarras) لكى يصل إلى ساحل البحر المتوسط، مجتازاً المنطقة الساحلية فى شلوبانية Salobrena إلى بلش مالمقه Vê-lez - Malaga وقد نفذ هذه الخطة بنجاح وعند عودته انحدر إلى الشاطئ نحو ادى شلوبانية العميق المتحصن المجاز، وپروى أنه خاطب بلفته أحد قواده عند رؤية هذا الوادى: «أى قبر هذا لو ألفينا من يرد علينا التراب»^(٤)، ثم سار غرباً نحو مدينة بلش

(١) ابن عذارى، نفس المصدر، ص ٧١، الحلل الموشيه، ص ٦٨، انظر أيضاً؛

Dozy (R), Recherches, Tomo I, de la tercera edicion, p. 356.

(2) Huici Miranda, Historia de valencia, t. III, pp. 55-56; Jose Maria Iacarra, op.cit., p. 90.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، القسم الخاص بالمرابطين، ص ٧١-٧٢، الحلل الموشيه، ص ٦٨.

(٤) الحلل الموشيه، ص ٦٩، ابن الخطيب (لسان الدين)، الإحاطة فى أخبار غرناطة، المجلد الأول،

تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٣، ص ١١٢.

مالقه، وأنشأ بها مركباً صغيراً يصيد له حوتاً أكل منه، وتتسائل الرواية الإسلامية: «هل حقق بهذا السلوك نذراً كان عليه فوفى به، أو حديث أراد أن يخلد عنه»^(١)

وفى بداية الربيع، قرر أن يعبر جبل شلير من المنكب، ثم مثل من جديد أمام غرناطة، وانتشرت قواته في المرج La Vege مدة ثلاثة أيام، واشتبكت مع قوات مكناسة Mequinez بقيادة أبي حفص بن تاشفين، وفي هذه المرة اقتنع ألفونسو المحارب باستحالة الاستيلاء على غرناطة سواء عن طريق القوة أو باستخدام عنصر المفاجأة، وقرر في النهاية أن يقفل عائداً إلى بلاده عن طريق وادي آش، وقد تعرض أثناء عودته لكثير من المضايقات، فلم يتركه المسلمون يرحل بسلام، ونشبت بينه وبين المسلمين اشتباكات أصيب خلالها عدد كبير من جنده، واضطر إلى العدول عن مخططة في العودة المباشرة إلى بلاده وآثر أن يشرق نحو مرسية ويسلك الطريق منها إلى شاطبه فيلنسيه^(٢)، ولحق بعسكره، أثناء عودته نحو عشرة آلاف من النصاري المعاهدين، الذين فروا من مواطنهم خشية الانتقام والهلكة، حدث كل ذلك وقوات المرابطين على أثر تلاحقه، والوباء يعصف بعسكره حتى وصل إلى بلاده مغلولاً وقد حطمه الإعياء والوهن بعد أن أنفق في غزوته خمسة عشر شهراً، ومع ذلك كان «يفخر بما ناله في سفره من هزيمة السلمين وفتكه في بلادهم وكثرة ما أسر وغنم»^(٣).

وتجمع الروايات العربية مع اعترافها في ذات الوقت بالانتصارات التي أحرزها ألفونسو المحارب في أرنسول واندفاعه في أراضي شرق الأندلس وجنوبه على الإخفاق الكبير الذي انتهت إليه حملته وتؤكد أنه عاد إلى وطنه في عسكر قليل بعد أن فقد منهم من فقد في الاشتباكات، ومن سقط فريسة لوباء الطاعون، في حين تجمع المصادر المسيحية على نجاح هذه الحملة على أساس أنها كانت تستهدف حمل أكبر قدر من الغنائم والأسلاب من بلاد الأندلس، ويؤكد الأستاذ أويشي ميراندا أن عبقرية المحارب ونزعته العسكرية خلقت له متاعب اقتصادية كبيرة لا سيما في صراعه ضد مملكة قشتالة، فقد اضطر أمام الحاجة إلى دفع رواتب جنده الأرغونيين والتبريين، إلى مد يده لانتهاك الكنائس والأديرة، فاستولى على كنوزها وباع الممتلكات المقدسة الموروثة ورهن بعضها، والثوب على مخصصات الكنيسة بالرغم من تدينه وورعه^(٤).

ونخلص إلى القول بأن الحصيلة النهائية التي جناها ألفونسو المحارب من وراء

(١) الحلل الموشيه، ص ٦٩، ابن الخطيب، الإحاطة، ج ١، ص ١١٢

(2) José Maria Lacarra, op.cit., p. 91

(٣) الحلل الموشيه، ص ٧٠

(4) Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 59

هذه الحملة بالإضافة إلى ما حققه من غنائم، يسرت للمستعربين النصارى في شرق الأندلس وجنوبه الهجرة إلى أراضي أرغون.

أما فيما يتعلق بنتائجها بالنسبة للمرابطين فقد أكدت أن النظم الدفاعية الإسلامية لم تكن آنذاك من القوة والكفاية إلى الحد الذى يمكنها من رد جحافل الغازين، وأن الخطط المرابطية منذ سقوط سرقسطة لم تكن كافية لإيقاف غارات الممالك المسيحية لاسيما بعد غزوة ألفونسو المحارب الموفقة التى استطاع أن يخترق فيها الأندلس من الثغر الأعلى حتى ساحل البحر المتوسط دون أن تستطيع قوة إسلامية مرابطية أو غيرها أن تقف فى سبيله.

وثمة نتيجة أخرى، وهى أن النصارى المعاهدين الذين كانوا يعيشون فى ذمة المسلمين يتمتعون برعاية الحكم الإسلامى وتسامحه لم يكونوا يشعرون نحو الدولة الإسلامية بأى ولاء بل كانوا على العكس من ذلك يمثلون خطراً داخلياً حقيقياً على الأندلس كما كانوا ينتهزون الفرص المواتية للنيل منها والتواطؤ مع أعدائها وتخريضهم على العدوان، وكان لزاماً على الحكومة المرابطية أن تتخذ نحوهم موقفاً صارماً جزاء خيانتهم للمسلمين وبذلهم العون للأرغونيين أثناء غزوتهم الطويلة وقد حمل ذلك أبا الوليد بن رشد قاضى قرطبة على أن يعبر إلى المغرب ليقابل الأمير على بن يوسف فى مراكش، ويشرح له أحوال الأندلس، وما منيت به من نكبات على أيدي المعاهدين الذين خرجوا على العهد ونقضوه وأفتى بتغريبهم ووجوب إجلالهم عن أوطانهم، وهو أخف ما يؤخذ به فى عقابهم، فأخذ أمير المسلمين بهذه الفتوى، وصدر أمره إلى جميع بلاد الأندلس بتغريب النصارى المعاهدين إلى العدو المغربية، فنقيت منهم جموع غفيرة، وسيق الكثير منهم إلى مكناسة وسلا وغيرها من بلاد العدو، وضم أمير المسلمين منهم عدداً إلى حرسه الخاص، وقد وقع هذا التغريب فى عام ٥٢١هـ (أواخر عام ١١٢٧م)، وكانت نكبة بالغة لم يصب المعاهدون مثلها منذ بعيد (١).

كما أسفرت مقابلة ابن رشد للأمير على بن يوسف أيضاً عن الاتفاق على تأمين الدولة المرابطية من الهجوم الموحدى الذى أخذ يزداد يوماً بعد يوم، والضرورة الملحة لبناء الأسوار وتعزيز تحصينات قواعد الأندلس التى تتعرض باستمرار للحمالات المسيحية (٢).

(١) راجع: ابن عذارى، المصدر السابق، القسم الخاص بالمرابطين، ص ٧٢، ٧٣، الحلل الموشية، ص ٦٦، ص ٧٠، ابن الخطيب، الإحاطة، المجلد الأول، ص ١١٣، يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين (الطبعة الثانية)، ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٥٨، ص ١٤٧، ص ١٥٠، Simonet (Francisco Javier); Historia de los Mozarabes, Madrid, 1896, pp. 746-751.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، القسم الخاص بالمرابطين، ص ٧٣.

ب - موقعة قلبيرة Cullera وما تبعها من حملات أرغونية :

لما عاد ألفونسو المحارب من حملته الطويلة على الأندلس، أقام بعض الوقت ينظم قواته، ثم ما لبث أن استأنف نشاطه الحربي في أراضي الشجر ضد المرابطين، وكان المرابطون ما يزالون يحتلون من الشجر الأعلى المنطقة الواقعة شرقي سرقسطة فيما بين نهري سنكا وسجري فرعى إيره، وأهم قواعدهم لارده وإفراغه ومكننسة الواقعة عند ملتقى إيره وسجري وكذلك المنطقة الممتدة بعد ذلك على طول نهر إيره حتى مصبه عبر ثغر طرطوشه، وكان ألفونسو المحارب يستهدف الاستيلاء على هذه المنطقة حتى يتمكن من إيجاد منفذ له إلى البحر المتوسط عن طريق ثغر طرطوشة الهام.

وكان ألفونسو المحارب يتوق إلى انتزاع هذا الشجر، ولكنه كان مضطراً إلى أن يخوض قبل ذلك معارك عديدة مع المرابطين الذين يسيطرون على منطقتي لارده وإفراغه وما وراءها من الأراضي حتى مصب نهر إيره، لذلك أخذ يعد العدة لتنفيذ مشروعه منذ عودته من الأندلس، ولم تمض ثلاثة أعوام حتى خرج في قواته من سرقسطة، وزحف شرقاً نحو نهر سنكا في اتجاه إفراغه ولارده، وكانت هذه المنطقة قد غدت منذ سقوط سرقسطة مسرحاً للصراع المستمر بين المسلمين والنصارى، وكانت للمرابطين فيما يبدو حاميات قوية في تلك القواعد، علاوة على قوات متحركة تناسب بسرعة من شرقي الأندلس من منطقة بلنسية، كلما هم النصارى بالعدوان.

ويظهر أن ألفونسو المحارب لم يكن يرغب في الاصطدام مع المرابطين في هذه المنطقة المكشوفة من الشجر الأعلى اصطداماً حاسماً، لعلمه بمدى فاعليتهم على مواجهته في الأراضي المكشوفة، فأضمر في نفسه الاستيلاء على الثغور المحيطة بكورة بلنسية فما أن تم له الاستيلاء على لبييا (Liria)، وبله مرشانتة (Villa Marchante) حتى اتجه بقواته نحو أراضي بلنسية^(١). وكان على بن يوسف قد بلغه عن طريق عامله على بلنسية أن ألفونسو المحارب يتأهب لغزو أراضي المسلمين، فخشى أن تكون حركته تلك على غرار الحملة التي قادها إلى الأندلس، فأمر بحشد قوات من السودان تتكفل بنفقاتها مختلف المدن حسب طاقة كل مدينة، ثم وجهت هذه القوات إلى مرسيه واليها بدر بن ورقاء تعزيزاً للجهود المرابطية في شرق الأندلس بقيادة ابن مجوز، وكان ابن رذمير (ألفونسو الأول) - حسب رواية ابن القطان^(٢) - يربط بقواته في

(1) Huici Mirand, op.cit, t. III, p. 65; José Maria Lacarra, op.cit, p. 100.

(2) ابن القطان، نظم الجمان، تحقيق الدكتور محمود علي مكي، الرباط، ص ١١٠-١١٢.

القلية أو قلييرة^(١)، على مقربة من جزيرة شقر، وهناك نشبت معركة عنيفة بين المرابطين والأرغونيين فى عام ٥٢٣هـ (١١٢٩م)، منى فيها المسلمون بهزيمة نكراء، وفنى معظمهم قتلاً وأسراً، واستولى العدو على الأسلاب والسلاح والدواب وبلغت خسارة المسلمين نحو اثنى عشر ألفاً، بين قتيل وأسير^(٢).

والى جانب رواية ابن القطان عن هذه الموقعة، لدينا عنها وثيقتان مرابطتان، تسلطان عليها مزيداً من الأضواء، الوثيقة الأولى، رسالة وجهها أمير المسلمين على بن يوسف إلى الأمير أبى محمد بن أبى بكر من حضرة مراكش، ومؤرخه فى السابع من شهر شعبان سنة ٥٢٣هـ (٢٦ يوليو ١١٢٩م) ردّاً على كتابه الذى أرسله إلى أمير المسلمين ينبئه فيه بأخبار هذه الموقعة، والرسالة من إنشاء الكاتب الأندلسى أبى مروان بن أبى الخصال، وكان يتولى الكتابة فى ديوان الإنشاء المرابطى، وفيها ينحى أمير المسلمين باللوم العنيف على قائده أبى محمد بن أبى بكر، وينوه بتقصيره وخذلانه فى عبارات لاذعة، ثم يحثهم على التآلف والاتفاق والطاعة، كما يوجههم فيها إلى ما يجب اتباعه من قطع المدد عن العدو^(٣).

والوثيقة الثانية رسالة وجهها أمير المسلمين على بن يوسف أيضاً من حضرة مراكش إلى قادة الجيش المرابطى الذين هزموا فى موقعة القليعة أو قلييرة ومؤرخه فى الحادى عشر من شعبان عام ٥٢٣هـ ردّاً على كتابهم الذى يصفون فيه المعركة، وقد ذكر فيها أنه لا مخرج عن القضاء وحكمه، ولا مجيد عن القدر وحثمه، وأنه لم يأل جهداً فى العمل لإعلاء كلمة الإسلام، وبذل الأموال وحشد الرجال، وأنه لو استطاع أن يكون حاضراً بنفسه فى الأندلس لفعل، ثم يطمئنهم ويؤكد لهم أنه لاهم له إلا الزياد والدفاع عنهم والتوافر عليهم بأتم الاضطلاع^(٤).

(١) قلييرة، تقع على الضفة اليسرى من نهر شقر بالقرب من مصبه، على جبل منزل ومنصبه كحصن تسيطر على البحر والسهل الذى تناوبت فيه زراعة الأرز وأشجار البرتقال ويؤكد الإدريسى أنها كانت حصناً يحيط به البحر فى قوله «قد أحرق به البحر وهو حصن منيع على موقع نهر شقر»، ويذكر الإدريسى أيضاً فى قلييرة كانت تفرغ أخشاب الصنوبر التى تقطع من غابات قلعة ثم تلقى فى الماء وتحمل منها إلى جزيرة شقر ثم إلى قلييرة، ومنها تحمل إلى دانية فتشأ منها السفن الكبيرة والمراكب الصغيرة، ويحمل إلى بلنسية من الخشب ما كان عربكاً فيستخدم فى الأبنية والمنازل. راجع: الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٩٢، ص ١٩٥.

(٢) ابن القطان، المصدر السابق، ص ١١١، انظر أيضاً:

Jozé Maria Lacarra, op.cit. , p. 101.

(٣) انظر: أربع وثائق جديدة، نشر الدكتور حسين مؤنس، فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، المجلد الحادى عشر، الجزء الثانى، ديسمبر ١٩٤٩، ص ١٤٠.

(٤) نفس المرجع، ص ١٤٢.

ويشير ابن القبطان بعد حديثه عن موقعة القليعة إلى أن قوة من النصارى أغارت على غليرة (Galera) الواقعة جنوبي بلنسية واكتسحت ما وجدت (١). ويدور أن أهل بلنسية قد استغاثوا بالأمير على بن يوسف، ووجه قاضى بلنسية الخطيب أبو الحسن رسالة إليه في هذا الشأن، فرد عليه الأمير على بن يوسف برسالة مؤرخة في السابع من شعبان سنة ٥٢٣هـ، وفيها يشير إلى هزيمة جنده في القليعة إنما وقعت بسبب تخاذلهم وعدم اتباعهم لتوجيهاته، ثم يطمئن أهل بلنسية ويؤكد لهم أنه لن يتركهم للضياع ولن يأل جهداً في الذب عنهم، وأنه قد كتب إلى سائر ولاته بإرسال الأقوات والتعجيل بإنفاذها في أقرب وقت، وأنه وضعهم في باله في أعلى مكان، ويختتم رسالته بالدعاء لهم (٢).

وفي صيف العام التالي ١١٣٠م/٥٢٤هـ، خرج الفيكونت جاستون دى بيرنه (Gaston de Bearn) (غشتون) أحد كبار الإقطاعيين بمملكة أرغون والساعد الأيمن لألفونسو المحارب في فتح سرقسطة وبفضل ما قدمه من خدمات نصب حاكماً على سرقسطة مع دون استبن (Don Esteban) أسقف خاكا، فخرجا بقواتهما في حملة على أراضي بلنسية معتمدين على النجاح الذى تحقق من قبل في قلييرة وغليرة، وتوغلا في شرق الأندلس، ولكنهما انهزما وقتلا، ولا تعلق الحوليات الطليطيلية الأولى على ذلك بأكثر من القول بأن العرب قتلوا الأسقف دون استبن والفيكونت جاستون في سنة ١١٣٠م (٣).

أما الرواية العربية ويسجلها ابن عذارى فتزودنا بتفصيلات مثيرة عن هذه الحادثة وملخصها أن محمد بن بدر والى بلنسية توفى في هذه السنة (٥٢٤هـ) وخلفه عليها ابنه ينتان، وفي جمادى الثانى من هذه السنة اجتاحت قوات الفيكونت والأسقف أراضيهم، ولكنهما انهزما وسقطا صريعين، وتركت جثثاهما في ساحة المعركة، وحملت رأس غشتون (جاستون) إلى غرناطة لعرضهما على تاشفين بن على الحاكم العام للأندلس، فوضعها على سن رمح وطاف بها في الأسواق والشوارع بمصاحبة الطبول والدفف، وبعدئذ حنطها وأرسلها إلى المغرب، وعند استقبال أمير

(١) ابن القبطان، المصدر السابق، ص ١١٢.

(٢) راجع نص الوثيقة في : محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم

الأول، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٥٤٣.

(3) Los Anales Toledanos primeros, reedición Huici Miranda, p. 345; Vease, Huici Miranda, Historia de valencia, t. III, pp. 73-74, José Maria Lacarra, op.cit., p. 104.

المسلمين على بن يوسف هذه الأخبار عادت البسمة والفرحة لوجهه بعد الكوارث التي قاستها قواته، وعندئذ وصلت رسل ملك أرغون لتوقيع معاهدات وافتداء جثمان الفيكونت والأسقف، فاستقبلهم ناشفين بحفاوة وعادوا إلى ملكهم ألفونسو الأول في مركب مصاحب لهم حتى وصلوا إلى بلدهم^(١).

٣ - مرحلة الإفاقة

أ - دور ابن غانية في انتصار المرابطين بافراغة:

كان أبو محمد يدر بن ورقا أو كما يسميه ابن عذارى محمد ابن يوسف يدر يتولى أمر مرسية منذ عام ٥١٤هـ/١١٢٠م، ويند أنه كان يجمع بين ولايتها وولاية بلنسية في آن واحد، وكان من جملة مهام يدر توجيه الحملات على مملكتي أرغون وقطالونية، ولهذا فقد طلب من أمير المسلمين على بن يوسف أن يوجه إليه القائد الفذ يحيى بن غانية ليعاونه في مهمته نظراً لما كان يتميز به ابن غانية من شهرة حربية فائقة في غرب الأندلس^(٢) إذ كان يهدف تحقيق نوع من التوازن في القوى مع قوات ألفونسو المحارب الذي لم يكف منذ استيلائه على سرقسطة عن إنهاك قوى المرابطين في كتنته حتى أمكنه أن يفتح في يسر عدداً من المدن الهامة مثل طرسونة و Ariza و مدينة سالم Medinaceli في الغرب ودروقه Daroca ومونريال Mon-bierca و real في الشرق، وقد حقق ألفونسو كل هذه الفتوحات خلال سبع سنوات منذ استلائه على سرقسطة أي في سنة ١١٢٥م، هذا بالإضافة إلى غزواته الجريئة التي شق فيها الأندلس مجتازاً أراضي جزيرة شقر وبلنسية ودانيه ومرسية أثناء ذهابه وعند قفوله^(٣).

ولقد كانت هذه الحوادث الخطيرة في منطقة شرق الأندلس سبباً رئيسياً دفع يدر إلى طلب نذب يحيى بن غانية لمعاونته، فاستجاب أمير المسلمين إلى هذا الطلب

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، القسم الخاص بالمرابطين، ص ٨١، ٨٢.

(٢) ابن الخطيب (لسان الدين)، الإحاطة في أخبار غرناطة، المجلد الرابع، الطبعة الأولى، القاهرة

١٩٧٧، ص ٢٤٤.

(3) Gaspar Remiro (M), Historia de Murcia Musulmana, Zaragoza, 1965, pp.

152, 153.

ويذكر ابن عذارى أن ابن غانية وفد عندئذ إلى شرق الأندلس والياً لمرسیه ^(١). ولكن يبدو أنه قدم إليه بصفته قائداً للجيش المرابطية، وأنه لم يحظ بولاية بلنسية ومرسیه إلا بعد وفاة يدر في عام ٥٢٤هـ/١١٢٩م ^(٢) بدليل أن ابن القطان يذكر أنه لما مات يدر جمع علي بن يوسف عمله إلى ابن غانية فسكن مدينة بلنسية واجتمع عليه عسكرها ^(٣).

وابن غانية هو الأمير أبو زكريا يحيى بن علي بن غانية الصحراوي، وقد سمي بنو غانية باسم أمهم غانية، وهي لمتونية من قرابة يوسف بن تاشفين، وربما كانت تسميتها بهذا الاسم دليلاً على أصلها الإقليمي نسبة إلى بلاد غانة، وقد كان شائعاً في هذا الوقت تلقيب الولد باسم الأم دون الأب، لا سيما عندما كانت الأم تمتاز بصفات وخلال عالية، وكان والد يحيى بن علي بن يوسف من زعماء قبيلة مسوفة أحد بطون صنهاجة، ورعى يحيى وأخوه محمد، الذي تولى حكم الجزائر الشرقية فيما بعد، في بلاط مراکش في عهد يوسف بن تاشفين وولده علي ^(٤)، ثم عبر يحيى إلى الأندلس وهو فتى، وعاش في كنف الأمير أبي عبد الله محمد بن الحاج للمتوني والي قرطبة، الذي تزوج من أمه غانية هذه بعد وفاة أبيه وكفله فندبه لحكم مدينة استجة (Ecija) فكانت أول ولاية له ^(٥). وبدأ نجمه يلمع في أحداث الأندلس منذ أن انتدب في خدمة يدر، وأصبح اسمه يتردد في معظم الحملات التي وجهها المرابطون على أرغون وقطالونية، وفرضت الأوضاع القلقة في هذه المنطقة لقرتها من الممالك المسيحية في الشمال وتعرضها لهجماتهم المتكررة، على واليها أن يتفرغ تفرغاً كاملاً لشئون الحرب والقيادة، وهكذا كان يحيى بن غانية ينيب عنه في حكم بلنسية ومرسیه المنصور بن محمد بن الحاج أخاه لأمه ^(٦).

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، القسم الخاص بالمرابطين، ص ٦٧.

(٢) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٢٠، ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٤، ص ٣٤٤، وفي رواية لابن عذارى يقول فيها أن الذي خلف يدر في ولاية شرق الأندلس هو يثان بن علي للمتوني، راجع: البيان المغرب، القسم الخاص بالمرابطين، ٨١.

(٣) نظم الجمان، ص ٢٢٠، ص ٢٢١.

(4) Al Fred Bel, Les Benou Ghanya, Paris, 1903, pp. 1-5.

(٥) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٤، ص ٣٤٤.

(٦) ابن الآبار (أبو عبد الله محمد عبد الله بن أبي بكر القضاعي)، المعجم في أصحاب القاضى الإمام

أبي علي الصوفي، تحقيق الأستاذان فرانسيسكو كوديرا وزيدان، مطبعة، ١٨٨٥، ص ١٩٤، ترجمة

وكان ألفونسو يرمى بعد استيلائه على مدينة مكننسه الواقعة عند ملتقى نهر سجري وإبره في يونيه ١١٣٣م / أواخر ٥٢٧هـ إلى السيطرة على مدينة أفراغه، وتقع على ربوة عالية في نهاية جرف شديد الانحدار تصعب مهاجمته في الضفة اليمنى لنهر سنكا وعلى مسافة قريبة شمالي مكننسه، ولكن المرابطين إذ استشعروا من تحركات ألفونسو المحارب بأن المعركة الحاسمة بينهم وبين النصاري في الثغر الأعلى باتت على وشك الوقوع، رأوا من باب التحوط والتحرز تحييد أمير برشلونة رامون برنجر الثالث Ramon Berenguer III الملقب بالعظيم El Grande ومهادنته تأمينا لظهورهم وحتى لا ينتهز الفرصة فيهاجم من جانبه، ويعبر ابن القطان عن ذلك بقوله : «فخافوا أن يفتق عليهم فتق آخر من البرشلونى»^(١)، فاتفقوا استجابة لمشورة علي بن يوسف وتوجيهه على أن يؤدوا له جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دينار، فغضب ألفونسو المحارب، وأقسم بايمان مغلظة «لأنزلن على تلك البلاد التى يؤدون عليها الجزيرة فأصيرها فى ملكى، وأقطع منفعتها عن الفاعل الصانع البرشلونى حتى يعلم أهل الأرض أنى قهرتهم فى كل وجه»^(٢).

وصل ألفونسو المحارب بقواته إلى إفراغه، وأحكم حصاره حولها، فاستجد حاكمها سعد بن مردنيش بالأمير تاشفين بن على الحاكم العام للأندلس ليرسل إليه نجدة فورية عاجلة، وقيل أن أهلها كتبوا إلى يحيى بن غانية يستنصرونه ويطلبون منه تزويدهم بالأقوات لنفاذ المؤن لديهم، ثم حذروهم من التقاعس عن إنجادهم وإلا خضعوا لابن رذمير وأعطوه المقادة^(٣).

وكان طبعياً أن يستجيب الأمير تاشفين لطلبهم فأرسل إليهم على الفور نجدة فعالة، فمن قرطبة أسرع واليها الزبير بن عمرو اللمتونى إلى الثغر الأعلى ومعه ألفا فارس ومؤن كثيرة، واشتركت قوات شرق الأندلس بقيادة واليها أبى زكريا يحيى بن غانية فى قوة من خمسمائة فارس، كما حشد عبد الله بن عياض والى لارده قوة من مائتى فارس^(٤)، بينما كانت عدة الجيش الأرجونى اثنى عشر ألف فارس^(٥).

(١) ابن القطان، المصدر السابق، ص ٩٩.

(٢) نفس المصدر، ص ٢١٩-٢٢٠، ورواية ابن القطان هذه أكثر تفصيلا وخاصة أنها توضح العلاقات

السياسية فى هذه الفترة بين أرغون وقطالونية والدوافع المباشرة لحصار أفراغة.

(٣) ابن القطان، المصدر السابق، ص ٢٢١.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ١٤.

(٥) نفس المصدر والجزء والصفحة.

وعندما اقترب ابن غانية من افراغه^(١) بدأ ينظم عسكره تمهيداً للقتال، فقدم على قوات الطليعة ابن عياض، وعلى القلب قوات مرسية، بينما ترك المؤخرة تحت قيادة الزبير بن عمرو^(٢).

وفي صباح يوم ١٧ يوليو ١١٣٤م (رمضان سنة ٥٢٨هـ) وصل المدد والأنجاد إلى المحصورين وكان ألفونسو المحارب آنذاك قد استطاع حصار افراغه ومل لطول المقام حولها فشرح جزءاً من قواته^(٣)، ويروي ابن القطان تفاصيل طريفة عن حدث وقع أثناء هذا الحصار الأرغوني على افراغه مجمله أن أحد رهبان الفرنجة اقترح على ألفونسو أن يدعوا هذا الراهب عليهم فينهزم حصنهم ويتمكن ألفونسو من اقتحام المدينة، ويبدو أن هذا الاقتراح لقي ترحيباً من الملك فأقره عليه، وأقبل الراهب على سور افراغه، فلما رآه أهل افراغه «قائماً على الربوة لم يشكوا في خبره أنه هو، وكان عندهم منجنيق قوى فصبوه إلى الربوة وغرضه الراهب ووضعوا في كفته حجراً كبيراً... الراهب وهو في دعائه على المسلمين يجد جده، فأصابه حجر المنجنيق على هذه الحالة، فذهب بنصفه وبقي نصفه في موضعه^(٤).

وأيما ما كان الأمر فقد تقدمت قوات الطليعة بقيادة ابن عياض فاستهان بها ألفونسو وأرسل للقائهما فرقة ضخمة من جيشه التحم معها ابن عياض وأبادهما، وعندئذ أدرك ألفونسو خطورة الموقف، فأسرع بجميع قواته الموثوق في عددها وشجاعتهما نجدة لفرقتهم، إلا أنه وصل في نفس الوقت قلب الجيش المرابطي بقيادة ابن غانية وعاق قوات ألفونسو واشتبك معها في معركة ضارية، استطاع فيها ابن غانية أن يأسر عدداً كبيراً من عسكر ألفونسو، وفي الحال خرج المحصورون إلى خارج أسوار المدينة نساءً ورجالاً كباراً وصغاراً، وأسرعوا إلى المعسكر الأرغوني، واشترك الرجال في القتال،

(١) عن موقعة افراغة، انظر أيضاً:

ابن عذارى، البيان المغرب، القسم الخاص بالمرايطين، ص ٩٢ وما بعدها، ابن الخطيب (لسان الدين)، أعمال الإعلام، الجزء الخاص بتاريخ أسبانيا، نشره الأستاذ ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦، ص ٢٥٩، السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ ٢، ص ٧٣٧؛

Codera, op.cit., p. 17; Gaspar, Remiro, op.cit., p. 154; José Maria Lacarra; op.cit., pp. 130-131.

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ١١، ص ١٤، وانظر أيضاً:

Gaspar remiro, op.cit., pp. 154-155.

(٣) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ١١، ص ١٤، الحميري، المصدر السابق، ص ٢٥.

(٤) ابن القطان، المصدر السابق، ص ٨١، ص ٨٢.

ونهب النساء كل ما عثروا عليه، ولما احتدمت المعركة بين ألفونسو المحارب وابن غانية، تقدمت قوات المؤخرة بقيادة الزبير لتضرب ضربتها وقت ذلك في عضد ألفونسو وأثر السلامة لمن بقي من عسكره حياً وانسحب بمن نجا منهم إلى سرقسطة، ولكنه لم يلبث أن توفي مغموماً عندما وقف على كثرة قتلاه^(١).

. وهكذا انتهى يوم افراغه بهزيمة ساحقة منى بها ألفونسو واستولى المرابطون على محلاته وعتاده وسلاحه، وكان لهذا الانتصار الحاسم الذى حققه المرابطون فى افراغه صدى كبير فى سائر أنحاء الأندلس وفى أسبانيا النصرانية بوجه خاص، وعادت سمعة المرابطين العسكرية إلى سابق مكانتها، وذاع صيت ابن غانية قائد جيوش المرابطين ووالى بلنسية ومرسيه، فنظم الشاعر أبو جعفر بن وضاح المرسى، فى واقعة افراغه وفى مديح ابن غانية قصيدة طويلة منها: .

شمرت برديك لما أسبل الوانى .: وشب منك الأعداى نار غيان
دلقت فى غاية الخطى نحوهم .: كالعين يهفو عليها وطف أجفان
عقرتهم بسيفه الهند مصلثة .: كأنما شربوا منها بغدران^(٢)

ب- نتائج انتصار افراغه:

استغل ابن غانية النجاح الذى أحرزه فى افراغه (Fraga) والارتباك الذى أعقب وفاة الفونسو المحارب فى ٧ سبتمبر ١١٣٤م واستخلاف رميده الراهب وانتهاء المعاهدة المعقودة بينه وبين الراهب، فاتفق مع سعد بن مردنيش والى افراغه على حصار مدينة مكننسه Mequinezsa التى كانت قد استسلمت منذ ثلاث سنوات لألفونسو المحارب، فدفع لمحاصرتها بقوات من لاردة وطرطوشة والقلاع المجاورة فى صيف عام ٥٣٠هـ/١١٣٦م، وبدأ يحاصرها، ولما حاولت قافلة محملة بالمؤمن من سرقسطة إمداد المحاصرين، ولت الأدبار عند رؤية أصحابها لابن غانية، وتركوا القافلة غنيمة للمسلمين وعندئذ اشتد اليأس بالمحاصرين فقرروا والى المدينة التسليم وسمح له ابن غانية بالخروج من المدينة فى أهله، وفى الحال دخلها ابن غانية وأخضع كل قلاع المنطقة^(٣).

(١) راجع: ابن الأثير، المصدر السابق، ج-١١، ص ١٤، الحميرى، المصدر السابق، ص ٢٥.

(٢) فى: الحميرى، المصدر السابق، ص ٢٥.

(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، القسم الخاص بالمرابطين، ص ٩٥-٩٦، وانظر أيضاً:

Huici Miranda, op.cit. , t. III, p. 91.

اشترك ابن غانية في محاولة فك الحصار عن أريليه:

كانت أريليه (Oreja-aurelia) من أمنع الحصون الإسلامية إذ كان عمرانها يمتد فوق المرتفعات الواقعة على الضفة اليسرى لنهر تاجه Tago، على بعد أحد عشر ميلا شرقي أرانخويس Aranjuez، وكان هذا الحصن مصدر قلق دائم للقشتاليين وقاعدة المسلمين في كل غاراتهم على قشتالة^(١).

وكان قائد الحصن يشن هجماته السريعة على نحو يكاد يكون متواصلا على أراضي طليطلة بمعاونة قائد حامية قلعة رباح، وقد اتفق في إحدى غاراته أن فاجأ جوتبرت أرميلدت حاكم الفهمين، والأخوين دومنجو ودييجو الفارث حاكما اشكونيه Escolona في كمين أعده لهم، وانتهى الأمر بقضائه عليهم، وتطلق عليه مدونة الفونسو السابع قاتل المسيحيين وفرسان ترانسييرا^(٢).

وتشير الرواية المسيحية إلى أن ألفونسو السابع قرر إزاء هذا الخطر المائل أن يضع حداً لهذه الغارات المتكررة عن طريق سيطرته على حصن أريليه، فأعد لذلك قوة عسكرية أسند قيادتها إلى جوتييرو فرناندث Guterrio Fernandez حاكم طليطلة يتكون من قوات من ترانسييرا واستراما دوره وجليقية وليون، وقام بمحاصرة حصن أريليه في شهر أبريل ١١٣٩م، كما حضر الإمبراطور بنفسه للإشراف على احكام الحصار حول القلعة^(٣).

وقد واجه قائد حصن أريليه المرابطى الحصار بكل قوة وبسالة وصمد له زهاء خمسة شهور (من أبريل حتى سبتمبر)، وعندما رأى استحالة الصمود أكثر من ذلك نظر لنفاد المؤمن والأقوات وتفشى الجوع بين قواته، لم يتردد في طلب العون من المرابطين فهرعت إليه قوات من قرطبة بقيادة واليها، ومن أشبيلية، ومن شرق الأندلس بقيادة يحيى بن غانية واجتمعت هذه القوات تحت قيادة يحيى بن غانية لإنقاذ الحصن وإمداده بالمؤمن وتضيف الرواية المسيحية أن عسكر المسلمين وتبلغ عدتهم ثلاثين ألف فارس سلكوا طريق طليطلة وأن ابن غانية وضع قوات كبيرة من شرق الأندلس في كمين نصبه بمقتضاه تتقدم قوات المرابطين في قرطبة وأشبيلية لمهاجمة طليطلة، فيبادر ألفونسو السابع لإنقاذها، وعندئذ تخرج قوات شرق الأندلس وتهاجم القوات القشتالية المحاصرة لحصن أريليه وتجد حامية القلعة بالرجال وتمدها بالمؤمن

(1) Chronica Adefons, Imperatoris, de la edicion luis Sanchez belda, Madrid, 1950, No. 146, p. 133; Huici Miranda; Ibid, p. 92.

(2) Chronica Adefonsi Imperatoris, No. 152, p. 146; Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 92.

(3) Huici Miranda, Ibid, p. 93.

والعتاد، وتذكر الرواية المسيحية أن المسيحيين علموا بأمر هذا الاتفاق، وأنهم أبلغوا الإمبراطور بالخطة ولكن الإمبراطور كان واثقاً في قدرة طليطلة على الصمود لقوة حاميته قرر البقاء على حصار أريليه^(١). وعندما وصل الجيش المرابطي إلى ظاهر أسوار طليطلة، حسب الخطة التي أعدها ابن غانية خرجت الملكة نرجيلا إلى شرفة القصر العالي المطل على نهر تاجه وظهرت مع وصيفاتها أمام قادة المسلمين وقد ازدانت بأفخر الثياب والحلي، وبعثت إلى ابن غانية رسولها يؤنبه بلسانها لأنه قدم لمهاجمة بلد تدافع عنه امرأة، في حين أن الإمبراطور ينتظرهم بهيئته عند حصن أريليه، فدهش ابن غانية ومن برفقته من قادة المسلمين ولم يسمعهم إلا أن ينحوا قبالة الملكة المطلة عليهم تكريماً لها وتعظيماً، ثم استأنفوا سيرهم دون أن يقوموا بأية محاولة لمهاجمة هذه المدينة، وعلى هذا النحو من روح الفروسية صورت الروايات هذا اللقاء بين المسلمين والنصارى في أراضي طليطلة^(٢).

أما قائد حصن أريليه فقد اضطر إلى طلب مهلة ثلاثين يوماً وفقاً لتقاليد هذا العصر - لطلب نجدة أخرى قبل أن يستسلم لمحاصريه - وتفترض الرواية المسيحية أنه على الرغم من إخفاقه في نصرة قوات الأندلس له، فقد بعث برسل إلى المغرب يطلب منهم العون والممدد، ولكنه اضطر في النهاية إلى التسليم، وسمح القشتاليون لحماية الحصن أن تخرج بالأمان وأن تسير إلى قلعة رباح^(٣).

أما الرواية الإسلامية الوحيدة التي تزودنا ببعض أخبار هذه الغزوة وأعنى بها رواية ابن القطان فتشير إلى أن السليطين (ألفونسو السابع) غز أريليه في شهر رمضان سنة ٥٣٣هـ، فهرعت لنجدة المدينة قوات من شتى الولايات الأندلسية، ثم كفوا ورجعوا من الطريق، ونقصت المؤن وقطع الماء عن المدينة، واشتد بهم الحصار، فأسلموا الحصن للنصارى^(٤).

وأياً ما كان الأمر، فقد اعتبر القشتاليون الاستيلاء على هذا الحصن فتحاً مبيتاً،

(1) Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 93.

(2) Chronica Adefonsi Imperatoris, No. 116, pp. 90-91.

وانظر أيضاً :

Ibars (Andres Piles), Valencia Arabe; tomo I, Valencia, 1901, p. 481.

محمد عبد الله ع ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الأول، القاهرة، ١٩٦٤، ص ١٥١.

(3) Chronica Adefonsi Imperatoris, No. 154, p. 150.

وانظر أيضاً :

Huici Miranda , op.cit., t. III, pp. 96-97

(٤) نظم الجمان، ص ٢٤٤-٢٤٥.

واحتفلوا بذلك فى طليطلة، واستقبل رجال الدين القيصر الظافر، وساروا فى مركبه إلى الكنيسة الكبرى حيث أقيم قداس شكر حافل،^(١) بينما يد نجم ابن غانية، المنتصر فى إفراغه منذ ذلك الحين يخبر شيئاً فشيئاً وكأنها بداية النهاية لهذه الشخصية العظيمة.

٤ - ثورة شرق الأندلس على المرابطين وبداية انهيار سلطانهم فيه

أ - مقدمات الثورة:

كان للحوادث التى قامت بالمغرب من انتصار الدعوة الموحدية وانتشارها وانهيار سلطان المرابطين فى المغرب، صدى قوى فى الأندلس حيث كانت الدولة المرابطية مازال تبسط سلطانها على مختلف قواعده، وقد تمثل ذلك فى شكل ثورة عارمة ضد المرابطين شملت معظم أنحاء الأندلس، ومبرها فى الظاهر عجزهم عن حماية الأندلس من غزوات النصارى المخربة، وفى الواقع تفوق العصبية الأندلسية التى ضاقت ذرعاً بحكم المرابطين الجائر المتستر وراء فكرة الجهاد، وقد تمثل ذلك واضحاً فى أحداث قرطبة عام ٥١٥ هـ التى سبق الإشارة إليها^(٢)، والتى تعتبر أول تعبير ملموس لهذا الشعور القومى الجارف ضد عسف الحكم المرابطى.

وأول أعراض هذه الثورة العامة على المرابطين ظهرت فى غرب الأندلس فى الوقت الذى أوشك فيه سلطان المرابطين فى المغرب على الانهيار، فثار عليهم أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسى فى منطقة شلب، وكان ابن قسى هذا مولداً، من أصل مسيحى، نشأ فى أحواز شلب، وعمل فى بداية أمره مشرفاً بشلب^(٣)، ثم اعتنق طرائق الصوفية، وتبحر فيها حتى أصبح من شيوخها، وألف فيها عدداً من الكتب، منها كتاب «خلع النعلين»^(٤)، وتزهد وادعى الولاية والهداية، وتسمى بالمهدى وبالإمام والتف حوله كثير من الصحب والأنصار، يكتبون على قراءة الكتب الصوفية والباطنية وغيرها، حتى ذاع أمرهم بالأخص فى منطقة شلب وميرتله ولبله

(١) أنباخ، المرجع السابق، ص ١٨٣.

(٢) راجع: ص ٦٣ من هذا الكتاب.

(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، الجزء الخاص بالأندلس، ص ٢٤٩.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

وغيرها من أعمال غرب الأندلس، وسموا بطائفة المريدین^(١)، ولذلك عرفت ثورة ابن قسى بثورة المريدین^(٢).

وقد نجح ابن قسى فى القضاء على سلطان المرابطین فى ميرتله فى ربيع الأول سنة ٥٣٩هـ^(٣)، وفى أعقاب ذلك قام أهل يابره برئاسة سيد راي بن وزير بخلع سلطان المرابطین فيها وحذا حذوهم أهل شلب برئاسة محمد بن عمر ابن المنذر، ولما علم المرابطون بباجه بما وقع طلبوا من أهلها الأمان، وغادروها إلى أشبيلية، فأسند ابن قسى حكم باجه وأحوازا إلى ابن وزير وحكم شلب وأحوازا إلى ابن المنذر^(٤).

وتوالى الأحداث بعد ذلك فى غرب الأندلس إلى أن فسد ما بين ابن قسى وابن وزير باستيلاء الأخير على ميرتله، فجاز ابن قسى إلى عبد المؤمن بمراكش فى عام ٥٤١هـ ورغبة فى امتلاك الأندلس، فسير عبد المؤمن معه جيشاً بقيادة براز بن محمد المسوفى لقتال المرابطین والثوار فى الأندلس^(٥).

ومن الجدير بالذكر أن هذه الثورة كانت أحد الأسباب فى إقدام المرابطین فى الأندلس على نقل ابن غانية من ولاية شرق الأندلس إلى ولاية قرطبة وأشبيلية^(٦)، ولهذا لم يتردد ابن غانية فى التصدى لابن قسى وأتباعه عندما زحفوا على أشبيلية، وتمكن من إيقاع الهزيمة بهم فى طريانة، ثم طاردهم حتى لبله، وأخذ فى منازلتها، وهنا وصلته أخبار عن قيام الثورة فى قرطبة فارتد فى الحال إلى أشبيلية وأقام بها استعداداً لمواجهة الأحداث المقبلة.

وهكذا لم تمض بضعة أشهر على قيام المريدین بحركتهم فى غرب الأندلس وسقوط قواعده فى أيدي الثوار، حتى قامت الثورة فى قرطبة بزعامة قاضيهما أبو جعفر حمدین بن محمد بن علي بن حمدین أثناء غياب ابن غانية عنها فى لقاءه مع أحمد بن قسى، وتفصيل ذلك أن العامة ثاروا بالوالى المرابطى أبى عمر اللمتونى،

(١) ابن الأبار، الحلة السرياء، الجزء الثانى، ص ١٩٩.

(٢) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص ٢٤٨.

(٣) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص ٢٥٠.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) ابن خلدون (عبد الرحمن)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخير فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، المجلد السادس، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٥٩، ص ٤٨٥-٤٨٦.

(6) Gaspar Remiro, op.cit., p. 166.

وأعلنوا خلعه وخلع دعوة المرابطين ونادوا برياسة القاضي أبي جعفر بن حمدين الذي بوع بالإمارة في المسجد الجامع في الخامس من شهر رمضان عام ٥٣٩هـ، واستقر ابن حمدين بقصر الخلافة، وتسمى بأمر المسلمين وناصر الدين^(١)، وقيل تسمى بالمنصور بالله^(٢). وقد شجع نجاح ثورة ابن حمدين على المرابطين وإخفاق ابن غانية في لبله أهل بلنسية على مجارة المريدون فلم يترددوا في إعلان ثورتهم على المرابطين في ٥ رمضان عام ٥٣٩هـ (أول مارس ١١٤٥م)^(٣).

ب- ثورة بلنسية على المرابطين:

كانت بلنسية بحكم موقعها الجغرافي والاستراتيجي أهم قواعد المرابطين في شرق الأندلس، ولذلك أولوها عناية خاصة فعهدوا بولايتها لصفوة من القرابة والخاصة.

وكان على ولاية بلنسية في الوقت الذي احتدمت فيه الثورة في غربي الأندلس وفي قرطبة أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي أخى يحيى بن غانية، وقاضيه يومئذ مروان بن عبد الله بن مروان بن عبد العزيز، وكان قد ولاه تاشفين بن يوسف هذا المنصب في ٢٤ ذي الحجة ٥٣٨هـ^(٤).

فلما اضطربت الثورة في قرطبة، بعد نشوبها في غرب الأندلس، ونادى ابن حمدين بخلع الدعوة للمرابطين في ٥ رمضان ٥٣٩هـ، انتقل شررها إلى بلنسية واضطرب أهلها، فاجتمع في الحال واليه المرابطي عبد الله بن محمد بن غانية وقاضيه مروان بن عبد العزيز، رغم عدائهما، لمواجهة الموقف المتفجر واتفقا في هذا الاجتماع على الائتلاف والتعاون لتهدئة الحال بالمدينة، ثم جمع القاضي أهل بلنسية في مسجدها الجامع، فخطب فيه القاضي مروان بن عبد العزيز وذكرهم بجهاد اللمتونيين ضد النصاري، ونصبرهم للأندلس، وتحريرهم بلنسية بعد موت السيد القمبياطور، وحثهم على التمسك بدعوة المرابطين ثم أعقبه ابن غانية الوالى فحدثهم

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الخاص بالأندلس، ص ٢٥٢-٢٥٣، ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب، ج١، ص ٥٧.

(٢) الفبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة)، بغية الملتبس في رجال الأندلس، تحقيق كوديرا وزيدان، مجرط ١٨٨٤، ص ٣٢.

(٣) ابن الأبار، الحلة السيرة، ج٢، ص ٢١٨.

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة.

بمثل ذلك، وذكر الناس بأيام عمه يحيى بن غانية، وما كان بينه وبينهم من مودة كما ذكرهم بأعماله الجليلة وبكفاءته العالية ودفاعه المشرف عن شرق الأندلس وهزيمته لألفونسو الأول المحارب في افراغه^(١).

وعلى إثر ذلك هدأت الأحوال نسبياً في بلنسية ولكن كان هدوءاً مشوباً بالتوتر الذى يسبق الثورة لاسيما أن التفاهم الوقتى الذى تم بين والى المدينة المرابطى وقاضيهما كان فى الحقيقة قناعاً زائفاً يخفى وراءه عداوة حقيقية يضمّرها أحدهما للآخر، وحدث أن نعى إلى عبد الله بن غانية من القول عن القاضى وأصحابه ما أزعجه فتوجس خيفة، فبعث بأهله وأمواله خفية إلى شاطبة ليلة الأربعاء ١٨ رمضان سنة ٥٣٩هـ، وبقي هو بالولجة حيث اشتبك أنصاره مع عسكر بلنسية واضطر فى النهاية إلى أن يلوذ بالفرار فى صحبه إلى شاطبة^(٢).

ومن شاطبة أخذت سرياته اللمتونية تغير على جهات بلنسية، وتكتسح كل ما تجده أمامها، فأسرع الجند والعرب ووجوه أهل البلد إلى القاضى مروان بن عبد العزيز وطلبوا منه أن يتولى أمرهم، فأبى وقال: «اختاروا من شيوخكم من تقدمونه»^(٣)، فوقع الاختيار على بعض زعماء لمتونة ممن بقى منهم فى المدينة وظل الوضع على هذا النحو فترة من الوقت، ثم أراد هذا الوالى المرابطى الجديد أن يقبض على القاضى ابن عبد العزيز المسؤول الأول عن عزل عبد الله بن محمد بن غانية ولكنه لم يأخذ فى الاعتبار مساندة الشعب البلنسى وجنده للقاضى فأخفق فى مسعاه، ثم خاف أن يبطشوا به ففر إلى شاطبة مع أتباعه^(٤).

وعلى إثر ذلك أجمع أهل المدينة على اختيار القاضى ابن عبد العزيز للولاية، فاستخفى، فسعى إلى الانفراد به أبو عبد الله بن عياض قائد الثغر وعبد الله بن مردنيش، وقالوا له: «هذا الأمر لا بد منه، والرأى المبادرة»^(٥)، فقبل الإمارة وتمت له البيعة فى ٣ شوال سنة ٥٣٩هـ/١١٤٥م فى حين ولى عبد الله بن عياض الثغر وما والاها^(٦).

(١) ابن الآبار، الحلة السيرة، ج ٢، ص ٢١٨، وانظر أيضاً:

Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 103.

(٢) ابن الآبار، نفس المصدر والجزء، ص ٢١٩.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) ابن الآبار، الحلة السيرة، ج ٢، ص ٢١٩، وانظر أيضاً:

Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 104.

(٥) ابن الآبار، نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٦) ابن الآبار، الحلة السيرة، ج ٢، ص ٢١٩، وراجع أيضاً:

Gaspar Remiro, op.cit., p. 177; Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 104.

ولما تكررت غارات المرابطين على أحواز مدينة بلنسية، وكثر عبثهم فيها، حشد ابن عبد العزيز عسكر الثغر وتوجه إلى شاطبة في ١٨ شوال، فهبط المرابطون من قصبة شاطبة إلى المدينة، وعالتوا فيها، فنهبوا ديارها وسبوا نساءها، والتقى جند بلنسية بقوات المرابطين، ونشبت بين الفريقين موقعة هزم فيها المرابطون، فانسحبوا وتحصنوا بقصبة شاطبة وحاصرتهم قوات بلنسية، وفي هذه الأثناء قدم عسكر من مرسية في آخر شهر شوال بقيادة قاضيها أبي جعفر محمد بن عبد الله بن أبي جعفر لنجدة ابن عبد العزيز وانضم إليهما ابن عياض في جند الثغر لنصرة أميره ابن عبد العزيز^(١).

وأدرك عبد الله بن محمد بن غانية، أنه لا طاقة له بهذه القرى، ففر في نفر من أنجاد قومه، ويدو أن خبر هرويه قد بلغ جند بلنسية، فاتبعوه ولكنهم لم يفرزوا بطائل إذ نجح في الوصول إلى الساحل ومن هناك أبحر إلى المرية حيث التقى بمحمد بن ميمون قائد الأسطول، وكان ما يزال على ولائه للمرابطين فجهزه إلى مدينة ميورقة، حيث كان أبوه محمد بن غانية يتولى أمر الجزائر، فاستقر إلى جانبه^(٢).

وبفرار عبد الله بن محمد بن غانية من قصبة شاطبة، تم لابن عبد العزيز السيطرة على مدينة شاطبة صلحا، فحصنها وعين لها قائداً، وانضمت إليه لقنت ودخلتا في أعماله، ثم عاد إلى بلنسية حيث جددت له البيعة في صفر سنة ٥٤٠هـ، وقتل ابن أبي جعفر عائداً بقواته إلى مرسية^(٣).

جـ - ثورة مرسية:

تعتبر مدينة مرسية القاعدة الثانية لشرق الأندلس بعد بلنسية، ولهذا لم تلبث أن عصفت بها ريح الثورة بعد أن اشتعلت في بلنسية، فبايع أهلها عبد العزيز بن جعفر بن إبراهيم المعروف بأبي محمد بن الحاج اللورقي، فدعا لابن حمدين أياماً من شهرى رمضان وشوال عام ٥٣٩هـ / ١١٤٤م، ثم لم يلبث أن تبرم بالإمارة ورغب في التخلي عن منصبه بسبب ما تعرض له من المتاعب^(٤).

وكان سيف الدولة بن هود في ذلك الوقت يترقب الأحداث في شرق الأندلس،

(١) ابن الآبار، الحلة السيرة، جـ ٢، ص ٢٢٠.

(٢) نفس المصدر والصفحة، وانظر أيضاً: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الخاص بالأندلس، ص

٢٥٦.

(٣) ابن الآبار، نفس المصدر والجزء، ص ٢٢٠.

(٤) ابن الآبار، الحلة السيرة، جـ ٢، ص ٢٢٧؛ الضبي، المصدر السابق، ص ٣٣.

فلما علم بما وقع في مرسية، بعث إليها قائداً من قواده يدعى عبد الله بن فتوح الثغرى، فأخرج ابن الحاج منها في النصف الثاني من شهر شوال، ودعا لابن هود، ولكن أهلها لم يلبثوا أن أخرجه منها، وقدموا عليه الفقيه أبا جعفر محمد بن عبد الله بن أبي جعفر الخشني في آخر شوال من نفس العام، فاستمر قائماً بأمرهم حتى أوائل عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م وكان يمدى طوال هذه الفترة تبرمه بالإمارة ويقول : «إنها ليست تصلح لي ولست بأهل لها، ولكني أريد أن أمسك الناس بعضهم عن بعض حتى يجيء من يكون أهلاً لها» (١)

. ويأتي ابن صاحب الصلاة برواية أخرى أورد فيها أن عبد الله الثغرى كان قائداً بمدينة كونكة، فلما سمع بقيام ابن حمد بن بقرطبة، سار إليه وأقام عنده، واتفق أن وصلتته أنباء من مرسية بقيام ابن الحاج ثم تبرمه بالرياسة، فبعث ابن حمد إليهم عبد الله الثغرى والياً على مرسية، فقدم الفقيه أبا جعفر بن أبي جعفر قاضياً وذلك في منتصف شوال سنة ٥٣٩هـ، فظهر من أبي جعفر حب الظهور والتعلق بالرياسة، وحشد الناس لقتال المرابطين في أوربولة وغدر بهم عند نزولهم على الأمان فقتلهم، وضم أوربولة إلى عمله ثم داخل أهل مرسية في أن يقدموه للإمارة، وأن يقدم للقضاء أبا العباس بن الحلال ولقيادة الخيل عبد الله الثغرى، فوافقوه (٢).

ولما عقدت له البيعة نبذ طاعة ابن حمد بن ودعا لنفسه، وتلقب بالأمير الناصر لدين الله، وقبض على عبد الله الثغرى وسجنه وصهره ابني مسلوقة، وعهد بقيادة الخيل لقائد يدعى زعنون، ثم سار إلى شاطبة لمعاونة ابن عبد العزيز في حصارها، فثار عليه أهل مرسية أثناء غيابه بها، وأطلقوا سراح الثغرى وصهره، وعندما علم أبو جعفر بهذه الأنباء رجع على عجل إلى مرسية وضبطها، وفر الثغرى إلى كونكة، ثم عاد أبي جعفر مرة ثانية إلى شاطبة لمعاونة ابن عبد العزيز، ولما فر عبد الله بن محمد بن غانية من شاطبة، كما سبق القول، واستولى ابن عبد العزيز عليها، عاد أبو جعفر إلى مرسية في صفر عام ٥٤٠هـ (٣).

وفي نفس هذه السنة لقي أبو جعفر مصرعه خارج مدينة غرناطة، عندما خرج لنجدة ابن أضحى الثائر على المرابطين عام ٥٤٠هـ (٤).

(١) نفس المصدر والجزء، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(٢) في : ابن الآبار، الحلة السراء، ج٢، ص ٢٢٩.

(٣) ابن الآبار، الحلة السراء، ج٢، ص ٢٢٩-٢٣٠.

(٤) نفس المصدر والجزء، ص ٢٣٠.

٥ - تطور الأحداث في شرق الأندلس بعد انهيار سلطان المرابطين

أ - الوضع في مرسية:

لما عادت فلول قوات مرسية بعد مصرع أبي جعفر، أجمع أهلها على تقديم أبي عبد الرحمن بن طاهر، وتم ذلك في أواخر شهر ربيع الأول عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م، فانتقل إلى القصر ودعا لابن هود، ثم لنفسه من بعده^(١)، وأقام أخاه أبا بكر على الخيل.

وابن طاهر هذا هو أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن أحمد ابن عبد الرحمن بن طاهر القيسي، من أسرة عريقة كان لها على حد قول ابن حيان «في قدم الرئاسة وكرم السياسة ذكر ماثور وأثر مذكور»^(٢).

وكان ابن حمدين عندما اضطربت الأحوال في مرسية، قد وجه إليها قوة بقيادة ابن أخيه المعروف بابن العماد، فردت هذه القوة على أعقابها، ثم عاد ابن حمدين ووجه قوة أخرى بقيادة ابن عمه المعروف بالفلفلي وصحبه أبي محمد بن الحاج وابن سوار وغيرهما من أعيان مرسية اللاجئين إلى قرطبة فكان مصير هذه القوة نفس مصير سابقتها وعومل أنصار ابن حمدين معاملة سيئة وطردهم الأهالي من المدينة^(٣).

غير أن أهل مرسية لم يلبثوا أن يرموا بابن طاهر ولما تمضى على رياسته خمسين يوماً^(٤)، فقد اتصلوا بأبي محمد عبد الرحمن بن عياض قائد جند الثغر في بلنسية يدعونه إلى القدوم إليهم ملوحين له بالإمارة، فلم يتردد هذا في السير إلى مرسية وممر في طريقه بأوريولة حيث سلمها له قائدها زعنون، ثم سار إلى مرسية وبصبحته عددًا من أعيانها ممن برزوا للقائه، ثم دخل ابن عياض قصر الإمارة بمرسية لا يدفعه عنه أحد في العاشر من جمادى الأولى عام ٥٤٠هـ معلناً ولائه لسيف الدولة ابن هود، فلم يشعر ابن طاهر إلا وقد نزع من رياسته، فانتقل إلى القصر الصغير

(١) ابن الآبار، الحلة السراء، جـ٢، ص ٢٣٠.

(٢) نفس المصدر والجزء، ص ٢٢٧.

(٣) ابن الآبار، نفس المصدر والجزء، ص ٢٣٠؛ والفلفلي هو أبو الحسن محمد بن حمدين بن علي ابن محمد بن عبد العزيز بن حمدين، وكان ابن حمدين قد ولاه أمر مرسية بعد مقتل أميرها ابن أبي جعفر بفرناملة؛ راجع: ابن الآبار، نفس المصدر والجزء، ص ٢٥٥.

(٤) ابن الآبار، نفس المصدر، جـ٢، ص ٢٥٥.

ثم خشي على نفسه فتركه وانتقل إلى داره وقد أبقى عليه ابن عياض لعلمه بضعفه^(١).

وأقام ابن طاهر بمرسيه معتزلاً بالأحداث ولكنه كان يشهد في صمت صراع محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرق الأندلس مع الموحدين إلى أن توفي ابن سعد في عام ٥٦٧هـ، فدخل ابن طاهر في طاعة الموحدين، وانتقل إلى مراكش وبها توفي عام ٥٧٤هـ^(٢).

ب - اضطراب الأحوال في بلنسية :

لم يستطع ابن عبد العزيز أن يكتسب قلوب جنده بسبب عجز الجباية وقصوره عن الوفاء بأجور الجند، الأمر الذي أدى إلى تمردهم عليه في ٢٥ من جمادى الأولى سنة ٥٤٠هـ بعد أن خاطبوا ابن عياض أمير مرسية يتعجلونه الوصول إليهم، وحاصروه في قصر الإمارة، فاضطر إلى الفرار من بلنسية بعد أن تدلى من سورها ليلاً ولحق بالمريه، وهناك اجتمع بمحمد بن ميمون أمير البحر الذي تعرف عليه وقبض عليه وقيدته، ودفعه إلى عدوه السابق عبد الله بن غانية، واتفق وجوده بها آنذاك، فاحتمله معه مقيداً إلى باله وعف عن دمه^(٣)، ولكنه سجنه في مطبق كئيب في جوف الأرض مدة عشرة أعوام، عانى خلالها ألواناً من العذاب^(٤)، إلى أن أطلق سراحه بإيعاز من الوزير أبي جعفر بن عطية في سنة ٥٤٨هـ فانتقل إلى مراكش حيث انتظم في بلاط الخليفة وفي مجلسه العلمي^(٥). وظل ابن عبد العزيز يقيم بمراكش مهملاً شأنه حتى توفي عام ٥٧٨هـ / ١١٨٢م وقد ناهز الثالثة والسبعين من عمره.

وكان جند بلنسية قد قدموا لرؤاستهم، بعد خروج ابن عبد العزيز، عبد الله بن محمد بن سعد بن مردنيش صهر ابن عياض لينوب عنه مؤقتاً إلى أن يقدم إليهم ابن

(١) ابن الآبار، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٣٠-٢٣١، انظر أيضاً؛

Gaspar Remiro, op.cit., pp. 174-175.

(٢) ابن الآبار، نفس المصدر، ج٢، ص ٢٣٣، وانظر أيضاً؛

Gaspar Remiro, Ibid, p. 175.

(٣) ابن الآبار نفس المصدر، ج٢، ص ٢٢١ - ٢٢٢، وانظر أيضاً؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام القسم الأندلس، ص ٢٥٦.

(٤) ابن الآبار، نفس المصدر والجزء، ص ٢٢٥.

(٥) ابن الآبار، نفس المصدر والجزء، ص ٢٢٦، وانظر أيضاً : ابن عذاري، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، القسم الثالث، تحقيق الأستاذ أمبروسي أبني ميراندا وآخرون، تطوان، ١٩٦٠، ص ٣٦.

عياض ليتلقى بيعتهم، فلما قدم ابن عياض في آخر جمادى الأولى وتولى إمارتها باسم سيف الدولة بن هود أقام بها فترة ينظم أمورها، ويرم ثغورها ويحصنها ثم عاد إلى مرسية بعد أن عهد إلى صهره عبد الله بن سعد ابن مردنيش بولايتها من قبله، وعبد الله هذا هو عم أبي عبد الله محمد بن سعد أمير شرق الأندلس. فيما بعد، ويعرف بصاحب البسيط لأنه استشهد فيها مع سيف الدولة بن هود^(١)، كما سترى فيما بعد.

وهكذا أصبح ابن عياض يحكم بلنسية ومرسية وأحوازهما باسم أبو جعفر أحمد بن عبد الملك المعروف في المصادر العربية بسيف الدولة بن هود، وفي المصادر الأسبانية Zafadola، آخر سلالة بني هود أصحاب سرقسطة زمن الطوائف، وكان قد خلف والده في حكم حصن روضة وما حولها من الحصون والأراضي، وتبع نهج والده في محالفة النصارى والانضواء تحت حماية ألفونسو المخارب ملك أرغون ثم اتجه إلى حماية ألفونسو ريموندس ملك قشتالة، ثم اضطر إلى التنازل عن حصن روضة في مقابل حصون وبلاد تدخل في نطاق إقليم طليطلة وإسترامادورة، وتخلي له عنها ملك قشتالة، فانتقل إليها ووضع نفسه في خدمته^(٢).

اعتقد سيف الدولة أن انتماءه إلى أسرة بني هود التي حكمت سرقسطة ما يقرب من مائة عام، يؤهله لتحقيق حلمه في امتلاك الأندلس، ومن ثم فقد لبث يتربص بتطور الأحداث في الأندلس، وواتته الفرصة عندما اعتقد فريق من أهل قرطبة، أنه خير ممثل للزعامة الأندلسية، ولذلك استدعوه ليتولى إمارة قرطبة، ولم يتردد هو في الاستجابة السريعة ودخل قرطبة بممالة فريق كبير من أهلها^(٣)، فلاذ إليها ابن حمدين بالفرار، ولحق بحصن «فرنجولش» المنيع الواقع شمال غربي قرطبة ولكن أهل قرطبة لم يتركوه يهناً بالإمارة فقد وثبوا عليه في القصر وفتكوا بوزيره ابن الشماخ وعدة من أصحابه، فولى سيف الدولة ناجياً بنفسه وقصد مدينة جيان وانتزعها من القاضي ابن جزى ثم ضم إليه غرناطة ولكنه اضطر إلى تركها وعاد إلى جيان وهناك تلقى دعوة أهل مرسية يستقدمونه للإمارة عليهم، فحل عليهم يوم الجمعة ١٨ رجب عام ٥٤٠هـ^(٤).

(١) ابن الآبار، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٢٢، ص ٢٢٣.

(٢) نفس المصدر والجزء، ص ٢٤٨، ص ٢٥٠.

(٣) نفس المصدر والجزء، ص ٢٥١.

(٤) ابن الآبار، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٥١، انظر أيضاً :

Cronica del Emperador Don Alfonso VII, en Espana Sagrada, tomo XXI, p.330; Codera, op.cit., pp. 76-77.

وعندما أعلن ابن عياض حكمه لمرسیه وبلنسیه باسم سيف الدولة، كما سبقت الإشارة، بعث إليه ابن هود بولده أبي بكر، فخر ابن عياض للقائه واحتفى به، وأصبحه معه إلى بلنسیه، ثم سار ابن هود بنفسه إلى مرسیه، ودخلها وأقام بقصرها فقدم عليه ابن عياض وأعلن طاعته، وأمثاله لأوامره، ونزل بالقصر الصغير، وفعهد إليه ابن هود بالأمر كلها، وأسبغ عليه لقب الرئيس، مكثفياً بلقب الإمارة ومظاهرها، كان ذلك في ٢٠ رجب عام ٥٤٠هـ / أوائل عام ١١٤٦م^(١)، وأطاعته جميع البلاد الواقعة على الشاطئ من لورقة إلى مصب نهر ابره، وازداد سيف الدولة ثقة بنفسه وقوته.^(٢)

ولم تمض أيام على قدوم ابن هود إلى مرسیه حتى وافته الأخبار باعتداء القشتاليين على أحواز شاطبة، فبادر عبد الله بن سعد بن مردنيش بقوات بلنسیه لقتالهم، فأسرع ابن عياض وابن هود في قواتهما لنجدته، والتقى الجيشان الإسلامي والقشتالي في موضع يسمى «البح» والبسيط على مقربة من جنجاله يوم الجمعة ٢٠ من شعبان عام ٥٤٠هـ، فدارت الدائرة على المسلمين، وقتل في الموقعة عبد الله بن سعد بن مردنيش وسيف الدولة بن هود ونجا ابن عياض، وكانت وقعة كبرى على المسلمين^(٣) ومن الغريب في هذا المجال أن التحالف الذي كان قائماً بين ألفونسو السابع وسيف الدولة تبدل فجأة إلى عدااء سافر وهو أمر لم توضحه رواية ابن الآبار، ومن الصعب التحقق من الدوافع التي أدت إلى هذا التحول في العلاقات المذكورة بسبب صمت المصادر العربية والأسبانية، فالمصادر الطليطلية تشير في اقتضاب إلى أن سيف الدولة تخارب مع المسيحيين فقتلوه في شهر فبراير عام ١١٤٨م^(٤). وهذا التاريخ يوافق التاريخ الذي سجله ابن الآبار عن مصرع سيف الدولة في ٢٠ شعبان عام ٥٤٠هـ.^(٥)

ويستفاد من مدونة ألفونسو السابع^(٦)، أن سيف الدولة بن هود بعدما فشلت

(١) ابن الآبار، نفس المصدر والجزء، ص ٢٥١.

(٢) أشباخ، المرجع السابق، ص ٢١٦.

(٣) ابن الآبار، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٥١، ص ٢٥٢.

(٤) انظر:

Espana Sagrada, tomo XIII, p. 396.

(٥) ابن الآبار، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٥٢.

(6) Cronica del Emperador Don Alfonso VII, en Espana Sagrada, tomo, XXI,

p. 330; وانظر أيضاً:

Gaspar Remiro, op.cit., pp. 180-181; Huici Miranda, op.cit., t. III, pp. 112-113.

أشباخ، المرجع السابق، ص ٢١٦.

محاولته فى قرطبة بعث برسالة إلى ألفونسو السابع يعلمه فيها أن أراضى أيدى وبياسه وقلاعها وهما من أملاكه قد رفضت أداء الجزية المطلوبة، وفى الحال تذب ألفونسو السابع أربعاً من أشرف القشتاليين وهما القمامصة : مانريك (Manrique)، وارمنجود (Ermengod)، وبانشيو (Pancio)، ومارتين فرنانديث (Martin Fernandez) وأصدر إليهم أمره ليخضعوا هذه الأراضى والبلاد لطاعته وطاعة سيف الدولة تابعه، فاستغاث أصحاب هذه الأراضى بسيف الدولة وبذلوا له الطاعة فاستجاب لدعوتهم، وفى الحال توجه بجيش كبير وطلب إلى القمامصة النصارى أن يكفوا الأذى عن المسلمين وأن يردوا إليهم الأسلاب والأسرى وأن يتوقفوا عن أعمال التدمير والتخريب فى الأراضى الإسلامية فرفض القمامصة مطالب سيف الدولة، وأجابوا بأنهم يصدعون فى ذلك لأمر عاهلهم تحقيقاً لرغبة سيف الدولة نفسه، وطال الجدل بين الطرفين، فقرر سيف الدولة الدخول فى معركة معهم، وكانت شاطبة قد امتنعت عليهم، وسارت قوات بلنسية ومرسيه وسيف الدولة لقتالهم فى نفس الوقت، والتقى الفريقان الإسلامى والمسيحى فى سهل البسيط على مقربة من جنجالة، فهزم المسلمون شر هزيمة وقُتل عبد الله بن سعد مردنيش قائد جند بلنسية وأسر سيف الدولة، وألقى فى خيمة حبيطة قتله جند باردوس (Pardos)، دون معرفة لشخصه، وعلى أثر هذه الهزيمة النكراة تراجع ابن عياض فى فلول قواته إلى بلنسية، وعندما علم ألفونسو السابع، وهو فى مدينة ليون، بمصرع حليفه القديم سيف الدولة أسف كل الأسف، وأعلن أنه برحمة من دمه، وكما تذكر المدونة، فإن العالم المسيحى والإسلامى اقتنع أن ألفونسو السابع ليس متهماً بموت سيف الدولة بن هود.

وهكذا كانت نهاية سيف الدولة بن هود، تلك الشخصية المتقلبة بين الطاعة لألفونسو السابع ملك قشتالة والولاء لمسلمى شبه الجزيرة.

جـ - ولاية محمد بن سعد بن مردنيش على شرق الأندلس:

بمصرع سيف الدولة وعبد الله بن مردنيش، وأعلن ابن عياض الدعوة لنفسه فى كل من مرسيه وبلنسية، وكان قد ترك فى مرسية محمد بن سعد ابن مردنيش ينوب عنه فيها، وبعث عبد الله الثغرى سفيراً من قبله إلى ألفونسو ريموندس ليعقد معه السلم ويتحالف معه ضد أمير برشلونه، فعاد من سفارته هذه، وزعم أن الامبراطور القشتالى منحه إمارة مرسيه (١).

(١) ابن الآبار، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٣١، وانظر أيضاً:

Codera, op.cit, pp. 109-110.

وفهم من مدونة الفونسو السابع أن سيف الدولة بن هود كان تابعاً لألفونسو السابع وأنه كان يحكم مرسية باسمه، فلما لقي سيف الدولة مصرعه في البسيط أعطى الإمبراطور مرسية إقطاعاً لخلفه عبد الله بن فرج الثغرى^(١).

عاد عبد الله الثغرى من سفارته واستعان على دخول مرسية بطائفة من الأتباع والأعوان فاضطر محمد بن سعد بن مردنيش نائب ابن عياض بمرسيه إلى الفرار عنها ولحق بشغل لقتت في أوائل شهر ذى الحجة عام ٥٤٠هـ / مايو ١١٤٦م^(٢)، ثم إن عبد الله الثغرى لم يلبث أن ضرب لنفسه عملة تحمل تاريخ ولايته لمرسية وسمى نفسه فيها الرئيس عبد الله بن فرج سنتي ٥٤٠-٥٤١هـ^(٣)، وظل يتولى أمر مرسية إلى أن زحف إليه ابن عياض في قواته، وقتله في معركة نشبت بينهما في السابع من رجب عام ٥٤١هـ / ديسمبر ١١٤٦م^(٤). وفي تفاصيل مصرع عبد الله الثغرى يقول الضبي في مقدمة كتابه، أنه لما نجح ابن عياض في دخول مرسية، نشب قتال بينه وبين قوات عبد الله الثغرى في شوارع المدينة حتى هزم الأخير، وركن إلى الفرار، وخرج من «باب الفارقة»، فألقى عليه من فوق السور حجر أصاب رأس جواده، فوثب الجواد جامحاً براكبه نحو مجرى النهر، وهناك قتله أحد الحراس المرابطين في هذا المكان^(٥).

وهكذا استعاد ابن عياض إمارته على مرسية وإطاعته جميع البلاد الممتدة من بلنسية شمالاً حتى أحواز قرطاجنة جنوباً، واستمر في إمارته على تلك المنطقة حاكماً مستقلاً لها مدى عام وتسعة أشهر وعشرين يوماً^(٦)، إلى أن أصيب بسهم أوداه قتيلاً يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول عام ٥٤٢هـ، وحمل إلى بلنسية فدفن بها^(٧)، وفي رواية أخرى يقول الضبي أنه قتل خلال معركة نشبت بينه وبين بني جميل على مقربة من بلش، وحمل جثمانه إلى بلنسية ودفن بها^(٨).

(1) Cronica del Emperador Alfonso VII, en Espana Sagrada tomo XXI, p.332.

(٢) ابن الآبار، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٣٢.

(3) Antonio Vives y Escudero, Monedas de las dinastías Arabigo-Espanol, Madrid, 1898, pp. 322-323.

(٤) ابن الآبار، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٣٢.

(٥) بغية الملتبس، ص ٣٣.

(٦) ابن الآبار، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٣٢، انظر أيضاً:

Gaspar Remiro, op.cit., p. 183.

(٢) ابن الآبار، نفس المصدر والجزء، ص ٢٣٢، انظر أيضاً: ابن سعيد المغربي، المغرب، جـ ١، ص ٢٥٠.

(٨) بغية الملتبس، ص ٣٣، وانظر أيضاً:

Gaspar Remiro, op.cit., p. 183.

وكان ابن عياض هذا قائداً عظيماً، وفارساً بارعاً، وكان يجمع بين القوة العسكرية وبين الورع والتقوى، «وكان النصارى يعدونه وحده بمائة فارس، إذا رأوا رايته قالوا : «هذا ابن عياض: هذه مائة فارس»^(١).

وفى رواية للمراكشى يقول فيها أن عندما حضرت ابن عياض الوفاة اجتمع عليه الجند وأعيان البلاد وسألوه عمن يخلفه فى الإمارة، وما يشير عليهم به، وكان له ولد فأشاروا به عليه فأبى أن يوصى لولده لأنه كان يشرب الخمر ويفغل الصلاة، وأشار إلى محمد بن سعد بن مردنيش لوافر نجلته وشجاعته^(٢).

وفى رواية أخرى للضبى يقول فيها أن أهل بلنسية عند موت ابن عياض قدموا عليهم أباً عبد الله محمد بن سعد نائب ابن عياض بها^(٣).

وأياً ما كان الأمر، فإن محمد بن سعد بن مردنيش خلف ابن عياض فى حكم بلنسية عقب موته، وكان ابن عياض قد استدعاه من لقنت عقب مصرع عبد الله الثغرى وأسند إليه ولاية بلنسية نيابة عنه، أما مرسية فقد قدم أهلها عليهم أباً الحسن على بن عبيد نائب ابن عياض عليها، إلى أن تولى هو فى أواخر جمادى الأولى من السنة المذكورة عن إمارتها لأبى عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش أمير بلنسية^(٤).

وهكذا انضوت بلنسية ومرسيه تحت لواء محمد بن سعد بن مردنيش، الذى خلف ابن عياض فى إمارة منطقة شرق الأندلس كلها فى جمادى الأولى سنة ٥٤٢هـ/ أكتوبر ١١٤٧م، وقيام ابن مردنيش فى إمارة شرق الأندلس تبدأ صفحة جديدة من الصراع بينه وبين الموحدىن، وهو صراع ضار عنيف استغرق ما يقرب من خمس وعشرين عاماً ولم يخمد إلا بموته.

(١) المراكشى، المعجب، ص ٢٠٩، انظر أيضاً؛

Codera, op.cit., p. 302; Gaspar Remiro, Ibid, p. 179.

(٢) المعجب، ص ٢٠٩-٢١٠.

(٣) بغية الملتمس، ص ٣٣-٣٤.

(٤) ابن الأبار، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٢.

الفصل الثانى

موقف الموحدين من ابن مردنيش

(١) انتزاء محمد بن سعد بن مردنيش بشرق الأندلس.

أ - التعريف بابن مردنيش.

ب - علاقات ابن مردنيش بالممالك النصرانية.

ج - موقف ابن مردنيش من نصارى أسبانيا بعد سقوط بعض قواعد الثغر الأعلى.

(٢) موقف الموحدين من سيطرة ابن مردنيش على بلنسية ومرسية.

أ - اشتغال الموحدين بتثبيت دعائم دولتهم بالمغرب عن مواجهة ابن مردنيش.

ب - سيطرة ابن مردنيش على الموقف فى شرق الأندلس وسياسته التوسعية.

ج - الصراع بين الموحدين وابن مردنيش.

د - هزيمة ابن مردنيش فى فحص الجلاب.

هـ - توحيد ابن همشك.

و - نهاية ابن مردنيش.

(١) انتزاء محمد بن سعد بن مردنيش

بشرق الأندلس

أ- التعريف بابن مردنيش:

هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد الجذامي بن مردنيش أصله من الشمر الأعلى، ولد في قلعة بنشكله ^(١) Peniscola، وهي من أمنع قلاع طرطوشة.

وقد اختلفت الآراء حول أصل ابن مردنيش، فالبعض يرى أنه من أصل عربي، ينتمي إلى قبيلة جذام، والبعض الآخر ينسبه إلى قبيلة نجيب ^(٢). وما لا شك فيه أن اسم جده الثالث وهو مردنيش ليس اسماً عربياً، مما يقطع بأن نسبته الجذامية ليست صحيحة ^(٣).

ونستدل من اسم أسرته على أنه أسباني الأصل، ابن مرتين أو مرتينوس أو ابن مرتينس Martinez، وقد يكون جده مردنيش هذا دخل ولأء بعض الجذاميين وانتسب إليهم، وهو افتراض مقبول لأن دار بطون جذام بن عدى بن الحارث بن مرة بالأندلس كانت «شدونة والجزيرة وتدمير وأشبيلية» ^(٤).

: وربما كان أصله من ابن مرتين (Martin) مرتينش أو مردنيش، أما أن تكون

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ٢، ص ٤٩٢، ورد في ترجمة أبي يوسف يعقوب المنصور، وراجع ترجمته في:

- الضبي: بغية الملتبس، ص ٣٣، ص ٣٤.

- المراكشي: المعجب، ص ٢١٠، ابن الأبار: الحلة السيرا، جـ ٢، ص ٢٣٢، ص ٢٣٣،

- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص ٢٥٩ وما بعدها، وله أيضاً: الإحاطة، جـ ٢، ص ١٢١ وما بعدها.

- المقرئ: نفع الطيب، جـ ٥، ص ١٠٤،

Dozy (R): Recherches sur l'histoire et la litteratura de l'Espagne, t. 1, 3ed. ed., Amsterdam 1965, pp. 384-388; Gaspar Remiro, op.cit., pp. 185-225; Lacarra (J.M): El rey Lobo de Murcia y el Senorio de Albarracin, dans Estudios dedicados a Menedez pidal, Madrid, 1952, p. 516 599; Hucici Miranda, op.cit, t. III, p. 132; Bosch-Vila (J): Ibn Mardanish, en Encyclopedie de l'Islam, nouvelle edition, 2ed, tomo III, Leiden - Paris, 1968, p. 889.

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ ٢، ص ١٢١.

(3) Dozy: Recherches, t. I, pp. 363-366; Codera, op.cit., pp. 112-113.

(٤) ابن حزم (أبي محمد علي بن سعيد)، جمهرة أنساب العرب، بتحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال، دار

المعارف بمصر، ١٩٤٨، ص ٣٩٦.

صححة الاسم Martinez لتتمشى مع النطق العربى فأمر غير مقبول، لأن هذا الاسم لا يمكن نطقه مع نبر المقطع قبل الأخير، ويرجح الأستاذ كوديرا أن أصل الاسم هو Martinus أو Mardonius، وهذا الاسم الأخير من أسماء البيزنطيين الذين كانت لهم جالية كبيرة فى قرطاجنة الحلفاء بكورة تدمير^(١). وقد يكون اسمه الأسباني Marti-nez ثم حرف إلى مردنيش وخففت إلى مردنيش بتقديم النون على الياء، وأيا ما كان الأمر فالثابت أنه من أصل أسباني مسيحي وأن أبا جده اعتنق الإسلام وأن أسرته كانت مثل سائر الأسرات الأخرى ترنو إلى الانتساب إلى شرف النسب العربى^(٢).

ومع ذلك فإن ابن مردنيش لم يتنكر لأصله الأسباني، بل على الضد من ذلك أثر زى النصرارى من الملابس والسلاح واللجم والسروج، كما أعجبه أن يتحدث بلغتهم^(٣)، فضلا عن أن الغالبية العظمى من جنوده كانت من القشتاليين والنفاريين والقطلانين، وقد خصص لهم ثكنات لسكنائهم وأقام لهم الأحياء والحانات، مما أثار عليه سخط المسلمين، وعلى عكس ذلك تعلق المسيحيون به لكرمه إلى حد أنه كافأ أحد فرسانه المسيحيين ويدعى بدور رويث دى أساجرا Pedro Ruiz de Asagra بأن أقطعه سهلة بن رزين Santa Maria de Albaracin مع إقليمها، وفيها أسس هذا الفارس أسقفية^(٤).

والى جانب هذه الميول كان ابن مردنيش يتميز بالفطنة والذكاء، كما كان يجمع بين العنف واللين فكان يغفر بنبل ويعاقب بقسوة، وبالإضافة إلى ذلك كان يتمتع بقوة غير عادية، ويتميز بشجاعة نادرة فكان فارساً مجداً يدفع بنفسه فى المعارك معرضاً للأخطار حياته، وينوه المقرئ بشجاعته بقوله: «كان من أبطال عصره، وكان يدفع فى المواكب ويشقها يمينا وشمالا، منشداً:

كما ظهر بوافر شهامته وجوده، وكان له «يومان فى الأسبوع»، يوم الاثنين والخميس، يشرب مع ندمائه، ويجود على قواده وخاصته وأجناده، ويذبح الأبقار فى المواسم، ويفرق لحومها على الأجناد، ويتخلل ذلك لهو كثير، حتى ملك القلوب من أكر على الكتيبة لا أبالى. : احتفى كان فيها أم سواها^(٥)

(1) Codera, op.cit., p. 113.

(2) Dozy, op.cit., t. I, p. 365.

(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٦١، وراجع أيضا:

Dozy, Ibid, t. I, p. 365; Codera, op.cit., pp. 113-114.

(4) Dozy, op.cit., t. I, p. 366.

(٥) نفح الطيب، ج٥، ص ١٠٤.

الجند، وعاملوه بغاية النصح، وربما وهب المال في مجالس أنسه» (١).

وكما كان عظيماً في ميدان البطولة كريماً على ندمائه وأجناده، كان له باع كبير في ميدان الفسق والفجور، فقد ذكر أنه «اتخذ جملة من الجوارى، فصار يراقب منهن جملة تحت لحاف واحد، وانهمك في حب القيان والزمر والرقص» (٢).

ب- علاقات ابن مردنيش بالممالك النصرانية:

كانت سياسته مع الممالك المسيحية ودية تقوم على التحالف، وكان يلوذ بحماية ملكي أرغون وقشتالة وقومس برشلونة مقابل إتاوة يفرضونها عليه، وهذان الأخيران وحدهما كانا يتقاضيان منه ٥٠٠ ألف مثقال (٣).

ولم تقف هذه السياسة على مصانعة الممالك النصرانية في أسبانيا ومصادقة ملوكها بل تجاوزت أسبانيا المسيحية إلى الممالك المسيحية المجاورة، فمنذ السنة التالية لبداية إمارته، وقع في ١٥ رمضان سنة ٥٤٣ هـ/ ٢٧ يناير ١١٤٩ م اتفاقاً لمدة عشر سنوات مع جمهورية بيشه (Pisa)، ثم عقد معاهدة أخرى على جانب كبير من الأهمية مع جمهورية جنوة يدفع بمقتضاها إتاوة قدرها ١٠ آلاف مرابطي لهذه الجمهورية خلال عامين، كما يتعهد بأن يبنى للرعايا الجنوبيين الذين يقطنون في بلنسية ودانيه فندقاً يزاولون فيه تجارتهم، وأن يمنحهم حماماً مجاناً في كل أسبوع، ويتعهد الجنوبيين في مقابل ذلك ألا يحدثوا أضراراً لأحد من رعايا الملك لوبو El Rey Lobo (محمد بن سعد ابن مردنيش) في طرطوشة والمرية (٤).

وفضلاً عما تقدم كان ابن مردنيش يرتبط مع جميع الممالك المسيحية الأخرى بعلاقات من الود والصداقة، فكان يرسل الهدايا النفيسة التي تضمن قطعاً من الذهب وأثواباً من الحرير وعدداً من الخيول والجمال إلى هنري الثاني ملك إنجلترا، وكان يتلقى هداياهم بدوره (٥).

ولشهرته هذه وعلاقاته الطيبة، وصلاته الحميمة بالمسيحيين، أشاد به مؤرخو النصراني فوصفه ثوريتا Zurita بأنه، أحد أعظم أمراء أسبانيا الإسلامية (٦)، ويؤكد

(١) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٢، ص ١٢٢-١٢٣.

(٢) نفس المصدر والجزء، ص ١٢٣.

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٢، ص ١٢٤.

(4) Codera, op.cit., pp. 122-128.

Huici Miranda, op.cit., III, pp. 132-133.

(5) Dozy, op.cit., t. I, p. 367; Codera, op.cit., p. 115.

(6) Zurita, Anales de la corona de Aragón, Libro II, Valencia, 1967, p. 88; Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 132.

الأسقف خيمينيث دى رادا فى مدونته أن محمد بن سعد، المسمى بالملك لوبو Rey Lobo O Lobo، كان ذا بصيرة حراً قوياً سليم العافية^(١). كما أن الباب الكسندر الرابع، بابا روما، سماه بعد مضى قرن على وفاته، وهذا استثناء نادر : «الملك لوبو ذو الذكرى المحيطة» El Rey Lobo de Gloriosa Memoria^(٢).

واسم لوبو هو الاسم الذى عرف به فى المدونات المسيحية^(٣)، أطلق عليه لما أثر من إقدامه وشجاعته^(٤).

وبالرغم من إشادة الروايات المسيحية بابن مردنيش لعلاقاته الطيبة التى ارتبط بها مع الممالك المسيحية، إلا أن دوزى ويتابعه كوديرا، يرى أن ابن مردنيش لم يكن أكثر من تابع، إلى حد أن مؤرخاً الجلو - نورمانديا معاصراً لم يتجاوز الحقيقة عندما عبر بقوله أن «ملك قشتالة هو الذى كان يملك على مرسية وبلنسية»^(٥).

وقد شاءت الأقدار أن يكون نائب ابن مردنيش وأعنى به ابن همشك، شخصية تشبهه كثيراً فى صفاته وميوله، إذ كان ابن همشك هذا سيفه المسلط على من عصاه، وعضداً له فى تمكين سلطانه وتدعيم ملكه.

وابن همشك المذكور هو إبراهيم بن محمد بن مفرج بن همشك، من أصل مسيحي كذلك، فجدّه مفرج أو همشك نصراني نزع إلى سرقسطة، وأسلم على يد أحد ملوك بنى هود، وكان مقطوع إحدى الأذنين، فكان النصراني إذا رآه عرفوه وقالوا : هامشك، ويفسرها ابن الخطيب بقوله : إن هذه العبارة فى لغتهم معناها «ها هو مقطوع الأذن»^(٦)، وأصل العبارة بالقشتالية He aqui el mocho pequeno ومعناها مقطوع الأذن^(٧)، ويرى الأستاذ سافدرا فى تفسيره لكنية ابن همشك أنها تنطق ابن همسك، نسبة إلى أن أصله من بلدة همسك Amusco (وهى بلدة من أعمال محافظة بالنسيا Palencia)^(٨).

وأياً ما كان الأمر، فإن ابن همشك تحول بعد سقوط سرقسطة إلى مملكة قشتالة ليعمل مرتزقاً فى جيشها فترة من الوقت، ثم نزع بعد ذلك إلى الأندلس، واتصل

(1) Ximenez de Rada, Opera, en Textos Medievales, o 22, Valencia, 1968, p. 283; Huici Miranda, Ibid, t. III, p. 132.

(2) Dozy, op.cit., t. I, p. 367; Codera, op.cit., p. 115.

(3) Dozy, op.cit., t. I, p. 366; Codera, op.cit., p. 115.

(4) Ibars, op.cit., t. I, p. 516.

(5) Dozy, op.cit., t. I, p. 366.

(٦) الإحاطة ، ج١ ، ص ٢٩٦-٢٩٧.

(7) Gaspar Remiro, op.cit., p. 186.

(8) en, Gaspar Remiro, Ibid., p. 187.

بخدمة المرابطين بعد أن أظهر أسفه وندمه لاشتراكه مع النصارى، ولما ندب الأمير تاشفين بن على الوالى يحيى بن غانية لولاية قرطبة فى سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م، التحق ابن همشك بخدمته، ثم بعثه ابن غانية - وكان يقرب الأندلس - رسولا من قبله إلى قرطبة عندما انتزى بها ابن حمدى سنة ٥٣٩هـ، لما لمسه فيه من كفاية وتجربة مستهدفاً من ذلك أن يوفق فى عقد الصلح بينه وبين ابن حمدى، ولكن الأحداث تطورت بشكل سريع، واتسع نطاق الثورة ليعم كل الأندلس، وعند ذلك وجه ابن همشك نظره إلى شرق الأندلس، حيث التحق بخدمة ابن عياض الذى تغلب آنذاك على بلنسية، ولم تمض فترة طويلة حتى سنحت لابن همشك الفرصة لاحتلال حصن شقوبش، ثم تغلب على مدينة شقورة وتملكها فغوى أمره، ولما آلت بلنسية ومرسيه إلى محمد بن سعد بن مردنيش بعد موت ابن عياض اتصل به ولم يزهد ابن مردنيش فى اصطناعه ليفيد من تجاربه السابقة مع القشتاليين وتمكنه من لغتهم فى تولى صلواته بهم فعقد ابن مردنيش معه صهراً على ابنته فتوثقت العلاقة بينهما^(١).

وكان ابن همشك قائداً شجاعاً، مقداماً، شديد الحزم، شديد الرأى، ملماً بشئون الحرب، وفيه أنشد بعض الشعراء هذه الأبيات، التى كانت تعجبه فيتغنى بها:

يتلقى النداء بوجهه حيبى .: وصدور القنا بوجه وقاح
هكذا هكذا تكون المعالى .: طرق الجدد غير طرق المزاح^(٢)

كما كان فظاً غليظاً، جباراً قاسياً، شديد النكال، عظيم الجرأة والعبث بالناس إلى حد أنه أقدم على حرق بعض أعدائه أحياء، بل وقذف بعضاً منهم من أعلى الجبال والأبراج، وتفنن فى تعذيب ضحاياه من ذلك أنه كان يضم فروع الشجر بعضها إلى بعض، ويربط الرجل عارياً بينهما، ثم يترك الأغصان حرة ليذهب كل غصن إلى موضعه^(٣). وقد شاعت عنه هذه القسوة المبالغة حتى عد عند أتقياء المسلمين كافراً مصيره جهنم، فيروى أن أحد الصالحين رآه فى النوم بعد موته، وسأله ما فعله الله به فأنشد:

(١) ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٢٩٧-٢٩٨، وراجع له أيضاً: أعمال الأعلام، القسم الخاص بالأندلس، ص ٢٦٣، وانظر أيضاً:

Gaspar Remiro, op.cit., p. 187.

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٢٩٩.

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٢٩٨-٢٩٩.

من سره البعث في الدنيا بخلقه من .∴ يصور الخلق في الأرحام كيف يشاء
فليصبر اليوم صبري تحت بطشته .∴ مغفلاً يمتطي جمر الغضا فرشاً^(١)

وتعبر هذه الآيات بصدق عما كان يضمرة المسلمون لابن همشك من كراهية
لغلظته وقسوته حتى أنهم تصوره في أحلامهم.

ج- موقف ابن مردنیش من نصارى أسبانيا بعد سقوط بعض قواعد الثغر الأعلى:

عقب تولى ابن مردنیش حكم بلنسية ومرسيه وقع حادثان خطيران، الأول،
سقوط ثغر المريه في أيدي القشتاليين، والثاني سقوط طرطوشة ولاردة وإفراغه في أيدي
القطلاتيين والأرغونيين والجنوئين.

ففي السنوات الأولى من إمارة ابن مردنیش، انتهز ألفونسو السابع ملك قشتالة
فرصة الاضطراب العام الذي اجتاحت الأندلس عقب انهيار سلطان المرابطين وتمكن في
جمادى الأولى سنة ٥٤٢هـ/ ١٧ أكتوبر ١١٤٥م من انتزاع ثغر المريه الحصين الذي
كان قاعدة بحرية لفزاة البحر المسلمین الذين كانوا يغيرون على سواحل أسبانيا
المسيحية المطلة على البحر المتوسط وساحل فرنسا وإيطاليا الجنوبية، وأحياناً تمتد
غاراتهم إلى السواحل البيزنطية^(٢).

وكانت المريه قد حذت حذو مالمقه وأشبيلية وغيرهما من مدن الأندلس ودخلت
في فلك دولة الموحدین^(٣)، ثم قدم أهلها عليهم أبا يحيى بن الرميمي^(٤)، الذي
ضبطها إلى أن استولى عليها ألفونسو السابع ريموند الملقب عند مؤرخي العرب
بالسليطين ملك قشتالة^(٥)، ويرجع الأستاذ أويشي ميراندا أن المريه شهدت خلال
حكمه قيام إمارة مستقلة لمدة عامين انتهت باستيلاء النصاري عليها^(٦).

(١) نفس المصدر والجزء، ص ٢٩٩.

(٢) أشباح، المرجع السابق، ص ٢٢٤.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المريه الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، الطبعة الأولى، ١٩٦٩،
بيروت، ص ٩٣.

(٤) المراكشي، المصدر السابق، ص ٢١٠، وراجع أيضاً: ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ج-٢، ص
١٩٨-١٩٩، المقرئ، المصدر السابق، ج-٦، ص ٢٠٦.

(٥) مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة الموحدية، إصدار ليفي بروفنسال، الرسالة السادسة
عشر، رباط الفتح، ١٩٤١، ص ٧٥، وراجع أيضاً:

المقرئ، المصدر السابق، ج-٦، ص ٢٠٧.

(6) Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 120.

وكان نغر طرطوشة كذلك كثفر المويه مشوى لمجاهدى البحر والمغامرين، يشنون منه غاراتهم على الممالك المسيحية، الأمر الذى دعا البابا يوجين الثالث إلى المناداة بفتح هذه المدينة، واجتمعت قوات النصارى من الأرغونيين والقطلانين والبيزيين والجنوبيين وفرسان المعبد بقيادة راموند برنجير كونت برشلونة لهذا الغرض، وحاصرت قواتهم طرطوشة براً وبحراً لمدة أربعين يوماً، وعلى الرغم من المقاومة الباسلة التى بذلها المسلمون وتصديهم لهذا الحصار بضراوة على أمل أن ترد إليهم إمدادات من بلنسية أو غيرها، فقد اضطروا بسبب يأسهم من وصول الإمدادات والميرة إلى تسليم المدينة صلحاً فى ١٦ شعبان سنة ٥٤٣هـ/ آخر سنة ١١٤٨م، بشرط أن يحتفظوا بأملآكهم ومساجدهم، ولكن النصارى أقطعوا المدينة بعد استيلائهم عليها للجنوبيين ولجيرمو دى مونتبيلر Guillermo de Montpeller ، وجيرمورامون دى مونكاد Guillermo Ramon de Moncada لدورهم الفعال فى حصار المدينة والاستيلاء عليها^(١).

ثم هاجمت القوات النصرانية مجتمعة بقيادة الكونت رامون برنجير حصن لاردة بعد فترة قليلة، غير أن حامية الحصن لم تستطع الصمود طويلاً لإزاء الهجوم المسيحى المشترك، فلم تلبث المدينة أن سقطت فى أيدي المهاجمين فى عام ٥٤٤هـ/ ٢٤ أكتوبر ١١٤٩م، وفى نفس اليوم تملك النصارى حصنى افراغه ومكنسة^(٢).

وكانت هذه القواعد التى استولى عليها النصارى تابعة للنغر الأعلى سرقسطة، ولهذا فإنها أصبحت بعد سقوط سرقسطة تابعة على نحو اسمى لولاية بلنسية، وهنا يتبادر إلى الذهن السبب الذى من أجله لم يتحرك ابن مردنيش لإنقاذ هذه المدن والاحتفاظ بها.

والظاهر أن ابن مردنيش ارتضى ولو مؤقتاً ما تحت سيطرته من قواعد شرق الأندلس، ولم يحاول التدخل عسكرياً ضد القوات المتحالفة النصرانية، التى كان يرتبط معها برباط من الصداقة وثيق، فلم يشأ أن يتعرض لها حتى لا تنهار صلاته الودية التى يرتبط بها معهم سيما وأنه كان فى مواجهة خطر يتمثل فى قوة الموحدين، وهؤلاء

(١) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ١١، ص ٥٦، وانظر أيضاً:

Codera, op.cit., p. 124.

(٢) ابن الأثير، نفس المصدر والجزء، ص ٥٢، وراجع أيضاً:

ابن أبى زرع، الأئیس المطرب، روض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، نشر

تورنبرغ، أبسال، سنة ١٨٤٢، ص ١٧٦،

Codera, Ibid, p. 126

لم يقدموا لفترة على التدخل عسكرياً ضدهم لمشاغلهم الكبيرة فى بسط سيطرتهم على كل المغرب وتأكيد نفوذهم على قواعد الأندلس التابعة لهم، وكان ابن مردنيش واقعياً، فكان على يقين من أن المواجهة بينه وبين الموحدين أصبحت وشيكة، وأن اليوم الذى سيلاقيه فى بات وشيكا، وهذا فى اعتقادى ما جعله يرتضى هذا الموقف المتخاذل موقف المتفرج للأحداث، وإن كان فى نفس الوقت يعتبر نفسه حامياً للرعايا المسلمين فى تلك القواعد المنزوعة، فعندما عقد معاهدة الصداقة مع الجنوبيين اشترط عليهم أن يتعهدوا بالآلا يوقعوا أضراراً برعاياه فى طرطوشة والمريه، لاسيما أن جنوة كانت من بين الممالك المسيحية التى اشتركت فى افتتاح المرية وطرطوشة وحظيت فى المدينة الأخيرة بثلاث إقطاعها.

٢ - موقف الموحدين من سيطرة ابن مردنيش

على مرسية وبلنسية

أ - اشتغال الموحدين بثبيت دعائم دولتهم بالمغرب عن مواجهة ابن مردنيش :

شغلت الدولة الموحدية منذ قيامها بتوطيد سلطاتها فى المغرب، واستكمال فتوحاتها فى أفريقية، فضلا عن انصرافها لإخماد الثورات العديدة التى نشبت ضدها فى المغرب، مما جعلها تغض الطرف إلى حين عن مواجهة ثورة ابن مردنيش وانتزائه فى بلنسية ومرسية وامتداد سلطانه تقريباً على كل شرق الأندلس وجنوبه.

وفيما يلى أهم الثورات التى تصدى الموحدون لإخمادها :

١ - ثورة الماسى :

مثيرها عمر بن الخياط الذى يلقبونه ببويكندى، أصله من سلا^(١)، فلما انتشرت الدعوة الموحدية، واستولى الموحدون على سلا، ادعى الهداية وتلقب بالهادى، واستقر برباط ماسة^(٢) فى شوال عام ٥٤١هـ، ولهذا عرف بالماسى. وقد لقيت

(١) البيهقى، أخبار المهدي بن تومرت، ص ١٠٦، والظاهر أن هذا التأثير اتخذ حين ثورته اسم محمد بن عبد الله بن هود، وقد حدث فى ذلك حلو المهدي بن تومرت، الذى تسمى أيضاً باسم محمد بن عبد الله، وتلقب ابن هود هذا بلقب المهدي، انظر : ابن عذارى، البيان المغرب، ق ٣، ص ٢٦، ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٤٧٩-٤٨٠، ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ١٢٣-١٢٤، الحلل الموشية، ص ١١٠.

(٢) عن رباط ماسه، انظر : البكرى، المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص ١٦١، الإدريسى، وصف أفريقية الشمالية والصحراوية (مشتق من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق)، نشر هنرى بيرس، الجزائر، ١٩٥٧، ص ٤٩.

دعوته فيها نجاحاً كبيراً فانتشرت بين القبائل، وسرعان ما استولى على بلاد تامسنا، وبلاد المصامدة، وانضمت إليه عدة من القبائل، ولم يبق تحت سلطان عبد المؤمن بن علي وطاعته في وسط المغرب وجنوبه سوى مدينتي فاس ومراكش؛ ولم يقف عبد المؤمن أمام هذا الخطر المائل مكتوف اليدين فقد قرر التحرك السريع وسير حملة عهد بقيادتها لابن بكيت ويحيى المسوفي المعروف بانجمار، غير أن هذه الحملة لم تلق سوى الهزيمة، الأمر الذي دعاه إلى معاودة الكرة فسير هذه المرة حملة قوية مجهزة بأعداد كثيفة من المقاتلة بقيادة الشيخ أبي حفص عمر الهنتاني، الذي تقدم بقواته صوب تامسنا بوادي ماسة، حيث التقى بقوات الماسي وأوقع بها الهزيمة، وفي هذه الموقعة لقي الماسي مصرعه في ذي الحجة عام ٥٤٢هـ/ ٧ مايو ١١٤٨م، وبمصرعه لفظت ثورته أنفاسها وانقطعت جموعه^(١).

٢ - ثورة قبيلتي برغواطة ودكالة :

يتمثل الخطر الثاني الذي تهدد دولة الموحدين عند بدء قيامها في ثورة قبيلتي برغواطة ودكالة، وقد ظلت هاتان القبيلتان على الرغم من النهاية المفجعة التي انتهت إليها ثورة الماسي، وعلى الرغم من الحملات المتكررة التي وجهها الموحدون إليها متمردتين على طاعة الموحدين، مستندتين في ذلك على بعض القبائل المجاورة التي انحازت إليها، بالإضافة إلى انضوائهما إلى يحيى بن أبي بكر بن علي الصحراوي المعروف بابن الصحراوية، الذي كان قد شق عصا الطاعة على الموحدين وثار عليهم في سبتة، ثم انضم إلى بني غانية، فكتبت إليه برغواطة تستنصره على قتال عبد المؤمن، فسار في صحبة إليهم فبايعوه واجتمعوا تحت رايته^(٢). فخرج إليهم عبد المؤمن بن علي في قواته، وجرت بينهم حروب عظيمة، انتهت بهزيمة برغواطة، وإخماد ثورتها، وتم ذلك في عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م^(٣).

(١) عن ثورة الماسي، راجع : البيهقي ، المصدر السابق، ص ١٠٦، ابن عذارى، المصدر السابق، القسم الثالث، ص ٢٦، ابن خلدون، ج٦، ص ٤٧٩، ص ١١٠، وعن تاريخ مصرع الماسي، يجعله ابن عذارى في ١٦ ذي الحجة ٥٤١هـ، وابن خلدون في ذي الحجة ٥٤١، وابن أبي زرع في ذي الحجة ٥٤٢هـ، راجع : البيان المغرب، ق ٣، ص ٢٦، العبر، ج٦، ص ٤٨٠، روض القرطاس، ص ١٢٤٠، وإن كنا نرجح تاريخ مصرعه في ذي الحجة ٥٤٢هـ لتقديم وفد أشبيلية بقيادة القاضي أبي بكر بن العربي، أثناء حوادث ثورة بويكندی واستقبال عبد المؤمن للوفد بمراكش في عيد الأضحى ٥٤٢هـ، انظر: العبر، ج٦، ص ٤٨٦-٤٨٧، الزركشي، ص ٦.

(٢) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٢٤، ابن خلدون، المصدر السابق، ق ٦، ص ٥٢٣.

(٣) البيهقي، المصدر السابق، ص ١٠٩، ابن أبي زرع، نفس المصدر، ص ١٢٤، الحل الموشية، ص ١١١.

٣- ثورة ابن تمر كيد :

لم يكد الموحدون يخدمون ثورة يرغواطة ودكالة حتى قام بتاسمنا ثائر جديد يعرف بان تمر كيد بايعته يرغواطة وقبائل كثيرة أخرى من البربر، واستمرت ثورته فترة طويلة بحيث كانت تشكل خطراً يهدد وحدة الدولة الموحدية، الأمر الذى دفع الموحدين إلى الاشتباك مع الثوار فى معارك متوالية انتهت بهزيمة الثوار ومصرع ابن تمر كيد وعدد كبير من أتباعه، وقد احتز الجند رأسه وحملوه إلى مراكش فى عام ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م^(١).

ومن بين المشاكل التى شغلت دولة الموحدين فى بدء قيامها بالإضافة إلى الثورات السابقة رغبة عبد المؤمن بن على توحيد المغرب الإسلامى فى إمبراطورية واحدة، وهذا معنى الاصطدام عاجلاً أو آجلاً بينى زيرى وبنى حماد وهى مهمة صعبة لابد من القيام بها قبل الإقدام على التدخل فى شئون الأندلس، وعمل بهذا النحو تقدمت قوات الموحدين بقيادة الخليفة نفسه نحو المغرب الأوسط فى سنة ٥٤٦هـ، بعد أن استخلف على مراكش أباً حفص بن يحيى ومبالغة منه فى إخفاء وجهته خرج بقواته إلى سلا حيث أقام شهرين ثم تحرك إلى سبتة متظاهراً الجواز إلى الأندلس يرسم الجهاد، وفى سبتة استدعى طلبة أشبيلية وقرطبة وفقهاء الأندلس وقوادها فأوصاهم بما أراد وودعهم، ثم غادرها إلى مراكش ومنها سلك طريقاً أخرى غير مطروقة إلى فاس فتلمسان عبر مكناسة ثم خرج من تلمسان متجهاً إلى بجاية، وعند مروره بالجزائر فر عاملها القائم ابن يحيى إلى بجاية، وأخبر أباه يحيى بن عبد العزيز بالله الصنهاجى سليل بنى حماد بمقدم الجيش الموحدى، فأمن عبد المؤمن أهلها ثم زحف بكل حشوده نحو بجاية فلما وصلها بقواته أحكم حولها الحصار واتصل به وزيرها وقائدها أبو عبد الله بن ميمون المعروف بابن حمدون سرّاً، وفتح له أبواب المدينة فدخلها الموحدون فى شهر ذى القعدة سنة ٥٤٧هـ/ يناير ١١٥٣م^(٢).

وبينما كان عبد المؤمن فى غزاته لأفريقية، انتهز أبو موسى عيسى وأبو محمد عبد العزيز أخوا المهدي بن تومرت فرصة غيابه عن المغرب الأقصى، وشقا عصا الطاعة على عبد المؤمن مستندين فى ثورتهم على قبيلتيهما هرغة، بدأت الثورة فى فاس فى

(١) راجع تفاصيل ثورته فى البيهقى، المصدر السابق، ص ١٠٩، والذي يسميه بومزكيدا، ابن أبى زرع،

المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٢) البيهقى، المصدر السابق، ص ١١٣-١١٤، ابن أبى زرع، نفس المصدر ص ١٢٥-١٢٦، المراكشى،

المصدر السابق، ص ٢٠٤-٢٠٦، الحلل المشوية، ص ١١٢-١١٣.

سنة ٥٤٨هـ ولكن عبد المؤمن تمكن من إخمادها على الفور، وأمر بقتل الثوار ولكنه أبقى على حياة أخوى المهدي ودفعهما إلى فاس حيث أسكنهما، وأمر الجياني واليها أن يحرسهم وأمر لهم فيها بأرزاق كانت تعطى لهما^(١). ولكن الأخوين هربا مع أنصارهما من فاس إلى هرغة، ومنها سارا في أتباعهما إلى مراکش، وهناك تمكنا من إضرام الفتنة والشغب بالمدينة، وقتل الثوار واليها عمر بن تفراجين، وعندما وصلت أنباء هذه الفتنة إلى مسامع عبد المؤمن، أمر وزيره أبا جعفر بن عطية بالسير في الحال لإخمادها، وقد تمكن ابن عطية بالفعل من القضاء على الفتنة والقبض على الثوار فقتلوا جميعاً وكان عددهم ثلاث مائة وتم ذلك في سنة ٥٤٨هـ، كذلك أمر عبد المؤمن بإعدام مثيري الفتنة، فقتلا وصلبا^(٢)، ويؤيد هذه الرواية ما جاء في رسالة الخليفة الرسمية عن الحادث عن مصرع المخالفين، وقتل العامة بهم وصلبهم خارج المدينة^(٣).

ب - سيطرة ابن مردنيش على الموقف في شرق الأندلس وسياسته التوسعية:

وهكذا اتفق قيام الثورات المغربية على الخلافة الموحدية بعد قيامها في نفس الوقت الذي انتزى فيه ابن مردنيش في شرق الأندلس حيث تمكن من تثبيت دعائم سيطرته على بلنسية ومرسية وأحوازهما، كما دخل أهل الحصون والقلاع في طاعته فعظم أمره^(٤). وقد كان ابن مردنيش حريصاً منذ بداية حكمه على تثبيت سلطانه على شرق الأندلس والحفاظ على حدوده كاملة لا ينتقص من أطرافها معتد خارجي أو داخلي، حتى لقد بلغه خلال سيره إلى بلنسية ليتولى أمورها أن قوات ألفونسو السابع ملك قشتالة هاجمت حصن «حلال» فلم يتردد في أن يكر إلى ه ويسترده من أيديهم، ثم عاد إلى بلنسية حيث تلقى البيعة^(٥).

وعندما تولد سلطانه ببلنسية ومرسية نصب أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد نائباً عنه فيها، كما عين ابن همشك على مرسية نائباً عنه فيها كذلك، وبهذا أحكم ابن مردنيش سيطرته على شرق الأندلس.

بيد أن ابن مردنيش واجهته في السنوات الأولى من حكمه ثورتان هددتا إلى حد ما استقلاله : هما ثورة ابن هلال وثورة ابن شلبان.

(١) البليق، المصدر السابق، ص ١١٦.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، القسم الثالث، ص ٣٨.

(٣) مجموع رسائل موحدية، الرسالة الحادية عشر، ص ٤٦ وما بعدها.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الخاص بالأندلس، ص ٢٦٠.

(٥) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٢، ص ٨٥، رراجع أيضاً:

١ - ثورة ابن هلال :

هو يوسف بن هلال، صهر الأمير محمد بن سعد بن مردنيش، وكان قائداً شجاعاً، حازماً، وهو الذي طارد مروان بن عبد العزيز الوالي السابق لبليسية عقب فراره منها وحاول القبض عليه ولكنه أخفق في تحقيق ذلك^(١). وقد أبدى ابن هلال في قيادته كفاية كبيرة قربت ابن مردنيش إليه، بحيث أقدم على مصاهرته، ودفعته إلى أن يعهد إليه بحكم حصن مطريش أو مطريشه ومواقع كثيرة، فلما فسدت طاعته قبض عليه ونكبه، واستولى على ما كان بيده ثم أخلى سبيله، فأعمل يوسف بن هلال الحيلة ولحق بمورتل Moratalla^(٢)، وثار بها، وأرسل يستنصر برامون برنجير الرابع أمير برشلونة، وتعهد له بأن يصير ما يملكه إليه، فأمدّه بقوات من النصاري اشتركت معه في الإغارة على مدينة بليسية، وفي هذه الأثناء نجح يوسف في الاستيلاء على بنشكلة، وأوقع بابن مردنيش وهزمه. عندئذ قرر ابن مردنيش مواجهة خصمه بقوة كبيرة لتأديبه وبادر بالسير في قواته إلى مورتل وصادف ذلك خروج يوسف في قواته للاستيلاء على شنطيطور^(٣) San Pedro del Pinatar ففاجأته قوات ابن مردنيش وقبضت عليه وسبق إلى ابن مردنيش الذي أسرع به إلى مورتل وطالبه بإخلاؤها وإلا نزع عينه فرفض ذلك، فأمر ابن مردنيش، فأخرجت عينه اليمنى يعود، ثم اقترب من مورتل وطلب من أهلها إخلاء الحصن، ودعا زوجة يوسف وهددها بانتزاع عينه اليسرى إذا لم تبادر بإخلاء الحصن فلم يجبه أحد، فأخرجت للعين اليمنى الأخرى، وسبق إلى شاطبه حيث أقام معتقلاً إلى أن مات عام ٥٤٣هـ/١١٤٨م^(٤).

٢ - ثورة ابن شلبان ببليسية :

لم تمض سنوات على إخماد حركة ابن هلال حتى قامت الثورة في بليسية ضد ابن مردنيش بتحريض من عبد الملك بن شلبان، الذي انتهز خروج ابن مردنيش

(١) ابن الأبار، الحلة السراء، ج ٢، ص ٢٢٢.

(٢) مورتل تقابل Moratalla حصن في محافظة مرسية، راجع :

Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 137.

(٣) شنطيطور أو شنغيره Sanfiro لعله يقابل الموضع المعروف اليوم باسم San Pedro del Pinatar انظر:

Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 239.

وعن حصن شنغيره، راجع: الحميري، الروض المطار، ص ١١٦ من النص العربي، ص ١٤٢ من

الترجمة الفرنسية.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص ٢٦٠، ٢٦٢-٢٦٣، وراجع أيضاً:

Huici Miranda, op.cit., t. III, pp. 137-138.

في قواته جنوباً في حملته على بسطة وادى آش ليتزى بمدينة بلنسية، ولقد سبقت إلينا أخبار هذه الثورة بطريقة غير مباشرة ضمن إشارات وردت في ترجمات ابن الآبار، واستمرت هذه الثورة قائمة، ما يقرب من سنتين ٥٤٦-٥٤٧هـ. ١١٥١/ - ١١٥٢م^(١).

وما كاد ابن مردنيش يبلغه خبر انتزاع عبد الله بن شليان بلنسية حتى عهد إلى نائبه وقائده ابن همشك بالخروج في قواته لمهاصرة بلنسية وإخماد ثورة ابن شليان فيها، ولكي يعزز قواته استنجد بحليفه رامون برنجير الرابع أمير برشلونه وملك أرغون وطلب منهما أن يمداه بعون عسكري، وقد لبأ حليفاه طلبه وزوداه بقوة نصرانية أسهمت في إحكام الحصار حول بلنسية، ولكنها لاقت صعبة في اقتحام أسوارها المنيعة غير أن ابن مردنيش تمكن في النهاية من استرجاع بلنسية والقضاء على الثورة بها، ومن ثم أذاق أهلها أشد العذاب^(٢).

وهناك رواية مسيحية لثورتها Zurita^(٣) تشير إلى أن أهل بلنسية في هذه الفترة كانوا يناضلون إلى جانب الموحدين، دون أي ذكر للثورة التي قام بها ابن شليان ومعنى ذلك أن أهل بلنسية قد وحدوا. وهذا أمر لم يكن في الإمكان تصديقه لولا أن صادف تأكيداً في الخطاب الرسمي الذي وجهه أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي إلى ابن مردنيش في ١٦ جمادى الآخرة عام ٥٤٨هـ، وهو يلومه على معاملته السيئة لأهل بلنسية، فيقول له: «فقد كان منكم في أمر أهل بلنسية حين

(١) انتزى ابن شليان بمدينة بلنسية بعد مصرع أبي الحجاج يوسف بن حامد الصانع الحقيقي للثورة على الأمير محمد بن سعد بن مردنيش، وتفصيل ذلك وفقاً لما رواه ابن الآبار في المعجم بمناسبة ترجمته لحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن الفرج الخزرجي الذي كان يلي قضاء بلنسية منذ رجب سنة ٥٤٦هـ، أن هذا القاضي ترك ولاية القضاء على بلنسية في أول شوال من نفس السنة واستعفى من هذا المنصب بسبب انتزاع أبي الحجاج يوسف ابن حامد فيها على الأمير محمد ابن سعد إذ ذاك رافضاً تلك الثورة ومؤثراً العودة إلى مرسيه، ووفقاً لهذه الترجمة يشير ابن الآبار إلى أن محمد بن سعد قدم لحصارها في السابع من شوال من نفس السنة بعد أن لجأ عبد الله بن شليان أحد أصحاب ابن حامد إليها عقب مقتل هذا الأخير فتولى ضبطها. راجع:

ابن الآبار، المعجم، ص ١٧٨، ترجمة ١٥٩.

(٢) ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، ترجمة رقم ٦٧٠، ص ٧٥٠، راجع أيضاً:

Codera, op.cit, p. 128; Huici Miranda, op.cit., t. III, pp. 138-139.

(3) Zurita, Andales de la Corona de Aragon, apud, Huici Miranda, op.cit., pp. 138-139.

إعلانهم بكلمة التوحيد وتعلقهم بهذا الأمر السعيد، ما كان... وليس لذلك وأمثاله عاقبة محمد^(١).

وهكذا تمكن ابن مردنیش من إخمد الثروات فى بلنسية ومورتلة وثبت دعائم حكمه على كل شرق الأندلس، ثم وجه اهتمامه نحو تطبيق سياسة توسعية ترمى إلى ضم مزيد من مناطق الأندلس إلى سلطانه، ولما كانت المرية تحت سيطرة ألفونسو السابع ملك قشتالة، فقد اتجه نحو بسطة ووادی آش. وكانت وادی آش منذ أن ثار بها أحمد بن محمد بن ملحان الطائى، واستولى على قصبتها ودعا فيها لنفسه، وتلقب بالمتأيد بالله، ثم تطلع إلى تحصيل المال والذخائر بكافة الطرق، واقتنى الضياع الواسعة، وتولى فلاحتها وحرثها، حتى غدا من أغنى أهل زمانه، ولم يلبث أن تغلب على بعض القواعد القريبة مثل بسطة وضمها إلى إمارته، واتخذ لنفسه بلاطاً اصطنع فيه كل مظاهر الأبهة والفخامة شأن ملوك الطوائف وحاط نفسه بعدة من مشاهير رجال العلم والأدب فى ذلك العصر، من أمثال أبى بكر بن طفيل الطبيب الفيلسوف^(٢)، وامتد عهده أعواماً طويلة، إلى أن تطلعت همة ابن مردنیش إلى ضم وادی آش إلى حوزته، فلما زحف ابن مردنیش إليها فى قواته بالإضافة إلى ما انضم إليها. من القشتاليين وتبين لابن ملحان عجزه عن مواجهتها، لم يستطع الاحتفاظ بوادى آش فخرج عنها، واستولى عليها ابن مردنیش، كما استولى على بسطة وغيرها وذلك فى سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م، أما ابن ملحان فبادر بإعلان طاعته للموحدين وجاز البحر إلى المغرب ودخل فى خدمتهم، فمهد إليه فى الحاضرة مراكش بالاشتغال ببعض الأعمال الهندسية كإقامة البحيرة وإجراء مائها^(٣)، ثم صودرت أمواله إثر

(١) مجموع رسائل موحدية، الرسالة العاشرة، ص ٣٥ وما بعدها.

(٢) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد طفيل القيسى ولد قبل سنة ٥٠٦هـ/١١١٠م، أصله من وادی آش، وكان من العلماء المتقنين، متحققاً بجميع أجزاء الفلسفة، ومن تصانيفه فيها رسالة «حى بن يقظان»، و«رسالة فى النفس»، كما كان على دراية واسعة بعلم الطب حتى أصبح طبيباً للخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف المنصور، ونال عنده حظوة عظيمة، توفى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٥-١١٨٦م، راجع فى ترجمته: المراكشى، المعجب، ص ٢٣٩ وما بعدها، أنخل جوثالث بالثنيا، تاريخ الفكر الأندلسى، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٥، ص ٣٤٨.

(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٦٤، وانظر له أيضاً: الإحاطة، جـ ٢، ص ٨٩، وراجع أيضاً: ابن الأثير، الكامل، جـ ١١، ص ٦٣.

Codera, op.cit, pp. 131-132; Gaspar Remiro, op.cit., p. 202; Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 139.

منازعة بينه وبين أبي محمد بن سليمان أمير الأسطول في سبتة، ارتد على إثرها إلى إعلان ولائه لابن مردنيش ولألفونسو السابع ولم يتردد في اللحاق بعسكرهما^(١)، ويبدو أن الموحدين أقدموا إزاء هذا التصرف على مصادرة أمواله، وتوفى في بؤس وضعه^(٢).

جـ- الصراع بين الموحدين وابن مردنيش:

لما فرغ أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي من فتح بجاية أواخر عام ٥٤٧هـ/١١٥٢م وقضى على سائر الثورات التي احتدمت بالمغرب خرج إلى تينمال، وزار قبر المهدي، وكانت قد وصلته أخبار ثورة بلنسية وسقوط مدينتي بسطة ووادي آش في يد ابن مردنيش، وامتداد سلطانه إلى الجهات المجاورة لجيان وكانت يومئذ إحدى قواعد الموحدين في الأندلس، فبعث عبد المؤمن برسالة رسمية إلى ابن مردنيش في ١٦ جمادى الآخرة عام ٥٤٨هـ، كما سبقت الإشارة، يدعو فيها إلى الدخول في دعوة الموحدين والانضواء في طاعتهم، ويلفت نظره إلى أنه لم يفر أحد من زعماء الأندلس ببيغيته إلا من دخل في هذه الدعوة، وأن من خرج عليها منهم كان جزاؤه سوء المنقلب ثم يدعو إلى المبادرة إلى الاعتبار، ويلومه بما كان منه في حق أهل بلنسية، «حينما أظهروا كلمة التوحيد»، وكذلك أهل لورقة «حينما ظهر إخلاصهم»^(٣) للموحدين.

كان ذلك فيما يظهر أول احتكاك على المستوى الرسمي يتم بين الموحدين وبين محمد بن سعد بن مردنيش، ويبدو أنه لم يكتثر لما ورد في هذه الرسالة، فليس لدينا من الروايات التاريخية ما يشير إلى أنه تكلف عناء الرد عليها، وسواء كتب رده على عبد المؤمن أو لم يكتب فقد أصبح ابن مردنيش من ألد خصوم الموحدين وأصلبهم عدداً، وأرسلهم عزماً في مقاومة دعوتهم في الأندلس.

ولكن عبد المؤمن كان يستهدف قبل كل شيء، منذ أن تمكن الموحدون من السيطرة على غرناطة في سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م تحرير مدينة المرية من سيطرة القشتاليين، «لكونها ناظمة بين الجهات الشرقية والغربية، ورابطة بين البلاد البرية والبحرية»^(٤).

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ق ٣، ص ٣٣.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص ٢٦٤.

(٣) مجموع رسائل موحدية، الرسالة العاشرة، ص ٣٦-٣٧.

(٤) مجموع رسائل موحدية، الرسالة السادسة عشرة، ص ٧٣-٧٤، وراجع أيضاً:

ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١١، ص ٢٠٨.

ولتحقيق هذا الهدف أعد عدته للتحرك، فلما تم له تجهيز الجيوش وإعداد المؤن والميرة والسلاح، أصدر أوامره للسيد أبي سعيد عثمان وإلى غرناطة آنذاك، بمحاصرة المرية بحركاً وبراً، فتقدم السيد أبو سعيد عثمان إلى المرية للجهاد في صحبة أخيه أبي حفص^(١)، وقد ورد في رسالة وجهها عبد المؤمن بن علي (من إنشاء كاتبه أبي عقيل عطية بن عطية) إلى الطلبة وأشياخ الموحدين ببجانه، أنه رأى «أمر المرية - حرسها الله - من أهم الأمور وأكدها في هذا الغرض المبرور، والأمل الميسور، لكونها نازمة بين الجهات الشرقية والغربية ورابطة بين البلاد البرية والبحرية»^(٢).

وهكذا ركز الموحدون قواتهم البرية والبحرية لاسترداد المرية، ولم تفلح جهود ألفونسو السابع وحليفه ابن مردنيش في مواجهة الحصار الموحدى المحكم حول المدينة، وتمكن الموحدون في النهاية من السيطرة على الموقف ونزل نصارى القصبية عنها بالأمان^(٣) سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م.

وعندما وصل أمير المؤمنين إلى المرحلة الأولى في اتجاه رباط الفتح وافاه البشير بانسحاب ألفونسو السابع وحليفه ابن مردنيش، ولكن قوات الموحدين لم تدع ألفونسو السابع يرحل بسلام بل لحقت في أثره وانقضت على مؤخرة قواته عند بياسة، بينما فتح أهل المدينة أبوابها للموحدين واستسلمت لهم الحامية القشتالية، فاستولوا عليها، وتابع الموحدون مطاردتهم لألفونسو السابع عند أبده، وتمكنوا من الاستيلاء عليها وكل القلاع المجاورة، وإلى ذلك يشير عبد المؤمن في إحدى رسائله فيذكر أنهما «قطران عظيم المنافع، متعا المسارح والمزارع»^(٤) وفي هذه الرسالة يشير أيضاً إلى أن بياسة كانت القاعدة التي يوجه منها القشتاليون حملاتهم ضد الأندلس، فيقول: «وقد كانوا اتخذوها أصلاً يستندون إليه، ويعتمدون عليه، فشحنوها بالآلات المعدة، والأقوات الممدة، تحصيناً لأمن مثواهم، وتمكيناً لأمن عدواهم، وكانت بين بلادهم وبين

(١) المقرئ، المصدر السابق، ج٦، ص ٢٠٧، وانظر أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ص ٩٦.

(٢) مجموع رسائل موحدية، الرسالة السادسة عشرة، ص ٧٣-٧٤.

(٣) عن تفاصيل استرداد الموحدين للمرية، راجع: مجموع رسائل موحدية، الرسالة السادسة عشرة، ص

٧٦-٧٧، ابن عذاري، المصدر السابق، ق ٣، ص ٣٣، ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٦٤،

Torres Balbas, Almeria Islamica, Al-Andalus, XVIII, p. 411;

السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ص ٩٦ وما بعدها.

(٤) مجموع رسائل موحدية، الرسالة السادسة عشرة، ص ٧٨-٧٩.

بلاد الأندلس - وفقهم الله - فى العهد المتقادم مسيرة أيام للشديد المدبذب - والسريع المقرب، فى مهامه طامسة الصوى، متصلة المنازل المستوية المحتوى، وكانوا إذا راموا الخروج طالت عليهم الشقة، وكثرة المشقة، فلا يصلون إلا بعد التقليل والتحذير، واتصال البرد بينهم والتنوير، فيرجعون عن الخيبة والعناء، كافرين منذ ذلك السبب والدهنماء، إلى أن تمكن لهم أخذ يياسة... فأحلوا العباد وأخلوا الباد، وأخافوا الأغوار والأنجاد»^(١).

أما ألفونسو السابع فقد مات وهو فى طريقه إلى قشتاله فى Fresneda بالقرب من مواردال Muradal فى ٢١ أغسطس ١١٥٧ م^(٢).

ثم انتهز ابن مردنيش فرصة تحرك الخليفة عبد المؤمن من مراكش فى أوائل شوال ٥٥٣هـ/١١٥٨م، متجهاً نحو رباط الفتح ثم تحركها منها فى العاشر من شهر صفر عام ٥٥٤هـ/ نحو المهديّة لتخليصها من السيطرة النورمنديّة^(٣)، ليضرب ضربه فى الأندلس ويزيد من رقعة أملاكه على حساب المناطق التابعة للموحدين، فخرج من مرسية فى عام ٥٥٤هـ/١١٥٩م على رأس قواته وما انضاف إليها من قوات حلفائه النصارى، متوجهاً إلى مدينة جيان، وعندما أحاطت قواته بها لم تلق أى مقاومة واضطر واليها من قبل الموحدين وهو محمد بن على الكومى^(٤) أن يسلم المدينة لابن مردنيش، وانضوى تحت لوائه^(٥).

وما أن تمت له السيطرة على جيان حتى زحف نحو قرطبة ظناً منه أن أهلها سيقدمون له فروض الطاعة، وأنه يجد فيها ما وجده فى جيان^(٦)، فلما وصل إليها بحشوده أحكم الحصار عليها وتطويقها، وخرب ربوعها، وأتلف زروعها، وكان والى قرطبة آنذاك أبو زيد عبد الرحمن بن نجيت^(٧)، فاستمات فى الدفاع عنها واشتبك

(١) نفس المصدر، الرسالة السادسة عشرة، ص ٧٩-٨٠.

(2) Codera, op.cit., p. 137; Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 106.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٣٨.

(٤) تجمع المصادر العربية على أن محمد بن على الكومى، كان والياً على مدينة جيان، ولكنها لم تشر لتاريخ توليه هذا المنصب، راجع: ابن عذارى، البيان المغرب، ق ٣، ص ٤٠، ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٩٥، السلاوى، الاستقصاء، ج ٢، ص ١٢٦.

(٥) ابن صاحب الصلاة (عبد الله)، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، السفر الثانى، دار الأندلس، الطبعة الزولى، ١٩٦٤، ص ١١٥-١١٦، ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٢، ص ٤٠، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢٦١.

(٦) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ١١٦.

(٧) ورد اسمه فى المصادر العربية هكذا: ابن بكيت وبعضها ابن يخيخ وابن بكيت، عينه عبد المؤمن والياً على قرطبة سنة ٥٥٠هـ، راجع: ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١١، ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٩٢، السلاوى، المصدر السابق، ج ٢، ص ١١٠، ص ١٢٦.

مع ابن مردنیش فی معركة عنيفة ارتد على إثرها إلى المدينة وتحصن داخل أسوارها، فأقام ابن مردنیش على حصارها، إلى أن اجتمع القاضي أخيل بن إدريس مع أبي زيد عبد الرحمن بن مجتيت ودبرا حيلة من حيل الحرب، فكتب رسالة على لسان سيدراى بن وزير تظاهرا أنها موجهة منه أى من ابن وزير بأشبيلية إلى ابن مردنیش أرسلها مع رسول متنكر فى زى أهل الشرف^(١)، يستحثه فيها بأن يبادر بالتحرك سريعا من قرطبة نحو أشبيلية لدخولها بحجة أنها بغير دفاع وأنه ضامن له دخولها، ولم تكد الرسالة تقع فى يد ابن مردنیش حتى انطلت عليه الخدعة وبادر فى الحال بالإقلاع والسير إلى أشبيلية، وكان قد سبقه إليها أحد عيون الموحدين، فأخطر القائمين عليها بما حدث، ولكن هؤلاء صدقوا ما نسب إلى ابن وزير، فقبضوا عليه واعتقلوا، ووصل ابن مردنیش فى قواته إلى أشبيلية ونزل بظاهرها بالموضع المعروف بالفونت Alfunt ونازلها ببعض قواته حتى وصل إلى باب قرمونة، وأقام محاصرا أشبيلية ثلاثة أيام، وفى أثناء حصاره للمدينة، شاع الاضطراب داخلها، وحل بها ويأهلها كرب شديد، فبادر واليها السيد أبو يعقوب بضبط المدينة بشدة وحزم بمعاونة طائفة من جند الأندلس بقيادة أبي العلاء بن عزون صاحب شريش، وأبى بكر الغافقى فضلا عن الأشياخ والطلبة والحفاظ الموحدين، الذين داوموا ثفاف أبواب المدينة ليل نهار، وحرسوا الأسوار، وقبضوا على ما ارتابوا فيهم، فسجن من سجن واتهم من اتهم^(٢).

ولما رأى ابن مردنیش مناعة المدينة، وصلابة دفاعها، أدرك أنه قد خدع، وأن المدينة ليست سهلة المنال، فغادرها وارتد عائداً إلى قواعده بشرق الأندلس دون أن يظفر بباطل وكان ذلك فى سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م^(٣).

ولم يمض على ذلك شهور عدة حتى عاود ابن مردنیش هجومه على الموحدين بقرطبة، فوجه إليها فى أوائل سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م جيشاً بقيادة صهره إبراهيم بن همشك، فسار إلى قرطبة ونازلها واجتاح أراضيها ودمر زروعها، وفى ذلك يقول ابن

(١) الشرف Aljarafe، يقع فى الشمال الغربى من أشبيلية على بعد ثلاثة أميال منها ويشتهر بزينة الشهير، ويسمى كذلك لأنه مشرف على ناحية أشبيلية، راجع: الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٧٣، ص

١٧٨، الحميرى، المصدر السابق، ص ١٠١-١٠٢.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ١١٦، ١٢٠.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٤٠.

الخطيب: «حتى لجأ محاول الفلاحة إلى حرث منزله بداخل الحاضرة»^(١)، ونازلها وقتاً ثم أقلع عنها، وأكمن خيله ورجاله على مقربة منها بقربة «أطابه»^(٢)، وهي قفرة فلما خرج وإلى المدينة أبو زيد عبد الرحمن بن نجيت في قوة من فرسانه لاستطلاع الحال خرج عليه ابن همشك في قواته من كمينه، وأئخن فيهم، وقاتل أبي زيد عبد الرحمن حتى لقي مصرعه على مقربة من قرطبة في الموضع المعروف بـ «الدارات»^(٣)

ولم يكتف ابن همشك بما حققه في غزوته لقرطبة، بل عمد إلى مهاجمة قرمونة فسار إليها في قواته واستولى عليها بمعاونة عبد الله بن شراحيل في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ / مارس سنة ١١٦٠م وامتنع الموحدون داخل قصبته، ولما وصلت هذه الأنباء إلى أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وإلى أشبيلية وكان عازماً على السفر للملاقاة والده الخليفة، بعد عودته من فتح المهدية، قرر إرجاء السفر^(٤).

وكان الخليفة عبد المؤمن قد تلقى الأخبار المزعجة عن الأندلس عقب عودته من غزوته المظفرة لأفريقية، وكتب إليه ابنه السيد أبي يعقوب وإلى أشبيلية رسالة عاجلة يستمده ضمنها آيات شعرية لأبي العباس بن سيد المالقي منها:

إليكم أمير المؤمنين توجهت .: بنا الرغبات الجم بجمتها جهد
لعل عيانا منكم لعبيدكم .: وقرىبا لكم منهم يدال به البعد
فقد عضهم باب من الكفر منقص .: ودانوا لكم دهرًا وألبابه درد
بكم يعصم الله العلى جميعهم .: بكم تعظم الآمال بل يكثر الرشد^(٥)

وفي الحال وصل جواب أمير المؤمنين من ظاهر قسطنطينية بتاريخ ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ يعرف فيه بعودته إلى الحاضرة وعزمه على الجواز إلى الأندلس لدراسة

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص ٢٦١.

(٢) أطابه، قرية قريبة من قرطبة، وقد اكتفى أبوش ميراندا بنقل اللفظ هكذا Ataba.

(٣) الدارات، موضع قريب من قرطبة، ونقله أبوش ميراندا هكذا Al-Darat، وراجع أخبار هذه الغارة

في ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ١٢٧؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص

٤٤-٤٥.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص ٢٦١.

(٥) في: ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٤٢.

الموقف المتدهور في قرطبة وأشبيلية وغرناطة، ولمزيد من الدراسة والتشاور مع ذي الخبرة عن الخطة المناسبة لدرء هذه الأخطار، وفي النهاية معاينة أعمال الإنشاءات في جبل طارق^(١).

ثم إن السيد أبا يعقوب يوسف أعد قبل مغادرته أشبيلية لزيارة والده الخليفة حملة أسند قيادتها إلى الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي حفص وجعل برفقته أبا العلاء بن عزون في قوة من عسكر الأندلسيين، فسار بقواته حتى حل بقلعة جابر^(٢). ومن هناك أخذ يوجه غاراته ليلا ونهاراً، وكان ابن همشك لما طال حصاره لقصبة قرمونة قد ترك بالمدينة بعض قواته وعاد إلى جيان. وفي هذه الأثناء تقدمت قوات الموحدين من قلعة جابر ونزلت على مقربة من قرمونة في الموضع المعروف بحصن ابن سلام^(٣)، وأخذت من هناك تخاصر المدينة وترهق أهلها بغاراتها المتواصلة، إلى أن قبض الله أن يتفقوا سراً مع رجل من أهلها يدعى شراحيل - غير عبد الله بن شراحيل، الذي كان قد سهل على ابن همشك مهمة دخول المدينة - داخل الموحدين سراً أثناء الليل في محلتهم بحصن ابن سلام وعرض عليهم أن يسهل لهم مهمة اقتحام المدينة مقابل الأمان لنفسه ورعيته ومكافأته. فوافق الموحدون على ما اشترطه عليهم فأدخلهم المدينة من البرج المعروف بـ «قرن المعزة» فاقتحم الموحدون مدينة قرمونة في العاشر من المحرم سنة ٥٥٧هـ/ ٢٦ يناير ١١٦١م، فقبضوا على الخائن عبد الله بن شراحيل الذي كان قد مكن ابن همشك من السيطرة على المدينة، وأرسل مكبلاً في أصفاده إلى أشبيلية في نفر من أتباعه حيث صلب في الرملة تحت قصر ابن عباد^(٤).

وهكذا عادت قرمونة إلى سلطان الموحدين بعد أن خرجت من هذا السلطان

(١) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ١٤٧، ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٤٣، وراجع أيضاً؛

Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 149.

(٢) قلعة جابر أو قلعة وادي إله Alcá de Guadaira تقع جنوبي قرمونة، على مقربة منها ومن أشبيلية،

راجع؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٧١، ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ج ١، ص

٢٩١، السيد عبد العزيز سالم، دائرة معارف الشعب، رقم ٦٤، ١٩٥٩، ص ١٦٠.

(٣) يبدو أنه كان على مقربة من قرمونة.

(٤) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ١٨٢، ١٨٤، ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٤٩.

زهاء عامين وذلك منذ أن استولى عليها ابن همشك في ١٥ ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ/٢٢ مارس سنة ١١٦٠م^(١).

وعمد ابن همشك وهو بجيان إلى الانتقام من الموحدين الذين تمكنوا من انتزاع قرمونة من أيدي قواته، فاضطربت الفتنة في قلبه، وقرر مهاجمة غرناطة^(٢)، كرد فعل لاستردادهم قرمونة، واستطاع ابن همشك أن يتفاهم سرًا مع جماعة من يهود غرناطة، الذين أسلموا رغم إرادتهم نتيجة لضغوط الموحدين عليهم، ومع حليفهم المعروف بان دهرى، على أن يمكنوه من دخول المدينة في ليلة معينة، وكان السيد أبو سعيد والى غرناطة قد غادرها إلى مراكش في زيارة الخليفة فاستغل ابن همشك هذه الفرصة وزحف إليها في نفس هذه السنة ٥٥٧هـ في قواته، واتفق أن مدينة غرناطة كانت في إحدى الليالي دون دفاع كاف، في حين كانت قصبتها مشحونة بالرجال والعتاد والأقوات، فكسر اليهود بإيعاز ابن دهرى باب الرض بغرناطة وتناوبوا الصباح بالأصحاب، فاقتحم ابن همشك بقواته المدينة، وفر أنصار الموحدين إلى القسبة وامتنعوا فيها، فكتب ابن همشك رسالة إلى ابن مردنيش بهمرسيه يبلغه فيها بتفاصيل غزوه لقرنطة ويطمعه في إمكانية استئزال قصبتها إذا ما قدم ابن مردنيش على رأس قوة لاقتحام القسبة^(٣). ولم يتردد ابن مردنيش في إيجاد قائده ونائبه فبعث بقواته وخاطب النصارى لمساعدته فوصلوا إليه وخرجت قواتهم بقيادة ألبار رودريجيس الأصلع Alvar Rodriguez el Calvo، حفيد البارهاينيث Alvar Ha-nez ووصلت القوات المشتركة إلى غرناطة^(٤). وكان ابن همشك عندما دخل المدينة نزل بالقلعة الحمراء القائمة فوق تلك السبيكة في مواجهة القسبة، وشرع في منازلتها، وضربها بالمجانيق ليرغم المحصورين على التسليم^(٥)، ولكن هؤلاء وصلوا صمودهم بالقسبة، وكانت لديهم مؤن وافرة تعينهم على الصمود، ومع ذلك فقد كتبوا إلى الخليفة في طلب النجدة كما أرسلوا إلى أشبيلية يستمدون واليها، وكان الخليفة عبد المؤمن قد تحرك على عادته من مراكش إلى سلا، لتنظيم شئون الجهاد إذ كان قد عقد العزم على الجواز إلى الأندلس لمواجهة الموقف المتدهور، فبلغته أخبار حوادث غرناطة في الطريق إلى سلا، فلما وصل إليها يادر بإرسال ولده السيد أبى

(١) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ١٨٤-١٨٥.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ١٨٧، وانظر أيضًا: ابن علارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٥٠.

(٣) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ١٨٧-١٨٨، ابن علارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٥٠.

(4) Huici Miranda (Ambrosio): Historia Política del Imperio Almohade, t.I, Tetwan, 1956, p. 200.

(5) Dozy, Recherches, t. I, p. 372.

سعيد فى قوة من عسكر الموحدين إلى الأندلس، فعبر أبو سعيد البحر إلى مالقة، وبعث منها يستدعى الشيخ أبا محمد بن عبد الله بن أبى حفص القائم على ولاية أشبيلية ليوافيه عند غرناطة، وكان ظن السيد أبى سعيد أنه سيواجه ابن همشك فى قواته ولم يخطر بباله أن هناك مزيداً من القوات الإسلامية المسيحية المشتركة التى وجهها ابن مردنيش لمعاونة ابن همشك بقيادة ألفار رودريجيس حفيد البارهاينيث وعدتها ألفان من الفرسان والرجالة، واجتمعت القوات الموحدية فى فحس غرناطة ^(١)، وتقدمت حتى بلغت الموضع المعروفة بمرج الرقاد ^(٢) على بعد نحو أربعة أميال من غرناطة، وعندئذ خرج إليهم إبراهيم ابن همشك فى قواته وقوات مرميه المشتركة، ودارت بين الفريقين معركة حامية أسفرت منذ بدء اللقاء عن تفوق قوات ابن همشك وحلفائه النصارى، فاقتتل نظام جيش الموحدين أمام كثرة جموع ابن همشك، وكثر القتل فيهم، وغرق منهم فى سواقي المرج عدد كبير، وانتهت الموقعة بهزيمة نكراء منى بها الموحدون وكان من بين القتلى الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبى حفص والى أشبيلية نيابة عن أبى يعقوب يوسف وعدة من أشياخ الموحدين وكبار قواد الأندلسيين، وفر السيد أبو سعيد فى نفر من صحبه إلى مالقة، وكانت وقعة كبيرة على الموحدين، وارتد ابن همشك فى قواته الظافرة إلى القلعة الحمراء، ومعه جملة من أسرى الموحدين يقتلهم ويبعث فيهم على مرأى من إخوانهم المحصورين، الذين واصلوا صمودهم بالقلعة ^(٣).

(١) فحس غرناطة La vega de Granada، وهو السهل الأخضر الذى تشرف عليه غرناطة، راجع: ابن الخطيب، الإحاطة، جـ ٢، ص ١١٥. Dozy, op.cit., t.I, p. 375.

(٢) كان هذا الاسم يطلق على موضع بظاهر غرناطة على بعد كيلو مترات من قرية الطرف Alarfe فى سفح Merrojal أو جبل البيرة Sierra de Elvira على مقربة من نهر شنيل Genil وهى الآن Majonocal، راجع: اليلدق، المصدر السابق، ص ١٢٦، ابن الآبار، الحلة السراء، جـ ٢، ص ٢٣٠، ابن الخطيب، الإحاطة، جـ ١، ص ٣٠٩، تعليق رقم ٥، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص ٢٦١.

(٣) راجع أخبار هذه الحوادث فى: ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ١٩٠-١٩٣، ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٥٠-٥١، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص ٢٦١، Huici Miranda, op.cit., t. III, pp. 130-131.

ويلاحظ أنه ليس فى روايتى ابن صاحب الصلاة وابن عذارى ما يدل على أن ابن مردنيش قد اشترك فى هذه الموقعة، وإن كان ابن الخطيب يقول أن ابن مردنيش قد مثل بنفسه فى الموقعة، وكانت محلته قائمة فوق الرهوة السالية المتصلة بروض البيازين، والتى عرفت فيما بعد بكندية ابن مردنيش، راجع: الإحاطة، جـ ٢، ص ٨٩، القصة الحمراء التى ما تزال قائمة إلى اليوم من إنشاء بنى الأحمر سلاطين غرناطة، ولكن القصة المشار إليها، فالمقصود بها قصة بنى حيوس بن ماكسن الزيريين وكانت تتكون من ثلاثة أبراج أو بما يسمى اليوم Torres Bermejos التى يربط فيما بينها سور، راجع: Dozy, Recherches, t. II, p. 385

وكان عبد المؤمن إذ بلغته أنباء هذه الهزيمة ما يزال يرباط الفتح يحشد الجيوش التي أمر أن توافيه هناك، فجهز جيشاً منتخبا من أنجاد الفرسان والعسكر من أعيان كل قبيلة بلغت عدته زهاء عشرين ألفاً، فضلاً عن جمهرة من أشياخ الموحديين^(١)، بقيادة ابنه السيد أبي يعقوب يوسف اسمياً والشيخ أبي يعقوب بن سليمان زعيم الموحديين وخالصة أمير المؤمنين فعلياً، لتجربته بالحروب ودهيته في الخطوب^(٢).

خرج هذا الجيش الموحدى من رباط الفتح بسلا، وجاز البحر إلى الجزيرة الخضراء ثم زحف إلى مالقة حيث انضم إليه السيد أبو سعيد بقواته، وزود الجيش بالعلوفات والمؤن الكافية ثم تقدمت حشود الموحديين فى اتجاه غرناطة^(٣).

وكان ابن مردنيش عندما وقف على أخبار هذه الحشود الموحدية الكثيفة قد قدم بحشوده، ومعه فرقة من النصارى لإيجاد صهره ابن همشك، ونزل فوق الجبل المتصل بقصبة غرناطة على الضفة الأخرى لنهر حدره Darra، بينما عسكر ابن همشك بقواته المشتركة بقيادة ألبار رودريجيث وابن القمط أرجال Comte d'urgai فى عدد يفوق ثمانية آلاف فارس فوق تل السبكة بالقصبة الحمراء، وكان نهر حدره يفصل بين محلة ابن همشك ومحلة صهره ابن مردنيش^(٤).

وفى هذه الأثناء كانت حشود الموحديين تواصل زحفها حتى وصلت إلى الموضع المعروف برادى دلى Dilar القريب من قرية الهمدان Alhendin^(٥). فأقاموا عليها ثم ارتحلوا إلى وادى شنيل Genil^(٦) بالقرب من غرناطة متظاهرين بعدم الرغبة فى الاقتراب من جيوش ابن مردنيش، ولم ينقطع الجيش الموحدى عن سيره البطيء طبقاً للخطة التى وضعها الشيخ أبو يعقوب يوسف بن سليمان^(٧).

وفى يوم الخميس السابع والعشرين من رجب سنة ٥٥٧هـ الموافق ١١٦١م جمع الشيخ أبو يعقوب أشياخ الموحديين وأشياخ الجند من مختلف القبائل وحشهم

(١) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ١١، ص ١١٥.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ١٩٤.

(٣) نفس المصدر، ص ١٩٥-١٩٦.

(٤) ابن صاحب الصلاة، ص ١٩٦.

(٥) تقع جنوب غرناطة بالقرب من دلى، وقد استمرت هذا الاسم من القبيلة العربية المشهورة همدان، راجع: ابن الخطيب، الإحاطة، جـ ١، ص ١١٨، Dozy, op.cit., p. 345.

(٦) يحيط هذا النهر بغرناطة من الجهة القبليّة وهو رافد لنهر الوادى الكبير، راجع: ابن الخطيب، الإحاطة، جـ ١، ص ١٢٤.

(٧) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ١٩٧، ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٥٢.

Huici Miranda, Historia Political, t. I, pp. 202-203.

على التفاني في القتال وذكرهم بأن الجنة مثنوى المجاهدين، ثم ركب الموحدون مساء هذا اليوم خيولهم، وصعدوا الجبل الذي يطل على نهر شنيل مجاوراً للسبيكة والقصبة الحمراء حتى وصلوا إلى قمته، يتقدمهم المشاه وطلائع المصامدة، ثم تقدموا حتى وصلوا عند الفجر بالقرب من محلات ابن همشك وحلفائه النصاري، وعندئذ انقض الموحدون على أعدائهم بغتة كالبراقع، قبل أن يتنبهوا إلى المفاجأة ويتأهبوا للقتال فكانت وقعة السبيكة أقرب ما تكون إلى المذبحة انتهت بهلاك أعداد هائلة من قوات ابن همشك وحلفائه النصاري، واستولى الرعب على من نجا منهم، فظنوا أن الأرض من جبل السبيكة إلى محلة ابن مردنيش متصلة فهلوكوا في نهر حدره، ولم يأت الصباح حتى كان الموحدون قد مزقوا أعدائهم شرمزق وسقط بين القتلى من قوات ابن همشك البار رودريجيس وزميله ولد الكونت أرجل وعدد من القادة الأندلسيين منهم ابن عبيد صهر ابن مردنيش، وعجز ابن مردنيش - وكان مرابطاً بقواته آنذاك على الضفة الأخرى من نهر حدره - عن إخماد صهره ابن همشك، فلبث يرقب تمزيق قواته ويندب شيعته، حتى سحق الموحدون قوات ابن همشك وأبادوها وتم لهم النصر الحاسم في هذا اليوم الذي عرف بالسبيكة، ودخل الموحدون غرناطة ظافرين في الثامن والعشرين من رجب سنة ٥٥٧هـ / ١٣ يولييه ١١٦٢م، في حين خرجت حاميتهم المحصورة في القصبة وأُخذوا في فلول خصومهم ومن حالفهم من النصاري قتلاً، أما ابن مردنيش فقد انسحب مغلولاً في قواته بينما اتجه ابن همشك فيمن معه من فلول قواته المنهزمة صوب جيان. وقوات الموحدون في أثره^(١).

وكان من أثر هذا النصر المبين الذي أحرزته قوات الموحدون أن بادرت سائر نواحي غرناطة إلى إعلان الطاعة والتوحيد، وبينما عكف السيد أبو يعقوب يوسف والشيخ القائد يوسف بن سليمان على النظر في شئون غرناطة وإصلاح قصبتها وسد عورتها، تابعت قوات الموحدون مطاردة ابن همشك حتى قاعدته جيان إلا أنه لم يتوقف بها، بل ندب للدفاع عنها وزيره أبا جعفر الوقشي^(٢)، الذي امتنع فيها

(١) عن أخبار هذه الواقعة، راجع: ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١، ص ١١٥؛ ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ١٩٥، ١٩٩؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ق ٣، ص ٥٢-٥٣؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٢٧؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٢، ص ١٢٧؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٩٥-٤٩٦، المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ص ٤١٧؛

Dozy, op.cit., t. I, pp. 374-599; Codera, op.cit., p. 141; Gaspar Remiro, op.cit., pp. 216-599; Huici Miranda, op.cit., t. III, pp. 151-599.

(٢) أبو جعفر الوقشي أحد الكفاة الأندلس، الدهاء، من قرية وقش Huecas بنواحي طليبة Talavera de la Reina في مديرية طليطة ونسبهم في كنانة، قام بقمط أعمال إبراهيم ابن همشك، راجع: ابن الأبار، الحلة السراء، ج ٢، ص ٢٥٧.

فحاصرها الموحدون حيناً دون جدوى فاكثفوا بالعبث فيما حولها من الأراضى وإتلاف زروعها، وتدمير قراها حتى أصبحت خراباً، ثم غادروها عائدين إلى قواعدهم^(١).

وكان من الطبيعي أن يبعث السيد أبو يعقوب يوسف والقائد ابن سليمان أنباء الانتصار الحاسم إلى الخليفة عبد المؤمن، فصدرت أوامره بتعزيز الدفاع عن غرناطة وسد عوراتها وشحنها بالمؤمن والعناد، ونقل مركز الحكم الموحدى بالأندلس مؤقتاً من أشبيلية إلى قرطبة، التى أصبحت مقر الإدارة الموحدية إلى حين باعتبارها «موسطة الأندلس» وقاعدة الجيوش الموحدية^(٢)، وأقرب إلى مركز الأحداث فى هذه الفترة المضطربة من تاريخ الأندلس.

وكانت قرطبة آنذاك تعاني اضمحلالاً هائلاً فى العمران إذ هجرها أهلها وتبقى بها عدد قليل للغاية، ويشير ابن صاحب الصلاة إلى ذلك بقوله : «فكان عدد أهل قرطبة اثنين وثمانين رجلاً لجلالهم من الفتنة عن البلاد»^(٣)، ذلك لأن الفتنة طحتهم فعانوا طويلاً من الجوع، بسبب الغارات التى كان يشنها ابن همشك على المدينة، وذاق أهلها من أهوالها، «ما لم يذقه أحد من أرائلهم فى الفتنة الحمودية، بإلحاح ابن همشك وقساوته القصية العجيبة»^(٤).

اعتمز عبد المؤمن على إعداد حملة بحيرة برية كبيرة لاستئناف الجهاد بالأندلس فى الربيع القادم، فأمر بإنشاء أسطول متعدد الوحدات عدته مائتا سفينة، أعد منها مائة وعشرين بميناء المعمورة الواقعة عند مصب وادى سبو^(٥)، والباقي فى المغرب والأندلس^(٦).

لكن القدر لم يمهل عبد المؤمن طويلاً لإنجاز مشروعه الكبير تمهيداً لمواصلة الجهاد ضد قوى النصرانية فى أسبانيا، والقضاء على ثورة ابن مردنيش فى شرق

(١) ابن الآبار، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٢٥٩، ابن الخطيب، الإحاطة، جـ ٢، ص ٢٥٧.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٠١-٢٠٣.

(٣) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٠٥، ويؤكد هذا الرقم تقريباً ابن الآبار، راجع: الحلة السيرة، جـ ٢، ص ٢٥٩.

(٤) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ٢٠٥.

(٥) «المعمورة» هى المدينة التى تحمل اليوم اسم المهدية على الضفة اليسرى لمصب وادى سبو وعلى بعد نحو ثلاثين كيلو متراً شمالى سلا، راجع: ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢١٤، هـ ٢، عبد الهادى التازى، مهدية المولى إسماعيل، مجلة المغرب، مايو ١٩٦٣، ص ٧-٩.

(٦) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢١٣-٢١٤.

الأندلس، فقد عاجلته المنية ليلة الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة ١٥٥٨هـ/١٥ مايو ١١٦٣م^(١).

وخلفه ابنه أبو يعقوب يوسف الذى يبيع بالخلافة تنفيذاً لوصية والده عبد المؤمن بن على بسلا فى العاشر من جمادى الآخر سنة ٥٥٨هـ، ثم صدر الأمر إلى الجيوش - التى سبق أن حشدتها الخليفة الراحل بغرض استئناف الجهاد بالأندلس - بالانصراف إلى بلادها^(٢)، وقد هيا ذلك الفرصة لابن مردنيش لاستئناف غاراته على قرطبة ونواحيها.

د - هزيمة ابن مردنيش فى فحصى الجلاب:

واجهت الخليفة الجديد أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن فى بداية عهده بعض المشاكل لخروج بعض إخوته عليه إلى أن تمت له البيعة العامة فى ٨ ربيع الأول سنة ٥٦٠هـ بعد سنتين من وفاة والده^(٣)، بالإضافة إلى نشوب ثورة محلية فى منطقة عمارة سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م شغلته طويلاً^(٤).

وكان ابن مردنيش قد انتهز هذه الفرصة لمهاجمة قرطبة بشدة والعبث فى نواحيها، وإتلاف زروعها، فلما بلغ ذلك أبى يعقوب يوسف^(٥)، أمر بتجهيز حملة إلى الأندلس قوامها أربعة آلاف فارس معظمهم من العرب عهد بقيادتها إلى الشيخين أبى سعيد بن الحسين وأبى عبيد الله بن يوسف، وقد جازت هذه الحملة البحر إلى الأندلس، وتوزعت منها فرقة عدتها نحو خمسمائة فارس إلى مدينة بطليوس لتعزيز

(١) نفس المصدر، ص ٢٢٢، ص ٢٣١، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٤٠٤.

(٢) البيهقي، أخبار المهدي بن تومرت، ص ٨٣، ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٣٢.

(٣) ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٤) محرك هذه الثورة من يزرع الغمارى الصنهاجى من صنهاجة مفتاح، الذى تغلب على ملك المنطقة والتف حوله جمع كبير من قبائل غمارة وصنهاجة وأوربة، ففقوى بجمعه، وضرب السكة باسمه، ثم سار إلى مقرية من فاس وعاث فى ضواحيها وخرّب وقتل الكثير من أهلها، فقاتله الموحدون بقيادة الشيخ يوسف بن سليمان وبددوا قواته، ثم دان لهم بالطاعة، فسمح له بالجواز إلى الأندلس فنزل بقرطبة وقيل أنه قتل وحملت رأسه إلى مراكش، راجع: البيهقي، المصدر السابق، ص ١٢٤، ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٥) ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٩٧.

حاميتها، بينما سارت بقية الحملة بقيادة الشيخين أبي سعيد وأبي عبد الله إلى مدينة أشبيلية ومنها صوب قرطبة لتعزيز جبهتها الدفاعية وحماية نواحيها من غارات قوات ابن مردنيش^(١).

وصلت الحملة الموحدية إلى قرطبة، ثم خرجت إلى أحوازها، حيث اشتبكت صدفة بقوات ابن مردنيش في حصن لك El Castillo de Luque، فنشبت بين الفريقين معركة حامية في شعبان سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م^(٢) استمرت طوال اليوم. انتهت دون حسم، فلم يستطع فيها أى من الطرفين أن يحقق نصراً على الآخر^(٣)، رغم بلاء القوات الموحدية وثباتها، وقد كتب القائدان أبو سعيد وأبو عبد الله إلى الخليفة الموحدى أبي يعقوب يعرفانه بما لقيه من هول ومشقة ويستمدانه^(٤). واستجاب الخليفة لطلبهما فأمر بتجهيز جيش من الموحدين يضم نخبة من أمهر الفرسان من عرب رباح وأبيج وزغبة، وعندما اكتملت قواته، جاز السيد أبو حفص بها من مراكش في ١٠ رمضان سنة ٥٦٠هـ وبصحبته أخوه السيد أبو سعيد عثمان وإلى قرطبة إلى الأندلس، ثم اتجه إلى أشبيلية^(٥) حيث عقد مع زعماء الموحدين مجلس حرب تدارسوا فيه الخطط لمواجهة ابن مردنيش، وقرروا المبادرة بالهجوم عليه في أراضيه^(٦). وهكذا زحفت جيوش الموحدين في أول شهر ذى القعدة سنة ٥٦٠هـ/٨ سبتمبر ١١٦٥م نحو الشمال الشرقى، وبدأت بمنازلة حصن أندوجر Andujar التابع لابن مردنيش، وكان هذا الحصن المركز الرئيسى لبث الغارات على قرطبة، والقاعدة الهامة للإمدادات بالنسبة لابن مردنيش، وقد أمكن للموحدين الاستيلاء عليه عنوة، ومن هناك بدأوا يشنون الغارات على أحواز أندوجر فاستولوا على مغام كثيرة، وبادر أهل الحصون المجاورة لأندوجر إلى إعلان الطاعة للموحدين^(٧).

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، جـ ٣، ص ٦٣.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٧٠، ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٦٣، وراجع أيضاً: Huici Miranda, Historia del Imperio Almohade, t. I, p. 225.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، جـ ٣، ص ٦٣.

(٤) نفس المصدر والقسم والصفحة.

(٥) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٧٠-٢٧١.

(٦) نفس المصدر، ص ٢٧١؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٦٣.

(٧) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٧١؛ ابن عذارى، نفس المصدر، ق ٣، ص ٦٣-٦٤، وراجع أيضاً: Huici Miranda, op.cit., t. I, p. 226.

ثم واصلت الحملة مسيرها إلى الشرق من أندوجر، ولم تصادف في طريقها أى مقاومة حتى وصلت ظاهر بياسة، فأئنخت في نواحيها بالغارات، واضطر أهل هذه النواحي إلى التحصن بقلاعهم، ثم رابط الموحدون أياماً بالقرب من بياسة في الموضع المسمى وادى القشتالى (Rio Castalla) في انتظار وصول تعزيزات موحدية من حامية غرناطة، وانتهز السيد أبو حفص هذه الفرصة وجهاز فرقة من صفوة خيالة الموحدين والعرب أغار بها على «غليرة»^(١)، وقرباؤه Carvavoa^(٢)، وبسطة Baza^(٣)، وجبال شقورة Los montes de Segura^(٤)، وتمكن من الاستيلاء على الكثير من المؤن واستاق عدداً كبيراً من الماشية، واستأنفت الحملة زحفها بعد أن انضمت إليها قوات غرناطة، وأغار الموحدون على قلبة Cullar^(٥) واستولوا عليها دون قتال، كما استولوا على القلاع المجاورة وشنوا على بلش Velez-Rubio أهم معقل ابن مردنيش في تلك المنطقة هجوماً عنيفاً أرغم والى المدينة من قبل ابن مردنيش إلى التسليم للموحدين والدخول في طاعتهم^(٦).

ثم واصلت الحملة تقدمها صوب مرسية ولورقة، وعندما تبين لابن مردنيش حقيقة نوايا الموحدين التي تستهدف مهاجمته في عقر داره أى منطقة نفوذه الرئيسى بشرق الأندلس، خشى أن تسقط لورقة في أيديهم، وعندئذ بادر بحشد قوات كثيفة من شرق الأندلس ضم إليها عدداً كبيراً من مقاتلة النصارى، وتقدم بهذه القوات من

(١) غليرة Galera، تقع شمال مدينة بسطة جنوب قرطبة غربى بلش Velez انظر:

Huici Miranda, Historia, t. I, pp. 226-228.

(٢) قرطبة Carvaca، تقع شمال لورقة وجنوب شقورة، يقول الحميرى أن بها عيناً تولد الحمى وعين أخرى تفتته، انظر: الروض المعمار، ص ١٥٠.

(٣) بسطة Basa، مدينة تقع في الشمال الشرقى من غرناطة بالقرب من مدينة وادى آش حمنة الموضع بينها وبين جيان ثلاث مراحل، انظر: الحميرى، المصدر السابق، ص ٤٤-٤٥؛ محمد القاسى، الأعلام الجغرافية الأندلسية، ص ٢٤.

(٤) شقورة Segura، تقع شمال لورقة، ومنها أبو بكر بن مجير شاعر دولة بنى عبد المؤمن، انظر: ابن الخطيب أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ١٤٥.

Huici Miranda, op.cit., t. I, pp. 226-228.

(٥) قلبة Cullar، يقع في الشمال الشرقى من مدينة بسطة، انظر: المراكشى، المعجب، ص ٣٧.

Huici Miranda, op.cit., t. I, pp. 226-228.

(٦) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٧٧-٢٧٩، وانظر أيضاً: ابن الآبار، الحلة السيرة، ج ٢، ص ٢٠٦؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٩٧.

مرسية لاعتراض طريق الموحدين وإيقاف تقدمهم إلى مرسية، واضطر هؤلاء عندما تعذر عليهم اختراق الطريق الجبلي الوعر المؤدى إلى مرسية إلى التحول إلى غربي لورقة، ومنها انحدروا إلى السهل المسمى بالفندون Al Llano de Al Fundin^(١)، فظن ابن مردنيش أن وجهتهم الرئيسية الساحل نحو قرطاجنة، ولكنه لم يلبث أن ارتد في قواته سريعاً نحو مرسية متخذاً الطريق الجبلي وذلك عندما أدرك أن القوات الموحدية أخذت في الاتجاه شمالاً صوب فحص مرسية^(٢). وكانت قوى الموحدين قد وصلت ظهر يوم الجمعة ٧ ذى الحجة من السنة المؤرخة (١٥ أكتوبر) إلى فحص مرسية، على مسافة تبعد نحو عشرة أميال من مدينة مرسية ونزلوا بموضع هناك يعرف بـ «فحص الجلاب»، في الوقت الذي تصدى لهم ابن مردنيش بقواته البالغ عددها ثمانية آلاف فارس^(٣). وتأهب الجانبان للقتال، فبدأ الموحدون ينظمون قواتهم الرئيسية من قبائل هرغة وتينمل وهنتاة وجدميوة وجنفيصة وباقي قبائل الموحدين بينما نظم العرب من بنى هلال ورياح وجشم وزغب قواتهم، وتعاهد الجميع على الصديق والثبات والصبر والاستشهاد في سبيل الله^(٤).

أما ابن مردنيش فقد نظم قواته بدوره وأثر أن يبادر بالهجوم بعسكره النصاري على أجناد العرب ثم تحول إلى مهاجمة الموحدين، فهاجم مرتين متواليتين ونشبت بين الجيشين معركة كبيرة، أبلى فيها الموحدون والعرب أشد البلاء، واستمرت المعركة محتدمة حتى الزوال رجحت فيها كفة الموحدين، فانقضوا على جيش ابن مردنيش وفتكوا به، وقتلوا منه عدداً كبيراً معظمه من النصاري^(٥)، وانسحب ابن مردنيش في فلول قواته إلى تل قريب لاذ به حتى دخل الليل فتستر في ظلامه وفر مسرعاً إلى مرسية، وامتنع بدخلها^(٦).

وفي صباح اليوم التالي الثامن من شهر ذى الحجة (١٦ أكتوبر)، بادرت قوات الموحدين بالزحف صوب مرسية، ونزلت بساحتها، واحتلت المقر الريفي الذي ينزل به

(١) سهل خصب طوله خمس وعشرون ميلاً، يقع بين لورقة وقرطاجنة، راجع: الحميري، المصدر السابق، ص ١٨١، ص ٢٠٧، Huici Miranda, op.cit., t. I, p. 226.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٧٩.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٨٠.

(٤) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٧٣-٢٧٤.

(٥) نفس المصدر، ص ٢٨٠؛ وابن عذاري، المصدر السابق، ق ٣، ص ٦٤، وانظر أيضاً:

Villeneuve, en su via je Ieterio, tomo IX, p. 239; Codera, op.cit., p. 100.

(٦) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٧٤، ٢٨٠-٢٨١.

ابن مردنيش ويعرف بحصن الفرج، وكان قائماً على ربوة صغيرة في الشمال الغربي من المدينة^(١). وهناك أمضى الموحدون عيد الأضحى، ثم استأنفت سرياتهم الإغارة على أحواز مرسية، تلت زروعها، ومنها يساتين ابن مردنيش اليانعة، مدى أيام حتى امتلأت أيديهم بالأقوات والأسلاب، ووصلت طلائعهم إلى مدينتي أوريولة والش، ومن هناك كتب السيدان أبو حفص وأبو سعيد إلى الخليفة يشرانه بالنصر، وبدأت رسالتهما بقصيدة مطلعها^(٢):

لقد بلغت جياذكم مداها .: ونالت ما أرادت من عداها
وها هي فاسئلوا الإصباح عنها .: بحمد الله قد حمدت سراها

وعلى إثر انتصار الموحدين في موقعة فحص الجلاب، قام السيدان أبو حفص وأبو سعيد بوضع حاميات موحدية في المواضع المفتوحة، ثم انصرفا بقوات الموحدين من ظاهر مرسية عائدين إلى الأندلس.

ومن الجدير بالذكر أن الحملة الموحدية حققت أهدافها بتأديب ابن مردنيش ومهاجمته في شرق الأندلس (منطقة نفوذه الرئيسية)، فضلاً عن استيلائها على بعض حصونه الهامة مثل حصن أندوجر الذي كان يشكل مصدر الخطر الدائم على سلامة قرطبة.

كذلك قضت الحملة على هيبة ابن مردنيش في هذه المنطقة، وكشفت عن ضيق أهل شرق الأندلس من ابن مردنيش وعدم ولائهم له إلى حد إقدامهم في أول فرصة توافقت عليهم على الاستسلام للموحدين والدخول في طاعتهم. ونضيف إلى ما سبق أن حملة الموحدين سببت انقساماً واضحاً وتفتتاً لا مجال لإنكاره في جبهة ابن مردنيش، فالعلاقات بينه وبين ابن همشك أصابها الفتور بدليل أننا لم نعثر في رواية ابن صاحب الصلاة وكذلك في خطاب الفتح الذي أورده أي إشارة إلى اشتراك ابن همشك المساعد الأيمن لابن مردنيش في هذه المعارك أو تصديه للقوات الموحدية عندما أغارت على بياسة رغم أن قاعدته جيان تقع في جنوبها.

وأياً كان الأمر، فإن هذه الحملة قد أقنعت الموحدين بضرورة القضاء نهائياً على نفوذ ابن مردنيش في شرق الأندلس، وعقد العزم على ضم هذا الإقليم إلى بقية

(1) Torres Balbas, Al-Andalus, Vol. II, Faso 2, p. 371.

(٢) راجع : كتاب الفتح المؤرخ في ذي الحجة عام ٥٦٠هـ، في : ابن صياح الصلاة، المصدر السابق، من ص ٢٧٦-٢٨٣، وهو مصدرنا في كتابة هذه الأحداث.

الأندلس توحيداً لأراضيها، ولا اعتبارات أخرى منها أهمية هذا الإقليم استراتيجياً لتحكمه في المناطق القطلانية المجاورة وكثرة سواحله ومراسيه البحرية وخصوبة تربته وعظم ثرواته الاقتصادية.

هـ- توحيد ابن همشك :

لم تلبث الأمور في شرق الأندلس بعد جلاء قوات الموحدين عنها أن عادت إلى حالتها الأولى، واستأنف ابن مردنيش من جديد شن غاراته هذه المرة على غرناطة دون قرطبة مستخدماً في ذلك قوة من النصاري المتحالفين معه كانت تحتل حصن «لبسه» Labas الواقع ما بين غرناطة ووادي آش، وقد واصلت هذه القوة الإغارة على أحواز غرناطة والعبث فيها وبث الرعب في أنحائها، إلى أن وصلت في بعض غاراتها حتى أسوار غرناطة، فحشد واليها الشيخ أبو عبد الله بن أبي إبراهيم قواته في ذى الحجة عام ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م، واتجه صوب حصن لبسه وهاجمه بشدة وافتحمة عنوة، وقتل بحاميته النصرانية، وعاد ظافراً إلى غرناطة^(١).

وفي جمادى الآخرة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م، توجهت قوة من النصاري المرتزقة التابعة لابن مردنيش من قاعدتها في وادي آش الواقعة على وادي شتيل غربي غرناطة واندفعت جنوباً حتى وصلت إلى أحواز رندة، وخربت المنطقة، وانتهبت أموالها واستاقت ماشيتها، فبادر السيد أبو عبد الله بتجهيز قوة موحدية من حامية غرناطة التقت معهم عند عودتهم على مقربة من وادي آش، وعندئذ لجأ النصاري إلى جبل قريب امتنعوا به، فحملت القوة الموحدية عليهم بعنف ومزقت صفوفهم، وألقت بهم من حافات الجبل، ففنى معظمهم قتلاً وأسرًا، واستولى الموحدون على الغنائم والأسلاب، واصطحبوا معهم ثلاثاً وخمسين أسيراً من النصاري ضربت أعناقهم في غرناطة عام ٥٦٣هـ/ ١١٦٨م^(٢).

وفي العام التالي (في شهر ربيع الآخر)، سير أبو يعقوب جيشاً من الموحدين وغيرهم تحت إمرة الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى إلى أشبيلية ليكون مقدمة لحركة الجهاد العامة، التي اعتزم الموحدون القيام بها في الأندلس، وقد اشتركت هذه القوة

(١) راجع : ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٩٧، ٣٢٣.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٣٥٦-٣٥٧.

فى تخليص بطليوس من الاحتلال البرتغالى^(١)، ثم سار الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى فى جيشه إلى قرطبة لمعاونة واليها السيد أبى إسحاق إبراهيم على تقوية جبهتها الدفاعية أمام تهديدات ابن مردنيش من جهة الشرق والقشتاليين من الشمال، وكان الخليفة قد أصدر تعليماته للشيخ أبى حفص بأن يطبق سياسة دفاعية عن قرطبة ولا يبدأ بالهجوم على أملاك ابن مردنيش، نستنتج من نص الرسالة التى وجهها خليفة الموحدين إلى محمد بن سعد بن مردنيش بتاريخ غرة رمضان عام ٥٦٤هـ، ومما جاء فيها : «وقد كان الشيخ الأجل أبو حفص أعزه الله - تحرك فى هذه السنة بمساكر الموحدين - أعانهم الله إلى الجزيرة الأندلسية - حماها الله - بنية الجهاد والغزو، فخطبنا بما رأيناه من هذه المخاطبة إليكم أن يتنكب ذلك الجانب، ولأن لا يعرض بقصده وأن يتخلى عنه إلى سواء ريثما يصل كتابكم ويستعلم ما عندكم من أجل الدعاء والتلفت إليه فيكون بدار الجواب على حكم ذلك»^(٢). كما أوضح الخليفة فى رسالة إلى ابن مردنيش^(٣) المكاسب الروحية والمادية التى سوف يجنيها إذا خضع للموحدين، وكرر إليه الدعوة، التى كان قد وجهها إليه أبوه الراحل عبد المؤمن بن علي منذ اثني عشر سنة .

ولكن ابن مردنيش لم يعبأ بنداء الخليفة إليه ولم يستجب لرجائه بالدخول فى طاعة الموحدين بينما استجاب نائبه ابن همشك إلى هذه الدعوة وبادر بالكتابة إلى الشيخ أبى حفص بقرطبة بجوابه الذى ضمنه رغبته فى أن يقبل الخليفة توبته كما سجل قبوله للدخول فى حكم التوحيد، وعرض عليه أن يمكن الموحدين من بلاده،

(١) استولى ابن الرنك Alfonso Enriquez صاحب قلعة Coimbra على مدينة بطليوس فى عام ٥٦٤هـ وحاصرت قواته من تحصن من الموحدين بقصبة بطليوس مع حافظهم عمر بن تيمصلت، وكان ذلك هو الدافع الرئيسى من وراء هذه الحملة بقيادة الشيخ أبى حفص عمر ابن يحيى ، ولكن هذه الحملة لم تشتبك مع البرتغاليين فى أى موقعة إذ تمكن البيبوج بن لإذفونش صاحب الصبباط (يقصد به فرناندو الثانى ملك ليون المسمى El- babso ويعرف بالسليطين صاحب Ciudad Rodri go الذى كان مصالحاً للموحدين من استرجاع بطليوس للموحدين بعد أن فتح فى سرر قصبة بطليوس نفية مكنت الحامية الموحدية المحصورة من الخروج والمشاركة فى القتال، واضطر أنركى إلى الفرار مهزوماً ولكنه سقط أسيراً أثناء فراره، راجع: ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٣٨١، ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٧٩-٨٠.

(٢) مجموع رسائل موحدية ، الرسالة الخامسة والعشرون، ص ١٤٩.

(٣) نفس المصدر، الرسالة الخامسة والعشرون، ص ١٤٦ وما بعدها.

وقد رحل ابن همشك بالفعل إلى قرطبة في رمضان عام ٥٦٤هـ/يونيه ١١٦٩م فاستقبله واليها السيد أبي إسحاق إبراهيم والشيخ أبي حفص وأكابر الموحدين استقبالا وديا حافلا ورحبوا به، وأعلن ابن همشك أنه قد «عاهد الله تعالى بالتزام الأمر العزيز المطاع، والدخول في حكم التوحيد»^(١)، وما أن تم إعلان ابن همشك دخوله في طاعة الموحدين حتى كتب إلى الخليفة أبي يعقوب يعلنه يتويته ويبلغه دخوله في الطاعة، ثم يسأله العفو، وحسن المثاب، فجاء رد الخليفة بالقبول، وأمر بتقريبه وإكرامه، وترتب على ذلك أن اتصلت البلاد التي في حوزة ابن همشك جيان وبياسة وأبده ببلاد الموحدين في أواسط الأندلس^(٢).

ويلعل ابن الخطيب الشقاق القائم بين ابن مردنيش وصهره ابن همشك، وهو شقاق أدى إلى أن يبادر ابن همشك بخذله والانضمام إلى الموحدين، بإقدام ابن مردنيش على طلاق زوجته صبيحة بنت إبراهيم بن همشك، بعد أن بالغ ابن مردنيش في إهانتها وإيلامها، فغادرته إلى كنف أبيها، وأسلمت إليه ولدها، ويحكي أنها عندما سئلت عن ولدها وإمكان بعدها عنه قالت : «جرو كلب، جرو سوء من كلب سوء لا حاجة لي به»^(٣)، فصارت كلمتها مثالا عند نساء الأندلس.

ولا نشك في أن يكون هذا التعليل مبررا للخلاف الحاد الذي نشب بينابن همشك وابن مردنيش وقد لاحظنا أن بوادر هذا الخلاف قد وضحت قبل ذلك بفترة عندما آثر ابن همشك ألا يشترك مع قوات صهره ابن مردنيش في الدفاع عن بياسة رغم وجوده في جيان على مقربة منها، هذا الفتور في العلاقات بين الصديقين المتصاهرين قد يكون مرجعه سوء معاملة ابن مردنيش لزوجته صبيحة بنت إبراهيم بن همشك أو طلاقها وهو وحده مبرر كاف يفسر الخلاف القائم بينهما وهو خلاف انتهى بطلاق سياسى بين الرجلين سبقه طلاق شرعى، ولعل مبادرة ابن همشك بالدخول في طاعة الموحدين يمكن تفسيرها بخوفه على نفسه من ابن مردنيش وقد سبق له أن عاين إقدامه على قتل وزيره ابني الجذع وبنائها في الحائط وقتله لابن صاحب الصلاة الغرناطي^(٤). وكان ذلك مبررا قويا يفسر انضواءه إلى جانب

(١) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٣٨٩.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٨٩-٣٩٠.

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة، ج١، ص ٣٠٢.

(٤) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٣٨٨؛ ابن عذارى، البيان المغرب، ق٣، ص ٨٢؛ وابن صاحب الصلاة الغرناطي هو أبو عبد الله الذي كان في جملة العلماء المبرزين، والذي كان في جملة شيوخ ابن الآبار، راجع: ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، ص ٥١٣، رقم ١٤٤٥؛ ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ٣٨٨، هـ ٣.

الموحدين، والواقع أن توحيد ابن همشك وخضوعه السياسي للموحدين جاء ضربة قاسية لابن مردنیش فعندما علم بذلك «سقط في يده، وتحقق أن ساعده قد كسر مع عضده»^(١)، ولم يغفر ابن مردنیش لنائبه السابق ابن همشك فعلته تلك ودفعته شهوته إلى الانتقام منه ومعاقبته على خيائته إلى أن يوجه قواته لمهاجمة قاعدته جيان هجوما متواصلا، فقد ألحت قواته عليه بالفارات مدة عام، قاسى فيها ابن همشك الأهوال، واستصرخ بالموحدين لإنجاده^(٢)، لكنهم لم يروا التدخل فى هذه المعركة، إذ كانوا يعدون خطة أخرى لمقاتلة ابن مردنیش فى عقرداره^(٣).

و - نهاية ابن مردنیش:

استمرت غارات قوات ابن مردنیش على أراضى ابن همشك طوال عام ٥٦٤هـ/١١٦٩م على وجه التقريب، وفى هذه السنة استدعى الخليفة أخويه السيد أبا إبراهيم إسماعيل وإلى أشبيلية والسيد أبا إسحاق إبراهيم وإلى قرطبة والشيخ الحافظ أبا عبد الله بن أبى إبراهيم وإلى غرناطة إلى حضرته مراکش، فغادروا الأندلس فى أوائل جمادى الأولى من سنة ٥٦٤هـ/فبراير ١١٦٩م^(٤)، والظاهر أنه استهدف من استدعائهم إشراكهم فى التجهيز للحملة الكبرى التى كان يزعم تسييرها لمقاتلة ابن مردنیش وهى حملة تأجلت بسبب مرض الخليفة منذ بداية هذه السنة حتى نهايتها^(٥).

ولما طال مرض الخليفة وازداد إلحاح ابن مردنیش بغاراته المكثفة على أراضى ابن همشك منذ أعلن توحيدده، وتوالت صرخات ابن همشك واستنصاره بالخليفة استلزم الأمر النظر إلى توجيه قوة عاجلة إلى الأندلس لنجدة ابن همشك ووضع حد لاعتداءات ابن مردنیش المتكررة دون الانتظار لاستكمال الأهبة والإعداد للحملة الكبرى التى قرر الخليفة القيام بها، يضاف إلى ذلك أن قدوم ابن همشك بنفسه إلى الحاضرة مراکش عام ٥٦٥هـ مؤكداً طاعته ملتصقا بإغائته^(٦)، عجل بتسيير هذه القوة الموحدية.

(١) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ٣٩٤؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٨٢.

(٢) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر والصفحة.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٨٣.

(٤) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٣٩٤-٣٩٥.

(٥) نفس المصدر، ص ٣٩٨.

(٦) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٨٢.

وفى أوائل شهر ذى القعدة عام ٥٦٥هـ/ يوليو ١١٧٠م خرج السيد أبو حفص وبصحبته السيد عثمان أبو سعيد فى عسكره وعدة من الأشياخ والحفاظ الموحدىن من مراکش كما اشترك معه من زعماء الأندلس أبو محمد سىدارى بن وزير، وأخوه أبو الحسن على بن وزير وعدة من القادة الأندلسيين النازلين بمراكش للاستفادة من خبرتهم ودرايتهم بشئون الحرب فى الأندلس، ومعرفتهم لثغورها، فوصل فى عسكره إلى أشبيلية فى أوائل عام ٥٦٦هـ/ سبتمبر ١١٧٠م وهناك وافاه الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى وبصحبه إبراهيم بن همشك، وعقد معهما مجلساً تباحثوا فيه الموقف فى شبه الجزيرة، وقر رأيهم على توجيه عسكر إلى غرب الأندلس جهة بطليوس^(١).

أما حملتهم الموجهة إلى شرق الأندلس ضد ابن مردنيش فلم تنفذ إلا فى أواخر عام ٥٦٦هـ/ مارس ١١٧١م عقب اجتماع ثان تقرر فيه محاربة ابن مردنيش والقضاء على سلطانه فى شرق الأندلس.

وكانت أحوال محمد بن سعد بن مردنيش الداخلية آنذاك قد ساءت وأخذ نجمه فى الأفول كما بدأ سلطانه الشامخ الذى أقامه فى شرق الأندلس منذ عام ٥٤٢هـ يتهاوى شيئاً فشيئاً، ويرجع ذلك لعاملين: أولهما، مصادقة ابن مردنيش للممالك المسيحية، وكان هذا أمراً طبيعياً أملت الظروف المحيطة به، لتمكين سلطانه ودعم سيطرته على شرق الأندلس فى مواجهة الموحدىن، ولم تتردد أسبانيا المسيحية فى بذل العون له والتحالف معه ضد الموحدىن عدوهم المشترك، واستغل ابن مردنيش هذا التحالف السياسى فى اجتذاب قوات النصارى وحشدها فى صفوفه، وكانت تربطه منذ قيامه بالحكم علاقات طيبة مع سائر الممالك المسيحية، كما سبق أن أسلفنا القول، غير أن هذه العلاقات الودية لم تلبث أن شابتها خلافات نشبت بينه وبين ريموند برنجير الرابع ملك قطلونية وأرغون منذ عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م، انتهت بهما إلى القطيعة، ونستدل على ذلك من نص تاريخى يؤكد أن ريموند برنجير الرابع أصدر مرسوماً يمنح بمقتضاه الفرسان الاسبتارية عشر أراضى المسلمين التى يوفقوا فى الاستيلاء عليها، كما توجد وثيقة أخرى بتاريخ ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م تنص على أن الصلح الذى كان قائماً بين ابن مردنيش وريموند برنجير الرابع لم يعد سارى المفعول، كما أن البابا أدريانو الرابع Adriano IV أصدر مرسوماً بابوياً موجهاً إلى أسقفى طركوتة Tarragona وأربونة Narbona يهدد فيها بالحرمان كل من يتجاسر على

(١) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٣٩٩-٤٠٠.

إزعاج ريموند برنجير في هذه الظروف، وقد استمرت القطيعة بينهما عامين، فقد أعلن ابن مردنيش في عام ١١٥٤هـ/١١٥٩م حسبما ورد في وثيقة ثوريتا Zurita التزامه بدفع جزية سنوية ثابتة إلى ريموند برنجير وتنازله له عن أراضي جديدة^(١).

غير أن الأمور لم تلبث أن تطورت إثر وفاة ريموند برنجير الرابع وساءت العلاقات بين ابن مردنيش وخلفه ألفونسو الثاني ملك أرغون، إلى حد أن الأخير بعث بقوات قطلونية للاشتراك مع الموحدين في حربهم ضد ابن مردنيش في معركة فحص الجلاب، مات فيها أحد القادة القسطلان يدعى Guillen Despugonlo وعدد كبير من الفرسان النصاري^(٢).

وكان ابن مردنيش يعتمد في موقفه العدائي من أرغون على تأييد قشتالة التي لم تكن على وفاق مع أرغون، ولم تلبث البابوية أن تدخلت بين المملكتين المسيحيتين للتوفيق بينهما تعزيزاً للجبهة المسيحية ضد الإسلام ودعمًا لحركة الاسترداد، وبمقتضى تدخل البابوية تم الاجتماع بين الملكين الأرغوني والقشتالي في طرسونة Tarazona أوائل ٥٦٦هـ/سبتمبر ١١٧٠م، وفي هذا الاجتماع شكى ألفونسو الثاني العفيف El Casto صاحب أرغون من امتناع ابن مردنيش عن دفع الإتاوة التي التزم بها منذ عام ١١٦٢م، فضلاً عن تحالفه مع ألفونسو الثامن صاحب قشتالة في عدائهما لمملكته، فتعهد ألفونسو الثامن ملك قشتالة بأن يلزم ابن مردنيش بالوفاء بما كان قد التزم به من إتاوات لأرغون وفي مقابل ذلك تعهد ألفونسو الثاني ملك أرغون بعدم التعرض لأراضي ابن مردنيش، وعدم تقديم أي عون للموحدين في حربهم ضد ابن مردنيش^(٣).

وكان ابن مردنيش يرتبط بعلاقات ودية وثيقة مع مملكة قشتالة، وكان هذا واضحاً كل الوضوح في اجتماع ملكي أرغون وقشتالة في طرسونة، ووفقاً لهذه العلاقات الودية كان ابن مردنيش يحتفظ في بلنسية بحاميه كبيرة من القشتاليين اكتظت بهم المدينة، وكانوا يتصرفون فيها بما يحلو لهم، حتى ضاق أهل بلنسية ذرعاً بتصرفاتهم، وهجرها الكثير منهم إلى الضياع والقرى المجاورة كرهاً مما زاد في سخطهم على ابن مردنيش الذي مكن النصاري من دورهم وأموالهم ومرافقهم، وشردهم ودفع بهم إلى الهجرة من بلدهم^(٤). وقد حركهم ذلك على السخط عليه والتماس الآمال

(1) Miguel Gual Camarena, Precedentes de la reconquista valenciana; Valencia, 1953, pp. 185-186.

(2) Ibars, op.cit., p. 542.

(3) Ibars; Ibid, p. 542.

(٤) ابن الأبار، الحلة السيرة، ج٢، ص ٢٣٦

فى الخلاص من عهده البغىض أنفة من سىاسته غير الإسلامىة واعتماده على أعداء الإسلام.

أما العامل الثانى فى اضمحلال قوة ابن مردنىش، فىتمثل فى خروج قاده وكبىار رجال دولته علىه، وكان انشقاق ابن همشك أعظم قاده وساعده الأىمن وصاحب الفضل الأعظم فى معظم انتصاراته، علىه وانضمامه إلى الموحدين وتنازلهم عن كل أملاكه ضربة قاصمة لابن مردنىش هزت من هبته وسلطانه وجرأت علىه أتباعه وأشباعه فخرج علىه أىضاً صهره يوسف بن هلال، كما خرج علىه كذلك وزىراه ابنى الجذع فانتقم منهما بأن بنى علىهما فى حائط.

وعلى هذا النحو من الاضطراب الداخلى والانقسام بدت دولة ابن مردنىش تتصدع وتهوى فى الوقت الذى وضع الموحدون خطتهم للقضاء على سلطانه ومهاجمته فى عقر داره، الأمر الذى ساعد الموحدين على القضاء علىه فى يسر، ففى أول رجب عام ٥٦٦هـ / مارس ١١٧١م خرج السىد أبو حفص وأخوه السىد أبو سعید والشیخ أبو حفص فى عسكر الموحدين من أشبلىة، ومعهم إبراهىم بن همشك لمحاربة ابن مردنىش فأقاموا أياماً بقربطبة زحفوا بعدها نحو مرسىه، فكانت أول مبدنة نازلوها من قواعد ابن مردنىش مبدنة قىجاطة Quesa-da^(١)، فافتتحوها بعد مقاومة قصيرة ووقع قائدها الشرقى فى أسرهم، فضربت رقبته برأى ابن همشك ثم ألقوا عنها إلى مرسىه وهم ىثون غاراتهم على بسائط ابن مردنىش، حتى وصلوا إلى فحص مرسىه، فنزلوه واستولوا على حصن الفرج Aznalfarche فى ظاهره وكان متنزها لابن مردنىش، فاستباحوا الرىاض والبساتىن، وما اتصل بها من البسائط والقرى فى تلك المنطقة، وابن همشك يقود الموحدين وبدلهم على العورات موطن الضعف فى استحكاملت عدوه^(٢).

وسجل ربع وصیف عام ٥٦٦هـ / ١١٧١م انهيار سلطان ابن مردنىش^(٣)، الذى استنجد بحلفائه النصارى، فلم ىلب منهم دعوته سوى أربعمائة فارس بعث بهم إلى لورقة مع قائده الوفى أبى عثمان بن عىسى لتأمين الدفاع عن قصبته فضبطها

(١) قىجاطة أو قىشاملة، وتقع فى الشمال الشرقى لمبدنة جبان شرقى قرباطة، راجع: (الحمبرى، المصدر السابق، ص ١٦٥ من النص العربى، و ص ١٩٨ من الترجمة الفرنسىة).

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٠٣.

(٣) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٠٣-٤٠٤؛ راجع أىضاً: ابن عذارى، المصدر السابق، ق

وحصنها، ولكن الأمر طال عليه، وشاع بين الناس ما يعاينه ابن مردنیش من اضطراب أحواله، وأن نهايته قد دنت، عندئذ ثار أهل لورقة ودعوا للموحدين، وهاجموا النصارى وعسكر ابن مردنیش الذين لاذوا بالقصبة يتحصنون بداخلها، فخاطب أهل لورقة السيد أبا حفص بمحلته بظاهر مرسية يعلنونه بتوحيدهم، ويستغيثون به لنصرتهم، فسار السيد أبو حفص فى بعض قواته إلى لورقة، ودخلها بينما تحصن القاضى أبو عثمان بن عيسى مع عسكر النصارى وأجناد ابن مردنیش داخل القصبة، وحدث أن خرجت سرية موحدية للغزو فى النواحي المجاورة، فوقع فى يدها ولد القاضى أبى عثمان فحملوه إلى السيد أبى حفص الذى عمد بواسطته إلى ممارسة سياسة الضغط على أبيه القائد، فأمر بأن يحمل إلى موضع قريب من القصبة عساه يراعيه ويحملة ذلك على تسليمها، فرفض القائد واستمر ممتنعاً، فواصل الموحدون حصارهم للقصبة حتى نفذت المؤن والمياه عن المحصورين وعندئذ ألح الجند النصارى على أبى عثمان فى التسليم، وتوسط ابن همشك لأبى عثمان فى النزول من القصبة مع جنده بالأمان، وهكذا سلمت القصبة وانصرف القائد أبو عثمان مع أصحابه وابنه إلى مرسية، وانصرف الجند النصارى إلى بلادهم^(١). وتم بذلك انضواء لورقة معقل مرسية الأمامى فى فلك دولة الموحدين، وبعث إلى الخليفة بأخبار هذا الفتح، فورد جوابه بالشكر والامتنان وإعادة حصار مرسية، فانصرف السيد أبو حفص بقواته فى طريقه إلى مرسية^(٢).

وفى أثناء ذلك أعلن أهل الج «الش» Elche دخولهم فى دعوة التوحيد، وتبعهم فى ذلك أهل الحصون المجاورة، ثم جهز السيد أبو حفص حملة من الموحدين عهد بقيادتها إلى الشيخ الحافظ أبى عبد الله بن أبى إبراهيم، وجهتها مدينة بسطة Baza فافتتحها ودخلت فى طاعة الموحدين^(٣).

كما أعلن أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد بن مردنیش^(٤)، المعروف بابن صاحب البسيط، وكان ابن عم محمد بن سعد بن مردنیش وصهره على

(١) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٠٣-٤٠٤؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٨٧-٨٦.

(٢) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ٤٠٥.

(٣) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٠٥، حصن الج يقع غربى مرسية، راجع: الحميرى، المصدر السابق، ص ٣٠.

(٤) ابن الآبار، الحلة السيرة، ج ٢، ص ٢٦٨.

أخته، أعلن في المرية طاعته للموحدين، وتعاون مع محمد بن هلال أحد قادة ابن مردنيش الخارجين عليه، وقبضوا على ابن مقدم وإلى ابن مردنيش على المرية فأعدم، وبعثا إلى السيد أبي حفص يبلغانه دخولهما في طاعة الموحدين ويسألانه العون والإنجاد فوجه إليهما بقوة موحدية، وعندما وصلت هذه الأنباء إلى ابن مردنيش أعماه الغضب فأمر بقتل أخته زوج محمد ابن عمه وبقتل بنيه منها، ويشير ابن صاحب الصلاة المؤرخ المعاصر لهذه الحادثة قائلا: «فأخذهم ابن الراعي الموكل بالعذاب منه بالناس وحملهم إلى البحيرة المتصلة بالبحر بقرب بلنسية وأدخلهم في قارب مع نفسه، فلما توسط بهم البحيرة المذكورة غرقهم في البحر في أبشع حال، وأشنع مقال»^(١).

وعندما رأى أبو بكر أحمد بن سفيان المخزومي سيد جزيرة شقر Alcira ما آل إليه أمر ابن مردنيش من انشقاق ابن همشك عليه وتوجيهه، ثم خروج ابن عمه عليه بالمرية، وما كان من طرده لأهل بلنسية، وشحنها بالنصارى واحتلالهم ديارها قام مع أهل الجزيرة ودعا للموحدين وانضم إلى جيرانه، وهاجم النصارى وطردهم من بلده فأمر ابن مردنيش أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد وإلى بلنسية بقتال ابن سفيان، فبعث أبو الحجاج يوسف قوة من الفرسان، حاصرت جزيرة شقر وضيق عليها من منتصف شوال عام ٥٦٦هـ حتى منتصف ذي الحجة من نفس السنة، كل ذلك وابن سفيان يقاوم وابن مردنيش يواصل تسيير قواته لتشديد الحصار، فخطب أهل الجزيرة أبا أيوب بن هلال معاون ابن صاحب البسيط في ثورة المرية ضد ابن مردنيش، فوجه إليهم السيد أبو حفص قوة من عسكر الموحدين بقيادة أبي أيوب الذي استطاع أن يقتحم الجزيرة وأن يضبطها ويحميها أشهراً حتى مرض ابن مردنيش ولحق بهمرسيه، فتنفس مخرج الجزيرة^(٢).

وكان ابن مردنيش أثناء قيام الموحدين بمحاصرته يخرج بقواته من آن لآخر ويشتبك معهم في معارك طاحنة، بينما كان أخوه أبو الحجاج يوسف ابن سعد يتولى الدفاع عن بلنسية وأحوازها، وقد تباينت روايات المؤرخين في موقف يوسف من أخيه في هذه الظروف الصعبة، ففي رواية لابن الخطيب أنه خرج على أخيه، وفر عنه إلى الموحدين ودخل في طاعتهم قبل وفاة أخيه بنحو عام^(٣)، وفي رواية أخرى لابن

(١) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٠٧، والمقصود بالبحيرة هنا، المكان المعروف باسم La

Albufera بهمرسيه، راجع: نفس المصدر والصفحة، هـ ٥.

(٢) ابن الآبار، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٦٤، وراجع أيضاً:

Huici Miranda, Historia de Valencia, t. III, pp. 167-168.

(٣) أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص ٢٧١.

خلدون أنه لما رأى تجهم الحوادث دعا في بلنسية لبنى العباس، وكاتب الخليفة المستجد بالله فكتب له بالعهد والولاية ثم بايع للموحدين سنة ٥٦٦هـ^(١). وأما رواية المؤرخ المعاصر ابن صاحب الصلاة فتشير إلى أنه مال إلى التوحيد قبل موت أخيه، «وتحقق من أخيه الانحراف، والميل إلى الموحدين والانعطاف، فزادت كيدته ألبا، واتصلت نفسه سقما»^(٢)، وفي موضع آخر يقول ابن صاحب الصلاة: «ثم إن أبا الحجاج أخاه... أظهر الإنابة والمبادرة إلى التوحيد، وتحقق محمد (ابن مردنيش) بذلك فزادت علته بالذهول، وتوقف أخوه عن عيادته ومخاطبته، فاشتدت علته، وحضرت منيته»^(٣).

وبينما كانت قوات الموحدين تحاصر مرسية، كان ألفونسو الثاني ملك أرغون يجتمع بأعضاء حكومته في سرقسطة في جمادى الآخرة ٥٦٧هـ/فبراير ١١٧٢م - أى قبل وفاة ابن مردنيش بنحو شهر فقط - ويقرر في هذا الاجتماع شن حرب على بلنسية مستغلا في ذلك مرض ابن مردنيش واختلال أموره، فأعد جيشا قويا وجه به إليها، فخرّب نواحيها ودمر ضواحيها وبساتينها^(٤)، واستولى على عدة مواقع وحصون متاخمة لحدود قطلونية^(٥)، وعزز حملته البرية بحملة بحرية، فقام أبو الحجاج يوسف والى بلنسية بمدافعة القوات البرية كما تولى ابن قاسم، قائد أسطول ابن مردنيش، بمدافعة القوات البحرية القطلانية، فانتصر عليها وهزمها وأحرق عددا كبيرا منها^(٦). لكن هذه المقاومة الفعالة لم تسفر عن فك الحصار المحكم حول بلنسية بدليل أن أبا الحجاج اضطر إلى التعهد بدفع جزية مضاعفة مقدما، وأن يتحمل نفقات هذه الحملة، فضلا عن تعهده بتقديم العون للأرغونيين في حملاتهم المقبلة ضد مرسية^(٧).

(١) ابن خلدون، المصدر السابق، ج٤، ص ٣٥٧.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٠٦.

(٣) نفس المصدر، ص ٤٧١.

(4) Miguel Gual Camarena, op.cit., p. 196.

(٥) هذه المواقع والحصون التي أوردتها لوريتا في الحوليات الأرغونية هي:

Val de Tormo - Macaleon - Zaclla - Favera - Monney - Beceite, Val de Robres - La Frensedra, Gaspe - Renarroja, en Ibars: op.cit., p. 553.

(6) Ibaras, op.cit., p. 553.

(7) Miguel Gual Camarena, op.cit., p. 196.

أثرت هذه الأحداث المتتالية على ابن مردنیش من انشقاق معظم قاداته ووزرائه وقرابته عليه، واستيلاء الموحدین على معظم حصونه وقواعده، والحاجهم بالحصار على مرسیه، وانتهاز الأرغونیین لهذه الفرصة وإقدامهم على محاصرة بلنسیه والاستيلاء على بعض حصونها المجاورة لمملكتهم، فضلاً عن عبور الخلیفة الموحدی أبی یعقوب یوسف إلى الأندلس فی حشود كثیفة من الموحدین والعرب ونزوله بأشبیلیه فی شوال سنة ٥٦٦هـ، وأیقن ابن مردنیش آنذاك بقرب نهايته ولكنه مع ذلك لم یهن ولم یتنازل عن کبرياته فعلن خضوعه للموحدین، إلا أن انهيار سلطانه وتمکن الموحدین من بلاده وخروج معظم أخصائه وولاته علیه عجلت بنهايته فلم یلبث أن توفي فی العاشر من رجب سنة ٥٦٧هـ/ ٦ مارس ١١٧٢م^(١).

وتختلف الروایات فی تعلیل وفاته، ففی رواية أنه لما اشتد على أهله وكبراء دولته وأساء إليهم، نصحته والدته وأغلظت له القول، فنهرا فخشیت بطشه، لما تعلمه من وحشية طباعه فدبرت قتله بالسّم^(٢)، فی حین تشير رواية ابن الآبار إلى أن ابن مردنیش مرض خلال محاصرته لجزیره شقر وغادرها علیلاً إلى مرسیه^(٣) حیث لقی حتفه.

وأيّما ما كان الأمر فقد تکتّم أقاربه خبر وفاته إلى أن حضر أخوه أبو الحجاج یوسف من بلنسیه وتشارر مع أكابر أبناء أخیه، واتفق رأي الجميع على أن یعلنوا طاعتهم لأمیر المؤمنین أبی یعقوب، وأن یسلموا له البلاد^(٤).

والمعروف أن أبا الحجاج یوسف أخ ابن مردنیش، كان قد سبق أن أعلن توحیده قبیل وفاة أخیه، أو على الأقل مال إلى جانب الموحدین^(٥).

ویذكر المراكشی فی موضع آخر، أن ابن مردنیش حیما شعر بدنو أجله جمع أولاده، وكان له من الذکور ثمانية، هم هلال أبو القمر وهو أكبرهم، وإلیه أوصی، وغانم والزبیر، وعزیز، ونصیر، ویدر، وأرقم، وعسکر، وقال لهم إنی أرى أمر هؤلاء القوم من الموحدین فی صعود، وقد کثر أتباعهم، ودخلت معظم البلاد فی طاعتهم، وإنی

(١) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٧١.

(٢) ابن خلکان، وفیات الأعیان، ج١، ص ٤٩٣.

(٣) الحلة السیراء، ج٢، ص ٢٦٨.

(٤) المراكشی، المصدر السابق، ص ٢٤٩.

(٥) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٧١.

أظن أنه لا طاقة لكم بمقاومتهم، فسلموا إليهم الأمر اختياراً منكم، تحفظوا بذلك عندهم، قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم، وقد سمعتم ما فعلوا بالبلاد التي دخلوها عنوة»^(١).

وهكذا بادر أبو القمر هلال بن مردنيش بإعلان طاعته للموحدين بل خرج بنفسه في صحبة قواده وأشياخه إلى أشبيلية ليؤكد توحيدهم في حضرة الخليفة أبي يعقوب^(٢). وكان الخليفة قد أرسل أخاه السيد أبا حفص إلى مرسية ليتقبل طاعة هلال وليتسلم المدينة، فسار إليها في قوات من الموحدين فبادر أهلها بالخروج إليه، ودخل المدينة وأنس أهلها ووعظهم وحثهم على طاعة الخليفة^(٣). وعلى إثر ذلك سار أبو القمر هلال إلى أشبيلية في شهر رمضان سنة ٥٦٧هـ، وبرفقته أخوته وكبار قواده وأعيان دولته، فاستقبله أخوا الخليفة أبو زكريا يحيى صاحب بجاية وأبو إبراهيم إسماعيل وكبار أشياخ الموحدين وحشد من عسكر الموحدين على بعد أميال خارج المدينة، ثم اصطحبوه إلى القصبة العتيقة حيث استقبلهم الخليفة أحسن استقبال، وقدم هلال وصحبه بيعتهم للخليفة بحضور السادة الأخوة وأشياخ الموحدين ثم أنزل هلال بقصر محمد بن عباد، وأنزل أصحابه في الدور المتصلة به، وقد شملهم الخليفة بوافر كرمه وعظيم عطقه^(٤).

وهكذا دخلت قواعد شرق الأندلس تحت سيطرة الموحدين.

(١) المراكشي، المصدر السابق، ص ٢٥٠.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٧٢.

(٣) المراكشي، المصدر السابق، ص ٢٥٠.

(٤) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٧٢-٤٧٣.

الفصل الثالث

موقف الموحدين من بنى غانية فى الجزائر الشرقية

- (١) بنو غانية أصحاب الجزر الشرقية
- أ - ولاية محمد بن علي بن غانية على الجزر الشرقية.
- ب - عهد أبى إبراهيم إسحاق بن محمد بن غانية.
- (٢) الصراع بين بنى غانية وبين الموحدين فى المغرب وجزر البليار
(المرحلة الأولى) حتى سنة ٥٨٤هـ
- أ - عهد علي بن إسحاق.
- ب - الوضع فى الجزر الشرقية أثناء الحرب المغربية.
- ج - إمارة محمد بن إسحاق على ميورقة.
- (٣) الصراع بين بنى غانية وبين الموحدين فى المغرب وجزر البليار
(المرحلة الثانية) حتى سنة ٥٩٩هـ.
- أ - علي بن إسحاق وصراعه ضد الموحدين فى أفريقيا.
- ب - سقوط الجزر الشرقية فى أيدي الموحدين.
- ج - نتائج سقوط ميورقة فى أيدي الموحدين.

(١) بنو غانية

أصحاب الجزر الشرقية

أ - ولاية محمد بن علي بن غانية على الجزر الشرقية:

ينتسب بو غانية إلى قبيلة مسوفة البربرية، وكانوا يرتبطون مع بنى تاشفين برابطة القرابة، ويرتفع نسبهم إلى علي بن غانية المسوفى المعروف بابن الصحراوية، وكان الأمير علي بن يوسف قد أقام ابن تاشفين على ولاية الأندلس بعد وفاة أخيه تميم بن يوسف في سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م وعهد إليه بولايتها ما عدا الجزر الشرقية التي أسند ولايتها إلى محمد بن علي بن غانية^(١).

وهكذا كان محمد بن علي بن غانية أول من تولي من بنى غانية حكم الجزر الشرقية بتفويض من الأمير علي، بينما ظل أخوه الأصغر يحيى بن علي يتولى إقليم غرب الأندلس^(٢). وفي عهد تاشفين بن علي أصبح يحيى ابن علي المسوفى الوالي الفعلي على الأندلس.

وقد استأثر محمد بن علي بن غانية بولاية الجزر الشرقية واستقل بحكمها في عهد الموحدين، فبعد وفاة محمد بن علي خلفه ابنه أبو إبراهيم إسحاق الذي فتح بابه لمن وفد إليه من بقايا عناصر المرابطين في الأندلس، وخلفه ابنه الذي وجد له في أفريقية حلفاء طبيعيين جمعتهم بهم الظروف السياسية والعداء المشترك للموحدين، وأعنى بهم عرب هلال فسلیم من جهة والمعاليك الغز وعلى رأسهم قراقوش مملوك تقي الدين ابن أخى صلاح الدين من جهة ثانية. وقد دعا علي بن إسحاق للخليفة العباسي أبي العباس أحمد الناصر في الخطبة، وكان انضمام ممالك مصر إلى بنى غانية أعداء الموحدين سبباً في غضب أبي يوسف يعقوب الموحدي على صلاح الدين سلطان مصر وكان ذلك فيما يبدو سبباً من أسباب رفضه لإنجاد صلاح الدين في جهاده ضد قوى الصليبيين^(٣).

وعن الظروف التي تولي فيها محمد بن غانية حكم الجزر الشرقية، يشير ابن

(١) السلاوي، الاستقصا، جـ ٢، ص ٦١.

(٢) ابن خلدون، العبر، جـ ٤، ص ٣٥٦؛ وانظر أيضاً:

Codera, op.cit., p. 171.

(٣) سعد زغلول عيد الحميد، العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب المنصور، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، المجلدان ٦، ٧، ١٩٥٨، ص ٨٤-١٠٠؛ وانظر أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ ٢، ص ٨٠٣.

خلدون أن أمير المسلمين علي بن يوسف كان قد ولي على ميورقة من قبله وانور بن أبي بكر اللمتوني فتعسف بأهل الجزيرة وأرغمهم على بناء مدينة أخرى بعيدة عن البحر، فامتنعوا عليه، وعندئذ أوقع بهم قتل زعيم هذه الحركة، فثاروا عليه وتمكنوا من اعتقاله وصفدوه وكتبوا إلى الأمير علي بن يوسف فأعفاهم منه وولى عليهم محمد بن علي بن غانية، فلما وصل إليهم في سنة ٥٢٠هـ، أقر أهلها على ما فعلوه بواليتها السابق وانور، وصفده، وبعث به إلى مراكش لينظر هناك في أمره^(١).

وفي رواية لصاحب المعجب عن تولية محمد بن علي بن غانية يذكر أنه، لما مات يحيى بن غانية اضطرب أمر أخيه محمد غانية وأخذ يجول في بلاد الأندلس والفتنة تتزايد، ودعوة الموحدين تنتشر، فلما اشتد خوف محمد هذا أتى مدينة دانية فعبر منها إلى جزيرة ميورقة في أهله وخاصته، فملكها وتملك الجزيرتين المجاورتين لها وهما منورقة وبابسة، وقيل أن علي بن يوسف نفاه إليها^(٢)، بمعنى أن ابن عبد الواحد المراكشي يرجع ولاية محمد بن غانية لجزر البليار بعد وفاة أخيه يحيى، وأعتقد أن هذه الرواية غير صحيحة، فالمعروف أن يحيى بن غانية توفي في ١٤ شعبان سنة ٥٤٣هـ^(٣)، ومعنى ذلك أن أخاه محمد بن غانية رحل عن الأندلس إلى الجزر الشرقية وتملكها بعد هذا التاريخ وهذا يتعارض مع ما أورده ابن الآبار الذي يزودنا ببعض التفاصيل عن أحداث تالية تسلط الضوء على الحقيقة التاريخية التي نبهت عنها، فابن الآبار يؤكد أن عبد الله بن محمد بن غانية الذي كان تاشفين ابن علي بن يوسف قد أسند إليه ولاية بلنسية في ٢٤ ذى الحجة سنة ٥٣٨هـ، خرج عنها في أعقاب الثورة التي اشتعلت بها وفر عنها في ١٨ رمضان سنة ٥٣٩هـ، خشية من قاضيتها مروان بن عبد الملك بن عبد العزيز إلى شاطبة Jativa، ولم يلبث أن لحق بالمرية Almeria بعد أن ضيق عليه في شاطبة ومن هناك ركب البحر إلى أبيه محمد بن غانية صاحب ميورقة التي كان قد تملكها واستقر بها، ويضيف ابن الآبار أنه

(١) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٤، ص ٣٥٦، جـ٦، ص ٣٩١، وانظر أيضاً:

Campaner y Fuertes, Bosquejo historico de la dominacion islamita en las islas Baleares, Palma, 1888, pp. 136-137.

(٢) المراكشي، المعجب، ص ١٦٨، وراجع أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، مقال بدائرة معارف الشعب، ١٩٥٩، ص ٨٤.

(٣) الضبي، بغية الملتبس، ص ٣٢؛ ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، الجزء الرابع، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٣٤٧؛ ابن عبد الله محمد (أبو عبد الله محمد)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الخامس، القسم الأول، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ص ٢١٩.

عندما قام الجند على مروان بن عبد العزيز في ٢٦ جمادى الأولى سنة ٥٤٠هـ (وقيل في ٢٥ جمادى الأولى منها) خرج متنكراً حتى وصل إلى المرية واجتمع بالقائد محمد بن ميمون الذي قبض عليه وقيده وفاءً لبني غانية وأقام عنده إلى أن دفعه إلى عبد الله بن محمد بن غانية، الذي ورد على المرية في بعض سفن ميورقة، فغف عن دمه واحتمله معه مقيداً^(١) إلى جزيرة ميورقة مقره.

ونخرج مما سبق أن محمد بن غانية كان يتولى حكم الجزائر الشرقية قبل وفاة أخيه يحيى بمدة طويلة، وهو ما يؤيده ابن خلدون والسلوى اللذان يؤكدان أنه تولى حكم الجزائر الشرقية في عام ٥٢٠هـ على النحو الذي أشرنا إليه في بداية حديثنا عن بني غانية.

ولقد استلزمت الأوضاع المضطربة في الجزر الشرقية على إثر الفتنة التي كانت مشتتة بها في عهد واليها السابق وأتور نوعاً من الضبط لإقرار الأمور فيها ولهذا بذل محمد بن علي بن غانية جهوداً مفضية لإقرار الأوضاع في هذه الجزر وإعادة السكينة والأمن في ربوعها، وقد نجح في ذلك نجاحاً تجارز كل تقدير فتعمت هذه الجزر في عهده بالهدوء في الوقت الذي اضطربت فيه أحوال المرابطين في المغرب وقامت عليهم الثورات في أنحاء الأندلس وأوشك ملكهم على الانهيار.

ومن الغريب أن بني غانية في الجزر الشرقية منذ أن تولاهم محمد بن غانية ظلوا على ولائهم لدولة المرابطين المنهارة على الرغم من الظروف المضطربة التي مرت بها هذه الدولة، وقيام الثورات عليها في سائر قواعد الأندلس، وواصل محمد بن غانية ولايته لهذه الجزر باسم دولة المرابطين مع الدعوة في الخطبة لأمر المسلمين ولبنى العباس^(٢)، بل كان يستقبل في جزائره من لاذ به من فلول المرابطين ويشملهم بحمايته ورعايته، إلا أنه لم يلبث أن استقل بحكم هذه الجزائر الشرقية عندما سقطت دولة المرابطين في المغرب والأندلس، وقامت دولة الموحدين، مرسياً قواعد دولة بني غانية في جزر البليار التي كانت استمراراً لدولة المرابطين، وقدر لهذه الدولة أن تلعب دوراً هاماً في صراعها مع الموحدين، وظل محمد بن غانية منتزياً بالجزر الشرقية زهاء ثلاثين عاماً سادها الهدوء والأمن وساعد على ذلك قيام ابن مردنيش بشرق الأندلس طوال خمس وعشرين عاماً، إذ كانت دولة ابن مردنيش بمثابة دولة حاجزة بين بني

(١) ابن الأبار، الحلة السراء، ج٢، ص ٢١٨-٢٢٢؛ وراجع أيضاً:

ابن سعيد المغربي، المغرب، ج٢، ص ٣٠٠-٣٠١؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج٤، ص ٣٥٦-٣٥٧.

(٢) المراكشي، المصدر السابق، ص ٢٦٨؛ وراجع أيضاً:

Alfred Bel, Les Banou Chania, Paris, 1903, p. 19.

غانية في الجزر الشرقية وبين الموحدين الذين شغلهم أمره مدة طويلة، فصرفوا نظرهم مؤقتاً عن بقايا فلول المرابطين المتمركزين في الجزائر الشرقية بزعامة أسرة بنى غانية، الأمر الذى دعا محمد بن غانية إلى الاهتمام بتأمين علاقته مع جمهوريتى جنوة وبيزة بعد أن اطمأن إلى وضعه ووضع دولته، فعقد مع جنوة اتفاقية تجارية فى عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م، كما عقد اتفاقية مماثلة مع بيزه فى العام التالى سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م (١).

ب- عهد أبى إبراهيم إسحاق بن محمد بن غانية :

كان لمحمد بن غانية من الولد أربعة هم : عبد الله أكبرهم وإسحاق والزبير وطلحة، ولما كان حريصاً على استمرار عقبه فى حكم هذه الجزر فقد اختار لولاية عهده ولده الأكبر عبد الله - الوالى السابق لبلمسية -، وهنا تختلف الرواية، فالمراكشى يذكر أن محمد بن غانية «عهد فى حياته إلى أكبر ولده عبد الله، فنفس ذلك عليه أخوه إسحاق، ودخل عليه فى جماعة من الجند وعبيد له فقتله - قيل فى حياة أبيه، وقيل بعد وفاته، وتوفى عبد الله المذكور» (٢).

أما ابن خلدون فيذكر أن إسحاق استخلف أباه محمداً وأنه قتله غيرة من أخيه عبد الله لمكان أبيه منه، فقتلها معاً (٣).

وأياً ما كان الأمر، فإن إسحاق بن محمد بن غانية تولى حكم الجزائر الشرقية، وضبطها بحزم، وحسنت أحواله بها، واستمر يجرى على سنن أبيه فى الترحيب بمن كان يقد عليه من عناصر المرابطين فى الأندلس فكان يحسن إليهم ويجزل لهم العطاء (٤). وقد اهتم إسحاق بن محمد بن غانية فى السنوات الأولى من حكمه بالتشيد والتشجير، فنمت موارد الجزائر فى عهده نمواً كبيراً واستفحلت قوتها البحرية، وأضحت أساطيلها عاملاً يحسب حسابه فى ميزان القوى البحرية فى غرب البحر المتوسط، ولعل ما يؤيد ذلك ما ورد فى الخطاب الذى أرسله الفارس برنجير الطركونى من أشراف برشلونة (وكان قد لجأ إلى ميورقة فراراً من اضطهاد أميره) إلى ألفونسو الثانى ملك أرغون فى سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، أوضح فيه حالة ميورقة الإسلامية فى تلك الفترة من القوة والازدهار ووفرة الموارد (٥).

(1) Codera, op.cit., p. 173.

(٢) المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٦٨.

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق، ج٦، ص ٣٩١.

(٤) المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٦٩؛ وانظر : السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج٢، ص ٨٠٢.

(5) Campaner y Fuertes, op.cit., p. 144.

ولم يقصر إسحاق بن غانية همه على الشؤون الداخلية لدولته وإنما تجاوز ذلك إلى العالم الخارجى، فكثيراً ما كانت أساطيله تغير على سواحل قطلونية وجنوبى فرنسا، وهاجمت سفنهم فى البحر، وفى ذلك يقول صاحب «المعجب» فى سيرة إسحاق بن غانية: «كان له فى كل سنة سفرتان إلى بلاد الروم، يغتم ويسبى وينكس فى العدو أشد نكاية، إلى أن امتلأت أيدى أصحابه أموالاً، فقوى بذلك أمره» (١).

وتذكر المصادر المسيحية حملتان وجههما لإسحاق بن محمد بن غانية فى السنوات الأخيرة من حكمه، الأولى كانت فى سنة ١١٧٨/٥٧٤م، على ثغر طولون الواقع على الساحل الجنوبى لغالة واستولى عليه، وأسر الفيكونت هوجو جود فريد Ugo Cau Fred فيكونت مارسيليا وحفيده وعدة آخرين من أكابر النصرارى، مظهرًا فى هذه الحملة جسارة وجرة فى قيادتها، والحملة الثانية وجهها إلى سواحل قطلونية، كما هاجم الأسطول الميورقى فى نفس العام ولاية جرندة Gerona وفاجأ كنيسة سانت ماريه دى أوبى Santa Maria de Uile وقتل من بها واستاق الباقين أسرى إلى ميورقة (٢).

وكان من أثر تزايد القوة البحرية للجزائر الشرقية فى غرب البحر المتوسط وتوالى غزواتها على شواطئ الدول المسيحية القريبة، أن سعت جمهوريات جنوة وبيزا والبندقية إلى موادعته ومهادنته فعمدت إلى تجديد معاهدات الصلح والصدقة معه، وعلى هذا النحو انعقدت بين الطرفين معاهدة صلح وصدقة تعهد فيها كل طرف ألا يحدث أضراراً بالطرف الآخر واستمر هذا الوضع إلى أن توفى إسحاق فى أوائل سنة ١١٨٣/٥٧٩م (٣).

ظل إسحاق بن محمد بن غانية فى مأمن من الموحدين طالما كانت دولة ابن مردنيش قائمة فى شرق الأندلس، غير أن موت ابن مردنيش وضع نهاية لهذا العهد الآمن وأصبح الموحدون بعد أن مكنوا سلطانهم على إقليم شرق الأندلس وتملكوا ثغوره المطللة على البحر المتوسط على مقربة من الجزائر الشرقية (البليار)، كما أصبح فى إمكانهم تهديد أمن بنى غانية، وتوجيه ضربتهم التالية إليهم، وعند ذلك رأى إسحاق بن غانية أن يعمل على مصانعة الموحدين ومهادنتهم فكان يوجه إليهم الهدايا والأموال درعاً لخطرهم، وفى ذلك يقول صاحب «المعجب» «وكان يرأسل الموحدين ويهاديهم ويهادنهم ويختصهم من كل ما يسبى ويغتم بنفسه وجيده،

(١) المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٦٩.

(2) Campaner y Fuertes, op.cit., p. 144; Codera, op.cit., p. 178.

(3) Campaner Fuertes, Ibid, p. 145.

يشغلهم بذلك عنه مع احتقارهم لأمر تلك الجزيرة وقلة التفاتهم إليها^(١). ويستفاد من هذا النص أيضاً، أن الموحدين في البداية كانوا يستصغرون شأن الجزائر الشرقية، ولا يحفلون بأمرها، فلما سيطروا على شرق الأندلس وثغوره، أدركوا أهمية موقع هذه الجزر، كما تبين لهم ذلك بشكل واضح من خلال سياسة إسحاق السلمية معهم وتتمثل في مصانعتهم ومهادنتهم عن طريق الهدايا وبذل الأموال بالإضافة إلى الأسرى النصاري الذين كان يبعث إليهم وعند ذلك بدأت كتب الموحدين ترد على إسحاق بطلب الدخول في طاعتهم، ويشير ابن عبد الواحد المراكشي إلى ذلك بقوله «فلما كان في شهر سنة ٥٧٨هـ والوا إليه الكتب يدعونه إلى الدخول في طاعتهم والدعاء لهم على المنابر، ويتوعدونه على ترك ذلك»^(٢). واستلزم الأمر أن يعرض إسحاق الأمر على كبار أصحابه، فاختلفت آرائهم، فالبعض أشار بالقبول والبعض الآخر بالرفض، وعندئذ رأى إسحاق بن غانية أن يرجع رده على الخليفة^(٣) إلى حين.

ولم تطل إمارة إسحاق على الجزائر الشرقية إذ استشهد في إحدى غزواته البحرية على السواحل النصرانية، وقيل أنه طعن في حلقه، وحمل حياً إلى ميورقة وبها مات في قصره، وكانت وفاته سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م^(٤)، وقيل في سنة ٥٨٠هـ^(٥). وخلف إسحاق بن غانية من الأولاد ثلاث عشرة هم: محمد وعلي ويحيى وعبد الله والغزالي وسير والمنصور وجبارة وتاشفين وطلحة وعمر ويوسف والحسين، وكان قد عهد في حياته بولاية العهد إلى ابنه الأكبر محمد، فلما توفي إسحاق خلفه محمد في الإمارة على الجزائر^(٦).

(١) المراكشي، المصدر السابق، ص ٢٦٩.

(٢) المراكشي، المصدر السابق، ص ٢٦٩.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) نفس المصدر والصفحة، انظر أيضاً:

Alfred Bel, op.cit., pp. 24-25.

(٥) ابن الآبار، التكملة، ج٢، ترجمة ١٤٠٤، ص ٤٩٠، (ورد في ترجمة عبد الله بن محمد بن وقاص الملقب من أهل ميورقة أنه استشهد في الحادثة بقصر ميورقة عند وفاة أميرها إسحاق بن محمد سنة ٥٨٠هـ)، راجع:

المصدر السابق والجزء والصفحة، ابن خلدون، المصدر السابق، ج٦، ص ٣٩١؛

Codera, op.cit., p. 167.

(٦) ابن خلدون، المصدر السابق، ج٤، ص ٣٥٦؛ ج٦، ص ٥٠٧، في حين يؤكد المراكشي أن الذي خلف إسحاق هو ابنه علي، راجع: المعجب، ص ٢٠٧.

٢ - الصراع بين بنى غانية والموحدين فى المغرب وجزر البليار

أ - عهد علي بن إسحاق بن محمد بن غانية:

واجهت محمد بن إسحاق فى بداية عهده، مشكلة الاعتراف بالخلافة الموحدية وبذل الولاء والطاعة لخليفة الموحدين والخطبة له، فقد سبق أن رأينا والده قد أرجأ البت فى الرد على رسالة الموحدين التى سيروها إليه فى سنة ٥٧٨هـ لما رآه من اختلاف أكابر أصحابه بشأنها بين مستجيب ورافض فلما توفى إسحاق هذا أرسل الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن مبعوثاً إلى ميورقة فى بعض السفن الموحدية، التى أفلتت به من سبتة، ليعرض الطاعة بنفسه على أميرها، وليخبر مدى استعداد بنى غانية للاستجابة لدعوته، وليقدم الأعذار والإنذار، وكان هذا المبعوث الموحدى أبا الحسن علي بن الفارس المسيحي الربرير El Reverter أو روبرتو القطلونى^(١)، فلما وصل مبعوث الخليفة إلى جزيرة ميورقة، استقبله واليها استقبالا ودياً حافلاً، وأبدى استجابته فى الدخول فى طاعة الموحدين^(٢)، برغم علمه بمعارضة أخوته وأكابر أصحابه، ولعل استجابته هذه جاءت رد فعل مباشر لما بلغه من أخبار الحملة التى يعدها الخليفة أبو يعقوب فى شهر صفر سنة ٥٨٠هـ لمحاربة النصارى فى غرب الأندلس^(٣)، فلم يكن هناك بد من الخضوع للموحدين اتقاء غزوهم لهم، فما كان من إخوته إلا أن ثاروا ضده وقبضوا عليه واعتقلوه وقدموا

(١) الربرير، كان قائداً مسيحياً أندلسياً من كبار قواد أمير برشلونة وأرغن Aragon، ثم وقع فى أسر علي بن ميمون قائد البحر المرابطى، فوجهه إلى مراكش حيث اعتنق الإسلام ولزم خدمة الأمير علي بن يوسف الذى ولاه قيادة الجيش المسيحي المرتزق الذى كان فى خدمة المرابطين واشترك معهم فى إخماد ثورة الموحدين، وقد أبلى الربرير فى قتال الموحدين بلاءً حسناً حتى قتل فى إحدى المعارك التى خاضها ضد الموحدين فى سنة ٥٣٩هـ، أما ابنه فقد اعتنق فيما بعد دعوة الموحدين وصار من أكابر رجال دولتهم، وإليه يرجع الفضل فى انتزاع جزيرة ميورقة من أيدي بنى غانية كما سنرى بعد، راجع: البيدق، المصدر السابق، ص ٨٦-٨٨، ٩٥-٩٦، ابن القطان، نظم الجمال، ص ٩٦، ١٠١، حسين مؤنس، نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين، ص ١٠٢.

Dozy, Recherches, t. II, pp. 437-442.

(٢) ابن خلدون، المصدر السابق، ج٦، ص ٥٠٧.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٣٢-١٣٣.

أخاهم علي على إمارة الجزائر، وفي نفس الوقت اتسم موقفهم من أبي الحسن على بن الربرير مبعوث الخليفة الموحدى بنوع من الدبلوماسية فقد اعتمدوا معه في ذلك سياسة المراوغة، وتمحّدوا المطاولة في مجادلته في الأمر الذي وفد من أجله، مع التحفظ عليه ومنعه من مغادرة الجزيرة، كما أقدموا على اعتقال البحرين في أجفان الموحدين وأحلوا محلهم بحرّين من ميورقة^(١).

ثم انتظروا الموقف الذي يمكن أن تتخذه دولة الموحدين منهم إلى أن جاءت الأخبار باستشهاد الخليفة أبي يعقوب في أعقاب غزوة شنتين في ١٨ ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ^(٢)، فاستغل بنو غانية فرصة ما أحدثه استشهاد أبي يعقوب من اضطراب وانشغال الخليفة الجديد بتولى أعباء الحكم وألقوا القبض على أبي الحسن علي بن الربرير وأودعوه السجن، وأعلن علي بن إسحاق بن غانية رفضه للدعوة الموحدية^(٣)، ولم يكتف بذلك بل تطلع إلى مواجهة الموحدين في عقر دارهم، فلم ينتظر ليفاجئهم المنصور بحملة بحرية على ميورقة، وإنما أثار أن يبدأ هو بالتحرك فقام بتوجيه أول ضرباته للموحدين في أفريقية لتصبح أسرة بني غانية منذ هذا التاريخ شوكة حادة في جنب الدولة الموحدية.

وتفصيل ذلك أن علي بن غانية رأى أن يبدأ هو بالهجوم على دولة الموحدين في أضعف أجنحتها وهو المغرب الأدنى والأوسط وذلك بعد أن وجد في هذا الجناح الشرقي لدولة الموحدين حلفاء مشتركين معه في عدائهم للموحدين وأعنى بهم عرب بني هلال وسليم والغز المماليك الذين أشرنا إليهم فيما سبق، ويبدو أنه اتفق معهم على غزو بجاية بحرًا، فقد حشد لهذا الغرض أسطولاً ضخماً عدته اثنان وثلاثون جفنًا^(٤)، وقيل عشرون^(٥)، تحمل نحو مائتي فارس وأربعة آلاف راجل^(٦)، وتولى قيادتها رشيد الرومي^(٧)، وقد قصد علي بن غانية وأخوه يحيى بهذا الأسطول مدينة بجاية بعد أن ترك علي حكم ميورقة أخاه طلحة، وقيل عمه أبا الزبير^(٨). ووصل

(١) ابن عذاري، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٤٦.

(٢) نفس المصدر والقسم، ص ١٣٨.

(٣) نفس المصدر والقسم، ص ١٤٦؛ وراجع أيضاً: ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٣٩٢؛ Campaner y Fuertes, op.cit., p. 146؛ Alfred Bel, op.cit., p. 29.

(٤) ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٣٩٢.

(٥) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١١، ص ٢٠٦.

(٦) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١١، ص ٢٠٦.

(٧) ابن عذاري، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٤٧.

(٨) ذكر ابن خلدون في موضعين، أن علياً استخلف أخاه طلحة على حكم ميورقة، (راجع: العبر،

ج ٦، ص ٥٠٧. ص ٥١٥)، بينما ذكر في موضع آخر أنه استخلف عمه أبا الزبير على حكم

ميورقة، راجع نفس المصدر، ج ٦، ص ٣٩٢.

الأسطول الميورقي على مقربة من ثغر بجاية، على حين غرة منها، والأحوال في البلد هادئة، فدفع قائده رشيد الرومي برجاله في زورق إلى أسفل الأسوار للاستخبار والتحرى، وكان السيد أبو الربيع والى بجاية قد خرج منها في طريقه إلى الحضرة، في الوقت الذي مر فيه السيد أبو موسى مع أصحابه على بجاية في طريقه إلى تلمسان، ونظراً للهدوء الذي كان يسود البلد، لم يك ثمة استعدادات دفاعية مناسبة يعتمد عليها، فلما وقف الميورقيون على أوضاع البلد، تقدمت سفنهم المهاجمة من المدينة، واحتشد عدد كبير من عسكرهم قبالة أسوارها، بعد أن استدلوا على عورات بعض أسوارها بواسطة بعض السوقة والفساد، وتقدموا لافتحام البلد، فتصدت لهم جمهرة من أهل البلد لمقاومتهم دون أن يرزقوا قائدًا يلم شملهم، ودون استعدادات مسبقة، فصبوب الميورقيون نحوهم قسيهم وسهامهم، فشتوا جمعهم وفرقوهم، فتقدم الفرسان والمشاة واقتحموا المدينة من خلال ما تثلم من سورها، فاستولوا عليها، وقبضوا على السيد أبي موسى، وذويه وأهله وعلى سائر الموحدين^(١). وتم سقوط بجاية في أيدي الميورقيين تبعاً لرواية بعض المؤرخين في ١٩ صفر سنة ٥٨١هـ^(٢)، وقيل في شعبان سنة ٥٨٠هـ وفقاً لرواية أخرى^(٣)، وهو التاريخ الأرجح.

أقام علي بن غانية أسبوعاً في بجاية ينظر في شؤونها، وصلى بها الجمعة فخطب ودعا في الخطبة لبنى العباس وللخليفة العباسي أحمد الناصر، ويقول صاحب المعجب، «كان خطيبه الفقيه الإمام المحدث المتقن أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الأشبيلي، مؤلف كتاب الأحكام وغيره من التأليف - فأحرق ذلك عليه أبا يوسف يعقوب أمير المؤمنين، ورام سفك دمه، فعصمه الله منه وتوفاه حتف أنفه وفوق فراشه»^(٤).

ثم خرج علي بن إسحاق من بجاية بعد أن وطد سلطانه فيها وترك عليها أشتاء يحيى ورشيد الرومي، ومضى من فوره ليلحق بالسيد أبي الربيع، فالتقى معه بموضع يعرف بيا ميلول، وكان معه جمع من الأعراب المواليين للموحدين فانخذلوا عنه

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ج٣، ص ١٤٧-١٤٨.

(٢) نفس المصدر والقسم، ص ١٤٨؛ وانظر أيضاً: ابن خلدون، المصدر السابق، ج٦، ص ٢٩٢، الزركشي، تاريخ الدولتين، ص ١٠.

(٣) ابن الأثير، المصدر السابق، ج١١، ص ٢٠٦؛ المراكشي، المصدر السابق، ص ٢٧٠؛ ابن خلكان، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٢٩، وراجع أيضاً:

Alfred Bel, op.cit., p. 42.

(٤) المراكشي، المصدر السابق، ص ٢٧١-٢٧٢.

وانضموا إلى ابن غانية، فانهزم السيد أبو الربيع، واستشهد بعض رجاله، واستولى على بن غانية على محلته وما كان فيها من أمواله وعياله، وفر السيد أبو الربيع إلى جزائر بنى مرغنة، ولما عاين ضعف تحصيناتها، خرج إلى تلمسان فنزل بها على واليها السيد أبي الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن، وأخذ في ترميم أسوارها، واتخذ أهبتهما للدفاع عنها^(١). ثم تابع على بن إسحاق زحفه صوب الجزائر فدخلها، وولى عليها يحيى ابن أخيه طلحة، ثم سار إلى مليانة فاستولى عليها وقدم عليها يدر بن عائشة^(٢)، ثم زحف إلى قلعة بنى حماد وهاجمها واستولى عليها^(٣)، وعلى ما يجاورها من قلاع، وقفل بعد ذلك عائداً إلى بجاية، وهناك أقبل الناس لمبايعته والدخول في طاعته والتف حوله القوغاء، فاستخرج من مخازن بجاية من المال والثياب والعدد ووزعها على السوق العامة والأعراب وما انضم إليهم، ثم سار في قواته إلى قسنطينة، ولكنها كانت قد أخذت عدتها واستعدت لمنازلته، واستبسل أهلها في قتال قواته وتمكنوا من قتل جملة من رجاله إلا أنهم اضطروا في النهاية إلى التحصن داخل أسوارها، فحاصرها ابن غانية على أمل أن تسقط في يده^(٤).

وعلم الخليفة بمقرب المنصور بخبر ابن غانية واستيلائه على بجاية وغيرها من بلاد أفريقية والمغرب الأوسط، وكان قد عاد من الأندلس فأسف أشد الأسف وشرع من فوره في تجهيز جيش قوى زوده بالعدة والآلات، وعهد بقيادته إلى ابن عمه السيد أبي زيد بن السيد أبي حفص، كما عقد في نفس الوقت لمحمد بن أبي إسحاق بن جامع على الأساطيل بقيادة كل من قائد البحر أبي محمد بن عطوش الكومي وأبي العباس أحمد الصقلي، تقدمت القوات البرية والبحرية متجهة صوب بجاية، فوصل الجيش الموحدى إلى مدينة فاس حيث توقف فترة لاشتداد الأمطار وتوحد الطريق مما تعذر معه تقدم الجيش، ولما توقف المطر، استأنف مسيره إلى تلمسان وكان واليها الموحدى السيد أبو الحسن علي بن السيد أبي حفص قد عمل على تحصين أسوارها وشحنها بالجند بمعاونة السيد أبي الربيع والي بجاية السابق الذى كان قد توقف بها منتهزاً الفرصة لاستنقاذ أهله وذويه من قبضة ابن غاية^(٥).

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٤٨، ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٣٩٢.

(٢) ابن عذارى، نفس المصدر والقسم، ص ١٤٨، وابن خلدون، نفس المصدر، ج ٦، ص ٧٠٥.

(٣) ابن خلدون، نفس المصدر، ج ٦، ص ٥٠٧.

(٤) مجموع رسائل موحدية، الرسالة التاسعة والعشرون، ص ١٧٢-١٧٣، ابن عذارى، المصدر

السابق، ق ٣، ص ١٤٨.

(٥) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٤٩.

تابع السيد أبو زيد زحفه إلى الشرق نحو مليانة، وكان الخليفة الموحدى أبو يوسف المنصور قد وجه كتبه إلى سكان المناطق التى خضعت لسلطان ابن غانية يعدمهم بالعفو عنهم والصفح والإحسان عمن تعاون مع العدو، وعهد إلى جواسيسه بدسها إلى البلاد فى الليل والاجتماع ببعض من يولق فى إخلاصه وولائه من أهلها فلما اطمئن أهالى هذه النواحي إلى جانب الخليفة الموحدى، وثبوا على من كان فى بلدهم من الميورقيين وقبضوا عليهم، وكانت أساطيل الموحدين قد سبقت القوة البرية إلى جزائر بنى مزغنة وتمكن قائدها أحمد الصقلى من الاستيلاء عليها وأسر أميرها يحيى بن طلحة بن غانية وأتباعه الميورقيين، ثم استولى الأسطول على مليانة، وكان يدر بن عائشة واليها قد فر عنها فاقتفى أهلها أثره وقبضوا عليه وعلى أتباعه بعد معركة عنيفة سبق بعدها مع أصحابه مكبلا بالقيود، وكان السيد أبو زيد قائد جيش الموحدين قد وصل إلى وادى شلف فبلغه أن علي بن غانية ينوى نقل السيد أبى موسى ورفاقه من زعماء الموحدين إلى ميورقة فأصدر أمره على الفور بالزحف سريعا إلى بجاية، وفى نفس الوقت تحرك الأسطول نحو ثغر بجاية، وتقدم القائد أبو العباس الصقلى فى سفينة مع بعض أهالى بجاية، ودسوا الكتب إلى أهالى الثغر تحمل خبر وصول جيش الموحدين، فثار أهالى البلد وفتحوا أبوابها ونزل الجند من الأسطول وعلى رأسهم قائد الأسطول أبو محمد بن جامع إلى المدينة وفتحوا بالميورقيين وأنصارهم، وفر يحيى بن غانية وأخوه عبد الملك فى عدد قليل من أتباعه، ولحقا بأخييهما إسحاق الذى كان يحاصر قسنطينة فرفع الحصار عنها ومضى إلى الصحراء، أما الموحدون فقد أسروا رشيد الرومى قائد الأسطول الميورقى، واستولوا على أسطوله كما تمكنوا من إطلاق سراح السيد أبى عيسى ورفاقه الموحدين، وهكذا تم للموحدين استرداد بجاية فى اليوم التاسع عشر من شهر صفر سنة ٥٨١هـ/ ٢٢ مايو ١١٨٥م، بعد أن لبثت فى قبضة بنى غانية نحو سبعة أشهر^(١).

ولكن معارك بنى غانية مع الموحدين فى المغربين الأوسط والأدنى لم تنته بعد، فقد تحالف علي بن غانية مع قبائل بنى هلال واستمال قراقوش الغزى المظفرى وبفضل هذا الحلف أمكنه السيطرة على بلاد الجريد. وعندما خرج المنصور الموحدى بحشوده للقضاء على هذا الحلف فى سنة ٥٨٢هـ منى بهزيمة نكراء ولقى عدد من مشاهير قادة الموحدين مصرعهم وفر عسكر الموحدين إلى قفصة فألخن فيهم بنو غانية والمماليك قتلا، ولكن المنصور لم يلبث أن جمع شعث قواته وأعاد الكرة، فانتصر

(١) مجموع رسائل موحدة، الرسالة التاسعة والعشرون، ص ١٧٦-١٧٧، ابن عذارى، المصدر

السابق، ق ٣، ص ١٤٩-١٥٠، ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٥٠٧-٥٠٨

Alfred Bel, op.cit., pp. 50-53.

على ابن غانية وقراقوش واسترجع قابس وتوزر وقفصة^(١). ثم عاد إلى المغرب. أما ابن غانية فقد نزل في بلاد الجريد حيث اصطدم مع أهل نفاوة سنة ٥٨٤ هـ فهلك في إحدى معاركه معهم وخلفه أخوه يحيى بن إسحاق.

ب- الوضع في الجزر الشرقية أثناء الحرب المغربية:

ترتب على خروج القسم الأعظم من القوى البرية والبحرية الميورقية بقيادة علي ابن إسحاق بن غانية إلى غزو أفريقية أن خلا الجو في ميورقة لأبى الحسن علي ابن الربرير الذى استغل هذه الفرصة استغلالاً مثمراً ليضرب ضربه في غفلة من علي بن إسحاق، فقد ظل منذ اعتقاله يترقب الأحداث عن كثب بهدف اغتنام اللحظة المواتية للفرار من معتقله، وكان جل من بقى في الجزيرة من عسكر بنى غانية من النصارى المرتزقة يتطلعون إلى مغادرتها إلى أوطانهم، فاستطاع أبو الحسن علي بن الربرير مدة اعتقاله أن يستميلهم ويستميل محمد بن إسحاق بن غانية الوالى المعزول إلى جانبه فرغبهم ومناهم بالوعود وقطع على نفسه عهداً أنهم متى مكثوا من مراده، فإنه يعمل على تسريحهم في أهلهم وأولادهم إلى أوطانهم^(٢)، كذلك تمكن محمد بن إسحاق من اجتذاب بعض أعيان المدينة^(٣) إلى جانبه، وهكذا استطاع ابن الربرير أن يدبر أمره مع عسكر النصارى المرتزقة من جهة ومع محمد بن إسحاق الوالى المعزول من جهة ثانية، وتم إعداد خطة محكمة لتنفيذ مخططهما فقد انتهز مرتزقة النصارى فرصة خروج معظم أهل ميورقة لأداء شعائر الصلاة يوم الجمعة وأخرجوا أبا الحسن علي بن الربرير من سجنه، ووثبوا على مخازن السلاح، واستولوا على شحناتها، ثم أغلقوا أبواب القصبية وتعلقوا بأسوارها، وهاجموا حاميتها وأبادوها، ثم تحصن ابن الربرير ومرتزقة النصارى بالقصبية، فحاصروهم بها أهل ميورقة، وضربوا عليها بالجنائيق والآلات و السهام، فعمد ابن الربرير إلى اصطناع الحيلة فأتى من داخل القصبية بأهل علي بن غانية، ومنهم أمه وأبنائه ودفعهم فوق السور، ليرغم المحاصرين على الكف عن ضرب القصبية، فكفوا عن القتال ولكنهم واصلوا حصارهم للقصبية أياماً، ثم اضطروا بعد ذلك إلى التفاوض مع ابن الربرير^(٤).

وعلى إثر ذلك استدعى ابن الربرير شريكه في الخطة محمد بن إسحاق واتفق على إعادة تنصيبه والياً على الجزر الشرقية، فنزل ابن الربرير له عن القصبية والسلطة

(١) السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ ٢، ص ٨٠٥.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٥٥.

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ ٦، ص ٥١٥.

(٤) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٥٦؛ وراجع أيضاً:

Alfred Bel, op.cit., pp. 66-68' Campaner y Fuertes, op.cit., pp. 148s 99.

وعندئذ أعلن محمد بن إسحاق طاعته للموحدين وهر ابن البربرير بوعده للنصارى المرتزقة فسرّحهم فى أموالهم وأهلهم إلى بلادهم، ثم خرج فى صحبة محمد بن إسحاق بن غانية وقصد إلى مراكش ليقدّم طاعته للخليفة الموحدى (١)، وفى رواية أخرى أقام بميورقة ولكنه أرسل اعترافه ببذل الطاعة والولاء للخليفة الموحدى مع ابن البربرير (٢).

وهكذا دخلت جزيرة ميورقة وفقاً لهذا الاعتراف فى ملك دولة الموحدين، وخطب فيها باسم المنصور خليفة الموحدين فى أوائل عام ٥٨١هـ/١١٨٥م. وعندما ورد قرار الأمير محمد بن إسحاق بن غانية ببذل الطاعة للموحدين على الخليفة يعقوب المنصور لم يتردد هذا الخليفة فى إرسال أسطول موحدى بقيادة أبى العلاء بن جامع لتملك الجزيرة، غير أن محمد بن إسحاق بن غانية رغم إقراره بالتبعية لدولة الموحدين أبى الاستجابة لهم، واستنجد بكونت برشلونه الذى زوده بعسكر قفلاانى تدعيماً لقوته، وبفضل هذا العون فشل ابن جامع فى الاستيلاء على جزيرة ميورقة (٣)، وغلب على الظن أن الأمير محمد بن إسحاق بن غانية - رغم كل ذلك - قد أبقى على تبعيته الاسمية للموحدين.

على أن نفوذ الموحدين على جزيرة ميورقة لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما علم بنو غانية بأخبار الانقلاب فى ميورقة، فاضطر عبد الله بن غانية إلى القفول عائداً إلى الجزيرة على الفور عن طريق صقلية، وأغلب الظن أن أميرها وليام الثانى (١١٦٦-١١٨٩م) قد أمده ببعض سفنه ليسهل عليه العودة إلى جزره واسترداد ملكه، واستطاع عبد الله بن غانية بمساعدة مواليه وجنده وعلى رأسهم علع يدعى نجاح أن يحتل الجزيرة ويطرد منها أخاه محمد (٤)، الذى فر إلى الأندلس حيث ولاء الموحدون مدينة دانية (٥).

حاول الخليفة المنصور استرجاع السيادة الموحدية على الجزيرة فوجه إليها

(١) ابن عذارى، نفس المصدر والقسم، ص ١٥٦

(٢) ابن خلدون، المصدر السابق، ج٦، ص ٥١٦.

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق، ج٦، ص ٥١٦؛ وانظر أيضاً:

Codera, op.cit., p. 183.

(٤) ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ١٥٧؛ المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٧٦؛

Alfred Bel, op.cit., p. 71;

وفى رواية لابن خلدون يقول أن أهل ميورقة ثاروا على محمد بن إسحاق خوفاً من عادية الخليفة

المنصور وطردوه من جديد وباعوا أخاه تاشفين، راجع: العبر، ج٦٥، ص ٥١٦

(٥) المراكشى، المصدر السابق، ص ٢٧٦

أسطولا بقيادة أمير البحر أبي علي بن جامع، غير أن زمام الموقف كان قد أفلت من يده، لا سيما بعد أن تدخل أسطول بيدرو الثاني Pedro II ملك أرغون لصالح الميورقيين^(١).

وعندما استعصى على الموحدين الاستيلاء على جزيرة ميورقة، وجهوا أنظارهم إلى جزيرة يابسة، فهاجمها أسطول موحدى بقيادة أمير البحر أبي العباس الصقلى واستولى عليها، وكان يتولى قيادة يابسة آنذاك ابن نجاح، وكان مذبذب الولاء بين بنى غانية والموحدين فلم يلبث أن نكث طاعتهم، ودخل على أهل يابسة بالخديعة - فقبض عليه وتم سقوط يابسة فى أيدي الموحدين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م^(٢).

والظاهر أن الموحدين استولوا فى نفس الوقت على جزيرة ميورقة، وإن كانت المصادر العربية لم تنص على ذلك، ولكننا نستدل عليه من سكوت المصادر عن ذكر ميورقة بالإضافة إلى أن ميورقة كانت ترتبط فى المصير دائماً بجزيرة يابسة، ونضيف إلى ما سبق أن أسطول عبد الله بن غانية تمكن فى سنة ٥٩٦هـ من استرجاع منورقة الأمر الذى يؤكد أنها كانت فى حوزة الموحدين.
جـ - إمارة عبد الله بن إسحاق بن غانية على ميورقة:

منذ أن استعاد عبد الله بن إسحاق بن غانية ملك جزيرة ميورقة حتى شرع فى ضبط أمورها، والاهتمام بتحصينها وسد عورتها، وقد استلزم ذلك تطبيق نوع من الحكم المطلق، كما التهج عبد الله بن إسحاق نهج أبيه فى مسالمة الممالك النصرانية المجاورة لاسيما جنوة والبندقية، فأقام معها صلات ودية من الصداقة والتبادل التجارى، ففى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م عقد معاهدة صداقة مع جنوة مدتها عشر سنوات، ويرى الأستاذ كوديرا أن هذه المعاهدة لم تكن على الأرجح أكثر من تأكيد للاتفاقية السابقة المبرمة بين جنوة وبين إسحاق بن غانية قبل موته بقليل^(٣).

ولما انقضت السنوات العشر، عقد الأمير عبد الله بن إسحاق معاهدة صلح وتجارة مع جنوة مدتها عشرين عاماً، وقد مثل جنوة فى هذه المعاهدة سفيرها نيقولا كانويزى^(٤). ومن الجدير بالذكر أن الظروف السياسية فى هذا الوقت والعداء القائم

(1) Huici Miranda, Historia del Imperio Almohade, t. II, p. 390;

وراجع أيضاً: أحمد مختار العبادى، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الطبعة الأولى، الإسكندرية، ١٩٦٨، ص ٣٦١.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٦٩، وراجع أيضاً:

Codera, op.cit., pp. 184-185.

(3) Codera, op.cit., p. 185.

(4) Alfred Bel, op.cit., pp. 118-119.

بين عبد الله بن إسحاق وبين الموحدين هي التي فرضت عليه أن يرتبط في معاملاته التجارية مع الممالك المسيحية لاستحالة التعامل التجاري مع الموحدين الذين ثبتوا أقدامهم آنذاك في سائر أنحاء الأندلس والمغرب ولذلك كان لزماً على عبد الله بن إسحاق أن يحسن علاقاته مع الممالك المسيحية ويرتبط معهم باتفاقات تجارية تقوم على تبادل الانتاج الزراعى والصناعى فكانوا يمدونه بالسفن وال سلاح والذخائر مقابل الحبوب ومنتجات الجزيرة الأخرى، وقد رحب النصارى بعقد هذه الصلات الودية مع ميورقة، إذ ضمنوا بذلك توقف غارات الميورقيين على سواحلهم، ومع ذلك فقد كانت علاقات الميورقيين ببعض الممالك المسيحية كبلاد غالة مثلاً فى غاية السوء ولهذا فقد واصلوا شن غاراتهم عليها، وقد ترتب على هذه السياسة الحكيمة التى اتبعها الأمير عبد الله بن إسحاق أن ازدهرت جزيرة ميورقة وانتجعها عدد كبير من النصارى وراجت تجارتها ونعمت بالرخاء وكان لهذا الرخاء والازدهار أعظم الأثر فى متابعة بنى غانية غزوهم لأفريقية إذ كانت ميورقة تزودهم بكل ما يحتاجونه من سلاح ومؤن وسفن، وعلى هذا النحو كانت جزيرة ميورقة بالنسبة لبنى غانية المصدر الحقيقى لقوتهم^(١)، وسر مطاوتهم لدولة الموحدين.

٣- الصراع بين بنى غانية وبين الموحدين

فى المغرب وجزر البليار

(المرحلة الثانية حتى سنة ٥٩٩هـ)

أ- علي بن إسحاق وصراعه ضد الموحدين فى أفريقية:

سبق أن تحدثنا عن الانتصار الساحق الذى أحرزه علي بن إسحاق على قوات المنصور الموحدى فى وقعة وطاء عمره^(٢) بشط الجريد فى بداية سنة ٥٨٢هـ وهو انتصار أثار ثائرة المنصور وأثر فى نفسه وحمله على معاودة الكرة فلم يلبث أن أعاد تنظيم قواته ثم اشتبك مع قوات ابن غانية بالقرب من الحمه (جنوبى قابس) وفى هذه المرة تمكن من الإيقاع بعلي بن غانية فى ٩ شعبان سنة ٥٨٣هـ/ ١٥ أكتوبر ١١٨٧ م^(٣).

(1) Alfred Bel, Ibid, pp. 118-119.

(٢) الحميرى، المصدر السابق، ص ١٩٠.

(٣) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٢؛ ابن عذارى، ق ٣، ص ١٦٢-١٦٣؛ التجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد)، رحلة التجانى، تقديم الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب، المطبعة الرسمية، ص ١٨٧ وما بعدها، تونس ١٩٥٨، ص ١٦٢، مجموع رسائل موحدية، الرسالة الثلاثون؛

Alfred Bel, op.cit., pp. 81-82

بعد هذا النصر الذي حققه الموحدون على قوات ابن غانية، اتجه الخليفة بقواته مباشرة إلى قابس، القاعدة الرئيسية لقراقوش، فاستولى عليها في اليوم التالي على الأمان، وقبض فيها على أهل قراقوش وذويه وصحبه ثم تابع سيره إلى بلاد الجريد واستولى على قواعدها وأهمها توزر عاصمة بلاد الجريد.

وفي هذه الأثناء، تلقى الخليفة المنصور وهو تحت أسوار قفصه، خطاباً من قراقوش، يعرب فيه عن خضوعه ورغبته في الدخول في طاعة الموحدين وأنه في حالة إذا ما قبلت توبته على استعداد لأن يأتي إلى الموحدين تائباً، كذلك تلقى المنصور في اليوم التالي خطاباً مماثلاً موجهاً من أبي زيان زعيم الغزيين فيه عن انضوائه تحت لواء الموحدين، وأنه قد أظهر دعوة التوحيد بطرابلس ونواحيها^(١). ثم هدأت الأحوال في أفريقية لاسيما بعد مصرع علي بن غانية^(٢) في إحدى معاركه مع قبيلة نفزاوة في أرض الجريد سنة ٥٨٤هـ وخلفه أخوه يحيى.

لم يكن يحيى بن إسحاق بن غانية أقل حماسة وغيره من سلفه، إذ كان يستهدف شأن أخيه عليّ إحياء الدولة المرابطية عن طريق الإطاحة بسلطان الموحدين في أفريقية، وعلى هذا الأساس بدأ يعيد تنظيم صفوفه، وبعد أن تمكن من تحقيق ذلك عاود مغامراته في بلاد الجريد فانتزع المهديّة، واستطاع أن يبسط سلطانه على سائر أفريقية : طرابلس وقابس وصفاقس والمهديّة والقيروان وسائر بلاد الجريد، ولم يبق في حوزة الموحدين من أفريقية سوى تونس.

وفي هذه الأثناء كان المنصور في حاضره يتابع تطور الحوادث في أفريقية وامتداد سلطان ابن غانية على أغلب قواعد أفريقية، فحاول إيقاف تقدمه بتوجيه حملات متوالية ضده ولكن يبدو أن هذه الحملات لم يكن لها تأثير فعال في إيقاف زحفه المتواصل، عند ذلك تطلع الموحدون إلى تنفيذ مشروعهم لغزو ميورقة، قاعدة ملك بنى غانية ومصدر المتاعب التي يواجهها الموحدون في أفريقية باعتبارها قاعدة الإمدادات إلى يحيى بن غانية وسيطرتهم على هذه الجزيرة من شأنها أن تضع حداً للعمليات الحربية في أفريقية، فمتى سقطت ميورقة في أيديهم، أمكنهم أن يتفرغوا لمطاردة يحيى بن غانية والقضاء على سلطانهم في أفريقية بعد أن يفقد ملاذه الأخير في ميورقة^(٣).

(١) مجموع رسائل موحدة، الرسالة الحادية والثلاثون، ص ١٩٨.

(٢) المراكشي، المصدر السابق، ص ٢٧٣؛ رحلة التجاني، ص ١٦٢.

(٣) ابن عذري، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢١٦.

ب - سقوط الجزر الشرقية في أيدي الموحدين:

ولكن وفاة المنصور في سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م أحبطت آمال الموحدين في القضاء على بنى غانية، وقد انتهز عبد الله بن إسحاق بن غانية هذه الظروف المستجدة وعمل على استعادة سيطرته على جزيرتي يابسة ومنورقة جناحي ميورقة كبرى الجزائر، ففي بداية عام ٥٩٦هـ/١٢٠٠م تحرك بأسطوله من جزيرة ميورقة إلى جزيرة يابسة وحاصرها من جميع نواحيها ولكنه ووجه بمقاومة ضارية من أهل الجزيرة بالإضافة إلى أن الأسطول الموحدى الذى كان مرابطاً بالقرب من الجزيرة بقيادة أمير البحر ابن ميمون بادر بالتحرك لنجدة أهلها، واشتبك هذا الأسطول مع أسطول ابن غانية في معركة بحرية عنيفة انتهت بانتصار الموحدين، وظفر ابن ميمون منه بطريدتين أضرمهما ناراً، ورجع عبد الله بن غانية خائباً^(١).

وإذا كان عبد الله بن غانية قد منى بالفشل فى استرداد جزيرة يابسة، فقد حالفه الحظ هذه المرة فى استرجاع جزيرة منورقة إذ هاجمها بأسطوله فى فصل الأنواء والأمطار وألح بالحصار عليها مدة، حتى نفذت أقوات ومؤن أهلها المحاصرين واضطروا إلى التسليم، عندئذ دخل ابن غانية الجزيرة وتملكها وحصنها وعهد بولايتها لأحد قواده ويدعى الزبير بن نجاح^(٢). ولكن الموحدين تمكنوا من استردادها بعد فترة قصيرة، عندما هدأت الأنواء وخفت العواصف البحرية وحسن الهواء، ويذكر ابن عذارى^(٣) أن السيد أبو العلا أسرى إلى منورقة فى أسطول سبته، والظاهر أن هذه الغزوة تمت فى نفس سنة ٥٩٧هـ التى افتتحها فيها عبد الله ابن غانية، فاجأ أبو العلا جزيرة منورقة بهجومه فصيح أهلها «وطش بهم الأسطول قبل التثام أحوالهم وترتيب قتالهم»^(٤) واقتحم عسكره المدينة عنوة ووقع ابن نجاح فى قبضتهم فسيق مع أتباعه الميورقيين إلى الحضرة مراکش فهلك بها.

وعلى إثر ذلك تبين للخليفة الموحدى الناصر لدين الله أن ترك جزيرة ميورقة فى

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢١٦.

(٢) نفس المصدر والقسم والصفحة.

(٣) نفس المصدر والقسم والصفحة.

(٤) نفس المصدر والقسم والصفحة، وقد ذكر الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادى غزوة منورقة فى

الترتيب بعد استيلاء الموحدين على ميورقة فى سنة ٥٩٩هـ، راجع : دراسات : ص ٣٦٨، ولكننا نستدل على عكس ذلك من النص الوارد فى ابن عذارى الذى يفهم منه أن فتح منورقة تم بعد أن ظفر بها عبد الله بن إسحاق بن غانية بوقت قصير، كما نستدل من سياق رواية الحميرى أن حملة الموحدين البحرية على ميورقة كانت موجهة مباشرة إلى ميورقة فقط ولا تتضمن أى إشارة إلى جزيرة منورقة (المصدر السابق، ص ١٨٩)، ثم إن الوضع المنطقي يحتم على الموحدين استئزال يابسة ومنورقة قبل التفرغ لميورقة الجزيرة الكبرى، وقاعدة ملك بنى غانية.

أبدي بنى غانية من شأنه أن يطيل أمد الصراع، وأنه من المحتم تملكها والاستيلاء عليها لوضع حد للمتاعب التي يلقاها الموحدون فيها وفي أرض أفريقية، وعلى هذا النحو اعتزم تنفيذ المشروع القديم الذى سبقه فى التفكير فيه أبوه المنصور وأعنى به القضاء على الأفعى من رأسها أى بالقضاء على بنى غانية فى ميورقة ومصدر المتاعب التى يواجهها الموحدون فى أفريقية، فأعد لذلك الفرض حملة بحرية ضخمة جهزها فى ثغر دانية وعهد بقيادتها إلى عمه أبى العلاء إدريس بن يوسف عبد المؤمن، كما أسند قيادة الجيش إلى شيخ الموحدين أبى سعيد عثمان بن أبى حفص، وكان قوام هذه الحملة من المقاتلة ألفين ومائتين من الفرسان، وسبعمائة من الرماة وخمسة عشر ألفاً من الرجال، حاشا غزاة السفن، وكانت عدة سفن الأسطول ثلاثمائة جفن منها سبعون غراباً، وثلاثون طريدة، وخمسون مركباً كبيراً، وسائرها قوارب متنوعة، شحنها بأعداد لا تحصى من العدد والسلاح والمجانيق والسهلالم والماسحى والفؤوس والمعاول والرقائق والحبال بالإضافة إلى الدروع والرماح والبيضات والأتراس والدرق والقسي وصناديق الشباب وجملة وافر من الطعام^(١). وتحرك الأسطول من ثغر دانية فى اتجاه جزيرة بابسة، حيث أدبت صلاة الجمعة ثم أفلح عنها غدوة السبت ٢٤ من ذى الحجة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م، نحو جزيرة ميورقة، التى وصلتها وحدات الأسطول الموحدى فى ربيع الأول سنة ٦٠٠هـ/ديسمبر ١٢٠٣م^(٢)، وتمت عملية إنزال المقاتلة والعدد والسلاح، وبدأ الموحدون زحفهم إلى مدينة بلمة حاضرة ميورقة، ودار الأسطول بالمرسى مع السيد أبى العلاء إدريس، فخرج إليه عبد الله بن غانية فى قواته، والتحم الفريقان فى معركة حامية صمد فيها عبد الله بن غانية وأبدي ضربوا راحة من الشجاعة والاستبسال ولكن جموعه لم تلبث أن انهزمت أمام حشود الموحدين، وتعرضت هذه الجموع للمذبحة وحشية قتل فيها عبد الله بن إسحاق واحتز رأسه رجل غزى، ودخلت قوات الموحدين المدينة، ولم يسلم من الميورقيين سوى من تحصن فى القصبية، ولكن القائد أبى العلاء قائد الأسطول والشيخ أبى سعيد قائد الجيش نهيا عساكر الموحدين عن أعمال النهب والسلب وأمر بضرب عنق رجل أقدم على ذلك، وتجاوز الأمر، وطيف برأسه، وصدر أمان عام نودى به فى الأزقة والقصبية، فخرج الناس من مكانهم، وكتبوا إلى الخليفة الناصر بالفتح.

هذه هى تفاصيل الفتح الموحدى لميورقة استخرجناها من مضمون الرسالة

(١) المراكشى، المصدر السابق، ص ٣١٤-٣١٥، ده.ع.ع.، المصدر السابق، ص ١٨٩.

(٢) مجموع رسائل مرحدية، الرسالة السادسة والثلاثون، ص ٢٤٥ وما بعدها، الحميرى، نفس

المصدر، ص ١٨٩.

الرسمية الصادرة عن الخليفة الناصر بقلم كاتبه أبى عبد الله بن عياش، ومن رواية الحميرى ^(١). ويورد كلا من ابن أبى زرع وابن أبى دينار رواية أخرى تختلف عنها تضمنت ما يشير إلى أن الحملة الموحدية لفتح ميورقة كانت بقيادة الخليفة الناصر نفسه، وأنه خرج من مدينة فاس، فوصل إلى جزائر بنى مزغنة، ومن هناك جهز الأساطيل والعساكر ففتحها وانتزعها من أيدي المرابطين وقتل صاحبها عبد الله بن إسحاق ^(٢)، فى حين يؤكد ابن عذارى أن الناصر كان بحضرة مراكش فى الوقت الذى أقلمت فيه الحملة الموحدية إلى الجزر الشرقية ^(٣). أما ابن خلدون فقد نص صراحة على قائد الحملة كما وردا فى رسالة الفتح الرسمية ورواية الحميرى وهما السيد أبو العلاء إدريس قائد الأسطول والشيخ أبو سعيد بن أبى حفص قائد الجيش ^(٤)، بينما اكتفى ابن خلكان بالإشارة إلى أن الناصر جهز أسطولا وجهه ضد أبى محمد عبد الله والى ميورقة فنزل بساحتها ^(٥)، ونميل إلى الأخذ بالرواية الرسمية التى تدعمها رواية الحميرى وابن خلدون ونستبعد روايتى ابن أبى زرع وابن أبى دينار اللتين لا تتفقا مع سياق ما ورد فى الوثيقة الرسمية.

وبعد أن دانت جزيرة ميورقة، كبرى الجزائر الشرقية، وجناحها منورقة وبابسة بالتبعية للخلافة الموحدية، ندب السيد أبو العلاء لولايتها عبد الله بن طماع الله الكومى بصفة مؤقتة إلى أن يولى عليها أحد قرابته، كما أسند قضاءها إلى الفقيه المحدث أبى محمد عبد الله بن سليمان الأنصاري المعروف بابن حوط الله ^(٦)، الذى نقل إلى قضاء مرسية، ومنها إلى قضاء قرطبة سنة ٦٠٧ هـ ^(٧).

ثم ولى الناصر على ميورقة عمه السيد أبى زيد فى حين نقل ابن طماع الله لقيادة الأسطول ^(٨)، ثم تولاها بعد ذلك السيد أبو عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن الذى نقل عام ٦٠٧ هـ إلى ولاية بلنسية بعد أن حل محله أبو يحيى بن أبى الحسن بن أبى عمران ^(٩).

(١) مجموع رسائل موحدية، الرسالة السادسة والثلاثون، ص ٢٤١ وما بعدها؛ الحميرى، المصدر السابق، ص ١٨٩.

(٢) روض القرطاس، ص ١٥٣؛ المؤنس فى أخبار أفريقية والمغرب، ص ١١٥ وانظر أيضاً؛

Alfred Bel, op.cit., p. 167.

(٣) البيان المغرب، ق ٣، ص ٢١٨.

(٤) العبر، ج ٦، ص ٥١٦.

(٥) وفيات الأعيان، ج ٦، ورد فى ترجمة أبى يوسف يعقوب، رقم ٨٠٠، ص ١٨.

(٦) ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٥٣.

(٧) البيان المغرب، ق ٣، ص ٢٣٣.

(٨) السلاوى، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩٥.

(٩) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٢٣؛ السلاوى، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩٥.

جـ - نتائج سقوط ميورقة في أيدي الموحدين :

١ - بالنسبة للممالك المسيحية :

لعل ما جاء في الرسالة الموحدية السادسة والثلاثين والخاصة بفتح الموحدين لميورقة ما يعبر أصدق تعبير عن صدى هذا الحادث الهام في الممالك المسيحية، لا سيما مملكة أرغون وكونتية برشلونة، تقول الرسالة : «ولأخذ ميورقة على صاحب أرغون وبرشلونة، أشد من رشق النبل وأهول من وقع السيف، وأوحش من القطع بحلول الممات» (١).

هذا القول يصدق في الحقيقة على الموقف العام بالنسبة لمملكتي أرغون وقطلونية لأن سياسة بني غانية، أصحاب الجزائر الشرقية فيما سبق، كانت تقوم على المسالمة والمودة نحو الممالك المسيحية المجاورة وعلى الأخص مملكة أرغون وجمهورية جنوة وبيزة، وكان يجمع بين الطرفين هدف رئيسي مشترك وهو عدائهما للموحدين ثم أن استمرار بقاء الجزائر الشرقية في أيدي بني غانية كان يمثل صمام أمن بالنسبة لهاتين المملكتين باعتبارها حاجزاً طبيعياً بينهما وبين دولة الموحدين أما وقد غدت الجزائر تحت سيطرة الموحدين فإن الموحدين أصبحوا يواجهون مباشرة مملكة أراجون وكونتية برشلونة، بالإضافة إلى أن أسطولها أصبح مصدر إزعاج وقلق دائم مهدد لهما، هذه الظروف الطارئة هي التي أوجت إلى الممالك المسيحية من جديد فكرة الاستيلاء على الجزائر الشرقية على النحو الذي سنفصله فيما بعد.

٢ - بالنسبة لبني غانية في المغرب :

لاشك أن فتح الموحدين لميورقة، كبرى الجزائر الشرقية، جاء ضربة شديدة لبني غانية، قضت تماماً على سلطانهم في الجزائر الشرقية، فبمصرع آخر ولائهم عليها الأمير عبد الله بن إسحاق بن غانية وبالقبط على أولاده وأهله، انتهى كل أثر لهذه الأسرة بالجزائر الشرقية.

ومع ذلك فقد استمر بنو غانية تحت قيادة يحيى بن إسحاق وإخوته يناوئون دولة الموحدين ويضايقونها بسيطرتهم على المغرب الأدنى، إلى حد أنهم سيطروا على مدينة تونس سنة ٥٩٩هـ وقبض أميرهم على السيد أبي زيد بن أبي حفص، كما استبدوا في أفريقية وطرابلس وأطاعتهم بونة ونزرت وبسكرة وشقبنارية والأريس والقيروان وتبسة وسفاقس وقابس والمهدية (٢). واضطر الخليفة الناصر إلى التفرغ

(١) مجموع رسائل موحدية، ص ٢٤٧.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ ٢، ص ٨١٦-٨١٧.

لمقابلتهم ومنازلتهم ودارت بين قواته وبينهم معارك ضارية فى تاجرا انتهت بهزيمة ابن غانية والمبارقة، واسترجع الموحدون المهديّة وتونس ولم يسكت ابن غانية على هذه الهزيمة فعاود القتال تعزّزه قوات من الأغزاز وعرب الدواودة وغيرهم ولكنه انهزم من جديد ولجأ إلى إقليم طرابلس، وظل ابن غانية شوكة فى حلق الخليفة الناصر على الرغم من جنوح أخيه سير بن إسحاق إلى حزب الموحدين وتبرّره من إخوته (١). ولم تخمد حركة بنى غانية إلا بعد وفاة يحيى بن غانية شريفاً فى بلاد الزاب سنة ٦٣١هـ (٢).

ولأنشك فى أن بنى غانية كان بإمكانهم المطالبة لو لم تسقط قاعدتهم ميوزقة فى أيدي الموحدين. فسقوط هذه الجزيرة كان عاملاً هاماً فى انهيار قواهم فى المغرب.

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٣٣.

(٢) ابن خلدون، ج ٦، ص ٤٠٥، ص ٤٠٧؛ السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٨١٨.

الفصل الرابع

شرق الأندلس فى عصر الموحدين

- (١) قادة شرق الأندلس يشاركون الموحدين فى حركة الجهاد
- أ - حملة وبذة فى ذى القعدة سنة ٥٦٧هـ.
- ب - اشتراك السيد أى عبد الله بن أى يعقوب يوسف والى مرسية فى غزوة شنترين فى ربيع الأول سنة ٥٨٠هـ.
- (٢) أسرة بنى مردنيش فى خدمة الخلافة الموحدية.
- أ - أبناء محمد بن سعد بن مردنيش فى بلاط الموحدين.
- ب - جهود غانم بن محمد بن سعد بن مردنيش فى خدمة الدولة الموحدية.
- ج - أبو الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش والى بلنسية.
- (٣) شرق الأندلس فى ظل دولة الموحدين:
- أ - مرسية فى عصر الخليفين يوسف ويعقوب المنصور.
- ب - مرسية قاعدة دولة العادل.
- ج - الأوضاع فى بلنسية فى عهد الموحدين.

(١) قادة شرق الأندلس

يشاركون الموحدين في حركة الجهاد

أ - حملة ويدة في ذى القعدة سنة ٥٦٧هـ:

بادر أبو القمر هلال بن محمد بن سعد بن مردنيش عقب وفاة أبيه إلى إعلان طاعته للخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف، وتعبيراً عن ذلك تنازل للموحدين عن مدينة مرسية قاعدة شرق الأندلس وجميع أراضي هذا الإقليم وتشتمل على مدن بنشكله وأبذه ومريبطر وأنيشه وبلنسية وشاطبة ودانية ولقنت وشقر ولورقة وبمعنى آخر الأراضي الواقعة ما بين طرطوشة عند مصب إره في الشمال وقرطاجنة الحلفاء جنوباً. وعلى إثر ذلك وجه الخليفة أخاه السيد أبا حفص إلى مرسية ليتقبل طاعة هلال بن مردنيش ويتسلم منه مرسية. وقد أشرنا فيما سبق إلى أن هلال سار بنفسه برفقة كبار رجال شرق الأندلس وقادته وأعيانه للقاء الخليفة بأشبيلية في مستهل رمضان سنة ٥٦٧هـ وتقديم فروض الطاعة له بنفسه، فتلقاهم الخليفة أحسن لقاء وأنزلهم منزلاً حسناً. وفي اليوم التالي من نزولهم بأشبيلية في قصر ابن عباد احتفل شيوخ الموحدين بقدوم هلال وأعيان دولته لبذل الطاعة للخليفة، وفي أثناء هذا الاحتفال عبر له هؤلاء عن رغبتهم في أن يغزو جيش الموحدين المناطق المسيحية المجاورة لإقليم شرق الأندلس وحددوا له بالذات مدينة ويدة ^(١) Huete لضعف تحصيناتها. فاستجاب الخليفة لطلبهم ووعد بتحقيقه متى انتهى شهر الصوم ^(٢).

. وفي هذه الغزوة تمكن الموحدون من الاستيلاء على حصن بلج الحصين Vilche ^(٣)، الواقع على مقربة من بياسة بفضل جهود إبراهيم بن همشك، كما استولوا على حصن الكرس Alcaraz ^(٤). وكان ابن مردنيش قد تنازل عنه للنصارى

(١) قاعدة إقليم قونكة، تقع على بعد نحو ٥٠ كم غربي قونكة على وادي ويدة بالقرب من بلدة أقليمش التي تقع إلى الجنوب الغربي منها، راجع: الحميري المصدر السابق، ص ١٩٤.

(٢) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٧٣.

(٣) كان من أمنع الحصون الأندلسية وأكثرها حصانة، وقد تم تسليمه إلى الخليفة أبي يعقوب يوسف في ٣٠ شوال ٥٦٧هـ/ يوليو ١١٧٢م، فركب الخليفة ودخل الحصن وأعجب بما عاينه من المنعة ورتب للدفاع عنه حامية موحدية وعهد به إلى ابن همشك، راجع: ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٢٨٩-٢٩٠.

(٤) حصن الكرس تقابل Alcaraz مركز في Albacete، راجع:

Miguel Asin Palacio, Contribucion a la toponimia arabe de Espana, 2ed, Madrid, 1944, p. 52;

وظل حصن الكرس في حوزة الموحدين حتى استولى عليه ألفونسو الثامن سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٣م، راجع:

La Cornica Latina de los reyes de castilla, Primera edicion de cabanes, pp. 53-54; Huici Miranda, Valencia Musulmana, t. III, p. 172.

كما فعل بحصن بلج وتسلموه بالأمان، فعهد به الخليفة إلى ابن همشك كذلك^(١). وعندما وصل الموحدون إلى وبذة في ١٤ ذى القعدة (٧ يوليو) اشتبكوا مع حاميتها في معركة عنيفة تحصن النصارى على أثرها داخل مدينتهم فاستولى الموحدون على الأرياض والبساتين وأحكموا الحصار عليها^(٢). وعلى الرغم من استمرار الحصار وما كان يتخلله من هجمات عنيفة كان يشنها عسكر الموحدين فقد أخفق هؤلاء في اقتحامها بسبب حصانة أسوارها بالإضافة إلى الخندق^(٣) الذي حفره القشتاليون وراء أبواب المدينة تعويقا لعملية الاقتحام، وتفانى القشتاليون في القتال هذا إلى جانب لإسهام الطبيعة في إحباط عملية الهجوم^(٤)، ونفاد الميرة والأقوات من المعسكر الموحدى وتراخى المقاتلين العرب والبربر فى القتال^(٥). ثم بلغ الخليفة أن قوات قشتالية فى طريقها إلى الوصول لإنجاد الحامية القشتالية المحصورة، فقرر رفع الحصار (يوم ٢٩ ذى القعدة) وحرق آلات الحصار والانسحاب من الموقع تجاه مرسية مرورا بقونكة^(٦) وبرج القبذاق^(٧) Alcaudete، وحصن بنبول^(٨) Bunol وشاطبة^(٩) وأربولة^(١٠) وحصن منتقوط^(١١) Monteagude.

(١) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٤٩٠، وانظر أيضا: Huici Miranda, Historia del Imperio Almohade, t. II, p. 455.

(٢) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ٤٩٣-٤٩٤.

(٣) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ٤٩٤.

(٤) هبت رياح صيفية عاتية فى صباح ٢٠ من ذى القعدة أربكت معسكر الموحدين، كما هبت فى الثانى والعشرين من نفس الشهر عاصفة أخرى أشد عنفاً من الأولى صبحتها أمطار غزيرة أحدثت أضرارا جسيمة فى المعسكر الموحدى، وفى يوم ٢٣ من ذى القعدة عادت الرياح العاصفة هبوبها للمرة الثالثة الأمر الذى أدى إلى إخفاق الموحدين فى الهجوم، راجع: ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ٤٩٨-٤٩٩.

(٥) ابن صاحب الصلاة، نفس المصدر، ص ٥٠١.

(٦) نفسه، ص ٥٠٣.

(٧) نفسه، ص ٥٠٦، والقبذاق تقابل Alcaudete فى محافظة جيان، انظر: الإدريسي، ص ٢٠٤، والترجمة ص ٢٥٢.

(٨) نفسه، ص ٥١٠، وما عليها، وحصن البنبول تقابل Albulon مركز فى محافظة بلنسية، راجع: Asin Palacio, op.cit., p. 50.

(٩) نفسه، ص ٥١٢.

(١٠) نفسه، ص ٥١٣.

(١١) نفسه، ص ٥١٤.

ب - اشترك السيد أبي عبد الله بن أبي يعقوب يوسف والى مرسية في غزوة شنترين في ربيع الأول سنة ٥٨٠هـ:

اضطربت أحوال الأندلس بعد عودة أبي يعقوب يوسف عبد المؤمن إلى مراكش في أعقاب غزوة وبدة، فقد نقض القشتاليون والبرتغاليون الهدنة التي كان قد عقدها معهم في ذى الحجة سنة ٥٦٨هـ يوليو ١١٧٣م قبل عودته إلى حضرة مراكش ، وأقدم ألفونسو الثامن ملك قشتالة والقمط نونيو دي لارا حاكم طليطلة على غزو أراضي المسلمين في الأندلس ومحاصرة قونكة في سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م طوال تسعة أشهر اضطرت بعدها المدينة إلى التسليم في ٢١ سبتمبر ١١٧٧م^(١). كما أغار فرناندو الثاني ملك ليون الملقب بالبيوج على وادي أشبيلية ووصل في غزوته إلى أحواز أركش وشريش، كما سار ألفونسو أنريكث ملك البرتغال في قواته سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م نحو باجه فانتسف مزارعها وكاد يتغلب عليها، ثم تركها إلى أشبيلية واقتحم ريضها القبلي طريانة، وأثنى فيها وحرق السفن الموحدية المربطة في وادي أشبيلية ثم عاد إلى باجة بعد أن خرج منها أهلها إلى مرتلة في المحرم سنة ٥٧٤هـ/يوليو ١١٧٨م فألفاها خالية^(٢).

هذه الاعتداءات حركت الخليفة أبا يعقوب على تجريد حملة يقودها بنفسه إلى غرب الأندلس لوضع حد لهذه الأعمال العدوانية، وكتب إلى أبنائه الأربعة ولأه قواعد الأندلس الأربعة: أشبيلية وقرطبة وغرناطة ومرسية يأمرهم بالتأهب للمشاركة في الجهاد^(٣). وهكذا شارك إقليم شرق الأندلس في غزوة شنترين - التي استشهد فيها الخليفة - بقوة من مرسية يقودها السيد أبو عبد الله بن الخليفة ، وقد اشترك في هذه الغزوة هلال بن مردنيش وأخوه غائم وكانا في صحبة الخليفة ذاته. وتم اللقاء قوات الموحدين مجتمعة في بطليوس، وعلى الرغم من قيام الموحدين بحصار شنترين والتضييق على أهلها وحاميتها والاشتباك مع قوات البرتغاليين في معارك عنيفة فقد حدثت بعض الوقائع التي دعت الخليفة بقرر رفع الحصار عنها والرحيل عنها، منها هزيمة أهل مرسية عندما أغاروا على بسائط النصاري، فخرجوا عليهم وأوقعوا بالمسلمين هزيمة قاسية^(٤)، ومنها قدوم فرناندو الثاني ملك ليون في قواته لنصرة النصاري

(1) Castro, Cronica del rey de Castilla Don Alfonso; Octavo, I.C.; Ibars, op.cit., t. I, p. 565; Huici Miranda, Valencia Musulmana, t. III, p. 193.

(٢) ابن عذاري، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٠٧-١٠٨.

(٣) ابن عذاري، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٢٩.

(٤) نفس المصدر والقسم، ص ١٣٥.

المحصورين بشنترين^(١)، ومنها إساءة السيد أبي إسحاق ابن الخليفة أبي يعقوب يوسف فهم أمر أبيه الصادر إليه بالسير إلى أشبيلية بدلا من أشبونة، ومتابعة الناس له بالرحيل في الوقت الذي لبث فيه الخليفة في معسكره دون علم بما وقع^(٢) بحيث لم يبق معه سوى الساقة بقيادة يعقوب ابن الخليفة الأمر الذي شجع نصارى شنترين على الخروج منها لمهاجمة عسكر الخليفة، وتمكنهم من إصابته بجراح خطيرة تسببت في وفاته بعد اجتياز العسكر لوادي التاجه وذلك في ١٨ ربيع الأول سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م^(٣)، وقيل في رجب سنة ٥٨٠هـ^(٤)، والظاهر أن هلال بن مردنيش لقي حتفه هو وأخوه غاثم في هذه الموقعة ويؤكد ذلك أننا لم نعد نسمع أي أخبار عنهما بالإضافة إلى أن ابن عذارى يؤكد استشهاد بعض بني مردنيش في هذه الحملة^(٥).

٢ - أسيرة بني مردنيش

في خدمة الخلافة الموحدية

أ - أبناء محمد بن سعد بن مردنيش في بلاط خليفة الموحدين:

بموت محمد بن سعد بن مردنيش وخضوع أبنائه وأخيه أبي الحجاج يوسف ظلت قاعدتا شرق الأندلس بلنسية ومرسية مجرد ولايتين تابعتين للخلافة الموحدية يحكمهما ولاية معينون من قبلها، ولم يعد لهذه المنطقة ما كان لها أيام محمد بن مردنيش، فقد دخلت هذه الأسرة بعد وفاة عائلتها في طاعة الموحدين، وأصبح عمداؤها لا يفترون عن صحبة الخليفة في أشبيلية، ولم يرضن الخليفة عليهم بالنفقة بل كان يصدق عليهم المال ويشملهم برعايته وعطفه، وعين منهم غاثم بن مردنيش لرياسة جماعة من عسكر الأندلس من أصحاب أبيه ومن أهل الثغور والأجناد بأشبيلية وأنظارها لتكون منهم قوة تضطلع بالغزو وحماية الأقطار من العدو، ونظم هلال وكبار أخوته في جملة أشياخ الموحدين وأبناء الجماعة، يحضرون مجلسه العالي، ويشتركون

(1) Huici Miranda, op.cit., p. 196.

(2) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٤٠.

(3) نفس المصدر والقسم، ص ١٣٧-١٣٨.

(4) ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٩٤، المراكشي، المصدر السابق، ص ٢٦١، وقيل

في ٢ ربيع الآخر سنة ٥٨٠هـ؛ ابن زرع، المصدر السابق، ص ١٤٠-١٤١، وقيل في

٢٨ ربيع الآخر من نفس السنة؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص ٢٦٩.

(5) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٣٧؛ وانظر أيضاً:

Huici Miranda, Valencia Musulmana, t. III, p. 186.

فى مباشرة الأمور ، وإبداء الرأى ، تشريفاً لهم وتقريفاً لمكانتهم منه ، وكان غانم ابن مردنیش يخرج بقواته على الموحدين إلى غزو أراضى قشتالة ، فظهرت كفايته ونجحت شجاعته (١) .

ولقد كانت الحفاوة التى استقبل بها الخليفة أبناء ابن مردنیش شيئاً يفوق ما كان يتوقع منه حيالهم ، فلقد كان معهم سخيّاً جواداً ، أهدى هلال بن مردنیش اثنى عشر ألف دينار فى يوم واحد (٢) ، ويأتى صاحب المعجب برواية معبرة عن ذلك جاء فيها «أخبرنى بعض ولد هلال هذا ، أنه سمع أباه يقول : رأيت فى المنام فى بعض الليالى كأن أمير المؤمنين أباً يعقوب ناولنى مفتاحاً فلما أصبحت إذا رسوله يستحنى ، فركبت وأتيت القصر ، فدخلت عليه وسلمت فاستدنانى حتى مست ثيابى ثيابه ثم أخرج إلى من تحت برنسه مفتاحاً على النحو الذى رأيت فى المنام ، وقال : خذ إليك هذا المفتاح ، فتسببت أن أسأل عن شأن المفتاح ، فقال لى ابتداء : يا أباه القمر ، إن عامل مرسية أرسل إلينا فى جملة ما أرسل صندوقاً وجده - زعم - فى بعض خزانئكم ، لا يدرى ما فيه ، وهذا مفتاحه ، ونحن لا ندرى ما فيه ، فقلت : هلا أمير المؤمنين أن يفتح بين يديه ، فقال : لو أردنا أن يفتح بين أيدينا لم نسلم إليك المفتاح ! وأمر فحمل الصندوق إلىّ ففتحتّه ، فإذا به حلى وذخائر من ذخائر أبى ما يساوى أكثر من أربعين ألف دينار » (٣) .

وفى يوم السبت الخامس لربيع الأول عام ٥٧٠هـ / ٥ أكتوبر ١١٧٤م ، عقد الخليفة أبو يعقوب زواجه بالزرقاء المردنيشية (٤) ابنة محمد بن سعد بن مردنیش المسماة بزائدة فى احتفال تسوده الأبهة والفخامة ، وكان صداقها خمسين ديناراً ، ولكن الخليفة وجه إليها ألف دينار من الذهب العين تأنيساً ، ولما وصلت إليه بأشبيلية مع أهلها وخدمتها ، وهب لكل واحدة منهن هدية كبيرة ، وهب الزوجة كل ما كان أهدها إليه أخوتها عند فتح مرسية من الكسى والحلى والخدم بل زادها من عنده بعطايا جزيلة ، وحظيت فيه الحسناء المردنيشية ذات العينين الزرقاويتين بحب الخليفة وإعجابه ، حتى أصبح حب الخليفة لها مضرب الأمثال (٥) .

(١) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٥١٦ .

(٢) المراكشى ، المصدر السابق ، ص ٢٥٣-٢٥٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٥٤ .

(٤) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، ص ٢٧١ .

(٥) راجع : ابن عذارى ، المصدر السابق ، ق ٣ ، ص ١٠٨ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الأندلسى ، ص ٢٧١ ؛ ابن أبى زرع ، المصدر السابق ، ص ١٣٩ ؛

Ibars, op.cit., t. I, p. 552.

كذلك أقر الخليفة أبا الحجاج يوسف بن مردنيش والياً على بلنسية وأنظارها وعهد إلى ابن أخيه غانم سنة ٥٧٥هـ بقيادة أسطول سبتة ^(١) وقرب هلالا إليه واتخذة مشيراً مفضلاً بمجلسه العالي.

وعندما وقع غانم بن مردنيش وأخوه أبو العلاء أسيرين مع جملة من أكابر الموحدين في منتصف شهر محرم ٥٧٦هـ/ ١١ يونيو ١١٨٠م في أيدي البرتغاليين عندما أقدم على مهاجمة سواحل البرتغال بأسطوله، كتب غانم من أسره إلى خليفة الموحدين يشكو سوء حالته، فعهد الخليفة على الفور إلى أبي القمر هلال بن مردنيش بالنظر في فداء أخيه، فجمع المال اللازم وبعث به إلى أشبيلية، فحمل إلى النصارى، وأطلق سراح غانم وأصحابه من الأسر ^(٢). ويذكر ابن عذارى أن أسطول الموحدين بقيادة عبد الله بن جامع وأبي العباس الصقلي هاجم أسطول أشبونة في الموضع الذي أسره فيه غانم بن مردنيش وأوقع المسلمون بالأعداء هزيمة نكراء، واستاقوا منهم عدداً كبيراً من الأسرى، أعطى منهم البعض في فداء غانم بن مردنيش ^(٣).

ب - جهود غانم بن محمد بن سعد بن مردنيش في خدمة الدولة الموحدية:

هو أحد أبناء محمد بن سعد بن مردنيش، عهد إليه الخليفة أبو يعقوب يوسف بقيادة فرقة من جند الأندلس ومن أهل الثغور والأجناد، فقاد بعض الحملات على جهات طليطلة وطلبيرة Talavera وأنظارها، تجلت فيها مواهبه العسكرية كفائد عظيم من كبار قادة الموحدين، وأبدى من ضروب البسالة والإقدام ما رفعه في عين الموحدين، إذن تمكن خلال هذه الحملات من بث الرعب في قلوب سكان أسبانيا المسيحية لاسيما أثناء حملته التي قادها إلى أبله Avila ^(٤).

ثم عهد إليه الخليفة في سنة ٥٧٥هـ بقيادة أسطول سبتة، والظاهر أن ماضيه في هذا المجال كان حافلاً بالأمجاد إلى حد أن يسند إليه الخليفة هذا المنصب الكبير، وقدر له أن يقود هذا الأسطول في مهمة خطيرة أسندها إليه الخليفة من أهدافها وضع حد لاعتداءات البرتغاليين المتكررة على وادي أشبيلية ومدينة باجة، فسار الأسطول تجاه أشبونة Lisboa وهاجم ثغرها، واستولى على جفنين كانا راسيين به وقفل عائداً إلى قاعدته بسبتة ^(٥). وجاء رد الفعل البرتغالي بهجوم شنه أسطول

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١١٣.

(٢) نفس المصدر والقسم، ص ١٦٦.

(٣) نفس المصدر والقسم، ص ١١٧-١١٨.

(٤) ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٥١٦-٥١٧.

(٥) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١١٣.

البرتغاليين على السواحل الجنوبية لإقليم الغرب وتمكن البرتغاليون من الاستيلاء على جزيرة شلطيـش Saltes^(١)، ووقع فى أسرهم عدد كبير من أهلها^(٢)، وفى السنة التالية ٥٧٦هـ/١١٨٠م، أمر الخليفة أبو يعقوب يوسف - أثناء عودته إلى المغرب - أمير البحر غانم بن مردنيش بأن يواصل غاراته البحرية على سواحل البرتغال وعلى هذا النحو أقلع غانم وأخوه أبو العلاء بالأسطول من قاعدة سبتة فى شهر مايو من تلك السنة ورسيا به فى ميناء مدينة برطقال المسماة حالياً سان مارتين دو بورتو San Mar-tin do porto وتقع شمالى أشبونة، ثم توغلا فى قواتها داخل بلاد البرتغال بهدف الاستيلاء على بورتو دى موس Porto de Mos الواقعة على مقربة من الساحل، غير أن أميرها فواس روينو Fwas Roupinho استطاع بمساعدة أهالى مدينتى شنترين Santaren وألكيتينا Alcanena^(٣) أن يفاجئ الغزاة المسلمين بكمين أعده لهم فى جبال منديجا Mandiga عند منابع نهر Porto de Mos^(٤)، ففوجئ المسلمون بالعدو فى هذا المكان الوعر ومزقت صفوفهم، واستشهد منهم عدد كبير بينما وقع غانم ابن مردنيش وأخوه أبو العلاء وجملة من أكابر الموحدين فى أسرهم، كما استولى البرتغاليون على تسع قطع من مراكب المسلمين بمن عليهم من الملاحين، وساروا بها إلى أشبونة^(٥).

وكتب أمير البحر غانم بن مردنيش من موضع اعتقاله إلى الخليفة يوسف يشكو له سوء حاله، فأمر الخليفة - كما سبق الإشارة - أبا القمر بن مردنيش لينظر فى فداء أخويه غانم وأبى العلاء، فتم ذلك.

وتشير المصادر البرتغالية إلى أن هذا النصر الذى حققه البرتغاليون قد شجع قائدهم فواس روينو على الخروج بأسطول ضخم بهدف الإغارة على سواحل الأندلس الغربية وبالذات على مدينة سبتة^(٦) قاعدة أسطول الموحدين فى المغرب. أما المصادر

(١) جزيرة شلطيـش، جزيرة ساحلية صغيرة أمام مدينة ولبـة Huelva جنوب غربى الأندلس، ويذكر الحميرى، أنه كان، يوجد بها دار صناعة الحديد الذى يعجز عن صنعه أهل البلاد لجفافه،

وهى صناعة المراسى التى ترسو بها السفن، راجع: الروض المعطار، ص ١١٠.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١١٣.

(٣) تقع فى شمال بورتودى موس.

(4) Cronica dos sete primeros reis de portugal, t. I, p. 125; Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 187.

(٥) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١١٦؛ وانظر أيضاً: محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس، القسم الثانى، القاهرة، ١٩٦٤، ص ١٠٠؛

Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 187.

(6) Huici Miranda, Historia del Imperio Almohade, t. I, pp. 279-281.

وانظر أيضاً: أحمد مختار العبادى (بالاشتراك مع السيد عبد العزيز سالم) فى تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس، بيروت، ١٩٦٩، ص ٢٦٧.

العربية فتشير إلى غضب الخليفة من هذه الاعتداءات، وصدر أوامره إلى عبد الله بن جامع قائد الأسطول بسببته للأخذ بالشار، فخرج بأسطول من سببته في سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م، كما خرج معه القائد أبو العباس الصقلي من أشبيلية بأسطولها أيضاً، واجتمع الأسطولان عند ثغر قادس في أربعين قطعة قصدت جهة شلب Silves، والتقى الأسطول الموحدى بالأسطول البرتغالى فى نفس المكان (١) والزمان (٢) الذى أسر فيه غانم بن مردنيش فى منتصف المحرم من العام المنصرم، وحقق المسلمون على أعدائهم نصراً عزيزاً، وقتلوا أعداداً كبيرة من مقاتلة البرتغال من بينهم القائد روينو وأسروا منهم نحو الألف وثمانمائة، واستولوا على نحو عشرين قطعة من قطائع العدو مع أسلابهم وأسلحتهم وعادوا إلى قواعدهم متصيرين (٣). ولقد اعترفت المصادر البرتغالية بهذه الهزيمة التى حلت بأسطولها، كما أشارت إلى مصرع أمير البحر البرتغالى فواس روينو فى هذه المعركة (٤).

وقدر لغانم بن مردنيش بعد أن تحرر من أسره أن يلازم الخليفة أبا يعقوب يوسف وكان من بين من صحبوه فى حملة شنترين شوال سنة ٥٧٩هـ/فبراير ١١٨٤م، وقد أشرنا إلى استشهاده المحتمل فى هذه الغزوة.

جـ- أبو الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش والى بلنسية:

كان أبو الحجاج يوسف بن مردنيش أخو محمد بن سعد بن مردنيش قد قام بتقديم فروض الطاعة والولاء للموحدين ولهذا أقره الخليفة أبو يعقوب يوسف على ولاية بلنسية (٥) بحكم خبراته السابقة ولعلاقاته الودية مع الممالك المسيحية المجاورة لاسيما أرغون وقطالونية اللتين أصبحتا بعد وفاة محمد ابن سعد بن مردنيش وانضواء

(١) عند رأس أسبكل جنوبى أشبونة.

(٢) وقع الاشتباك بين الأسطولين فى الخامس عشر من شهر المحرم سنة ٥٧٧هـ/أواخر مايو ١١٨١م أى بعد مضى عام كامل على موقعة يورودى موس.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١١٧-١١٨، وانظر أيضاً: العبادى، تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس، ص ٢٦٨.

(4) Cornicas dos sete primeros reis de portugal, t. I, p. 125 s 99; Huici Miranda, op.cit., t. I, p. 280;

انظر أيضاً: العبادى، تاريخ البحرية فى المغرب والأندلس، ص ٢٦٨.

(٥) وكان قد بلغ أبا الحجاج يوسف نبأ إخفاق الخليفة فى حملته على وبدة، كما بلغه ما تعرض له عسكر الموحدى من ضيق بسبب نفاذ الأقوات، فأرسل إليه من بلنسية كمية كبيرة من الدقيق والشعير والفواكه عندما وصل الخليفة إلى حصن بنول، انظر: ابن صاحب الصلاة، المصدر السابق، ص ٥١٢.

ملكه لدولة الموحدين تهددان كل إقليم شرق الأندلس نفسها ونستدل مما ورد في مدونة ثوريثا أن ألفونسو الثاني ملك أرغون أغار على مدينة بلنسية في نفس الشهر الذى توفي فيه ابن مردنيش وانتسف بساينها، ووجد أبو الحجاج يوسف بن مردنيش نفسه مرغما على مفاوضته بعد أن عجز عن مدافعتة فالتزم من جانبه بأن يقدم إليه جزية مضاعفة بالإضافة إلى تحمله نفقات هذه الحملة والتزامه مستقبلا بتقديم المساعدة للأرغونيين ضد الموحدين في مرسية ^(١) مع تعهده الإبقاء على كنيسة San Vicente Martin القديس فسنت مارتين في بلنسية بعشورها وبأكوراتها، وعلى حقوقها في مزاوله الشعائر المسيحية، الأمر الذى يشير إلى أن هذه الكنيسة لم يكن يسمح لها بمزاوله الشعائر الدينية وفقاً لسياسة الموحدين في منع إقامة كنائس جديدة للمسيحيين ^(٢). ويضيف ثوريثا في روايته إلى الإشارة إلى قيام ألفونسو الثاني ملك أرغون بالإغارة على مدينة شاطبة ومحاصرتها ثم اضططراره إلى رفع الحصار عنها والعودة إلى مملكته، عندما استغل سانشو القوى ملك نبره - Sancho El Fuerte de Navarra انشغال ألفونسو الثاني بغزو أراضي المسلمين ونقض المعاهدات المعقودة بينه وبين ملك أرغون ، فأغار سانشو على الثغور الأرغونية مرغماً بذلك ألفونسو على رفع الحصار عن شاطبة وإن كان الأخير لم يرفع الحصار إلا بعد أن تعهد واليها بدفع الجزية التى كانت مفروضة عليها في أيام ابن مردنيش ^(٣).

وظل أبو الحجاج يتقلد ولاية بلنسية وجهاتها حتى توفي سنة ٥٨٢هـ ^(٤).

(1) Zurita, Anales, Lib. Cap. XXXII; Camarena (Miguel gual), Precedentes de la reconquista valenciaana, p. 196; Ibars, op.cit, t. I, p. 561; Huici Miranda, Valencia Musulmana, t. III, p. 192.

(2) Ibars, op.cit, t. I, p. 560.

(3) Zurita, op.cit, Lib, Cap, XXXII, Camarena, op.cit, p. 196; Carreres (Carlos Sarthou), El Castillo de Jativa y sus historicos Prisioneros, 3ed, Valencia, 1951, p. 43.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الخاص بالأندلس، ص ٢٧١.

٣ - شرق الأندلس

فى ظل دولة الموحدين

أ - مرسية فى عصر اخليفتين يوسف ويعقوب المنصور:

بعد أن تخلى أبو القمر هلال بن محمد بن مردنيش عن مرسية قاعدة شرق الأندلس وجميع أراضي هذا الإقليم^(١) للموحدين وجه الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى مرسية أخاه السيد أبا حفص^(٢) ، وهكذا دخلت مرسية فى فلك دولة الموحدين ، ويدخلوها فى دائرة نفوذ الموحدين استوثقت طاعتهم بشرق الأندلس وشملت دعوتهم^(٣) . ثم توالى على مرسية بعد دخولها فى طاعة الموحدين ولاية يتولونها بتقليد من خليفة الموحدين أبى يعقوب يوسف ، بعد أن أثر هلال بن مردنيش صحبة الخليفة فى أعقاب وبذه . ومن المعروف أن أبا يعقوب يوسف اتخذ طريق عودته من وبذه إلى مرسية فى الأراضى البلنسية عبر عقبة الأباليس وقنطرة أغربالة ومرج القيداق وحصن ركانه وحصن بنيول فشاطبة فحصن بليانة ثم حصن عصف وحصن آلس وأوربوله وحصن منتقوط . وعندما وصل إلى مرسية فى ٢٤ من ذى الحجة سنة ٥٦٨هـ ونزل بقصرها الكبير ، وكان قد أمر هلال بن محمد بن مردنيش أن يرتب الديار فى مرسية لنزول الموحدين ويهيئ لهم مقاماً حسناً ، ففعل هلال ما أمره به ، وأهدى الخليفة بمناسبة حلوله بمرسية من الهدايا الكثير من بينها ما كان لدى أبيه من الجوارى الكعاب والسرارى ذوات الحسن والشباب فقبل الخليفة هداياه وأنعم عليه بالعطايا الجزيلة^(٤) .

وكان من الطبيعى أن تكتظ مرسية بمن وفد إليها من قوات الموحدين ، فقلت بها الأقوات وعزت المؤن ، وطالب كثير من عسكر الموحدين بالعودة إلى أوطانهم ، فأذن لهم الخليفة ورحل كثير منهم^(٥) ، وأخذ الخليفة ينظم بنفسه أمور مرسية وينظر فى تشقيف معاقلها وتوجيه الولاية منها إلى حصونها وأعمالها ، ثم اجتمع بهلال بن مردنيش وأخوته وعمهم أبى الحجاج يوسف وشملهم جميعاً بعطفه ورعايته وأقر أبا

(١) بما فى ذلك بنشكلة وأندة ومريبطر وأنيشة وبلنسية وشاطبة ودانية ولقنت وشقر ولورقة .

(٢) ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ٢٧١ .

(٣) عبد العزيز سالم ، مدينة مرسية ، موطن الشيخ الزاهد أبو العباس المرسى مستخرج من مطبوعات جمعية الآثار الإسكندرية ، ١٩٦٩ ، ص ١٦ .

(٤) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٥١٣-٥١٤ .

(٥) ابن صاحب الصلاة ، المصدر السابق ، ص ٥١٤ .

الحجاج على ولاية بلنسية وأنظارها وكتب له بذلك لما عرفه من ولائه وطاعته، كما أبقي القائد أبا عثمان بن عيسى على حصن جنجاله وما إليه من الثغر، كما أبقي لعدد من قادة شرق الأندلس على بما بأيديهم . وأقام الخليفة في مرسية أكثر من شهرين ثم غادرها مع جميع أبناء محمد بن مردنيش وأسره في أول شهر ربيع الأول سنة ٥٦٨ هـ إلى أشبيلية ، وهناك حباهم بعطفه ورعايته واشترى لهم دوراً بأشبيلية لسكناهم (١).

وهكذا أثر هلال بن مردنيش ملازمة الخليفة وصحبته على الإمارة ، فاضطر الخليفة إلى إسناد ولاية مرسية وأعمالها بصفة وقتية إلى أخيه السيد أبي يوسف يعقوب بن عبد المؤمن. وقد ظل أبو يوسف هذا قائماً بولايتها، إلى أن استقدمه الخليفة إلى حضرته مراکش في جملة من أعيانها في رجب سنة ٥٧٩ هـ والظاهر أنه كان غاضباً عليه بسبب سوء تصرفه في ولاية مرسية، وقد تكون الأوضاع السياسية المضطربة آنذاك في إقليم شرق الأندلس، بسبب تكرار غارات الممالك النصرانية على بلنسية ومرسية وعلى موسطة الأندلس وراء عدم رضائه عنه، ويعبر ابن عذارى عن عدم رضا الخليفة عن أخيه بقوله : «فوصل إلى الحضرة مراکش في شهر رجب سنة ٥٧٩ هـ، فلم يؤمر بالدخول على أخيه أمير المؤمنين لما وصله عنه، ثم أمر بعد ذلك بالدخول مع السادات والموحدين» (٢)، ويبدو أن سخط الخليفة لم يقتصر فقط على أخيه، وإنما شمل معظم ولاته على الأندلس، بدليل أنه عزل هؤلاء الولاة وقتل ولاية آخرين من أبنائه على أهم قواعد الأندلس، ففي يوم الجمعة الحادى والعشرين من شعبان من نفس السنة ولى بنيه الأربعة على قواعد بلاد الأندلس، فصرف أبا إسحاق إلى أشبيلية واليها عليها، وولى أبا يحيى قرطبة تحقيقاً لرغبة القاضى أبي الوليد ابن رشد، وقتل السيد أبا زيد على ولاية غرناطة، والسيد أبا عبد الله محمد على ولاية مرسية وأمر بسفرهم إلى مقار أعمالهم (٣). وقد شارك أبو عبد الله والى مرسية في حملة شنترين التى لقي فيها الخليفة أبوه حتفه، وكان في جملة من بايع أخاه أبا يوسف يعقوب المنصور بحصن طرش.

وفى عهد أبي يوسف يعقوب أسندت ولاية مرسية إلى أخيه السيد أبي حفص عمر الملقب بالرشيد بدلا من أبي عبد الله محمد الذى تولى الوزارة لأخيه الخليفة

(١) نفس المصدر، ص ٥١٥ - ٥١٦.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٢٩.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٢٩.

المنصور، وكانت ولاية أبي حفص عمر بن أبي يعقوب يوسف على مرسية شؤماً إذا كان ظلوماً جائراً في أحكامه، اعتدى على تجار مرسية فصادر أموالهم واستنزف ما كان في بيت المال، وقبض على ابن رجاء مشرف مرسية وألزمه بإحضار تقييدات أبواب الجباية، فلما عجز عن تلبية مطلبه أمر بقتله، فأرهب ذلك ابن سليمان صاحب العمل بمرسية، ففر إلى بلنسية كما فر إليها أيضاً الكاتب حكيم بن محمد، فتحاليل الرشيد على استدعاء هذا الأخير بالخديعة ولين القول ثم غدر به وقتله^(١). وهكذا أُرهِق الرشيد أهل مرسية بصنوف البطش والبغى والإرهاب.

وقد انتهز الرشيد فرصة تغلب علي بن غانية على المنصور في وقعة وطاء عمره سنة ٥٨٢هـ ويادر بالاتصال بالفرنسيين ملك قشتالة وارتبط معه بحلف سري ظناً منه أن أخاه المنصور لن تقوم له قائمة بعد هزيمته المذكورة، فلما عاود المنصور الكرة على ابن غانية وانتصر عليه انتصاره الحاسم في وقعة الحمة ثاب الرشيد إلى رشده وأدرك ما تورط فيه من الخطأ ووصله أمر أخيه الخليفة باستدعائه إلى مراكش فصار إليها وهولاً يشك في أنه سيففر له فعلته، ولكنه ما كاد يصل إلى مراكش ويقابل الخليفة سنة ٥٨٤هـ حتى تبين له ما ينتظره من سوء المصير، فقد أمر الخليفة، بالقبض عليه وتشاور في أمره مع أشياخ الموحدين فأفتوا بوجوب قتله جزاء خيائته. وتم تنفيذ الحكم فيه^(٢)، وبزوال عهده البغيض تنفس أهل مرسية الصعداء. ثم جاء انتصار الموحدين في الأرك في شعبان ٥٩١هـ/ ١٨ يوليو ١١٩٤م^(٣) فأنقذ عهده يسوده السلام وذلك بعد أن انعقدت بين الموحدين والقشتاليين اتفاقيات سلام لمدة عشر سنوات، نعمت مرسية وشرق الأندلس بوجه عام بهدوء لم تشهد من قبل.

ب- مرسية قاعدة دولة الخليفة العادل:

لم يزودنا مؤرخو العرب بنصوص عن ولاية مرسية بعد الرشيد، ولكن الدلائل تشير إلى أنه كان يتولى مرسية منذ ذلك العهد ولاية من بنى عبد المؤمن كان آخرهم أبو محمد عبد الله بن المنصور الذي عقد له الخليفة المستنصر الموحدي لأول خلافته على بلنسية وشاطبة، ثم ولاءه في سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢١م على مرسية ودانيه

(١) نفس المصدر والقسم، ص ١٧١-١٧٢؛ وانظر أيضاً:

محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين، القسم الثاني، ص ١٦٧.

(٢) ابن عذاري، المصدر السابق، ق ٣، ص ١٧٢-١٧٣؛ المراكشي، المصدر السابق، ص ١٥٦؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٤٣؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٥١٠؛ محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين، القسم الثاني، ص ١٦٧؛

Gaspar Remiro, op.cit., pp. 246-247.

(٣) المراكشي، المصدر السابق، ص ٢٨٣؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٠٤؛

Huici Miranda, op.cit., p. 203.

وأحوازها^(١)، فى الوقت الذى اشتدت فيه حملات القشتاليين على شرق الأندلس ثم توفى المستنصر بالله فى ذى الحجة سنة ٦٢٠هـ دون عقب ، فخلفه أبو محمد عبد الواحد بن يوسف ابن عبد المؤمن ، وكان أبو محمد عبد الله والى مرسية قد استوزأ بأبى زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان بعد أن تم الإفراج عنه من حصن جنتجاله^(٢). وكان ابن يوجان من كبار أشياخ الموحدين وأكثرهم خبرة فى أمور السياسة ودهاء^(٣)، فشرع ابن يوجان بما أوتى من قدرة على التأثير والاقناع بدفع أبا محمد عبد الله إلى نقض بيعته للخليفة الجديد عبد الواحد، متمللاً بأن تنصيب عبد الواحد على الخلافة قد أخرج الإمامة عن عقب المنصور، وأنه هو أى أبو محمد عبد الله هو ولد المنصور وأخو الناصر وعم المستنصر وصاحب الحزم والعقل الراجح والكرم وحسن السياسة وإصابة الرأى. وهو بذلك أحق بالخلافة من عبد الواحد، ومازال به يحرضه على الدعوة لنفسه، فى ظل أخويه الثلاث على ولايات قرطبة وغرناطة ومالقة^(٤)، حتى اقتنع أبو محمد عبد الله بذلك كل الاقتناع فاستدعى أشياخ الموحدين والفقهاء والأعيان بمرسية وأحوازها ودعاهم إلى مبايعته، فلبوا دعوته وتلقب على الفور بالعدل فى ١٣ صفر سنة ٦٢١هـ، فبايعه أخوته الثلاثة أبو العلاء صاحب قرطبة وأبو الحسن صاحب غرناطة وأبو موسى صاحب مالقة، كما بايعه السيد أبو محمد عبد الله المعروف بالبياسى صاحب جيان^(٥). وعلى هذا النحو أصبح لدولة الموحدين خليفتان أحدهما فى مراكش والثانى فى مرسية. واستطاع العدل أن يحصل على تأييد سائر قواعد الأندلس عدا بلنسية وشاطبة ودانية التى امتنع عن بيعته فيها واليهما أبو زيد بن عبد الله بن يوسف بن عبد المؤمن^(٦). ثم خرج العدل من مرسية إلى أشبيلية حاضرة دولة الموحدين فى الأندلس وبصحبه وزيره ابن يوجان^(٧)، ويذكر ابن عذارى أنه تلقى فيها بيعة أهل مراكش وبلاد المغرب^(٨)، فى حين يؤكد ابن أبى زرع أنه كتب إلى أشياخ الموحدين بمراكش يدعوهم لبيعته وخلع عبد الواحد ووعدهم بالأموال الطائلة والمراتب السنية ، فلبوا دعوته، وأرغموا عبد الواحد

(١) ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٦١، ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٤٧.

(٢) الحميرى، المصدر السابق، ص ٦٧.

(٣) ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٦١.

(٤) ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٦١، الحميرى، المصدر السابق، ص ٦٧.

(٥) ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٥٢٥.

(٦) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٧) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٤٨ وما يليها.

(٨) نفس المصدر والقسم والصفحة.

على خلع نفسه أمام القاضى والفقهاء والأشياخ ومبايعة العادل فى ٢١ شعبان سنة ٦٢١هـ^(١). وكان العادل قبل رحيله إلى أشبيلية قد أقام على ولاية مرسية السيد أبا العباس ابن أبى موسى بن عبد المؤمن ، ثم بدأت متاعب العادل تتوالى عليه منذ أن انتقل إلى أشبيلية، فقد خلع صاحب جيان بيعته له عندما رأى رفض أخيه السيد أبى زيد والى بلنسية ودالية وشاطبة بيعة العادل وانتزاعه ببلنسية بهذه القواعد، ولم يكتف صاحب جيان بذلك بل دعا لنفسه وتلقب بالظافر، وأطاعته بياسة وقرطبة وجيان وقباجطة فسير إليه العادل من أشبيلية جيشاً بقيادة أخيه السيد أبو العلاء إدريس بن المنصور ، حاصره فى بياسة، واضطر أبو محمد عبد الله إلى أن يعقد معه الصلح على أن يعاود مبايعة، فلما رحل عنه أبو العلاء فى جيشه عاد إلى نكث بيعته^(٢). وفى رواية أخرى لابن خلدون أن أبا العلاء فشل فى مهمته، وعاد أدراجه إلى أشبيلية ، فسير العادل جيشاً آخر لهاربته بقيادة أبى سعيد ولكن البياسى امتنع على أبى سعيد كذلك^(٣)، أما رواية صاحب الروض المعطار فأكثر تفصيلاً، فيذكر أن العادل عندما رأى تغير أبى محمد عبد الله البياسى عليه ونكثه ببيعته صير إليه جيشاً بقيادة أبى العلاء ، حاصره ببياسة زمن الشتاء، وقد بلغ البرد ذروته، مع هطول الأمطار ، فخشى أبو العلاء أن يفيض نهر الوادى الكبير ويتعذر عليه العبور عند العودة ، فضلاً عن خوفه من قدوم القشتاليين حلفاء البياسى، عندئذ ارتضى دعوة البياسى إليه بالصلح على أن يدفع له بولده الأصغر ليكون رهينة لديه، فارتضى أبو العلاء ذلك وعاد أدراجه فى قواته إلى أشبيلية ، فلما وصلها قوبل بالاستهجان «وبقى عندهم كالخامل المتخوف»^(٤).

وأمام فشل حملة أبى العلاء من تحقيق أهدافها فى القضاء على عصيان أبى محمد عبد الله البياسى، أعد العادل جيشاً آخر قدم عليه عثمان بن أبى حفص، فسار هذا الجيش إلى بياسة ونزل على بعد خمسة أميال منها جنوبى المدينة ، فخرجت لقتاله قوة فرسان البياسى عددها مائة فارس بالإضافة إلى قوة من حلفائه القشتاليين فانهمز الجيش الموحدى، وبادر بالانسحاب على الفور إلى أشبيلية، وبقي البياسى ببلده، ودخل القشتاليون قسبة بياسة وتحصنوا فيها^(٥)، وعلى إثر ذلك امتد سلطان البياسى علاوة على جيان وبياسه، على قاعدتى قرطبة ومالقة^(٦).

(١) ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٦٣ وما يليها .

(٢) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ١٦٤ .

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٥٢٧ .

(٤) الحميرى، الروض المعطار، (مقال بياسة)، ص ٥٧ .

(٥) الحميرى، المصدر السابق، ص ٥٧ .

(٦) نفس المصدر، ص ٥٨ .

وما لا شك فيه أن مركز العادل قد تخرج بعد أن فشلت قواته في إخضاع البياسى، كما انتهز النصارى هذا الموقف وأقدموا على غزو إقليم الشرف غربى أشبيلية فى جمادى الأولى سنة ٦٢٢هـ/مايو ١١٢٤م، وتفصيل ذلك أن مارتين سانشيز - وهو ابن غير شرعى للملك البرتغال سانشو الثانى ، دخل فى خدمة ملك ليون - خرج فى قوة من النصارى وهاجم منطقة الشرف من أشبيلية وألفى العادل وأخوه أبو العلاء ووزيره ابن بوجان، أنفسهم عاجزين عن مقاومة النصارى، وأمام تخاذل العادل وتقاعدته، اجتمع أهل أشبيلية فى المسجد الجامع، وصاحوا بالعادل يحملونه على الخروج بالتصدي لهؤلاء الغزاة ، وعندئذ استنفر العادل الناس، وحشد منهم جموعاً كبيرة خرج معظمهم بدون سلاح ، واجتمع من الفرسان ما يقل عن المائة ، وسارت هذه الحشود من الباعة وأهل الأسواق غير المجهزة عسكرياً فى غير نظام إلى حيث نزل النصارى على مقربة من طلياطة Tejada وكأنهم خارجين إلى نزهتهم فى البساتين والجنات ، وكان النصارى قد تأهبوا فى قوة كبيرة كاملة العدة والسلاح لتلقيهم، فأراد العامة أن يدفعوا قوة الفرسان الهزيلة للقاء العدو ، فامتنع قائدها عبد الله بن أبى بكر بن يزيد، وحاول إقناع العامة بعبث هذه المحاولة ، وضرورة الالتزام بسياسة الدفاع فتطاولوا عليه وسبوه، فانسحب فى فرسانه، وفى الحال انقض النصارى على حشود المسلمين، ففتكوا بهم وأفتوا الكثير منهم قتلاً وأسرًا، وفر الكثير منهم^(١). ويقدر عدد القتلى فى هذه المعركة بالآلاف بل يبالغ بعضهم فيقدرهم بنحو عشرين ألفاً ، والبعض الآخر نحو عشرة آلاف بين قتيل وأسير^(٢).

وبعد شهر من كارثة فحص طلياطة ، قام القشتاليون فى رجب سنة ٦٢٢هـ بغزوة مماثلة على شرق الأندلس وألحقوا بالمسلمين فى عصف شرقي مرسية هزيمة نكراء لا تقل فى أثرها عن هزيمة طلياطة ، وذلك أن حكام قونكة ووبذه Huete والأركون ومويا Moya ، حشدوا قواتهم ، وأغاروا على أراضى مرسية ، فخرجت لردهم قوات من مرسية بقيادة أبى على بن أشرقى، فأوقعوا بالمسلمين وهزموهم هزيمة نكراء ذهب فيها من أهل مرسية بين قتيل وأسير نحو أربعة آلاف رجل^(٣). وذكر الحميرى نقلاً عن صاحب الملتمس أن كائنة عففص هى أخت كائنة طلياطة المتقدمة ، كانت هذه فى غرب الأندلس وتلك فى شرقها ، وفى وقعة عففص يقول أحد شعراء مرسية مقارناً بين موقعتى عففص وطلياطة:

(١) الحميرى، المصدر السابق، ص ١٢٨-١٢٩.

(٢) نفس المصدر، ص ١٢٩، وانظر أيضاً:

Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 223.

(3) Huici Miranda, Ibid, p. 223.

موقعة عفص وطلباطة .: تكامل إقبال أيا منا فبالغرب تلك وبالشرق ذى .: آناخا على شم أعلامنا (١)

خلال هذه الأحداث كانت بيعات الموحدين بالحاضرة مراكش والمغرب قد وصلت إلى العادل بأشبيلية، وكان الخليفة عبد الواحد قد خلع ولقى مصرعه، وخلا عرش الخلافة الموحدية، وعندئذ رأى العادل أن الظروف أصبحت مهيئة لجوازه إلى الحاضرة مراكش، لاسيما بعد أن بلغته أنباء انتصار البياسى على قواته فخاف أن يفوقه مقصوده من الخلافة، وعندئذ ندب أخاه أبا العلاء إدريس للنظر فى شئون الأندلس، وغادر أشبيلية إلى المغرب فى شهر ذى القعدة سنة ٦٢٢هـ / أكتوبر ١٢٢٤م (٢).

وعند وصول العادل إلى الحاضرة مراكش، وتقلده لأمر الخلافة، استوزر أبا زيد بن أبى محمد بن الشيخ أبى حفص، وأقر عماله على المغرب والأندلس (٣). وكان البياسى فى هذا الوقت قد امتد سلطانه علاوة على جيان وبياسة على قاعدتي قرطبة ومالقة، وكاد يستولى على أشبيلية (٤)، فقد دفعه الطمع إلى غزوها فى ٢٥ صفر سنة ٦٢٣هـ / ٢٥ نوفمبر ١٢٢٦م (٥) ولكن أبا العلاء كان قد تأهب للقائه فخرج إليه فى قوات الموحدين وأهل المدينة، ونشبت بين الجيشين معركة عنيفة كان النصر فيها حليفاً لأبى العلاء، وهزم البياسى ومزقت جموعه، وانسحب فى فلوله صوب قرطبة، وعلى أثر هزيمة البياسى خرجت طلياطة وحصن القصر وبقية الحصون والبلاد المحتلة شرقى أشبيلية عن طاعته، وعادت إلى طاعة الخليفة العادل (٦)، وانتهى الأمر بالبياسى أن قام أهل قرطبة فقتلوه وبعثوا برأسه إلى أشبيلية، فبعث بها أبو العلاء إلى الحاضرة مراكش، وعندئذ ورد أمر الخليفة العادل فى بداية سنة ٦٢٤هـ بإسناد قرطبة بالإضافة إلى أشبيلية إلى أخيه أبى العلاء (٧). ولكن أبا العلاء إدريس لم

(١) الحميرى، المدر السابق، ص ١٣٦.

(٢) ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٦٣-١٦٤؛ ابن خلدون، العبر، ج٦، ص ٥٢٧، الحميرى، المصدر السابق، ص ١٢٩.

(٣) ابن خلدون، نفس المصدر، ج٦، ص ٥٢٨.

(٤) الحميرى، المصدر السابق، ص ٥٨.

(٥) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٥٠، وراجع أيضاً:

Gonzalez (J), Las conquistas de Fernando III en Andalucía, Madrid, 1940, pp. 46-47.

(٦) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٥١-٢٥٢.

(٧) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٥٢.

يلبث أن دعا إلى نفسه بالخلافة في ٢ شوال سنة ٦٢٤هـ وتلقب بالمأمون وبوع له في معظم قواعد الأندلس كما بايعه السيد أبو زيد صاحب بلنسية وشرق الأندلس^(١).

جـ - الأوضاع في بلنسية في عهد الموحدين :

كان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أثناء إقامته بمرسية في أعقاب حملته الفاشلة على وبذه قد أقرأها الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش على ولايته ببلنسية وأنظارها، وكتب له بذلك ، ولهذا فقد استمر يوسف بن سعد ابن مردنيش يتولى نجر بلنسية إلى أن توفي في سنة ٥٨٢هـ على النحو الذي ذكرناه فيما سبق، وخلفه على ولاية بلنسية من قبل خليفة الموحدين السيد أبو عبدالله محمد حفيد الخليفة عبد المؤمن بن علي ، ثم تولاها بعده ولده السيد أبو زيد ، وكان بيت يوسف بن مردنيش مازال يعد من البيوتات الكبرى في بلنسية ، فقد ترك يوسف بن مردنيش عدداً من الأبناء أسند إليهم الموحدون مناصب هامة قيادية وإدارية في سائر قواعد شرق الأندلس أبرزهم الرئيس أبو الحملات مدافع الذي قدر لأحد أبنائه وهو الرئيس أبو جميل زيان وزير السيد أبي زيد والي بلنسية ومدير أمره أن ينادى أهل بلنسية، بزعامته في صفر ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م ويباعون له بالإمرة.

ومن أبرز أبناء يوسف بن مردنيش كذلك أبو سلطان عزيز الذي كتب له أن يتولى جزيرة شقر .

ولقد تعرضت بلنسية في ظل واليها السيد أبي عبد الله محمد وابنه السيد أبي زيد لهجمات أرغونية متكررة فقد تم توقيع معاهدة سلام ومهادنة بين خليفة الموحدين وملك قشتالة في أعقاب انتصار الموحدين في الأرك مدتها عشر سنوات^(٢) كما وقعت اتفاقية مماثلة للسلام بين أرغون ونيره في مالين في ٤ يولييه ١٢٠٩م/ ٦٠٦هـ وبمقتضاها تم تصفية خلافتهما ، كما أقرض سانشو السابع ملك نبره بدور الثاني ملك أرغون عشرين ألف ماركوسى بضمنان بعض الحصون الأروغونية هي : Esco, Villa de Pina, Pitilla, Gollur وسلمت تلك الحصون للدوق خيمينو دي لارادا Jimeno de la Rada رهناً لسداد القرض حتى ٢٥ ديسمبر من العام المؤرخ ، واشترط سانشو السابع ملك نبره أنه في حالة عدم رد القرض تصبح هذه الحصون من نصيبه حتى يتم سداؤه بعد ذلك ، وتوقيع هذه الاتفاقية اطمأن ملك أرغون على سلامة حدوده مع نبره ، فأخذ يتفرغ لمهاجمة شرق الأندلس وتوسعة

(١) ابن خلدون، المصدر السابق، ج٦، ص ٢٥٨.

(٢) المراكشي، المصدر السابق، ص ٢٨٣؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٠٤.

أملأه على حساب أراضي المسلمين ، ففي نهاية شهر مارس ١٢١٠م حشد قواته في منشون Manzon وصحبه في هذه الحملة عدد من القواد^(١). ثم قام بشن غاراته على ثغور بلنسية في المنطقة الواقعة بين قونكة وسهلة بنى رزين واستولى على ثلاثة حصون هامة بها وهي : Sertella, Castelfabit, Ademuz^(٢).

ثم استأنف زحفه بهدف الإغارة على ثغر بلنسية ، مما أوقع الذعر والهلع بسكان المدينة ، بيد أنه في إحدى غاراته التي اقترب فيها إلى مشارف مدينة بلنسية اضطر إلى الالتحام مع حاميتها التي تصدت له بثبات ، وكاد ملك أرغون يقع أسيراً في أيدي المسلمين بعد أن سقط عن جواده ، فلحق به أحد فرسان النصارى ممن يعملون في خدمة الموحدين الذين أسندوا إليه مهمة الدفاع عن هذه المنطقة ويدعى دون ديجو لوپث دى آرو Don Diego Lopez de Haro الملقب بالطيب سيد بسكانية Vizcaya ، وعلى الرغم من ذلك فقد أسعف الملك الأرغونى بجواد آخر، متناسياً الإهانات التي كان وجهها إليه أمراء المسيحيين من قبل، وبذلك أنقذ الملك من الأسر، ولاشك أن هذا الموقف من جانب دون ديجو قد أغضب حامية بلنسية المسلمة، التي ارتابت في أمره، فأرسل إلى الحاضرة مراكش ومثل أمام الخليفة الناصر، الذى تولى الخلافة بعد وفاة أبيه المنصور في ٢٣ ربيع الأول ٥٩٥هـ، ودافع ديجو عن موقفه فهدأ غضب المسلمين ، وكان لتصرف دون ديجو حيال ملك أرغون قد دفع ألفونسو الثامن ملك قشتالة إلى الاعتراف بحقوقه الشرعية، فسمح له بالعودة إليها^(٣).

ورداً على غارات الأرغونيين على ثغور بلنسية ، قام الأسطول الموحدى بمهاجمة سواحل قطلونية، وپروى صاحب «البيان المغرب» أن فى سنة ٦٠٧هـ سار

(١) منهم دون رامون دى كاستيا تويلو أسقف سرقسطة، ودون جارتيا من وشقة، ودون جارتيا من طرسونة، ودون خيمينو كورنيل، ودون جارتيا روميو، ودون أرتال ألاجون، ودون بلاسكو روميو وغيرهم، راجع؛

Ibars, op.cit., t. I, p. 585.

(٢) الديموس تقابل Ademuz مركز فى بلنسية، راجع؛

Miguel Asin Palacio, op.cit., p. 43;

قلعة سبب تقابل Castelfabit مركز فى بلنسية، راجع؛

Miguel Asin Placio, Ibid, p. 101.

وقد رسمها ابن الآبار قشليل الحبيب وجعلها من أعمال شنتمرية الشرق، انظر التكملة، ص ٤٦٨؛

Ibars, op.cit, t. I, pp. 584-585.

(3) Marina (P.), Historia General de Espana, II, Madrid, 1948, p. 24.

السيد أبو العلاء إدريس بن يوسف قائد أسطول البحرين في جميع وحدات الأسطول الموحدى إلى مياه برشلونة في صيف سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، وأغار على سواحل قطلونية واستطاع أن يحرز انتصاراً ساحقاً على أسطول ملك أراغون وينزل به خسائر فادحة ويستولى على كثير من الأموال والغنائم، فكانت أحسن حركة للمسلمين وأوحش فجيعة وأعم وقبعة جرت على الغزاة البحرين وأوقع حسرة كانت بقلوب الكافرين» (١).

ومن جهة آخر عمد ألفونسو الثامن ملك قشتالة عندما اقترب انتهاء أجل الهدنة المعقودة بين قشتالة وبين الموحدين إلى الخروج مع ولده دون فرناندو في قوات من مجريط ووادى الحجارة ووشقة وقولكة وإقليمش للإغارة على بلنسية، وقد أغار على بلنسية وبث الرعب على نواحي شقر، وهاجم الجهة الشرقية حتى وصل إلى شاطئ البحر المتوسط، وكان ذلك في شهر مايو سنة ٦١١م/٦٠٨هـ (٢).

وفي سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م وقعت اتفاقية سلم وموادة بين الموحدين ومملكة قشتالة في عهد أبي يعقوب يوسف الثانى الملقب بالمستنصر الموحدى مدتها خمس سنوات (٣)، ولكن بانتهاء مدة الاتفاقية بدأت قشتالة حملاتها المنظمة من جديد على شرق الأندلس، فافتحم القشتاليون في ٦١٦هـ/ سبتمبر ١٢١٩م القلاع الواقعة إلى شمال بلنسية، كما أغاروا على ركانه وأحكموا عليها الحصار وقذفوها بالمحانيق وهدموا أسوارها الأمامية وعدداً من أبراجها، ولكن أهلها صمدوا في ثبات واستبسروا في القتال وأرغموا القشتاليين على الانسحاب بعد أن كبدهم خسائر فادحة (٤).

وواصل القشتاليون غزواتهم لأراضى بلنسية وأحوازها كل عام إلى أن تجددت المهادنة والمصالحة بين ولاية الأندلس من السادة الموحدين وبين النصارى في سنة ٦١٨هـ (٥).

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٣٤.

(2) Ibars, op.cit., t. I, pp. 587-588.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٤٤.

(4) Anales toledanos Primeros, reedición ; Huici Miranda, t. I, p. 353.

(٥) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٤٦.

الفصل الخامس

تفكك شرق الأندلس فى آخر عصر الموحدين وسقوط قواعد

- (١) الأوضاع السياسية فى الأندلس فى السنوات الأخيرة من دولة الموحدين
- أ - ضعف الخلافة الموحدية وأثره فى قيام الثورات فى الأندلس.
 - ب - انتزاع ابن هود فى مرسية.
 - ج - امتداد سيطرة ابن هود على قواعد الأندلس الوسطى والجنوبية.
 - د - صدق ثورة ابن هود على الأوضاع فى بلنسية.
 - هـ - موقف ابن هود من حركة أبى جميل زيان ببلنسية.
- (٢) فشل ابن هود فى مواجهة المد القشتالى والأرغونى.
- أ - ظهور محمد بن يوسف بن نصر منافسا لابن هود.
 - ب - سقوط جزيرة ميورقة.
 - ج - سقوط جزيرة يابسة.
 - د - نهاية ابن هود.
- (٣) سقوط قواعد شرق الأندلس.
- أ - موقعة أنيشة وسقوط بلنسية فى يد جاقمة.
 - ب - سقوط مرسية فى أيدى القشتاليين.
 - ج - سقوط منورقة.

(١) الأوضاع السياسية في الأندلس

في السنوات الأخيرة من عصر دولة الموحدين

أ - ضعف الخلافة الموحدية وأثره في قيام الثورات في الأندلس:

كانت حركة بنى غانية^(١) أصحاب الجزر الشرقية في المغرب الأدنى بالتحالف مع المماليك القوية والعرب الهلالية طوال عهود يوسف ويعقوب المنصور والناصر عاملاً هاماً في إضعاف دولة الموحدين واستنفاد قواها، كذلك دفع الموحدون من قوتهم لاستئصال بنى مردنيش في شرق الأندلس ثمناً باهظاً، وقد ساعد هذان العاملان بالإضافة إلى الجهاد ضد مملكتي البرتغال الفتنية وقشتالة على التعجيل بانتهاء دولة الموحدين إلى أن كانت الهزيمة النكراء التي لكتبت بها دولة الموحدين في العقاب في صفر سنة ٦٠٩ هـ / يوليو ١٢١٢ م وهي الواقعة المشؤومة التي لم تقم للمسلمين في الأندلس بعدها قائمة محمد ولم تستقل الأندلس العثرة^(٢)، فكانت بداية لانتهاء دولة الموحدين التي امتدت على الرغم من ذلك حتى مصرع أبي دبوس في سنة ٦٦٨ هـ.

وشهد المغرب والأندلس منذ وفاة الناصر في شعبان سنة ٦١٠ هـ فترة مشحونة بالاضطرابات العنيفة تولى خلالها الخلافة الموحدية خلفاء ضعاف كثر الخارجون عليهم في أنحاء البلاد، وأخذ رؤساء الأندلس بعد أن التأت أمر الموحدين ينتزون بنواحي الأندلس^(٣) على النحو الذي أعقب انهيار الخلافة الأموية بقرطبة.

ثم كانت ثورة العادل في مرسية وخروجه على الخليفة أبي محمد عبد الواحد ودعوته بالخلافة لنفسه ثم تلقبه بالعادل سابقة خطيرة في تاريخ دولة الموحدين أفسحت المجال لحركات مماثلة كحركة أبي العلاء إدريس الملقب بالمأمون في أشبيلية خروجاً على أخيه العادل - الذي قتل في سنة ٦٢٤ هـ / ١١٢٧ م - في نفس الوقت الذي يبيع فيه أبو زكريا المعتصم بخلافة الموحدين في المغرب، وحركة أبي محمد عبد الله البياسي صاحب جيان أحد أحفاد يوسف بن عبد المؤمن في ياسة ودعوته لنفسه وتلقبه بالظافر وتمكنه من بسط سلطانه على ياسة وقرطبة وجيان وأبده وقيحا^(٤)، وكان لهذه الحركات الثورية الهدامة أعظم الأثر في تصدع أركان دولة

(١) ظل بنو غانية يناوؤن سلطان الموحدين في إفريقية وطرابلس إلى أن توفي يحيى بن إسحاق بن غانية في بلاد الزاب سنة ٦٣١ هـ على مقربة من مليانة، راجع التفاصيل في: المغرب الكبير، ج ٢، ص ٨١٨.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص ٢٧٠.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج ٢، ص ٨٣٠.

(٤) محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، عصر الموحدين، ص ٣٥٤.

الموحدين وهو تصدع يسبق مرحلة الانهيار بالإضافة إلى اهتزاز نفوذ ولاية الموحدين في الأندلس، مما ترتب عليه احتدام الحركات السياسية المناهضة للموحدين والتي تستهدف قبل كل شيء تحرير الأندلس من سيطرة الموحدين والاعتماد على المقومات الذاتية للأندلس في مواجهة العواطف والأنواء السياسية المترتبة على عدوان الممالك المسيحية في شبه الجزيرة على ما تبقى من دولة الإسلام في الأندلس.

ومع أن هذه الحركات السياسية التي انبثقت في الأندلس في الأيام الأخيرة لدولة الموحدين اتسمت بالطابع الشخصي^(١)، إلا أنها كانت في جوهرها حركات قومية شعبية كانت تعتمل في نفوس أهل الأندلس وقدر لها أن تظهر عندما لمست من تقاعس سادات الموحدين عن الدفاع عن الأندلس ودرء الخطر المسيحي عنه في أعقاب هزيمة العقاب بالإضافة إلى جنوحهم إلى شراء موادة الممالك المسيحية في أسبانيا بمعاهدات تنازلوا لهم فيها عن كثير من الثغور والقلاع الإسلامية، إما تجنباً لمزيد من الهزائم^(٢) أو تحقيقاً لأطماعهم الشخصية التي تستهدف الاستئثار بالسلطان.

ب- النزاع ابن هود في مرسية:

حمل لواء الثورة في شرق الأندلس رجل من سلالة بنى هود ملوك سرقسطة أيام الطوائف^(٣)، هو محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم ابن أحمد بن سليمان المستعين بن محمد بن هود الذي يعدونه من أصناف الجند بمرسية^(٤) ويعرف في المصادر الأسبانية بـثافادولا Zafadola أى سيف الدولة.

ونرجع شهرة ابن هود العسكرية إلى ما بعد وقعة العقاب عندما تمكن بفضل قدراته العسكرية ودهائه من الاستيلاء على حصن مانع يتحكم في الطرق المؤدية إلى الأندلس بأقل جهد ويروى صاحب الروض المعطار^(٥)، قصة ظفرو بهذا الحصن

(١) محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ٣٨٩.

(٢) انتهز القشتاليون والأرغونيون فرصة قيام الحرب الأهلية بين المسلمين في الأندلس واستولوا على بعض قواعد الأندلس الهامة، فكان القشتاليون قد سيطروا على القسم الأعلى من الأندلس حتى أندوجر منذ بداية الفتنة حتى سنة ٦٢٣ هـ بينما أتم الليونيون فتح إقليم استرامادورة، فلما اتحدت مملكتا قشتالة وليون تحت تاج واحد في ظل الملك فرناندو الثالث الملقب بالقدوس تجددت قواها وتمكنت من السيطرة على بياسة وأيدة سنة ٦٢٣ هـ وعلى قرطبة سنة ٦٣٦ هـ؛ راجع: السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج ٢، ص ٨٣١.

(٣) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٣٦١-٣٦٢، وراجع أيضاً: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص ٢٧٧-٢٧٨.

(٤) ابن عذاري، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٥٦.

(٥) الحميري، الروض المعطار، ص ١١٦ من النص العربي، ص ١٤٢ من الترجمة الفرنسية، وحصن شنفيرة، يقع على أربع مراحل شرق مرسية؛ راجع: نفس المصدر والصفحة، ويرجع الأستاذ أويشي ميراندا أن حصن شنفيرة هو المكان المعروف San Pedro del Pintar، راجع:

Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 239.

المعروف باسم حصن شنفيره Sanfira المشهور بالمنعة في سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م، بمعاونة خمسمائة من أجناد مرسية، فيذكرو أن أبا سعيد بن الشيخ أبي حفص الهنتائي، كان في جولة تفتيشية على حصون الأندلس، أثناء الهدنة التي عقدت بين الموحدين والقشتاليين، «فنظر إلى حصن شنفيره وهو بارز إلى السماء مع وثاقه بنائة فأعجبه، وقال: «كيف أخذ الروم هذا الحصن من المسلمين؟، فقليل: غدروا به في زمان الصلح، فقال: أما في أجناد المسلمين من يجازيهم بفعلهم؟ فسمعه ابن هود فأسرهما في نفسه، إلى أن تمت له الحيلة فطلع في سلم من حبال فذبح السامر الذي يحرس بالليل، ولم يزل يطلع رجاله واحداً واحداً إلى أن حصلوا بجملتهم في الحصن، وفرّ الروم الذين خلصوا من القتل إلى برج مانع، فقال ابن هود: إن أصبح هؤلاء في هذا البرج جاءهم المدد من كل مكان! فالرأى أن تطلق النيران في بابه! فلما رأوا الدخان، وأبصروا اشتعال النار طلبوا الصلح أن يخرجوا بأنفسهم، فكان ذلك واستولى المسلمون على الحصن» (١). كان ذلك الحادث هو السبب فيما أصابه محمد بن يوسف بن هود من شهرة في شرق الأندلس رفعته إلى عداد أعظم الفرسان وأشجعهم. ويأتي ابن عذارى برواية أخرى (٢) تتضمن أن أحد المنجمين تنبأ له بالسلطنة، ومجمل هذه الرواية أن منجماً تنبأ لمحمد بن يوسف بن هود بأنه سيكون سلطاناً على الأندلس، ونصحه بالتوجه إلى المقدم الغشتي وأعوانه (٣)، فلما وصل إليه وقص عليه ما تنبأ له المنجم به سر الفتى بذلك سروراً عظيماً، واشترك معه في الإغارة على بعض أراضي النصاري، فاكتسحوا ما فيها من البقر والأسرى، فكثرت بذلك جمعته «من القطاع وذعار الشعاري والضياح» (٤)، وزادت قوته، ونهض في أعوانه إلى موضع يعرف بالصخيرات (٥)، وهنالك بايعه أنصاره بالإمارة سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م (٦)، وذاع أمره وكثر أتباعه والتمس فيه أهل الأندلس بطلاً للتحرير ومنقذاً لدولة الإسلام في الأندلس وسارع إلى الانضمام إليه كثير من الفرسان والجند ولقد ساعد اضطراب الأحوال في المغرب وتجروء البعض على خلع المستنصر وقتل العادل، وما نشب من

(١) الحميري، المصدر السابق، ص ١١٦.

(٢) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٥٦-٢٥٧.

(٣) كان الغشتي، ويعرف في المدونات الإيطالية باسم Agostino، زعيماً لجماعة من المفاوهر أو الصعاليك الذين يقاتلون النصاري أو يقطعون الطرق أحياناً على المسلمين.

(٤) الحميري، المصدر السابق، ص ١١٨.

(٥) هو حصن صغير يقع على نهر شقورة على مقربة من مرسية فيه دعا محمد بن هود لنفسه سنة ٦٢٥هـ.

(٦) خطب فيهم ابن هود فقال: «أنا صاحب الزمان وأنا الذي أريد الخطبة عباسية»، راجع: الحميري، المصدر السابق، ص ١١٨.

تصارع على الخلافة آنذاك، على إذكاء الحماس بين فرسان الأندلس وأنجاد رجالها، وبعث فيهم روح الأمل لتخليص الأندلس من الفتنة التي واكبت انهيار دولة الموحدين وتسببت في سقوط كثير من قواعد الأندلس في أيدي القشتاليين والأرغونيين والبرتغاليين، فسارعوا إلى الانضمام لابن هود، «خفافاً وثقالاً فرساناً ورجالا لعلمهم بما وقع بين الموحدين وأمرائهم من خلعتهم لمخلوعهم وقتلهم لعادلهم الذي كان والى مرسية» (١).

وكان يتولى مرسية آنذاك السيد أبو العباس بن أبي موسى بن عبد المؤمن الذي أسند إليه العادل ولايتها عقب مبايعته بالخلافة، وكان من أثر الصراع الدائم في المغرب والأندلس حول الفوز بالخلافة إضعاف هيبة سادات الموحدين في مختلف قواعد الأندلس من جهة، وتخرج وضع الحاميات الموحدية في هذه الولايات، مما هباً لابن هود عندما أحس بكملة جمعه وتزايد قوته إلى إزالة النفوذ الموحدي في معظم ما تبقى من أسبانيا الإسلامية، فأقدم على مهاجمة مرسية وعندما تصدى له واليها السيد أبو العباس منى بهزيمة نكراء ووقع في قبضته (٢).

وفي رواية لصاحب «الروض المعطار» تفيد بأن ابن هود لم يدخل المدينة غازياً ولم يشتبك في معركة مع السيد أبي العباس والى مرسية، ولكنه دخلها بخدعة رتبها قاضي مرسية أبو الحسن القسطلي، الذي أوهم واليها السيد أبا العباس الملقب بأبي الأمان أن ابن هود سوف ينضوي تحت لوائه وأنه ينوي إزالة الفساد عن هذه البلاد، فابتهج السيد وأنفذ إليه بالمبادرة، فلما دخل عليه ابن هود وأعوانه في السلاح قبضوا عليه ثم حبسوه (٣)، وأجلسوا ابن هود مكانه.

وأياً ما كان الأمر، فإن والى بلنسية السيد أبو زيد عندما علم بأمر ابن هود خرج إليه في قواته فأوقع ابن هود به الهزيمة، واستولى على محلته، ثم عاد إلى مرسية ودخلها في جمعه وهو يرفع راية سوداء عباسية (٤)، وأسند ولايتها إلى عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب (٥).

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٥٧.

(٢) نفس المصدر والقسم، ص ٢٥٧؛ وراجع أيضاً: ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٦٢.

(٣) الحموري، المصدر السابق، ص ١١٨-١١٩، وهو القاضي علي بن محمد بن أبي العافية اللخمي المرسى أبو الحسن القسطلي، ولي قضاء مرسية وبلنسية وشاطبة وكان جزلاً مهيباً، وكان بالرواية أشبه منه بالقضاء والفقهاء وأضر بآخره، وعلى ذلك كان يتولى الأعمال ويتعسف الطرق وأثار فتنة قرب هلاكه، فقتل بمرسية في جمادى الأولى سنة ٦٢٦ هـ؛ راجع: ابن الأبار، التكملة، ج ٢، ص ٦٨٠، ترجمة ١٨٩٩.

(٤) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٦٢.

(٥) السيد عبد العزيز سالم، مدينة مرسية موطن أبي العباس المرسى، ص ١٧.

ببيع لابن هود بمرسية غرة شهر رمضان المعظم سنة ٦٢٥هـ/أغسطس ١٢٢٨م، والأندلس يجتاز آنفذ مرحلة خطيرة من تاريخه، فالحرب الأهلية تشتد احتداماً، والنوائب والفتن الداخلية تطحنها طحناً، وتمزقها لرباً، وحركة التوسع المسيحي تزداد تقدماً في قلب الأندلس، ثم تسمى بأمر المسلمين ومعز الدين وتلقب بالمتوكل على الله، ودعا للخليفة العباسي المستنصر في أول جمعة له في مرسية، وبعث إليه بكتبه، فجأبه بالخلع والراسيم وسماء مجاهد الدين سيف أمير المؤمنين، عبد الله المتوكل عليه أمير المسلمين، وهكذا كان يكتب عن ابن هود في أوائل كتبه علامة «توكلت على الله الواحد القهار»^(١).

ولما وصلت أخبار الثائر ابن هود إلى السيد أي العلا بأشبيلية وهو على وشك الرحيل إلى المغرب، ووقف على خبر هزيمة الموحدين بشرق الأندلس وضياح مرسية، وصريخ السيد أبي زيد وإلى بلنسية في طلب النجدة، عدل عن ركوب البحر إلى مراكش مؤثراً. التوجه إلى شرق الأندلس للقضاء على ثورة ابن هود^(٢)، ثم إنه غادر أشبيلية في قواته نحو مرسية، وهناك التقى مع ابن هود في معركة على مقربة منها هزم فيها ابن هود أشنع هزيمة، وارتد على أثرها إلى مرسية وتحصن داخل أسوارها وأقام محاصراً لابن هود إلى أن رحل في السنة التالية ٦٢٦هـ^(٣).

وهناك رواية أخرى لابن الخطيب تسلط مزيداً من الأضواء على تحرك المأمون المنازلة ابن هود جاء فيها أن المأمون تحرك في جيش أشبيلية باستدعاء السيد أبي زيد وإلى بلنسية، فتحرك المأمون إليه، ووصل غرناطة في رمضان عام ٦٢٥هـ، ومنها بعث بكتبه إلى أخيه يشجعه ويعلمه بقدومه إليه، وانضم إليه جيش غرناطة وما والاها، وواصل سيره تجاه الشرق، فبرز ابن هود إلى لقاءه، فكان اللقاء بخارج لورقة Lorca فانهزم ابن هود وفر إلى مرسية، وعساكر الموحدين في عقبه^(٤).

ورواية ابن خلدون اختصاراً لرواية ابن الخطيب ومضمونها أن المأمون هزم ابن هود واتبه إلى مرسية فحاصره مدة وامتنعت عليه فأقلع عنها^(٥).

(١) ابن عذاري، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٥٧-٢٥٨، راجع أيضاً: المراكشي، المعجب، ص ٣٣٥.
(٢) تمثل المأمون قول الشاعر:

إن الطيب إذا تعارض عنده . . . مرضان مختلفان داوى الأخطار
في الحميرى، المصدر السابق، ص ١١٩.

(٣) الحميرى، نفس المصدر، ص ١٢٠.

(٤) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ١، ص ٤١٥، وراجع أيضاً:

Gaspar Remiro, op.cit., p. 271.

(٥) ابن خلدون، العبر، ج ٤، ص ٣٦٢.

والواقع أن المصادر التي بين أيدينا لم تزودنا بأخبار وتفصيل كافية لتبرير سبب تراجع المأمون عن حصار مرسية مع أنه تغلب على ابن هود، فليس من المعقول أن يعزى ذلك إلى نقص في الجند، لأنه استعان بالإضافة إلى جيش أشبيلية بجيش غرناطة، كذلك لا يعقل أن يعزى إلى قوة دفاع حامية مرسية، ولكننا نعتقد أن الأوضاع في الحاضرة الموحدية بمراكش منذ قيام يحيى الناصر الملقب بالمعصم وتقلده الخلافة بها، كانت من أقوى الأسباب التي جعلت المأمون يقرر رفع الحصار عن مرسية والعودة فجأة إلى أشبيلية ليعزز منها إلى أرض المغرب.

جـ - امتداد سيطرة ابن هود على قواعد الأندلس الوسطى الجنوبية:

كان انسحاب المأمون من مرسية قبل القضاء على حركة ابن هود من أقوى الأسباب في في تألق نجم ابن هود وامتداد سلطانه على أغلب قواعد الأندلس، إذ سرعان ما قوى أمره، وذاع ذكره، فبسط سيطرته على شاطبة وذاينة وجزيرة شقر، وأعلنت غرناطة وجيان ومالقة وقرطبة وماردة وبطليوس دخولها في طاعته كما اعترف ابن الرميى بطاعته في المريه^(١). بل أن أشبيلية التي كانت بالفعل حاضرة الموحدين في الأندلس لم تلبث هي الأخرى أن حلت حذو هذه المدن، فلم يكد المأمون يغادرها مبحراً إلى المدرة حتى اجتمع أهلها في اليوم الثاني من عيد الأضحى سنة ٦٢٦هـ/ ٣١ أكتوبر ١٢٢٩م بموضع يعرف بالنخيل، وأعلنوا خلع طاعة الدولة الموحدية، والاعتراف بطاعة ابن هود في ظل الخلافة العباسية، وكتب عنهم أبو بكر ابن البناء إلى ابن هود كتاباً يعلمه بذلك، وأجابهم باسم ابن هود أخوه أبو بكر الحسن عضد الدولة بتاريخ ١٧ من ذى الحجة سنة ٦٢٦هـ/ ٦ نوفمبر ١٢٢٩م، مهتماً على اجتماعهم على الطاعة ودخولهم في حزب الجماعة، وعلى قيامهم بالدعوة العباسية فأرسل ابن هود إليهم والياً من قبله هو أخوه أبو النجاة سالم عماد الدولة^(٢)، كما قلد الغشتى قائد الأساطيل بها والنظر في أحوالها^(٣).

وقد امتدت سيطرة ابن هود على حضرة أشبيلية زهاء ثلاث سنوات إلى أن نكث أهل أشبيلية ببيععتهم له وأخرجوا منها عماد الدولة ونادوا بزعيم أشبيلي هو القاضي أبو مروان أحمد بن محمد الباجي سنة ٦٢٩هـ^(٤).

(١) ابن عذاري، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٦٩؛ المراكشي، المصدر السابق؛ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٨٢؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٦٣.

(٢) ابن عذاري، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٧٠، ص ٢٧٩؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٦٣.

(٣) ابن عذاري، نفس المصدر والقسم، ص ٢٥٧.

(٤) نفس المصدر والقسم، ص ٢٧٨.

د - صدى ثورة ابن هود على الأوضاع فى بلنسية :

كانت ولاية بلنسية قد أسندت منذ سنة ٦٢٠هـ إلى السيد أبى زيد عبد الرحمن بن أبى عبد الله محمد بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن^(١)، ولما تمكن ابن هود من الاستيلاء على مرسية، خرج السيد أبو زيد فى قواته لمحاربتة ولكنه انهزم وارتد إلى بلنسية، ومنها بعث يستصرخ أبا العلاء المأمون لنجدة، ولكن هذا الأخير لم يستطع أن ينجده على الرغم من وعده بالذهاب لمساعدته، ووجوده على مقربة من مرسية، إذ اضطر إلى العودة سريعاً إلى أشبيلية والجواز إلى العدو لمواجهة خصمه القوى يحيى بن الناصر الملقب بالمعتصم فى الحاضرة مراكش. ولهذا اضطر السيد أبو زيد إلى الاعتماد على نفسه فى عاصمته بلنسية.

وسرعان ما سرت الانتفاضة العارمة ضد الموحدين فى الأندلس إلى بلنسية، قادها واحد من أبرز رؤسائها، هو أبو جميل زيان بن أبى الحملات مدافع بن أبى الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش من أعقاب أسرة بنى مردنيش التى استقر أعقابها بعد وفاة محمد بن سعد فى بلنسية، وكان إلى جانب أبو جميل زيان ببلنسية وأحوازها عشرة من رؤساء بيته من الأخوة أو أبناء العمومة تقلدوا الرئاسة فى شرق الأندلس فى أخريات الدولة الموحدية^(٢)، فلما هبت ريح الثورة فى الأندلس على الموحدين والنصارى فى آن واحد خاض الفتنة مع الخائضين^(٣)، وكان أبو جميل، عميد هذه الأسرة المردنشية - يشغل فى ولاية أبى زيد منصباً رفيعاً - إذ كان كبير بطانته وصاحب أمره^(٤)، فلما انهزم السيد أبو زيد على يد ابن هود وتحصن فى بلنسية بعد أن تقاعس المأمون عن نجدة اضطررت الثورة فى نفوس أهل بلنسية والتفوا حول الرئيس أبى زيان بن مردنيش، ونادوا برياسته، فوقعت الوحشة بينه وبين السيد أبى زيد واضطر إلى الخروج من بلنسية وامتنع بحصن أندا Onda الذى لا يبعد كثيراً عن بلنسية، واشتد هياج جماهير بلنسية بعد خروج رئيسهم عنها كما اشتد سخطهم على واليهم الموحدى، فخاف السيد أبو زيد على نفسه وأثر أن يرحل منها هو وأهله وولده، ولما ألغى سلطان الموحدين ينهار أمام عينيه لم يجد يداً من اللجوء إلى جاقمة ملك أرغون، فقصدته هو وكاتبه أبى عبد الله محمد ابن أبى بكر القضاءى المعروف بابن

(١) ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٣٦٠.

(٢) محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ٣٩٤.

(٣) نفس المرجع والصفحة.

(٤) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الخاص بالأندلس، ص ٢٧٢؛ وراجع أيضاً: ابن

خلدون، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٦٠؛ محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ٣٩٤.

الآبار في ٢٦ صفر سنة ٦٢٦هـ واعتصم بحصن شيرب Segarbe^(١) في نفس اليوم الذي دخل فيه الرئيس أبو جميل زيان بلنسية^(٢)، ويذكر ابن عذارى أن السيد أبا زيد دخل في دين النصارى^(٣)، ويذكر أبارس Ibars أنه تنصر واختار اسماً نصرانياً هو بجنت Vicente وأنه تزوج من مسيحية^(٤). أما أبو جميل زيان بن مردنيش فقد توجه إلى بلنسية فدخلها يوم الاثنين السادس والعشرين من شهر صفر سنة ٦٢٦هـ/يناير ١٢٢٩م، وأقام بالقصر، وأخذ البيعة لنفسه في أول ربيع الأول من السنة المؤرخة، وأمر بالخطبة للخليفة العباسي المستنصر، وبايعته مدينة دانية، واستولى في رجب من السنة المؤرخة على قرينيره، كما بايعته جنجاله فامتد ملكه وعظمت سلطوته^(٥). ومع ذلك فإن معظم نواحي إقليم بلنسية لم تعترف بسيادة زيان، إذ خرج عليه الرئيسان أبو زكريا وأبو عبد الله ابنا الرئيس أبي سلطان عزيز بن أبي الحجاج بن سعد أبناء عمومته، الرئيسان في شاطبة وجزيرة شقر ودخلا في طاعة ابن هود^(٦).

هـ - موقف ابن هود من انتزاع أبي جميل زيان بلنسية :

لم يرض ابن هود بظهور منافس جديد له على الزعامة في الأندلس، لا سيما أن هذا المنافس الجديد ينتمى إلى أسرة عريقة لها في نفوس أهل شرق الأندلس ذكريات حبيبة، وحظيت بتأييد عامة أهل بلنسية ونواحيها، فحاول ابن هود تجنب الصدام الوثيك بينه وبين الرئيس أبي جميل زيان صاحب بلنسية، فبعث يدعوه إلى الدخول في طاعته وأن يحذو حذو أبناء عمومته في دانية وجزيرة شقر بهدف توحيد الصف وتدارك الآثار البعيدة المترتبة على هذه الفتنة المبيرة التي تعرض الإسلام في الأندلس إلى خطر مختوم، كذلك وجه الفقيه أبو بكر عزيز بن خطاب، عميد علماء مرسية، رسالة إلى صنوة الخطيب أبي عبد الله بن قاسم بلنسية يحثه فيها على مخاطبة الرئيس أبا جميل زيان للدخول في طاعة أمير المسلمين ابن هود، تفادياً لوقوع عواقب خطيرة^(٧).

(1) Gaspar Remiro, op.cit., p. 276; Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 230.

محمد عبد الله عنان، نفس المرجع، ص ٣٩٥.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص ٢٧٢.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٧٠.

(4) Ibars, op.cit., pp. 622-625.

(٥) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص ٢٧٢.

(٦) ابن الخطيب، الإحاطة، المجلد الثاني، ص ٢٨٠؛ وراجع أيضاً: ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٦٣.

Gaspar Remiro, op.cit., p. 276.

(٧) انظر نص الرسالة، ملحق رقم (١)، مأخوذة من كتاب «زواهر الفكر وجواهر الفقر» لمحمد بن علي ابن عبد الرحمن المكنى بابن المراتب، مخطوط الأسكوريال رقم ٥١٨ الفزيري (ديزنبور ٥٢٠)، لوحات ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠؛ وانظر أيضاً: محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ٣٩٥.

ولكن أبا جميل زيان لم يستجب لدعوة ابن هود فيدخل في طاعته، الأمر الذى حمل ابن هود على أن يزحف فى قواته إلى بلنسية لإخضاعها لسلطانه فخرج الرئيس أبو جميل زيان للملاقاته خارجها، فوقعت عليه الهزيمة، واضطر إلى الانسحاب إلى بلنسية والتحصن بداخل أسوارها، فتبعه ابن هود فى قواته حتى أسوار بلنسية، وضرب عليها الحصار^(١).

وفى هذه الأثناء كان أعداء الإسلام فى أسبانيا يفترون أفواههم لالتهام ما بقى من ملك المسلمين فى شبه الجزيرة، وكانت أوضاع المسلمين فى هذه البلاد قد ساءت إلى حد أتاح الفرصة أمام قوى أسبانيا المسيحية للانتقضاء فى يسر على أشلاء الأندلس التى طحتها الفتن ومزقتها الثورات، فاستأثر ملك أرغون جاقمة بشرق الأندلس، أما ألفونسو التاسع ملك ليون فبعد أن تمكن من قاصررش فى سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٧م أخذ يوجه نظره للاستيلاء على بقية مدن الغرب مستغلا فرصة اشتغال الخليفة المأمون بالصراع مع منافسه فى المغرب فى التفرغ للدفاع عن دولته فى الأندلس، وانبعث الفتنة الثانية الطاحنة داخل أسبانيا الإسلامية ونشوب الحرب الأهلية بين ابن هود والرئيس أبى جميل زيان لتحقيق أعز أمانيه وهى السيطرة على كل منطقة الغرب بقواعدها الرئيسية بطليوس ومارده ثم أشبيلية، وفى أواخر سنة ٦٢٩م/١٢٢٧هـ، سار جنوباً فى اتجاه نهر وادى يانه، واستولت إحدى فرقه إخوان شنت ياقب Los Freires de Santiago على حصن منتانجش، Montanchez الواقع إلى الشمال من مارده، ثم زحف بقواته بعد ذلك صوب مارده Mérida وأحكم حولها الحصار، وفى هذه الأثناء كان ابن هود قائماً على حصار بلنسية فلما بلغه نبأ تضيق ألفونسو الحصار حول مارده أسرع فى حشد قواته، وتوجه لإنقاذ مارده، ونشبت بين قواته وقوات ألفونسو معركة عنيفة عند حصن الحنش Alanje انتهت بهزيمة ابن هود وانسحابه إلى أشبيلية وعندئذ دخلت قوات ألفونسو مدينة مارده^(٢). وعلى الرغم من امتداح المصادر العربية لموقف ابن هود فى مبادرته لإنقاذ مارده من حصار الليونيين، إلا أن ابن عذارى يوجه إليه مسئولية سقوطها، فيشير إلى أن ابن هود، اندفع فى ساقته فى مصاف قوات العدو، ففقدت باقى قواته أثره، فولوا منهزمين، ويعلل ابن عذارى هذا التصرف من ابن هود بأنه كان من طبعه «ملولا عجولا»^(٣).

(١) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ ٤، ص ٣٦٣.

(2) Huici Miranda, Historia political, t. II, p. 478.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٧٠؛ وراجع أيضاً: ابن الخطيب، الإحاطة، جـ ٢، ص ٢٨٠؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ ٤، ص ٣٦٣.

Gaspar Remiro, op.cit., p. 277; Huici Miranda; Valencia Musulmana, t. III, pp. 243-244.

وبعد أن استولى الليونيون على ماردة قصدوا بطليوس فلم تلبث أن سقطت بدورها في منتصف عام ٦٢٧هـ/ مايو ١٢٣٠^(١).

٢ - فشل ابن هود في مواجهة المد القشتالي والأرغوني

١ - ظهور محمد بن يوسف بن نصر منافسا لابن هود:

كان لبزوغ نجم سيف الدولة بن هود في الأندلس، والنجاح السريع الذى حققه بعد جواز المأمون إلى أرض المغرب، وسيطرته على أغلب قواعد الأندلس باستثناء بلنسية التى انتزى بها الرئيس أبو جميل زيان بن مردنيش أعظم الأثر فى انعاش آمال أهل الأندلس لإنقاذ ما بقى من دولة الإسلام فى أسبانيا، ولكن إخفاق ابن هود فى ضم بلنسية، وفشله فى استنقاذ مارده ويطليوس، وتركه قرطبة قاعدة الأندلس، كل ذلك أفقده شعبيته التى كانت سر شهرته وأفسح المجال لظهور زعيم أندلسى جديد وضع فيه أهل الأندلس مناط أملهم بعد أن خيبه ابن هود، ذلك هو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس من أسرة بنى الأحمر المعروفين ببني نصر سادة حصن أرجونة من أعمال جيان، ويرتفع نسب محمد بن يوسف بن نصر إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج، وأصل هذه الأسرة من حصن أرجونة Arjona الواقع ما بين جيان وقرطبة، وكان محمد بن يوسف بن نصر بطلا شجاعا وفارسا مقداما فى المعارك والحروب دعا لنفسه بادئ ذى بدء فى أرجونه موطن أسرته وما والاها من نواحي فى سنة ٦٢٩هـ، واستند فى دعوته على الدعاء للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب أفريقية وقد تلقى منه بعض العون، ولكنه عاد فدعا للخليفة العباسى، المستنصر بالله^(٢).

وفى العالم التالى ٦٣٠هـ دخل محمد بن نصر مدينة جيان Jaén وبويع له

(١) Gaspar Remiro, Ibid, p. 277.

(٢) راجع: ابن عذارى، المصدر السابق، ق٣، ص ٢٧٩؛ ابن أبى زرع، المصدر السابق، ص ١٨٢؛ ابن سعيد المغربى، المغرب فى حلى المغرب، ج٢، ص ١٠٨؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ٩٢-٩٥، ص ٩٧؛ وله أيضا: اللوحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية، تحقيق الأستاذ محب الدين الخطيب، القاهرة، ١٣٤٧هـ، ص ٢١؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج٤، ص ٣٦٦؛ السلاوى، الاستقصا، ج٢، ص ٢١١؛ أحمد مختار العبادى، دراسات، ص ٢٢٦-٢٢٧.

فيها، وذلك بمعاونة أبي مروان عبد الملك بن يوسف بن صناديد أحد رؤساء جيان^(١)، كما بايعته مدينة شريش Jerez^(٢)، ولم تلبث أن أطاعته كل من قرطبة وقرمونة اللتين نبذا دعوة ابن هود^(٣).

ثم تطلع محمد بن نصر إلى مد نفوذه على أشبيلية فتصاهر مع قاضيهما أبي مروان أحمد بن محمد الباجي على ابنته، وتحالف معه على نبذ الطاعة لابن هود، ولم يلبث الباجي أن ثار على ابن هود وأخرج واليهما عماد الدولة أبا النجا سالم منها في عام ٦٢٩هـ، وبقي أمرهم شوري بينهم يرجعون فيه لأمر قاضيهما أبي مروان أحمد بن محمد الباجي الذي رفض في البداية بيعه أهل أشبيلية إلى أن وصلته بيعة قرمونة في السنة التالية فقبلها^(٤).

ويستفاد من رواية ابن الخطيب أن ابن الأحمر انتهز فرصة قيام أهل أشبيلية على ابن هود وطردهم لأخيه عماد الدولة أبي النجا الوالي عليهم، فقدم إلى أشبيلية ونازلها وتملكها وكان ذلك في أخريات ربيع الأول عام ٦٢٩هـ^(٥)، وإن كان صاحب «روض القرطاس» يرجع ذلك إلى أوائل سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م^(٦) ودامت سيطرة ابن الأحمر عليها نحو شهر^(٧). ثم تطلع إلى الغدر بصهره الباجي فثار عليه أهل أشبيلية وعادوا الدعاء لابن هود وكان قد استولى على قرطبة في شهر رجب عام ٦٢٩هـ^(٨)، ويدعو أن سيطرته عليها لم تدم إلا قليلا إذ سرعان ما انضوت مرة أخرى تحت طاعة ابن هود على نحو ما حدث في أشبيلية، غير أن صاحب «الروض القرطاس» يذكر في أحداث عام ٦٣٠هـ أن قرطبة رجعت إلى طاعة محمد بن الأحمر^(٩).

(١) ابن عذاري، نفس المصدر والقسم، ص ٢٧٩؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٢، ص ٩٦؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٦٦.

(٢) ابن عذاري، نفس المصدر والقسم، ص ٢٧٩؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٦٦.
(٣) ابن عذاري، نفس المصدر والقسم، ص ٢٧٩؛ السلاوي، الانتقبا، ج ٢، ص ٢١١؛ وراجع أيضا: Gaspar Remiro, op.cit, p. 280; Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 246.

(٤) ابن عذاري، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٧٩؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٦٧، ويذكر المقرئ أنه لما قام الباجي بأشبيلية وخلع طاعة ابن هود، وأبدل شعاره الأسود العباسي في البنود قال أبو محمد عبد الحق الزهري القرطبي في ذلك:

كأنما الراية السوداء قد تعبت . . . لهم غرابا بين الأهل والولد
مات الهري تحتها من فرط روعته . . . فأظهر الدهر منها بسمة الكمد

انظر: نفع الطيب، ج ٤، ص ٢٩٢.

(٥) الإحاطة، ج ٢، ص ٩٤.

(٦) روض القرطاس، ص ١٨٣.

(٧) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٢، ص ٩٤.

(٨) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٩) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٨٣.

ثم رأى ابن الأحمر أن عداؤه لابن هود يبعثر قوى الإسلام ويدعم قوى النصرانية وغلب عليه إحساسه الديني، ولم يأنف أن يضع يده في يد خصمه لصالح الإسلام، ولعله كان يهدف من ذلك أن يكسب دعماً أديباً في نظر أهل الأندلس لاسيما بعد أن وصل العهد الخلافي من بغداد لابن هود، الذي اعتبره دعماً سياسياً له في الأندلس، وهكذا جنح ابن الأحمر إلى الصلح على أن يعترف بطاعة ابن هود مقابل أن يقره هذا على جيان وأرجونة وأحوازها وبركونة وتم عقد الصلح بينهما في شوال سنة ٦٣١هـ/يونية ١٢٣٤م^(١).

ب- سقوط جزيرة ميورقة:

ظلت جزيرة ميورقة منذ أن انتزعها الموحدون من أيدي بنى غانية سنة ٦٠٠هـ تابعة للخلافة الموحدية، وكانت تتبع من الناحية الإدارية ولاية بلنسية ولهذا فقد تعاقب عليها ولاية الموحدين، ونعتقد أن والي ميورقة أصبح منذ أن انفرد أبي جميل زيان بحكم بلنسية يتبع مباشرة الخلافة الموحدية، وكان يلي ميورقة في الوقت الذي احتدمت فيه الفتنة أبو يحيى بن يحيى بن أبي عمران التينمللي^(٢)، وهو في الترتيب رابع ولاتها الموحدين منذ أن افتتحوها سنة ٦٠٠هـ، ولكن رواية ابن عميرة المخزومي في كتابه «تاريخ ميورقة» تشير إلى أن أمير الجزائر الشرقية في ذلك الوقت هو محمد بن علي بن موسى الذي وليها سنة ٦٠٦هـ^(٣)، ويرجح الأستاذ محمد عبد الله عنان الرواية الأولى استناداً إلى أن الرواية النصرانية المعاصرة ومنها تاريخ الملك جاقمة نفسه تؤكد أن أبا يحيى كان يلي الجزيرة في هذا الوقت^(٤).

حظي مشروع فتح الجزائر الشرقية (البليار) باهتمام كبير من جانب أقماط برشلونة ثم ملوك أرغون تأميناً لمواصلاتها وتجارتها، وجمهورية بيزة وجنوة وذلك للحد من غزوات ولاتها المسلمين في مياه السواحل النصرانية، وقد بارك الكرسي البابوي في روما هذه المحاولات، ففي سنة ١١٤٦م/٥٤١هـ منح رامون برنجر الرابع،

(١) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ١٨٣؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٦٤.

(٢) ابن خلدون، العبر، ج ٦، ص ٥١٦؛ الحميري، المصدر السابق، ص ١٨٥؛ السلاوي، الاستقصا، ج ٢، ص ١٩٥.

(٣) المقرئ، نفع الطيب، ج ٦، ص ٢١٢، وهو أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن عميرة المخزومي، بلنسي شقوري الأصل يكنى أبا مطرف؛ راجع: ابن الخطيب، الإحاطة، ج ١، ص ١٧٣.

(٤) محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ٤٠٣؛ وفيما يتعلق بالرواية الأسبانية المعاصرة ارجع إلى: The Chronicle of James I, King of Aragon surnamed the conqueror (Written by himself), translated from the catalan by the late john forster ESQ, Vol. I, London, 1883, p. 170; La Furcente (M): Historia General de Espana, t. IV, p. 77, No. 2.

المتحمس لفتح جزر البليار، جيرمو رامون دى مونكادا -Guillerna Ramon de Mon- cada وخلفائه لقب سيد اقطاع، بالإضافة إلى جملة إيرادات فى قطلونية وبلنسية مع ثلث إيرادات مدينة ميورقة ونواحيها، مع تقديم نفس هذه الامتيازات بالنسبة لجزيرتى يابسة ومنورقة، ولكن دى مونكادا لم يقيم بتنفيذ هذا المشروع الهام^(١).

وفى العام التالى ١١٤٧م/٥٤٢هـ، اتفق رامون برنجير الرابع أيضاً مع الجنيرين بموجب اتفاقات وشروط معينة على مساعدته بأسطولهم لفتح مدينة طرطوشة والجزائر الشرقية، لكنه فى النهاية قرر الاكتفاء بفتح مدينة طرطوشة مرجئاً مشروعه بالنسبة للجزائر الشرقية^(٢).

وفى عام ١١٧٨م/٥٧٤هـ، عزم ألفونسو الثانى أيضاً على تحقيق مشروع فتح جزر البليار، وفى سبيل تحقيق هذا الهدف قدم عدة تسهيلات لبعض السفن الصقلية عن طريق أحد أقماطه ويدعى ألفونسو، والظاهر أن هذا المشروع تعرض لبعض العراقيل التى أرجأت تنفيذه إلى حين^(٣).

وفى سنة ١٢٠٤م/٦٠١هـ أى بعد أن افتتح الموحدون الجزائر تجددت رغبة دول النصرانية فى انتزاع هذه الجزر من أيدي المسلمين وتحمس لذلك ملوك أرغون وعلى الأخص عزم الملك بدور الثانى الأرغونى الذى تم تنويجه فى روما على يد البابا Sumo Pontifice على تحقيق مشروع فتح جزر البليار، فاتفق مع جمهوريتى بيزة وجنوة على مساعدته فى تحقيقه ولكن هذا المشروع أيضاً لم يقدر له أن يوضع موضع التنفيذ، وربما يرجع ذلك إلى تراجع التجار الإيطاليين عن الوفاء بالتزامهم لارتباطهم الودى مع مسلمى ميورقة^(٤).

وكانت خاتمة هذه المحاولات من نصيب ابنه جاقمة (خايمى الأول) وهى المحاولة التى تكللت بالنجاح وبانتهاء السيطرة الإسلامية نهائياً على جزيرة ميورقة، وساعده فى تحقيقها انهيار سلطان الموحدين فى الأندلس وتمزق وحدة البلاد.

ويستفاد من رواية الخزومى عن سبب غزو الأرغونيين لميورقة، أن والى الجزيرة بعث طريدة بحرية ومعها سفينة حربية إلى جزيرة يابسة لتأتى إليه بالأخشاب التى يحتاج إليها، فعلم بهذا الأمر والى طرطوشة النصرانى، فبعث بقوة بحرية استولت

(1) Alvaro Campaner y Fuertes, Bosquejo historico de la dominacion Islamita en los islas Balears, p. 176.

(2) Campaner y Fuertes, Ibid, p. 176.

(3) Ibid, p. 177.

(4) Ibid, p. 177.

عليها، فغضب الوالى لذلك، وعزم على غزو مياه بلاد الروم، وفى آخر شهر ذى الحجة ٦٢٣هـ/أوائل سبتمبر ١٢٢٥م، بلغه أن سفينة من برشلونة ظهرت فى مياه يابسة، وأخرى من طرطوشة انضمت إليها، فبعث الوالى ولده فى عدة قطع بحرية، فرسى فى مياه يابسة، ووجد فيها مركباً جنوباً كبيراً، فاستولى عليه وعلى السفينة البرشلونية، فلما وقف الروم على ما حدث، استشاطوا غضباً، وأهابوا بملكهم أن يقوم بغزو الجزيرة، وعرضوا عليه أن يتطوعوا بأنفسهم وأموالهم، فأخذ عليهم العهد بذلك، وجمع عشرين ألفاً من أهل البلاد، وجهز فى البحر ستة عشر ألفاً آخرين اشترط عليهم حمل السلاح وتم ذلك فى سنة ٦٢٦هـ (١).

وتذكر الرواية النصرانية أن الملك جاقمة أخذ يعد العدة منذ ٢٩ أبريل سنة ١٢٢٩م لحملته ضد ميورقة (٢). وكان قد استدعى مجلس البلاط القطلانى فى برشلونة فى شهر ديسمبر سنة ١٢٢٨م/٦٢٥هـ، وعرض عليه مشروعه لفتح ميورقة، مستهدفاً من وراء ذلك تأمين تجارة قطلونية فى البحر المتوسط، فوافق المجلس على مشروعه، كما وافق على أن يقوم الملك بتحصيل ضريبة «الماشية القرنية» للمعاونة فى نفقات الحملة، وعندئذ بدأ الملك جاقمة فى حشد قواته التى أسهم بالاشتراك فيها كبار الرهبان بالإضافة إلى أكابر الأشراف القطلان، وفى مقدمتهم نونيو سانثيز قمط روسيون، وهوجو دى إمبيرياس، والأخوان رامون وجيين دى مونكادا وكثير غيرهم فضلاً عن عدد كبير من الفرسان والرماة والجند، وتعهد الملك من جانبه بتقسيم الأراضى المفتوحة، والغنائم المكتسبة بالعدل بين المساهمين فى هذه الحملة وفقاً لما قدموه من نفقات، واحتفظ الملك لنفسه بالقصور والسيادة العليا على الحصون والقلاع، وأقسم الجميع على ذلك، واتفقوا على عقد اجتماع نال فى طرطوشة بعد تأدية المهمة فى شهر أغسطس من العام التالى (٣).

وفى الخامس من شهر سبتمبر ١٢٢٩م/١٤ شوال سنة ٦٢٦هـ، خرج أسطول أرغونة وقوامه ١٥٥ سفينة من ميناء طركونة وكامبريلس يحمل ألفاً وخمسمائة من الفرسان وخمسة عشر ألفاً من المشاة دون احتساب الأعداد الهائلة من متطوعي جنوة وبروفانس، حتى وصل إلى خليج بلمه، وكان والى الجزيرة أبو يحيى قد علم بأمر هذه التجهيزات العسكرية الضخمة فاستعد لتلقيها وحشد لهذا الغرض ألف فارس ومثلهم من فرسان الرعية والحضر علاوة على ثمانية عشر ألفاً من المشاة،

(١) فى : المقرئ، نفح الطيب، ج٦، ص ٢١٢-٢١٣؛ محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ٤٠٣.

(2) Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 230.

(٣) محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ٤٠٤.

واتفق فى هذه الآونة أنه اكتشف مؤامرة للإطاحة به، فأمر بالقبض على أربعة من أعيان الجزيرة، أمر بإعدامهم فى منتصف شوال، كما اعتقل نحو خمسين آخرين من أبرز أعيان الجزيرة، فهابه الناس وتوجسوا منه خيفة فى الوقت الذى أقبلت فيه سفن النصارى وظهert منها فى مياه البحر مائة وخمسين سفينة، فبادر أبو يحيى بالصفح عن خصومه وأمر بالتجهيز لدفع النصارى^(١).

ورغم وسائل الدفاع المحكمة التى اتخذها المسلمون فى الجزيرة، فقد استطاعت سفن القطلان الرسو ليلا بكل يسر فى خليج ميورقة، وفى الحال نزلت طلائع النصارى بقيادة برناردو دى ارختونا إلى أرض الجزيرة واشتبكوا مع المسلمين وتصدى لهم هؤلاء فى عنف واشتد القتال بين الفريقين يوم الاثنين ١٨ شوال^(٢)، وعلى الرغم من تفوق المسلمين على أعدائهم فقد ارتدوا مسرعين وامتنعوا داخل مدينتهم بعد أن كبّدوا أعدائهم خسائر هائلة فى الأرواح، وعندئذ أحكم النصارى الحصار حول مدينة ميورقة، واستمروا فى ضربها بشدة بمختلف آلات الحصار، حتى تمكنوا فى النهاية من اقتحامها من باب الكحل^(٣) يوم الاثنين الموافق ١٣ صفر ٦٢٧هـ/ ٣١ ديسمبر ١٢٢٩م^(٤) والتحموا مع قوات المسلمين فى معركة ضارية، كانت لهم الغلبة فيها، وتمكنت قوات النصارى فى النهاية من السيطرة تماماً على المدينة بعد أن قتل من المسلمين أربعة وعشرون ألفاً وأسروا والى وعذب، ومات بعد ذلك بخمسة وأربعين يوماً^(٥). ويصف صاحب «روض القرطاس» سقوط ميورقة بأنه «الحادث الأعظم على ميورقة وأعادها الله للإسلام»^(٦).

والملاحظ أن الروايات المسيحية تبالغ فى عدد ضحايا المسلمين عقب المذبحة التالية للهجوم، وتفصح هذه الروايات دون موارد عن عدد قتلى المسلمين فبعضها

(١) فى : المقرئ، نفع الطيب، ج٦، ص ٢١٣-٢١٤؛ وحسب Marsilio فإن عدد المراكب الكبيرة للنصارى كانت ١٥٥ دون حساب للمراكب الصغيرة؛ راجع :

Campaner y Fuertes, op.cit, p. 183, Nota I.

(٢) يبدو أن هذه المعركة التى يشير إليها المخزومى، هى معركة Santa Ponza التى وقعت يوم الأربعاء الموافق ١٢ سبتمبر ١٢٢٩؛ راجع :

Cuadrads (Jose M.), Historia de la conquista de Mallorca, Plana, 1850, p.231, Nota I.

(٣) باب الكحل، وهو المعروف فى كتاب التقسيم وفى المدونات المسيحية باسم Bebe-Alcohol، ويقع فى شمال مدينة ميورقة، والذى يطلق عليه اليوم -Puerta de la Rincona- Rincón؛ راجع : da Campaner y Fuetes, op.cit., p. 187.

(٤) ابن الأبار، التكملة، ترجمة رقم ٤٠٠، ٦٣١؛ الحميرى، المصدر السابق، ص ١٩١.

(٥) المقرئ، نفع الطيب، ج٦، ص ٢١٤.

(٦) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ١٨٢.

يقدرهم بخمسين ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير، والبعض الآخر بعشرين ألف قتيل فقط^(١)، ومهما يكن الأمر فإن العدد الذى ذكره الخزومى فى روايته وهو أربعة وعشرين ألفاً رغم ضخامته يتفق مع جسامه المعركة.

وهكذا انتهى فتح جزيرة ميورقة كبرى الجزائر الشرقية، وتم استيلاء جاقمة (خايمي الأول) على عاصمتها، غير أن الخزومى يضيف فى روايته أن أبى حفص بن سبى لما رأى أن العدو قد استولى على البلد خرج إلى الجبل وتبعه جماعة كبيرة، فصعده وتحصن به واجتمع له ستة عشر ألف مقاتل، واستعد للمقاومة حتى النهاية، واستمرت المعارك متصلة بينه وبين قوات جاقمة أكثر من عام، إلى أن قتل فى العاشر من ربيع الآخر سنة ٦٢٨هـ/ ١٣ فبراير ١٢٣١م، وتم استيلاء النصارى على الحصون فى آخر رجب من نفس العام، ويضيف أنه فى شهر شعبان نزل بقايا المسلمين المتحصنين بالجبل صلحاً وهاجروا إلى بلاد الإسلام^(٢).

جـ - سقوط جزيرة يابسة :

أصبح من الواضح بعد سقوط جزيرة ميورقة كبرى الجزائر الشرقية فى أيدي جاقمة أن سقوط جزيرتي منورقة ويابسة قد بات وشيك الوقوع، سهل التحقيق، لكن جاقمة ملك أرغون كانت لديه خططه ومشاريعه فى بلنسية، فتخلى مؤقتاً عن مشروعه فى إخضاع الجزيرتين، واكتفى باعتراف منورقة بسيادة أرغون والتزامها بدفع جزية سنوية له، كما يشير صاحب «نفح الطيب» فى روايته : «ولما استولى النصارى على ميورقة فى التاريخ المتقدم، ثار بجزيرة منورقة وهى قرية منها، الجواد العالم أبو عثمان سعيد بن حكم القرشى، وكان وليها من قبل الوالى أبو يحيى المقتول، وتصلح مع النصارى على ضريبة معلومة، واشترط أن لا يدخل جزيرته أحد من النصارى وضبطها أحسن ضبط»^(٣).

وأما جزيرة يابسة فتلزم الرواية الإسلامية الصمت تجاهها سواء عن وضعها بعد

(1) Campaner y fuertes, op.cit., p. 188 y Nota 2.

(٢) فى: المقرئ، المصدر السابق، ج٦، ص ٢١٤، وراجع أيضاً: ابن عبد الملك المراكشي (أبى عبد الله محمد)، كتاب الذيل والتكملة لكتاتيب الموصول والصلة، السفر الأول، القسم الأول، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، ص ٣٤٥، ترجمة رقم ٤٣٦ لأحمد بن على الأنصارى، ميورقى أبو العباس، ويقول أنه لما تغلب الروم على ميورقة عنوة كان من انضوى إلى جبلها، فلما نزل الناس منه صلحاً فى شعبان ٦٢٨هـ نفذ إلى بجاية، ويضع ابن الآبار سقوط ميورقة يوم الاثنين الرابع عشر من صفر سنة ٦٢٧هـ؛ راجع: التكملة، السفر الثانى، ص ٣٣٥، ترجمة رقم ٩٨٣، محمد بن أحمد بن عبد الدود.

(٣) المقرئ، نفح الطيب، ج٦، ص ٢١٥.

سقوط ميورقة أو عن خطة الاستيلاء عليها، ولكن الرواية النصرانية توضح لنا خطة الاستيلاء على هذه الجزيرة بالتفصيل، يذكر المؤرخ مارسيليو Marsilio أن في عام ١٢٣٤م/٦٣١هـ، وصل خايمي الأول إلى مدينة Alcanize فقدم إليه جيرمودى مونترجى Guillermo de Montgri قديس جرنده Gernona، المرشح لأسقفية طركونة Tarragona، وعلم من الملك خايمي الأول أنه لا يفكر في فتح جزيرة يابسة، فعرض الأسقف عليه اقتراحاً مؤداه أن يتولى هو إخضاعها لشرف الكرسي الرسولي الطركوني تحت سيادة مملكة أرغون، فراقت للملك فكرته ولم يتردد في قبول مشروعه^(١). واحتفل العاهل الأرغوني والأسقف بهذه المناسبة في ٧ ديسمبر سنة ١٢٣٤م، وعندئذ وافق خايمي الأول على تنصيب الأسقف المنتخب وخلفائه في الكرسي الرسولي لنفس المدينة مع منحه إيراداتها وإقطاعه جزيرة يابسة للكنيسة بعد افتتاحها، كذلك عقد في مدينة طركونة في ٧ أبريل ١٢٣٥م اجتماع ضم جيرمودى مونترجى والأمير بدرو البرتغالي Pedro de Portugal والقمط ننيو سانشيس Nuno Sanchez قمط روسيلون Conde de Rosellon، وتم في هذا الاجتماع الاتفاق على افتتاح جزيرة يابسة^(٢).

ولم تذكر الرواية النصرانية تفاصيل هامة عن استيلاء النصارى على الجزيرة، غير أن الرواية الإسلامية رغم إيجازها تلقى بصيصاً من الضوء حول هذا الموضوع، فابن أثير يذكر أن الأرغونيين نزلوا بجزيرة يابسة عام ٦٣٢هـ/١٢٣٥م فقاومهم أهلها المسلمون، واستمر الصراع بين أهل المدينة والفاطحيين النصارى نحو خمسة أشهر، انتهى بغلبة النصارى واضطر المسلمون إلى التسليم، واستولى الأرغونيون على الجزيرة^(٣).

د - نهاية ابن هود:

عندما تعرضت قرطبة لغزو القشتاليين في سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م واستولى هؤلاء على الجانب الشرقي منها غدراً في ثالث شوال في غفلة السمار، بعث أهل قرطبة على الفور يستجدون بابن هود في مرسية، فخرج إلى نجدتها في جيش كثيف، على أنه ما كاد يصل إليها حتى بلغته رسالة من أبى جميل زيان صاحب بلنسية يطلب منه أن يأتى لإنجاده من غزو ملك أرغون، فأثر ابن هود أن يتوجه إلى بلنسية تاركاً قرطبة لمصيرها التعس، وعقب مغادرة ابن هود قرطبة وتخليه عن إنجاده

(1) Marsilio en, Cuadrado, op.cit., pp. 344-346.

(2) Alvaro Campaner y Fuentes, op.cit., p. 200.

(3) روض القرطاس، ص ١٨٣.

سار في قواته إلى مرسية سالكا الطريق المار باستجه، ولا نجد في الرواية الإسلامية أية إشارة عن ابن هود غير أنه في جمادى الأول عام ٦٣٤هـ وجه إلى نوابه وعماله في مختلف قواعد الأندلس التي تخضع لطاعته كتاباً يحثهم فيه على تقوى الله، ومراعاة أحكامه وحدوده، والاقتداء بالسلف الصالح، وتوخي الحق، والحلم والأناة، والحرص على صون الدماء وحققها، وتوخي الدقة في اختيار المشرفين على الأموال من ذوى العفة والنزاهة والدين، وأن حرمة الأموال مشبهة بحرمة الدماء، وأن يكون معاملة الناس في الحق سواء، دون محاباة ولا مفاضلة، ولا تغليب قوى على ضعيف وأن يجرى العمل باتباع أحكام كتاب الله، وأمر عماله في نهاية كتابه بقراءته على الناس جملة وتفصيلاً (١).

وفي أوائل عام ٦٣٥هـ، اتجه ابن هود إلى ثغر المرية، وهنا تختلف الرواية المسيحية والإسلامية حول دوافع قصدها، فالرواية المسيحية تقول أن ابن هود توجه إلى المرية بقصد الإبحار منها في قواته لإيجاد بلنسية، إذ أن واليها أبا جميل زيان قد بعث يستغيث بابن هود وهو في استجه، فاستجاب لندائه لرغبته في امتلاك بلنسية ودخولها في طاعته (٢).

ويرى الأستاذ جاسبار ريميرو أن ذهاب ابن هود إلى المرية كان للعمل على توطيد سلطانه في المنطقة الجنوبية وإحلال السلام فيها (٣).

أما الرواية الإسلامية فتعطينا سبباً آخر لذهاب ابن هود إلى المرية، فنذكر أن ابن هود كان قد سبى في إحدى غزواته لأراضى النصارى جارية أسبانية حسناء من بنات الأشراف، ولكونه قد عاهد زوجته بأن لا يتخذ عليها امرأة طوال حياته، أودع هذه الجارية الحسنة عند أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي يحيى الرميمي واليه على ثغر المرية، الذي كان موضع ثقته وكان يدعى يذى الوزارتين، لخشية ابن هود من أن يتسرب خبرها إلى زوجته، فشغف ابن الرميمي بها، واستأثر بها، وعلم ابن هود بالخبر، فسار إلى المرية وهو يضمّر معاقبة عامله بها على فعلته، فلما وصل إلى ظاهرها استقبله ابن الرميمي بحفاوة، ودعاه إلى قصره، ليقوم بحقه فيها خير قيام، وليخلو بجاريته الحسنة فقبل ابن هود دعوته، ولما حل بالقصر عرفه بأن جاريته في الحمام، وكان ابن الرميمي قد دبر أمره للقضاء على ابن هود، فقبل أنه أدخل عليه أربعة من الرجال قبضوا عليه (٤)، ووفق رواية أخرى لأبي محمد البسطي، أنه قتل

(١) ابن عذاري، المصدر السابق، ق ٣، ص ٣٣٢، ص ٣٣٥.

(2) Primera Cronica General, p. 433.

(3) Gaspar Remiro, op.cit., p. 286.

(٤) ابن عذاري. المصدر السابق، ق ٣، ص ٣٣٥؛ ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩٩، ص ٢٥٢؛ المقرئ، المصدر السابق، ج ٦، ص ٨٩.

خفقا بمخدتين أقعدهما ابن الريمي على أنفه وفيه (١).

وفي صباح اليوم التالي الرابع والعشرين من جمادى الأول سنة ٦٣٥هـ أعلن ابن الريمي وفاة ابن هود (٢). وكان المتوكل على الله محمد بن يوسف بن هود، على شجاعته وحسن نيته، سىء الحظ في رجاله، لم يخلص له أحد منهم (٣).

وعقب مصرع ابن هود بمدينة المرية، خرجت كثير من الولايات الخاضعة له عن طاعته، واستغل ابن الأحمر هذه الفرصة لفرض سيطرته عليها، ففى المرية استقل بحكمها ابن الريمي، كما خرجت غرناطة عن طاعة ابن هود قبيل مصرعه بقليل، وكان والياً من قبل ابن هود ويدعى عتبة بن يحيى المقيلى، رجلاً ظالماً، يفض محمد بن الأحمر وأمر بسبه على المنابر، فلما اشتدت وطأته ثار عليه جماعة من أهل غرناطة بزعامة محمد وأبو محمد ابنا خلف بن ولجرج في أربعين رجلاً من أهل النجدة، وقيل في مائة رجل، واقتحموا القسبة في أول رمضان سنة ٦٣٥هـ/ أبريل ١٢٣٨م، وعاثوا في قصورها وقتلوا واليها عتبة، وبعثوا إلى ابن الأحمر وبايعوه في آخر رمضان من السنة المذكورة بعد خلعهم لطاعة ابن هود، فجاءهم على الفور ابن الأحمر ونزل بخارج غرناطة ودخلها وقت الغروب، ومنذ ذلك الوقت أصبحت غرناطة حاضرة ابن الأحمر بدلاً من جيان (٤).

وما أن وصلت أخبار مصرع ابن هود، وانتزاع ابن الريمي بثغر المرية حتى اعتزم ابن الأحمر المسير إلى المرية، فسار في قواته تجاهها، وأقام على حصارها حتى ضاقت حال ابن الريمي وانقطعت آماله، فغادر المرية من جهة البحر في أهله وأمواله، وسار إلى تونس، حيث لجأ إلى أميرها الحفصي أبي زكريا وعاش في كنفه (٥).

وفي العام التالي ٦٣٦هـ، أرسل إليه أعيان مالقة بطاعتهم ووفد إلى غرناطة جماعة من أشرافها ومعهم بيعة أهل المدينة من إنشاء كاتبها الكبير ابن عسكر، فقبلها ابن الأحمر، وولى ابن عسكر قضاء مالقة (٦). وهكذا اقتصرت أملاك ابن هود، بعد موته على مدينة مرسية ونواحيها.

(١) ابن عذاري، المصدر السابق، ق ٣، ص ٣٣٦.

(٢) ابن عذاري، نفس المصدر والقسم، ص ٣٣٥؛ وانظر أيضاً: ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٢، ص ١٣٤، الذي يقول أن وفاته كانت في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة عام ٦٣٥هـ.

(٣) ابن عذاري، نفس المصدر ق ٣، ص ٢٣٦.

(٤) ابن عذاري، المصدر السابق، ق ٣، ص ٢٣٦-٢٣٧؛ ابن الخطيب، اللوحة البدرية، ص ٣٥؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٦٧؛ ابن أبي زرع الفاسي (علي)، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الرباط، ١٩٧٢، ص ٥٧.

(٥) ابن عذاري، نفس المصدر والقسم، ص ٢٣٧؛ الذخيرة السنية، ص ٥٧؛ ابن سعيد المغربي، المغرب، ج ٢، ص ١٩٩.

(٦) ابن عذاري، نفس المصدر والقسم، ص ٣٤٥.

٣ - سقوط قواعد شرق الأندلس

أ - موقعة أنيشة وسقوط بلنسية في يد جاقمة :

ظل الرئيس أبو جميل زيان والياً مستقلاً على بلنسية، وقد أشرنا فيما سبق إلى رفضه الدخول في طاعة ابن هود، وكيف خرج عن طاعته أبناء عمومته في دانية وجزيرة شقر، فلما دعم مركزه في بلنسية، وتجنب أخطار ابن هود، الذي شغلته في تلك الآونة هجمات النصارى المتكررة على غرب الأندلس ووسطها بالإضافة إلى منافسة ابن الأحمر له على زعامة الأندلس، بدأ زيان يتطلع إلى بسط نفوذه على مدينة دانية، التي كانت في ذلك الوقت جزءاً من أملاك ابن هود، وكان قد نصب عليها والياً من قبله هو أبو الحسن يحيى ابن أحمد بن عيسى الخزرجي الذي وليها بالإضافة إلى شاطبة^(١). فانتزع زيان دانية وطردها، وولى عليها ابن عمه أبا عبد الله محمد بن سبيع بن يوسف بن سعد بن محمد بن سعد الجذامي^(٢).

وقد بذل الأمير زيان قصارى جهوده لوقف تقدم الأرغونيين المتواصل داخل أراضيه بتحريض السيد أبي زيد والي بلنسية المخلوع وبمعاونة بدرو فرناندو دى أساجرا وبلاسكو دى ألسون^(٣)، بل حاول زيان فوق ذلك كله أن يغزو أراضى أرغون، منتهزاً فرصة انشغال جاقمة ملك أرغون في معظم قواته بافتتاح جزيرة ميورقة فخرج في قواته واتجه شمالاً وهاجم بنشكله Peniscola وطرطوشة Tortosa وعاث في أراضيه، ثم حاصر Uldecona دون أن يحقق شيئاً سوى إثارة غضب جاقمة عليه^(٤).

وما أن انتهى جاقمة من فتح جزيرة ميورقة، حتى أخذ يتأهب لافتتاح ثغر بلنسية، وفي ١٧ ديسمبر ١٢٣٢م وافق القفطاليون على تحصيل «ضريبة الماشية» عن كل زوج من الثيران بصفة استثنائية، لتمويل هذا المشروع، كما سعى جاقمة إلى طيع حملته المقبلة بالصفة الصليبية، وقد استجاب البابا جريجورى التاسع Gre-IX لهذا الطلب وأصدر مرسومه بإسباغ الصفة الصليبية على مشروع فتح بلنسية، واقترح بلاسكو دى ألاجون Don Blasco de Alagon الذي عاش في بلنسية لمدة

(١) ابن الآبار، الحلة السيرة، ج-٣، ص ٣٠٣؛ وله أيضاً: التكملة، ج-٢، ص ٧٢٩، ترجمة ٢٠٦٧.

(٢) ابن الآبار، نفس المصدر والجزء، ص ٣١٧؛ وراجع أيضاً:

Roque Chabas (Ilorens), Historia de la ciudad de Denia, Alicante, 1972, p. 173.

(٣) أشباخ، المرجع السابق، ص ٤٢١.

(4) The Chronicle of James I, King of Aragon, Vol. I, p. 389; Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 254.

سنتين وخدم واليها الموحدى - على جاقمة الاستيلاء على بلدة بوريانة Burriana^(١).

وفى ربيع ١٢٣٣م/أواخر ٦٣١هـ تمكنت قوات جاقمة من الاستيلاء على حصن آرش Ares ثم أردفت به حصن مورله Morella وهو من حصون إقليم بلنسية الشمالية، ولم يلبث أن أحكم سيطرته على أراضي شارقة Jerica تورس - تورس Torres-Torres، ثم زحف بقواته لحصار بلدة بوريانة^(٢)، الواقعة على البحر على مقربة من شمال بلنسية، بعد أن خرب نواحيها وعاث فيها ودمر زروعها، واشترك مع جاقمة بالإضافة إلى القوات الأرغونية الاستبارية عدد من الأشراف وفرسان الداوية والاستبارية، وقلعة رباح، ورغم دفاع أهل بوريانة المجيد لمدة شهرين، إلا أنهم اضطروه فى النهاية إلى التسليم فى شهر يوليو ١٢٣٣م، ثم سقطت بعدها عدة من الحصون منها شفيت Chisvert، وتيرفيرا Cervera و Alcalaten و Les Cuevas de Avirnonia؛ و Pulpis، وقولر Culler، وغيرها من القرى والضياح الواقعة على ضفة نهر شقر، كما استطاع جاقمة أن يستولى على ثغر قسطلونة الهام الواقع شمالى بوريانة ويصل إلى فحس بلنسية ذاته ويستولى على بعض قلاع هذه المنطقة ومنها قلعة مونكادة Moncada ومسيروس Museros القريتين من بلنسية دون أن يتجرأ زيان على الخروج إليه^(٣).

لكن الظروف الداخلية فى مملكة أرغون اضطرت عاهلها إلى العودة إلى مملكته عام ١٢٣٤م/٦٢٣-٦٢٣هـ مكتفياً مؤقتاً بما حققه من سيطرة على معظم القلاع والحصون الواقعة شمالى بلنسية.

ثم مضى نحو عامين لم يقع خلالهما أى اشتباك سوى بعض غارات خفيفة متفرقة شنتها حاميات الحصون النصرانية فى أحواز بلنسية، ولم ينس جاقمة رغم مشاغله الداخلية مشروعه لفتح بلنسية، وكان يتوق إلى الاستيلاء على حصن أنيشة^(٤)، المنيع الواقع على مقربة من شمال بلنسية حتى يتخذها قاعدة له يشن منها هجومه على بلنسية، وكان زيان يدرك أيضاً أهمية هذا الحصن وعظم خطورته

(1) The Chronicle of James I, Vol. I, pp. 222-224.

(٢) بوريانة مدينة جبلية عامرة كثيرة الخصب والأشجار والكروم وهى فى مستو من الأرض وبينها وبين البحر نحو من ثلاثة أميال؛ راجع: الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩١.

(3) Lafuente, Historia General de Espana, t. IV, pp. 82-83' Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 255.

(٤) يصف الإدريسي موقع الحصن بقوله: «وهو جبل معترض عال على البحر والطريق عليه ولايد من السلوك على رأسه وهو صعب جداً»؛ راجع: صفة المغرب، ص ١٩١، ويسمى الإدريسي هذا الموقع عقبة أنيشة (نفس المصدر والصفحة) ويطلق عليه الحميرى أنيشة، أنيعة، راجع: الروض المعطار، ص ٣٢، وتسميه الرواية الأسبانية El Puig de cebolla تل البصل، راجع الحميرى، نفس المصدر، الترجمة الفرنسية، ص ٤٠، هـ ١.

على بلنسية في حالة إذا ما سيطر الأرغونيين عليه، ولهذا قرر هدمه، وفي أوائل عام ١٢٣٦م/٦٣٣هـ سار جاقمة في قواته من قلعة أيوب بنية الاستيلاء على موقع أنيشة، ورافقه في هذه الحملة السيد أبو زيد والي بلنسية المخلوع، وهاجم جاقمة موقع أنيشة وأوقع الحامية الإسلامية التي تصدت لمقاومته، وتمكن من احتلال الموقع، ثم أمر ببناء حصن جديد منيع فوقه ترك عليه حامية أرغونية تتألف من ١١٠ من الفرسان وألفين من المشاة وعهد بقيادة حامية الحصن إلى دون برنادوجيون دى انتنزا Don Bernards Guillén de Entenza، وما أن تم له ذلك واطمأن إلى سيطرته على المناطق المحيطة ببلنسية حتى قفل عائداً إلى أرغون لتجهيز حملة جديدة لفتح بلنسية^(١).

شعر زيان بخطورة حصن أنيشة على قاعدته بلنسية، وقرر استرداده، وحشد لهذا الغرض قوات كبيرة، تبالغ الرواية النصرانية في تقديرها عدتها ستمائة فارس وأربعين ألف راجل، وسار في قواته نحو أنيشة في ٢٠ من ذى الحجة سنة ٦٣٤هـ/١٤ أغسطس ١٢٣٧م، فانقض عليه برناردو قائد حاميتها بقوة من حامية الحصن تقدر بخمسين فارساً وألف راجل، ولكن زيان استطاع بقواته أن يتصدى لهذا الهجوم الأرغوني المفاجئ، وكاد يوقع به الهزيمة، لولا أن قوة أرغونية أخرى بقيادة جيون دى أجيلو Guillén de Aguiló أسرع عن طريق إحدى المنحدرات الجبلية وانقضت على مؤخرة الجيش الإسلامي، وتقاتل الفريقان بشجاعة، وانتهت المعركة بهزيمة نكراء منى بها المسلمون، وقتل منهم جماعة كبيرة، وكان من بين القتلى عدد كبير من علماء بلنسية وأشرفها وصلحائها، وفي مقدمتهم كبير علمائها ومحدثيها يومئذ، أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي، الذي كان في هذه الموقعة يتقدم الصفوف ويقاتل بشجاعة، ويحث المنهزمين على الثبات، حتى لقي مصرعه^(٢). ويعبر ابن خلدون أبلغ تعبير عن الموقعة وأثرها فيما بعد بقوله: «وكان يوماً عظيماً،

(١) Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 256.

(٢) راجع في موقع أنيشة، ابن الآبار، التكملة، ج٢، ص ٧٠٨، ترجمة ١٩٩١؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٣٠٣؛ ابن خلدون، المعبر، ج٦، ص ٦٠١؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٢.

Huici Miranda, op.cit., t. III, pp. 255-256.

ورثي أبو عبد الله بن الآبار أستاذه أبا الربيع سليمان بقصيدة طويلة منها:
ألمأ بأشلاء العلاء والمكارم .: تقصد بأطراف القنا والصورم
وعوجاً عليهما رأياً وحفاوة .: مصارع غصت بالطلح والجمام
تخبي وجوهاً في الجنان وجيمة .: بما لقيت حمراً وجوه الملاحم
راجع في: ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٣٠٣-٣٠٩.

وعنواناً على أخذ بلنسية ظاهراً» (١).

استقبل جاقمة أنباء هذا الانتصار أثناء مقامه في وشقه Huesca فعزم على التوجه إلى أنيشة لتهنئة قواته، ولكن ما كاد يصل إلى سرقسطة حتى وصلته الأنباء بمصرع برنارد جيون قائد حاميته، فتألم كثيراً لفقده (٢).

عكف جاقمة على إعداد العدة لفتح بلنسية، ودعا لهذا الغرض إلى عقد اجتماع في كنيسة Santa Maria Del Puig، وكان قد تمكن قبل ذلك في مجلس النواب الأرغوني، الذي عقده في مونرون في أكتوبر ١٢٣٦م أن يزيل الخلافات القائمة بين الأحزاب وكانت قد عادت إلى الظهور في مملكته، وأن يحقق حريات البلاد، بحيث أتيح له أن يدعو جميع البارونات والفرنسان الإقطاعيين إلى الانضمام لجيشه، كما تمكن من إسباغ صفة الصليبية على حملته بعد أن أيد البابا جريجوري التاسع مشروعه، وكان من أثر ذلك أن قدمت جموع من فرنسا وإنجلترا لتشارك في هذه الحملة، وانضم إليها كثير من البارونات والفرسان، وأقسم جاقمة ألا يعود إلى مملكته إذا لم يفز بفتح بلنسية، كما نذر ألا يعاود المرور بطرويل أو عبور نهر طرطوشة (إيره) قبل أن تسقط بلنسية في يده وقرر تأكيداً لذلك أن تصحبه الملكة والأميرة ابنته (٣).

وكانت الظروف في ذلك الوقت مواتية تماماً لمشروعه، فبعد هزيمة المسلمين في موقعة أنيشة، انسحب زيان بقواته وامتنع داخل أسوار بلنسية، وكان أيضاً لسقوط قرطبة قبل ذلك في أيدي القشتاليين بالإضافة إلى انهيار الجبهة الإسلامية بعد زوال سلطان الخلافة الموحدية وبعد مصرع ابن هود زعيم الأندلس، الذي كان قد قرع عزمه على إمداد زيان بأسطول من المرية أعظم الأثر في تعجيل جاقمة بتنفيذ مشروعه، فخرج في قواته في شهر مارس ١٢٣٨م/٦٣٥هـ متجهاً نحو الجنوب صوب بلنسية، فطوقها وضيق عليها الحصار وضرب محلته بين المدينة وخليج جراو، وعمل على قطع علاقات المدينة مع الخارج وقد شرع الأرغونيون في حصارها في ٥ رمضان ٦٣٥هـ/أبريل ١٢٣٨م (٤)، وقذفوها بالمجانيق وكان زيان في ذلك الوقت يدافع بقواته عن مدينته بكل همة وشجاعة دون أن يفقد الأمل في نجدة المسلمين فبعث برسله إلى مختلف القواعد الإسلامية طلباً للنجدة والإمداد، فأرسل الفقيه محمد بن خلف بن قاسم الأنصاري إلى مرسية (٥)، كما بعث بسفارة إلى أفريقية برئاسة وزيره

(١) العبر، ج٦، ص ٦٠١.

(2) Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 256.

(3) Huici Miranda, op.cit., t. III, pp. 256-258.

وانظر أيضاً: أشباح، المرجع السابق، ص ٤٢٢.

(٤) ابن الأبار، التكملة، ترجمة رقم ٣٠٣.

(٥) ابن الأبار، التكملة، ترجمة رقم ١٦٧.

وكاتبه الشاعر المؤرخ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن الآبار القضاعي، يحمل إلى أميرها بيعته وبيعة أهل بلنسية، ويطلب منه الغوث والإنجاد قبل أن يفوت الوقت، ولما وصل ابن الآبار في سفارته إلى تونس مثل بين يدي سلطانها الأمير أبي زكريا الحفصى في حفل مشهود، وألقى قصيدته السينية الرائعة التي ذاعت شهرتها في التاريخ، يستعصره ويتوسل إليه فيها نصرة الأندلس والمسلمين، وما جاء فيها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً .: إن السبيل إلى منجاتها درساً

وهب لها من عزيز النصر ما التمس .: فلم يزل منك عز النصر ملتصقاً (١)

وكان لهذه القصيدة أبلغ الأثر في نفس الأمير أبي زكريا الحفصى، فبادر بتجهيز أسطول شحنه بالسلاح والمؤن والأموال، وعهد بقيادته إلى أبي يحيى بن يحيى الشهيد بن إسحاق بن أبي حفص، تقدر الرواية الإسلامية قيمة ما شحن بهذا الأسطول بمائة ألف دينار (٢).

وخلال الحصار حاول زيان الدخول في مفاوضات مع جاقمة، مستهدفاً أن يرفع جاقمة الحصار عن بلنسية ويعود أدراجه إلى أرغون، فعرض عليه تسليم بعض الحصون مع الالتزام بدفع جزية جديدة سنوية قدرها عشرة آلاف بيزنطي، لكن جاقمة رفض هذا العرض قائلاً: «نأخذ الدجاجة الحاضنة ونملك أفرانها» (٣).

وفي هذه الأثناء ظهر الأسطول الحفصى في مياه بلنسية، واستطاع أن يصل إلى خليج جراو ولكن الأرغونيين كانوا يحتلون هذه المنطقة الممتدة ما بين الخليج والمدينة ولهذا لم يتيسر لرجال الأسطول الوصول إلى المدينة، كما أن أهل المدينة لم يتمكنوا من الاتصال بهم فاضطر قائد الأسطول الحفصى إلى التوجه ناحية الشمال حتى ثغر بنشكلة، ولكن هذه المحاولة أيضاً باءت بالفشل لظهور السفن الأرغونية، وعندئذ اتجه الأسطول التونسي جنوباً واضطر إلى إفراغ شحنته في ثغر دائية بعيداً عن ثغر بلنسية المحاصر، ثم أقبل قائد الأسطول عائداً إلى أفريقية ومعه الأموال التي كان قد أرسلها السلطان الحفصى لمساعدة أهل بلنسية لعدم حضور أحد من قبل الأمير زيان لتسلمه (٤). وعندما علم النصارى عجز الأسطول الحفصى عن مساعدة أهل بلنسية

(١) في مخطوط: «زواهر الفكر وجواهر الفقر» لابن المرباط، من لوحة ٨٢ إلى ٨٤، ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص ٢٧٢-٢٧٣، ابن خلدون، المصدر السابق، ج٦، ص ٦٠٢؛ المقرئ، نفع الطيب، ج٣، ص ٣٤٧، وج٤، ص ٢٨٢.

(٢) ابن خلدون، نفس المصدر، ج٦، ص ٦٠٤؛ الزركشى، المصدر السابق، ص ٢٧، ص ٢٨.

(3) The Chronicle of James I Vol. I, p. 357;

Huici Miranda, op.cit., t. III, p. 259.

وانظر أيضاً:

(٤) ابن خلدون، العبر، ج٦، ص ٦٠٤؛ الزركشى، المصدر السابق، ص ٢٨؛ وانظر أيضاً:

The Chronicle of James t, Vol. I, pp. 377-380.

واضطروه للعودة، أخذوا فى التضيق على أهل المدينة وإرهاقهم مدة خمسة أشهر، حتى فئت الأقوات وهدمت الموارد واشتد البلاء بأهل المدينة، ويعبر صاحب «البيان المغرب» عن قلة المؤن وارتفاع أسعارها بقوله : «أن القمح كان يباع بها (ببلنسية) ستة أواق بدرهم والشعير عشرة أوقيه بدرهم» (١). وعندئذ رأى زيان مع أشرف المدينة، لأنه لا مفر من التسليم قبل فوات الأوان، فبعث ابن أخيه أبا الحملات رسولا من قبله ليفاوض ملك أرغون فى شروط التسليم، واتفق الطرفان على أن تسلم المدينة صلحا، ويصف ابن الآبار، وكان حاضرا وقت توقيع هذا الاتفاق فى يوم الثلاثاء ١٧ صفر سنة ٦٣٦هـ توقيع الاتفاقية بقوله:

«وفى هذا اليوم خرج أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن سعد الجذامى من المدينة، وهو يومئذ أميرها - فى أهل بيته ووجوه الطلبة والجند، وأقبل الطاغية، وقد تزي بأحسن زى فى عظماء قومه، من حيث نزل بالرصافة أول هذه المنازلة، فتلقا بالولجة، واتفقا على أن يتسلم الطاغية البلد. سلما لعشرين يوما، ينتقل أهلها أثناءها بأموالهم وأسبابهم، وحضرت ذلك كله، وتوليت العقد عن أبى جميل فى ذلك، وابتدئ بضعفه الناس وسيروا فى البحر إلى نواحي دانية، واتصل انتقال سائرهم برأ وبحرك، وصبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر المذكور، كان خروج أبى جميل بأهله من القصر فى طائفة يسيره أقامت معه، وعند ذلك استولى عليها الروم، أحنهم الله» (٢).

أما الرواية النصرانية عن تسليم المدينة فلا تخرج كثيرا عن مضمون ما جاء فى رواية ابن الآبار، وفيها اشترط على أن تسلم بلنسية إلى ملك أرغون على أن يؤمن جميع سلطانها فى أنفسهم مع كفالة حرية الهجرة بجميع أموالهم إلى قليبره - Culle-ra أو دانية Denia، وأن فضل بعضهم البقاء بالمدينة تكفل لهم الحرية فى مزاولة شرائعهم وعاداتهم، وأما من جهة دفع المكوس فيتساوون فيها مع ما يدفعه رعايا العاهل الأرغونى من النصارى، كما نص عقد التسليم على أن تسلم المدينة وجميع الحصون الواقعة على الضفة اليسرى لنهر شقر، وفى مقابل ذلك يمنح ملك أرغون الأمير زيان ورعاياه من المسلمين هدنة مدتها سبعة أعوام، أقسم اليمين باحترامها بالنسبة لدانية وقليبره طوال مدة الهدنة، وتم ذلك فى اليوم الثامن والعشرين من شهر

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ١، ص ٣٤٥.

(٢) الحلة السيرة، ج ٢، ص ١٢٧؛ وراجع أيضا: ابن عذارى، نفس المصدر، ق ٣، ص ٣٤٥؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٦٠٤؛ النويرى، المصدر السابق، ص ٣٠٨؛ والولجة بالألمانية Huelga، الرحبة الواسعة التى تستعمل للنزهة، وكان هذا اللفظ جاريا فى استعمال الأندلسيين؛ راجع: ابن الآبار، نفس المصدر والجزء، ص ١٢٦، هـ ١.

سبتمبر ١٢٣٨ م (١).

وفى اليوم المحدد دخل جاقمة ملك أرغون وزوجته الملكة فيولانتى نغر بلنسية فى موكب فخيم، وفى الحال حول مسجدھا الجامع إلى كنيسة للنصارى (٢).

أما الرئيس أبو جميل زيان فإنه منذ أن غادر بلنسية فى أهله وسار إلى جزيرة شقر أخذ بيعة أهلها للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب أفريقية (٣). ولكن القوات الأرغونية لم تلبث أن هاجمته لأن جزيرة شقر لم تكن من البلاد الداخلة فى الهدنة المعقودة بين زيان وجاقمة، ومن ثم غادرها إلى دانية، ونزل بها فى شهر رجب سنة ٦٣٦هـ، ودعا بها للأمير أبى زكريا الحفصى (٤).

ب - سقوط مرسية فى أيدي القشتاليين :

كان المتوكل بن هود قبل موته ببضع سنوات، وبالذات على أثر تلقيه سجل الخلافة العباسية، قد اختار ولده أبا بكر محمد لولاية العهد، ولقبه بالوائى بالله، المعتصم به (٥). ولما لقي ابن هود مصرعه بالمريه فى جمادى الأولى عام ٦٣٥هـ، بايع أهل مرسية ولده الوائى أبا بكر محمد بن يوسف بن هود (٦). بيد أن ولايته عليها لم تظل أكثر من سبعة أشهر، إذ لم يلبث أن ثار عليه العالم والفقيه المشهور عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب، الذى كان له تقدم معلوم فى العلوم وتميز بالمشاركة فى المنثور والمنظوم، ودعا لنفسه، وبايعه أهل مرسية فى الرابع من الحرم سنة ٦٣٦هـ/ ٧ أغسطس ١٢٣٨م. ويشير ابن الآبار المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث أن عزيز بن خطاب إنما ثار على علي بن يوسف أخ المتوكل بن هود المتقلب بعضد الدولة على الرغم من أن جميع الروايات العربية تؤكد أن الوائى خلف أبيه فى الحكم (٧). ويرى الأستاذ جاسبار ريميرو أن عضد الدولة كان وصياً على ابن أخيه الوائى، ومن ثم كان يعتبر الحاكم الفعلى لمرسية، ولهذا فإن ما يؤكد ابن الآبار إنما يمكن تفسيره

(١) The Chronicle of James I, Vol. I, pp. 394-398; ٠١

وانظر أيضاً:

Lafuente, op.cit., t. IV, p. 87.

(٢) ابن الآبار، التكملة، ترجمة رقم ١٣٠٦،

The Chronicle of James t, Vol. I, p. 398.

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق، ج٦، ص ٦٠٤.

(٤) ابن خلدون، المصدر السابق، ج٦، ص ٦٠٥.

(٥) مخطوط زواهر الفكر وجواهر الفقر لابن المرباط، لوحة ١٧٢-١٧٤، يبلغهم فيها اختيار ولده أبى بكر محمد لولاية عهده، بقلم أبى عبد الله بن الجنان، ملحق رقم (٢).

(٦) ابن خلدون، المصدر السابق، ج٤، ص ٣٦٥.

(٧) الحلة السراء، ج٢، ص ٣٠٨، ص ٣١٤.

بأن عزيز بن خطاب أعلن ثورته على هذا الحاكم الفعلي الذي يسميه عضد الدولة (١). ومن المرجح لدينا أن الواثق أبا بكر بن محمد بن هود خلف والده على إمارة مرسية فترة ثم انتزع عمه عضد الدولة علي بن يوسف الإمارة منه، وسجنه وهو الذي ثار عليه عزيز بن خطاب.

وأياً ما كان الأمر فإن عزيز بن خطاب أصبح أمير مرسية منذ أن بايعه أهلها، وتلقب بضياء الدولة (٢)، وكان رجل علم وفقه وأدب لا خيرة له بشئون الحرب والسياسة والحكم، ولهذا ما كاد يخرج في أول حملة ضد النصارى حتى عاد مهزوماً مغلولاً بعد أن فقد العديد من جنده مما أثار استياء أهل مرسية عليه (٣).

وكان للأوضاع السياسية في شرق الأندلس بعد سقوط بلنسية وإلحاح العدو الأرغوني بغاراته على حصونها وقلاعها من جهة الشرق، والعدو القشتالي من جهة الشمال، أثر كبير في اضطراب نفوس أهل مرسية، ومن ثم تطلعو إلى وال جديد تتوفر له الخبرة والدراية بالشئون الحربية والسياسية، فاتصلوا بالرئيس زيان ابن مردنيش - وكان وقتئذ مقيماً في دانية - وتفاوضوا معه في أن يتولى رئاستهم فقبل عرضهم، وسار إلى مرسية ودخلها في الوقت الذي قامت فيه الثورة بها على ضياء الدولة أبي بكر عزيز بن خطاب، وعمد الثوار إلى نهب القصر، فانتزع زيان منه الرئاسة وقبض عليه وأودعه سجن القصر وذلك في الخامس عشر من شهر رمضان عام ٦٣٦هـ، ثم لم يلبث أن أمر بقتله، فقتل في السادس والعشرين من نفس الشهر والسنة (٤).

ثم أفرج زيان عن الواثق بن محمد بن يوسف بن هود، ودعا بمرسيه للأمير أبي زكريا الحفصي صاحب أفريقية، وبعث ببيعته مع وفد من أهل مرسية إلى تونس، وعاد الوفد يحمل إليه من الأمير تقليد ولايته على مرسية وبلاد شرق الأندلس (٥).

(١) راجع أيضاً:

Gaspar Remiro, op.cit., p. 293; Emilio Morina Lopez, Murcia y el levante Espanol en el siglo XIII (1224-1266) a traves de la correspondencia oficial, personal y diplomatica, Universidad de Granada, 1978, p. 27.

(٢) ابن خلدون، المصدر السابق، ج٤، ص ٣٦٥، وكان عزيز بن خطاب هذا سليل أشرف بيوت مرسية وأعرقها وجده الكبير أبو عمر أحمد بن خطاب، هو الذي استضاف المنصور بن أبي عامر وسائر جيشه، حين مروره في طريق غزاه إلى برشلونة؛ راجع: ابن الآبار، الحلة السرياء، ج٢، ص ٣١١.

(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص ٢٧٥، وانظر أيضاً:

Gaspar Remiro, op.cit., pp. 293-294.

(٤) ابن الآبار، الحلة السرياء، ج٢، ص ٣١٠، بينما يقول صاحب الذخيرة السنية، أن زيان ابن مردنيش دخل مرسية يوم السادس عشر من رمضان، وقبض على عزيز بن خطاب وقتله ليلة الثلاثاء الموافق عشرين من رمضان المذكور، انظر: علي بن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص ٥٦.

(٥) مخطوط الأسكوريال، زواهر الفكر وجواهر الفقر، لابن المرابط، لوحة ١٦٤، ١٦٥، نفس الرسالة التي بعث بها زيان إلى الأمير أبو زكريا الحفصي إثر تلقيه مرسوم الولاية، بقلم الكاتب الفقيه أبي عبد الله بن الجنان.

على أن سيطرة زيان بن مردنيش لم تشمل شرق الأندلس كله، فقد خرجت عن طاعته مدن أوريولة ولورقة وموله وقرطاجنة الواقعة في المنطقة التي حددها مارينو ألبارث من سلسلة جبال أسبرينا حتى أجيلاس ومن قمة خارة إلى مسيل سانجونيزا^(١).

أما أوريولة فقد استقل برياستها أبو جعفر بن عصام، واستطاع أثناء هذه الفترة المضطربة بالأحداث أن يحافظ على استقلال مدينته ويحميها من طمع الطامعين فنعمت في ظله بمهد من الأمان والاستقرار واجتذبت إليها الشعراء والأدباء^(٢).

وأما لورقة فقد استقل برياستها الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي بن أحلى الذي كان «يجتمع إليه فن علم الكلام ويؤخذ عنه، وله فيه تواليف»^(٣)، واستمر محتفظاً باستقلاله الذاتي بها حتى بعد سقوط مدينة مرسية في أيدي القشتاليين.

ولم يلبث زيان أن واجهه الكثير من المشاكل في الداخل والخارج، ففي المجال الداخلي خرجت عليه مدن أوريولة ولورقة وموله وقرطاجنة وقد أبدى عجزه عن استرجاع هذه المدن، وأما في المجال الخارجي فتتمثل هذه المشاكل في التهديدات القشتالية بالاستيلاء على مرسية، ومن المعروف أن معاهدة كاسولا Cazola التي عقدت بين قشتالة وأرغون منذ سنة ١١٧٩م تعطى لقشتالة الحق في افتتاح إقليم مرسية، ولذلك فإن زيان قام بمحاولة للتفاهم مع فرناندو الثالث ملك قشتالة حسبما تدل عليه رسالة موجهة منه إلى وليكها، محررة بقلم كاتبه القاضي اللامع أبي المطرف بن عميرة المخزومي، يستفاد منها رغبة زيان في عقد السلم مع ملك قشتالة واستعداده للتفاوض مع من يرسله إليه ملك قشتالة من رجاله لهذا الغرض^(٤).

لبث زيان بن مردنيش على رئاسة مرسية عامين، قام عليه عند نهايتها زعيم من بنى هود، هو عم المتوكل بن هود، يدعى محمد بن هود، التف حوله أهل مرسية وتمكن بفضل معاونة أبي جعفر بن عصام صاحب أوريولة من طرد زيان منها وتلقب بيهاء الدولة، فخرج زيان من مرسية في أهله وأمواله وآثر الاحتباء بين ذويه وأنصاره في مدينة لقنت، حيث ظل يقيم بها حتى احتلتها قوات خايحي الأول سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦-١٢٤٧م فغادرها إلى تونس وعاش فيها إلى أن توفي بها في سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩-١٢٧٠م^(٥).

(1) Alvarez (Merino), Geografia historia del reino de Murcia, p. 156.

(2) Molina Lopez (Emilio), op.cit., p. 281.

(٣) ابن الأبار، الحلة السيرة، جـ ٢، ص ٣١٤؛

Gaspar Remiro, op.cit., p. 295.

(٤) في: القلقشندي، صبح الأعشى، جـ ٧، ص ١١٦-١١٧.

(٥) ابن خلدون، المصدر السابق، جـ ٤، ص ٣٦١؛ ويقول صاحب الذخيرة السنية أن زيان لجأ إلى صحصن اللش (الش)؛ راجع: الذخيرة السنية، ص ٥٧؛ بينما يقول جاسابار ريميرو أنه قصد مدينة Luxente؛ راجع: Gaspar Remiro, op.cit., p. 296.

وهكذا تمكن بهاء الدولة محمد بن هود من السيطرة على منطقة مرسية، ودانت بطاعته أوربولة، ولكنه لم يستطع فرض طاعته على لورقة وغيرها من المدن التي خرجت عن طاعة مرسية.

وواجهت بهاء الدولة أخطاراً خارجية تتمثل في الضغط المتواصل الذي كان يمارسه جاره ابن الأحمر من جهة، وكان يتطلع إلى ضم أراضي مرسية إلى مملكته بالرغم من تعهداته لقشتالة، ثم مملكة قشتالة التي كانت تتطلع إلى ضم مرسية إليها من جهة ثانية، بالإضافة إلى تهديدات خايمي الأول ملك أرغون على شرق الأندلس، ومن ثم قرر بهاء الدولة بالاتفاق مع كبار شخصيات مرسية أن يتفاهم مع القشتاليين، وبعث إلى عاهل قشتالة وفداً من أهل مرسية برئاسة ولده أحمد بن محمد بن هود، يعرضون عليه الاعتراف بطاعته وأداء الجزية مع السماح بوضع حامية قشتالية بالمدينة، وتحدد الرواية الإسلامية تاريخ هذه السفارة بسنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م، وهو ما تذكره الرواية النصرانية^(١).

وتؤكد الرواية المسيحية أن الأمير ألفونسو قبل باسم والده فرناندو الثالث العرض الذي تقدم به وفد مرسية، ثم سار بعد قليل بصحبة معلم شنت ياقب Santiago والسيد بلاى كوربا Don Pelayo Correa حيث التقى في الكرّس Alcaraz بنواب مرسية، وعقد معهم في سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٣م اتفاقية عرفت باسم هذا المكان، أقر فيها بهاء الدولة الدخول في طاعة ملك قشتالة مع السماح بإقامة حامية قشتالية في قواعدها الرئيسية الهامة، ودفع الجزية، وتقديم كافة التسهيلات التجارية، ودخل الأمير ألفونسو ولي عهد قشتالة وصحبه برفقتهم أحمد بن محمد بن هود مرسية، وتملك الأمير ألفونسو القصر وفرض حمايته على مدن : لقنت Alicante، كرافيلين Crevil-lén، الش Elche، وأربولة Orihuela، الحامة Alhama، حصن لبيط Aledo، رقوطة Ricote، سياسة Cieza^(٢).

أما مدن لورقة وموله وقرطاجنة، فلم تدخل ضمن اتفاقية التسليم، واحتفظت باستقلالها الذاتي إلى أن استولى عليها القشتاليون في سنة ٦٤٥هـ.

(١) الذخيرة السنية، ص ٦٠؛ وانظر أيضاً:

Gonzalez, op.cit., p. 88.

(2) Crónicas de los reyes de Castilla desde Alfonso X hasta los reyes católicos, en biblioteca de autores españoles, ed, Rosell, Madrid, , 1953, Crónica Alfonso X Tomo 1, Cap. X pp. 8-9;

وراجع أيضاً:

Gaspar Remiro, op.cit., pp. 296-297; Molina Lopez (Emilio), op.cit., pp. 30-31.

أما الرواية الإسلامية، فيسجلها ابن عذارى فى «البيان المغرب» وجاء فيها أن «أهل شرق الأندلس صالحوا الروم بمال معلوم يدفعونه لهم فى كل عام، وأعطى أهل مرسية قصبتهم للروم الذى هو قصرهم»^(١).

ولبثت مرسية تحت حكم واليها بهاء الدولة محمد بن هود، ثم توفى فى عام ٦٥٧هـ وخلفه عليها ابنه أبى جعفر أحمد، الذى واصل دفع الجزيات لقشتالة وبذل الطاعة للملكها، ولكنه احتفظ مع ذلك باستقلالها الذاتى، فصك العملة باسمه وخصص جيشاً لها^(٢).

وظل أبو جعفر أحمد بن هود يلى أمر مرسية وأحوازها تابعاً لملك قشتالة حتى سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٤م، وفى هذا العام قام بالثورة عليه الواثق أبو بكر محمد بن محمد بن يوسف بن هود، الوالى السابق لمرسية الذى كان يعيش مغموراً منذ خروجه من مرسية، إلى أن سنحت له الفرصة بانتزاع السلطة من أبى جعفر أحمد بن هود، وبمساعدة ابن الأحمر أمير غرناطة، استطاع أن يخلع من أهل مرسية طاعة قشتالة، وأن يسترد لها حريتها واستقلالها، فنقض الالتزام الذى كان قد تعهد به واليها السابق نحو قشتالة فى معاهدة الكرس، ولهذا تعرضت مرسية فى عهده لمضايقات العدو القشتالى وغاراته المتكررة. وأمام الخطر القشتالى الدائم أعلن الواثق طاعته لابن الأحمر أمير غرناطة، فبعث إليه ابن الأحمر قوة من جنده بقيادة صهره الرئيس أبى محمد بن أشقيولة، فقدم إلى مرسية وضبط أمورها وخطب فيها لابن الأحمر^(٣).

وهناك رواية أخرى لابن عذارى تعطى مزيداً من الإيضاح حول تطور الأحداث فى مرسية سنة ٦٦٢هـ، جاء فيها أن «أهل مرسية كانوا قد صالحوا الروم بمال معلوم يدفعونه لهم فى كل عام وأعطى أهل مرسية قصبتهم للروم، فلما تعرض أهل مرسية لأذاهم وضرهم، أخرجوهم فى هذه السنة من القصبية بالقتال، وقاموا على النصارى وضيقوا الحصار عليهم، وأخرجوهم بعد أن ألقوا بالسلاح إليهم وكتب أهل مرسية إلى الأمير ابن الأحمر يبيعهم فبعث الرئيس أبى محمد بن أشقيولة إليهم والياً عليهم، فزحف النصارى إليها، ونزلوا عليها وحصر الرئيس ابن أشقيولة فيها، ثم غادرها بخيله ورجاله فراراً»^(٤). وهكذا لم يستطع ابن الأحمر أن يحافظ على حمايته

(١) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٤٣٨.

(2) Gaspar Remiro, op.cit., pp. 298-299.

(٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٤٣٨؛ وانظر أيضاً: المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢١.

(٤) ابن عذارى، المصدر السابق، ق ٣، ص ٤٣٨؛ وانظر أيضاً: المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ص ٤٢١.

لمرسية فتخلى عنها، واضطر نائبه عليها أن يغادرها في جنده، ويستطرد ابن عذارى قائلا : « فلم يجد أهل مرسية بعده حماة ولا أنصاراً فضاقت عليهم أحوالهم بما أصابهم من العدو، ونالهم، وطال عليهم حصارهم وعدموا حمايتهم وأنصارهم، فأعطوا مرسية للنصارى وخرجوا منها بأمان إلى الرشاقة فسكنوا بها مدة من عشرة أعوام إلى أن كان من أمرهم ما كان حين أخرجوهم في سنة ثلاث وسبعين وغدروهم في الطريق أجمعين وذلك بموضع يعرف ببوركال، فسبوا النساء والأطفال، وقتلوا جميع الرجال » (١).

غير أن الرواية النصرانية تتضمن مزيداً من التفاصيل، فنذكر أنه على أثر مغادرة الرئيس ابن أشقيولة لمدينة مرسية في جنده، بايع أهلها للوائق بن هود مرة أخرى، فمضى على رئاستها فترة قصيرة إلى أن افتتحها الملك خايمي الأول، وذلك أن الملك ألفونسو العاشر ظل منذ وفاة والده فرناندو الثالث سنة ١٢٥٢م، يعاني صعباً في الاحتفال بفتوحاته الجديدة في الأندلس، فضلاً عن تحركات ابن الأحمر أمير غرناطة وتزايد نفوذه في منطقة وسط الأندلس، وعبور قوات بني مرين من العدو المضربة إلى الأندلس، دعماً لقوات ابن الأحمر في الفترة التي ساد فيها الاضطراب بمرسيه، وعجز الملك ألفونسو العاشر عن إخمادها، ومن ثم اتجه إلى طلب مساعدة حميه خايمي ملك أرغون في إخضاع منطقة مرسية، وقد استجاب خايمي على الفور لنداء ألفونسو العاشر، فجهز حملة قوية واتجه جنوباً صوب إقليم مرسية، وتمكن من الاستيلاء على حصونها وقلاعها الأمامية الش ولقنت وأوريولة، ثم اتخذ من أوريولة قاعدة لعملياته ضد مرسية والمعروف في المدونات المسيحية أنه خلال الثمانية أيام من وصول خايمي الأول إلى أوريولة حضر إليه اثنان من المغاويرين Almogavores من لورقة في منتصف الليل وأطلعوه على أن قوات أمير غرناطة، المكونة من ثمانمائة فارس وألفي راجل مع عدد متساو من الدواب المحملة، مروا عن طريق لورقة إلى موضع الشرق في طريقهم إلى مرسية. وفي الحال دفع خايمي بقواته في طريقهم بمصاحبة الأمير القشتالي مانويل Manuel وأبنائه بدر وخوايمي ومعلمي فرسان المعبد، فرسان شنت ياقب والقديس خوان، واتفقوا على مهاجمة أعدائهم في بونجرا Buzne-gra، وأجبروهم على الانسحاب في الحال واللجوء إلى الحامة (٢).

وتؤيد رواية المقرئ هذه الحادثة إجمالاً فهو يقول: « فضايقه ألفنش (ألفونسو العاشر ملك قشتالة) والبرشلوني (خايمي الأول ملك أرغون) فبعث بالطاعة لابن

(١) ابن عذارى، نفس المصدر والقسم والصفحة.

(2) Fernando y Gonzales , op.cit., p. 106.

الأحمر، فبعث إليه ابن أشقيولة وتسلم مرسيه وخطب لابن الأحمر بها، ثم خرج عنها راجعاً إلى ابن الأحمر فأوقع به النصارى في طريقه»^(١).

ثم تقدم خايمي الأول في قواته وضرب الحصار حول مدينة مرسيه، وضايق عليها بمختلف السبل وقطع المعونات والإمدادات التي قد تصلها من غرناطة وطال الحصار بضعة أشهر قاسى المحاصرون فيه الكثير، ورأى الواثق أن لا مفر من التسليم بعد أن فقد الأمل في مساعدة ابن الأحمر، ففاوض خايمي الأول في التسليم، واتفق معه على أن يعوضه عن مرسيه بحصن «يسر» ليقيم فيه هو وأهله وصحبه، وهكذا سقطت قاعدة مرسيه أهم قواعد شرق الأندلس بعد بلنسية، ودخلها خايمي الأول في شهر فبراير ١٢٦٦م/٦٦٤هـ^(٢).

بينما يشير ابن خلدون وآخرون إلى أن سقوط مرسيه في أيدي النصارى تم صلحاً وأن خروج الواثق من مرسيه نهائياً حدث سنة ٦٦٨هـ^(٣)، ويعتقد الأستاذ جاسبار يميديو أنه كان هناك اتفاقيتان للتسليم، أحدهما في التاريخ المتقدم الذي تذكره المدونة النصرانية سنة ١٢٦٦م/٦٦٤هـ، وهو يوافق دخول خايمي الأول المدينة في قواته وإقراره الواثق بالخضوع والطاعة لقشتالة، والثانية في ١٢٦٩-١٢٧٠م/٦٦٨هـ وفيه أرغم الواثق نهائياً على الخروج من المدينة في أهله وولده والإقامة في حصن يسر^(٤).

وهكذا سقطت قواعد شرق الأندلس تبعاً في أيدي الملك خايمي الأول ملك أراغون، وانتهت السيطرة الإسلامية نهائياً على هذه المنطقة بعد أن دامت بها أكثر من خمسة قرون.

جـ - سقوط جزيرة منورقة :

كان والى منورقة الرئيس أبو عثمان سعيد بن حكم الأموى قد دخلها في سنة ٦٢٤هـ، وعمل بها مشرفاً على شئون الجباية والجند، إلى أن اضطربت الأحوال في الأندلس وانحسر نفوذ الموحدين عنها وعندئذ تولى رئاستها من قبل أبي يحيى الوالى على ميورقة، فقام بضبط شئونها وأظهر همة وبراعة كبيرتين، ونعمت الجزيرة في عهده بالرخاء والأمن، ولما استولى جاقمة على جزيرة ميورقة، بادر الرئيس أبو عثمان بالاعتراف بطاعته وموادعته بتقديم جزية سنوية له، والتنازل له عن حصن ثوداديللا Ciutadela شريطة أن لا يدخل أحد من الأراغونيين الجزيرة، واستمر أبو عثمان سعيد

(١) نفح الطيب، ج١، ص ٤٢١.

(2) Gaspar Remiro, op.cit., pp. 300-303.

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق، ج٤، ص ٣٦٥؛ وانظر أيضاً: المقرئ، المصدر السابق، ج١

(4) Gaspar Remiro, op.cit., p. 303- 421.

بن حكم أميراً على الجزيرة زهاء خمسين سنة، إلى أن توفي في رمضان سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، فخلفه على إمارتها ولده أبو عمر حكم بن سعيد^(١).

وظلت جزيرة منورقة تنعم بالاستقلال الذاتي تحت حماية مملكة أرغون إلى أن توفي خايمي الأول، وتقلد ألفونسو الثالث عرش أرغون في نوفمبر ١٢٨٥م/٦٨٤هـ فنتطلع إلى فتح جزيرة منورقة وإخضاعها مباشرة لأرغون، وجاءته الفرصة كما يقول المؤرخ داميتا Dameta بإشاعة كاذبة أو صادقة مؤداها أن أحد أعدائه ويسمى الفرنجي Elfrancés يتطلع إلى احتلال جزيرة منورقة، عندئذ خرج العاهل الأرغوني في أسطول من ميناء Salou، ووصل إلى ميورقة في ٢ ديسمبر ١٢٨٦م، حيث قضى أعياد الميلاد بها، ثم تابع رحلته في جوستوى قاس وعاصف كاد يدمر معظم أسطوله، الذي ارتطم بسواحل جزيرة ميورقة، ووصل إلى ميناء Mahon منتظراً بقية قطع الأسطول^(٢).

هذا ما تقوله المدونة المسيحية في مقدمات فتح منورقة، أما الرواية الإسلامية فتعطي تفاصيل أخرى عن فتح هذه الجزيرة، فيقول ابن خلدون : «وفي سنة خمس وثمانين ظفر العدو بجزيرة منورقة، ركب إليها طاغية برشلونة في أساطيله في عشرين ألفاً من الرجال المقاتلة، ومروا بميورقة كأنهم سفر من التجار وطلبوا من أبي عمر بن حكم رئيسها، النزول للاستسقاء فأذن لهم فلما تساحلوا آذنوا أهلها بالحرب، فتزاحفوا ثلاثاً يشن فيهم المسلمون في كلها قتلاً وجراحة بما يناهزوا الآلاف، والطاغية في بطارقه قاعد عن الزحف، فلما كان في اليوم الثالث واستولت الهزيمة على قومه زحف الطاغية في العسكر فانهزم المسلمون، ولحق إلى قلعتهم فانهضوا بها وعقدوا لابن حكم ذمة في أهله وحاشيته، فخرجوا إلى سبتة ونزل الباقون على حكم العدو، فأجازهم إلى جارتهم ميورقة، واستولى على ما فيها من الذخيرة والعدد»^(٣).

وتحاول الرواية المسيحية أن تقلل من الاستعدادات التي قام بها العاهل الأرغوني ألفونسو الثالث لفتح جزيرة منورقة، فتذكر أنه حتى لم ينتظر وصول باقي قطع أسطوله الذي شتته العواصف، بل أصر على بدء العمليات، وتذكر أيضاً أن الرئيس أبا عمر بن حكم قد وصلته نبذات من العدو المغربية تقدر بعدد ٤٠ ألف جندي وخمسمائة

(١) راجع: ابن الأبار، الحلة السيرة، ج٢، ص ٣١٨-٣١٩؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص ٢٧٥-٢٧٦؛ الحميري، الروض المعطار، ص ١٨٥؛ انظر أيضاً:

The Chronicle of James I., Vol. I, pp. 215-216.

(2) Alvaro Campaner y fuertes, op.cit., p. 205.

(٣) ابن خلدون، المصدر السابق، ج٦، ص ٦٩٨.

فارس، كما افترضت بعض الروايات المسيحية أن ملك أرغون قد هاجم المسلمين في الجزيرة بعدد أربعمائة فارس فقط، وبعض رجال من المفاورين، وأنه قد قتل في هذه المعركة عدد كبير من المسلمين بينما قتل عدد قليل جداً من المسيحيين، وأسفرت المعركة عن انسحاب الرئيس أبي عمر بن حكيم إلى قلعة Sta Agueda، واضطر إلى طلب التسليم، وعقدت اتفاقية التسليم بينه وبين ألفونسو الثالث في ٢١ يناير ١٢٨٧م/٦٨٦هـ، وبمقتضاها تم إجلاء المسلمين عن الجزيرة^(١). وغادر أبو عمر الجزيرة ومعه أهله ورفات أبيه وسار أولاً إلى سبتة، ثم قصد إلى تونس، فشرق في البحر هو وآله^(٢).

وهكذا تنتهى السيطرة الإسلامية على آخر معقل من معاقل الإسلام في الجزائر الشرقية.

(1) Alvaro Campaner y Fuertes, op.cit., p. 205.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص ٢٧٧.

الباب الثاني
بعض مظاهر حضارة شرق الأندلس

الفصل الأول الحياة الاجتماعية

أولاً : طبقات مجتمع شرق الأندلس.

ثانياً : الزى

ثالثاً : الأطعمة والأشربة.

رابعاً : فن الغناء والموسيقى

خامساً : الاحتفالات والأعياد.

أولاً - طبقات مجتمع شرق الأندلس

شهدت الأندلس منذ الفتح الإسلامي مباشرة تنوعاً واضحاً في العناصر السكانية من حيث الجنس وما يترتب عليه من اختلافات في العقيدة والثقافة واللغة وأصبحت تضم بالإضافة إلى العرب الفاتحين والعرب الوافدين في موجات بعد أحداث الفتح طائفة من الأسبان المسالمة، وطائفة أعظم من العجم الذميين أو المستعربة، ثم البربر الذين دخلوا مع طارق أو الذين وفدوا إلى الأندلس بعد الفتح، إما بغرض الحصول على المغنم أو بهدف الاستقرار^(١)، ثم طائفة اليهود، وقد تفاعلت هذه العناصر فيما بينها وحدث تمازج وتواصل ترتب عليه اندماج واضح المعالم في كيان المجتمع الأندلس نتيجة لمصاهرة المسلمين الوافدين لأهل البلاد وظهور أجيال جديدة من المولدين ثمرة هذه المصاهرات واسعة النطاق. ولقد أسهمت هذه العناصر في البناء الاجتماعي لمجتمع شرق الأندلس منذ قيام الدولة الأموية وما تبع ذلك من فترات تداخلت فيها العناصر تداخلاً من الصعب تمييزه بعد سقوط الخلافة بقرطبة وقيام دويلات الطوائف.

وإن كان العنصران الصقلبي والمولد كانا أكثر العناصر وضوحاً، وبينما غلبت البربرية على مجتمعات وسط الأندلس وجنوبها الشرقي والغربي، ظلت مناطق شرق الأندلس يغلب عليها العنصران العربي والمولد فظهرت شخصيات تاريخية هامة لعبت دوراً هاماً في أحداث المنطقة في عصر دولتي المرابطين والموحدين أمثال بنو مردنيش وبنو هود. وفيما يلي عرض موجز للعناصر المكونة لمجتمع شرق الأندلس في العصر موضوع الدراسة.

أولاً - المسلمون :

(أ) العرب :

دخل العرب الأندلس على موجات متتابة تعرف بالطوالع منذ حملة موسى بن نصير في رجب سنة ٩٣هـ/٧١٢م، وكانت تتألف من ثمانية عشر ألفاً من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر^(٢)، وتبعت هذه الطالعة الأولى طالعة الحر بن عبد الرحمن الثقفي في ذى الحجة سنة ٩٧هـ/٧١٦م^(٣). وكان أغلب عرب هاتين الطالعتين من اليمنيين، وسموا بالبلديين أو أهل البلد^(٤)، وتلتها طالعة بلج بن بشر

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار المعارف، لبنان، ١٩٦٢، ص ١١٩.

(٢) ابن عبد الحكم (عبد الرحمن)، فتوح أفريقيا والأندلس، نشر ألبرتو جاتو، الجزائر، ١٩٤٧، ص ٩٦.

(٣) المقرئ، نفح الطيب، ج ٤، ص ١٣ (نقلاً عن الرازي).

(٤) ابن القوطية (أبو بكر محمد)، تاريخ افتتاح الأندلس، نشر خوليان ريبيرا، مدريد، ١٩٢٦، ص ١٩ وما

بعدها؛ انظر أيضاً: أخبار مجموعة في فتح الأندلس، لمؤلف مجهول، نشر دون لافونتي، القنطرة،

مدريد، ١٨٦٧، ص ٢٣، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ١٢٠.

بن عياض القشيري في سنة ١٢٤هـ / ٧٤٣م، وأغلبهم من العرب القيسيين ، ويذكر ابن القوطية أن عدداً من هذه الطالعة كان يقرب من عشرة آلاف، منهم ألفان من الموالي، وثمانية آلاف من العرب^(١)، وقد سمي عرب هذه الطالعة بالشاميين تمييزاً لهم عن البلديين، ثم وفدت على الأندلس طالعة أخرى من الشاميين عددهم ثلاثون رجلاً في صحبة أبي الخطار بن ضرار الكلبي^(٢).

وليس هناك من شك في أن القبائل العربية اليمنية قد شكلت أغلبية عربية كبيرة في المجتمع الأندلسي من لحم وجذام ويحصب وحضرموت وتنجيب، الذين استقروا في جنوب غرب أسبانيا وفي شمالها، في حين استوطنت القبائل العربية المضربة والقيسية وأهمها تميم ومخزوم وكنانة وعرب قيس عيلان وكلاب في شرق الأندلس^(٣).

وسوف ندرس فيما يلي أهم القبائل العربية التي شكلت مجتمع شرق الأندلس في الفترة موضوع البحث.

ومن أهم هذه القبائل العربية التي استقرت في حواضر شرق الأندلس قبيلة معافر اليمنية. ومن بطونها: بنو جحاف ببلنسية، وبنو مفوز بشاطبة^(٤).

وترجع شهرة أسرة بنى جحاف ببلنسية إلى عميدها جحاف بن يمن وإلى بلنسية في عهد عبد الرحمن الناصر والذي استشهد في موقعة الخندق في عام ٣٢٧هـ / ٩٣٩م فتولى أمر ولاية بلنسية من بعده ابنه عبد الرحمن^(٥). ومنذ ذلك الحين برزت من هذه العائلة شخصيات لعبت دوراً هاماً في مصير هذه الحاضرة، وفي توجيه حركتها العلمية ، ومن أبرز هذه الشخصيات: أحمد بن جعفر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن جحاف المعافري (ت: ٥٤٧هـ)، الذي تولى قضاء بلنسية^(٦)، وأحمد بن جعفر بن عبد الرحمن بن جعفر بن عبد الرحمن بن جحاف المعافري (ت: ٥٤٧هـ) والذي استقضى يبلده مرتين^(٧)، وعبد الله بن عبد الرحمن بن

(١) ابن القوطية، نفس المصدر، ص ١٥؛ السيد عبد العزيز سالم، نفس المرجع، ص ١٢٠.

(٢) ابن القوطية، نفس المصدر، ص ١٩؛ السيد عبد العزيز سالم، نفس المرجع، ص ١٢٠.

(٣) ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن سعيد)، جهرة أنساب العرب، دار المعارف بمصر، ١٩٤٨، ص ٣٩٢-٣٩٣.

Guichard (Pierre), *Al Andalus, Estructura, Antropologica de una sociedad islamica en Occidente*, Barcelona, 1976, p. 338.

(٤) ابن حزم ، المصدر السابق، ص ٣٩٣.

(5) Julian Ribera y Tarrago, *Disertaciones y opusculos t. II*, Madrid, 1928, p. 218.

(٦) ابن الآبار، المعجم، ص ٣٦، ت: ٢٣.

(٧) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الأول - القسم الأول، ص ٨٤، ت: ٩٥.

عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن جحاف الماعفري، وكان فقيهاً مشاوراً وولّى قضاء بعض مواضع ببلنسية^(١)، وطارق بن موسى بن طارق من ولد يمن بن سعيد الماعفري والد جحاف بن يمن (ت: ٥٦٦هـ)، وكان يقرئ بالمسجد الجامع ببلنسية، وتولى الحسبة والموارث^(٢). وما لا شك فيه أن هذه العائلة كان لها نفوذاً كبيراً في بلنسية وعند سقوط هذه المدينة في يد خايمة الأول، كان لا يزال يطلق اسمها على أحد الأحياء الرئيسية بالمدينة Vicus ben Chafah، فضلاً عن عدد لا يستهان به من البيوت الخاصة بعائلة بني جحاف^(٣).

أما أسرة بني مفوز، فقد استقرت في شاطبة، ونبغ منهم في الفقه والأدب شخصيات تقلدت مناصب القضاء في شاطبة وغيرها من حواضر شرق الأندلس وبرز منهم: طاهر بن حيدرة بن مفوز بن أحمد بن مفوز الماعفري (ت: ٥٥٢هـ) الذي تولى قضاء شاطبة وجزيرة شقر معها^(٤)، وأخوه محمد بن حيدرة بن مفوز بن أحمد بن مفوز الماعفري الذي يصفه ابن الآبار بقوله: «أحد الحفاظ بل خاتمتهم بالأندلس للحديث وتعلله، والمبرزين في صناعته معرفة بمعانية وحفظاً لأسماء رجاله»^(٥)، ومفوز بن طاهر ابن حيدرة بن مفوز بن أحمد بن مفوز الماعفري (ت: ٥٩٠هـ)، وكان فقيهاً مشاوراً فصيحاً بليغاً جميل الشارة حسن السميت جليل القدر وقد تولى القضاء بشاطبة^(٦).

كذلك استقر بنو تجيب وهم بطن من كندة^(٧)، بادئ ذي بدء بمدينة سرقسطة ودروقة وقلعة أيوب^(٨)، ثم نزحوا إلى حواضر شرق الأندلس واستقر معظمهم في مرسيه، وكان جلهم من الأدباء والفقهاء وقد تقلد بعضهم مناصب إدارية هامة بها، ومن أبرزهم أحمد بن عبد الرحمن ابن عيسى بن إدريس التجيبى الذى ولى قضاء الجزيرة الخضراء ثم أسند إليه قضاء شاطبة فدانبة^(٩)، وصفوان ابن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس التجيبى (ت: ٥٩٨هـ) وكان من جلة الأدباء والبلغاء ومهرة الكتاب^(١٠)، وعبد الله بن مروان بن أحمد بن مروان بن محمد

(١) ابن الآبار، المعجم، ص ٤٧٤، ت: ١٣٦٦.

(٢) ابن الآبار، التكملة، ص ٨٤، ت: ٢٧٨.

(3) Ribera y Tarrago, op.cit., t. I, p. 208.

(٤) ابن الآبار، المعجم، ص ٩١، ت ٧٧، وراجع له أيضاً: التكملة، ص ٨١، ت: ٢٧١.

(٥) ابن الآبار، المعجم، ص ٩٤، ت: ٨١.

(٦) ابن الآبار، التكملة، ص ٤١٠، ت: ١١٨١.

(٧) عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ج١، المكتبة الهاشمية، دمشق، ١٩٤٩، ص ١١٦.

(٨) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٠٤.

(٩) ابن الآبار، التكملة، ص ٢٨٥، ت: ٨٨٣.

(١٠) نفس المصدر، ص ٤٢٩، ت: ١٢٣١، وراجع أيضاً: ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص ٢٦٠.

بن مروان ابن عبد العزيز التجيبي من أهل بلنسية (ت : ٥٩٣هـ) عنى بعقد الشروط وتولى قضاء شبرب Segorb^(١). ومحمد بن أحمد بن غالب بن خلف بن محمد ابن عبد الله التجيبي (ت : ٥٣٠هـ)، وكان عالماً بالفرائض والحساب مشاركاً في الطب^(٢)، وعبد الله بن محمد بن علي بن خلف بن أبي الفرج التجيبي من أهل شاطبة (ت : ٥٧٤هـ)، ولي الأحكام ببعض جهات بلده، وكان من أهل المعرفة بالمسائل والبصر بالشروط^(٣).

ومن بين اللخمين الذين استقروا بمرسيه، محمد بن أحمد بن محمد بن أبي العافية اللخمي (ت : ٥٥٨هـ)، وكان صدرًا في الشورى مدرسًا للمذهب ذا نباهة ونزاهة^(٤)، تولى الإفتاء بمرسيه مدة^(٥)، وأحمد ابن إبراهيم بن محمد بن عيسى بن سعد الخيري الأنصاري (ت بعد ٥٩٣هـ)، من أهل بلنسية وكان بارعاً في الحساب والهندسة وفرائض المواريث وكان لا يداني في ذلك، وعرف بالصلاح والدماثة والعدالة ووفور العقل^(٦). ومنهم علي بن عبد الله بن خلف بن محمد بن عبد الرحمن ابن عبد الملك الأنصاري (ت : ٥٦٧هـ)، وكان أحد كبار العلماء بشرق الأندلس في عصره، وكان مقرئاً مجوداً، مفسراً محدثاً، راوية حافظاً، فقيهاً مشاوراً، بارعاً في علوم اللغة وقد تولى الخطبة بجامع بلنسية^(٧)، ومنهم أحمد ابن علي بن يحيى عون الله الأنصاري (ت : ٦٠٩هـ) من أهل بلنسية وكان واحداً من أشهر المتخصصين في القراءات ولم يكن أحد من أهل صناعته يدانيه في الضبط والتجويد والاثقان وحسن الأداء، تصدر للإقراء في حياة شيوخه ورأس في ذلك أهل عصره^(٨).

أما بطون الخزرج، فقد توطنت في مدينة شارقة، وبسبب ذلك عرفت هذه المدينة بقلعة الأشراف^(٩)، وقد برز منهم أحمد بن طاهر بن علي بن عيسى الأنصاري الخزرجي من ولد قيس بن سعد بن عبادة (ت : ٥٣٢هـ)، الذي أسندت

(١) ابن الآبار، التكملة، ص ٢٨٥، ص ٤٩٩.

(٢) ابن الآبار، نفس المصدر، ص ١٦٤، ت : ٥٨٠.

(٣) نفس المصدر، ص ٤٨٦، ت : ١٣٩٥.

(٤) ابن الآبار، المعجم، ص ١٧٢، ت : ١٥٥.

(٥) الغني، بغية الملتبس، ص ٤٣، ت : ٣٤.

(٦) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الأول، القسم الأول، ص ٦٣، ت : ٤٤.

(٧) نفس المصدر، السفر الخامس، القسم الأول، ص ٢٢٦، ت : ٤٤٥.

(٨) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الأول، القسم الأول، ص ٣٤٢، ت : ٤٣١.

(٩) ابن الآبار، المعجم، ص ١٤، ت : ١٢، وراجع أيضاً:

Julian Ribera y Tarrago, op.cit., t. II, p. 211;

شارقة تقابل Jérica في محافظة Castellon، انظر :

Miguel Asin Palacio, contribucion a la toponimia A'rabe de Espana, Madrid, 1944, p. 115.

إليه خطة الشورى بدانية^(١)، وعبد الرحمن بن العاصي الأنصاري الخزرجي من ولد سعد بن عبادة، وكان فقيهاً جليلاً تولى الأحكام بشارقة^(٢) ومحمد بن أحمد بن محمد الذي يرفع نسبه كذلك إلى سعد بن عبادة الخزرجي (ت: ٥٦٧هـ)، وأصله من شارقة وانتقل للإقامة ببلنسية، وقد تقلد قضاء مريطر مضافاً إليه الصلاة والخطبة بجامعها^(٣). ومنهم محمد بن عبد الرحيم بن محمد بن الفرج الأنصاري الخزرجي، استوطن مرسية وتولى بها خطة الشورى سنة ٥٣٩هـ، ثم تولى بعد ذلك قضاء بلنسية سنة ٥٤٦هـ^(٤)، ويحيى بن أحمد بن محمد بن أحمد بن طاهر الأنصاري (ت: ٦٣٤هـ)، من أهل دانية وإن كان قد سكن شاطبة ورأس فيها وتولى تدبير أمورها فترة من قبل محمد بن يوسف بن هود^(٥). ومنهم الشيخ الأكبر العارف الزاهد أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد الأنصاري المرسى (ت: ٦٨٦هـ)^(٦).

أما الأزدي فقد استوطن عدد كبير منهم مرسية، وبرز منهم عبد الرحمن ابن عبد الله بن موسى بن سليمان الأزدي (ت: ٥٨٧هـ) الذي تولى قضاء دانية مدة، وولى صلاة الفريضة والخطبة بجامع مرسية زمناً طويلاً بالإضافة إلى مشاركته في تدريس الفقه^(٧)، وأحمد بن عبد العزيز بن محمد الأزدي (ت: ٥٦٤هـ) تولى خطة الشورى بمرسية في إمارة محمد بن سعد بن مردنيش، ثم تولى قضاء شاطبة مضافاً إليه قضاء أورويله ثم عزل عنها وأعيد إلى خطة الشورى بأوربولة ثم تقلد قضائها مضافاً إليها خطة المواريث^(٨)، ومنهم الطيب عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن سعدون الأزدي ببلنسية الذي عني بالطب فبرع فيه^(٩)، وعبد الله بن موسى بن سليمان الأزدي المعروف بابن برطلة (ت: ٥٨٥هـ)، من أهل مرسية وقد تولى الصلاة والخطبة بمسجدها الجامع^(١٠)، والفقيه عزيز بن عبد الملك بن محمد خطاب، رئيس مرسية، وكان من رجالات الأندلس وأهل الكمال والزهد في أول أمره وأقبل على الآخرة ثم مالت به الدنيا وقدم لولاية مرسية فلم تحمد سيرته فصرف عنها ثم صارت إليه رياستها مرة أخرى

(١) ابن الآبار، المعجم، ص ١٤، ت: ١٢.

(٢) ابن الآبار، التكملة، ص ٥٥١، ت: ١٥٥٦.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٣٠، ت: ٧٥٣.

(٤) نفس المصدر، ص ٢٢٧، ت: ٧٥٠.

(٥) نفس المصدر، ص ٧٢٩، ت: ٢٠٦٧.

(٦) السيد عبد العزيز سالم، مدينة مرسية موطن القبط الأعظم أبي العباس المرسى، وله أيضاً: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٩٦٩، ص ٤٧٥، هـ ١.

(٧) ابن الآبار، التكملة، ص ٥٧٩، ت: ١٦٢٤.

(٨) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الأول، القسم الأول، ص ٢٤٤، ت: ٣٢٥.

(٩) ابن الآبار، المصدر السابق، ص ٦٣٢، ت: ١٧٦٨.

(١٠) نفس المصدر، ص ٣٥، ت: ١٠٢.

فدبرها ودعا لنفسه وقد قتل في رمضان سنة ٦٣٦ هـ (١).

ومن الأوس، قسم من قبيلة بلحارث (٢)، وبرز منهم حيان بن عبد الملك بن محمد بن هشام الأنصاري الأوسي (ت : ٦٠٩ هـ)، استوطن مرسية، وكان نحوياً لغوياً، وأديباً شاعراً كذلك اشتغل بالإقراء زمناً بجامع بلنسية (٣).

ومن المضرية، الفهريين الذين استوطنوا بلنسية، وقد برز منهم يوسف بن عبد الله بن يوسف بن أيوب بن القاسم بن فيرة بن عبد الرازي الفهري (ت : ٥٨٧ هـ)، وكان يهتم بالرواية بالإضافة إلى نبوغه في الآداب كما كان إماماً في معرفة الشروط، كتب للقضاء وناب في الأحكام (٤)، والفقيه محمد بن وهب بن لب الفهري (ت : ٦١٣ هـ) تولى الخطبة بجامع بلنسية واستقضى ببعض كورها (٥).

ومن كنانة، نبغ أحمد بن عبد الرحمن بن أبي أحمد الكنانى (ت : ٥٧٤ هـ) من أهل بلنسية، وكان يجمع بين النسب والحسب (٦)، أقام بمالقة وكتب لابن همشك بحيان (٧)، والفقيه الطيب محمد بن الطيب بن الحسين بن هرقل العتقى الكنانى الذى سكن مرسية (ت : ٦١٦ هـ)، وكان عالماً مرموقاً شارك في الآداب، ونظر عليه في كتب الرأى وأصول الفقه، وتقدم أهل بلده رئاسة ورجاحة (٨)، ومنهم الفقيه خلف بن مفرج بن سعيد الكنانى، من أهل شاطبة، ويعرف بابن الجنان، وكان فقيهاً مشاوراً، تولى القضاء بإحدى الكور الشرقية لأبى أمية بن عصام (٩).

ومن بنى مخزوم، بنو عميرة، الذين برز منهم أحمد بن عبد الله بن محمد ابن الحسين بن أحمد بن عميره المخزومى (توفي بتونس عام ٦٥٨ هـ)، من أهل شقر، وكان شديد العناية بالرواية، ودرس على مشايخ عصره، وتفنن في العلوم ونظر في المعقولات وأصول الفقه، وبرع في الآداب براعة «عد بها من كبراء مجيى النظم» (١٠)، كما برز في الكتابة وله فيها المطولات المنتخبة والقصار

(١) ابن الآبار، المعجم، ص ٢٢٦، ت : ٢٠٦، وله أيضاً : التكملة، ص ٤٧٩، ت : ١٣٨٤.

(٢) انظر : عمر رضا كحالة، المرجع السابق، ص ٤٩.

(٣) ابن الآبار، التكملة، ص ٣٩، ت : ١٢٢.

(٤) ابن الآبار، التكملة، ص ٧٣٥، ت : ٢٠٨٥، ابن الزبير (أبو جعفر أحمد)، القسم الأخير من كتاب الضلة، تحقيق الأستاذ ليفى بروفنسال، الرباط، ١٩٣٨، ص ٢٠٧.

(٥) ابن الآبار، التكملة، ص ٣١٠، ت : ٩٣٢.

(٦) ابن عبد الملك، المصدر السابق، القسم الأول، السفر الأول، ص ١٩٧، ت : ٢٧٠.

(٧) نفس المصدر والقسم والسفر والصفحة.

(٨) ابن الآبار، التكملة، ص ٧٩، ت : ٢٦٥.

(٩) ابن الآبار، التكملة، ص ٥٠، ت : ١٦٨.

(١٠) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الأول، القسم الأول، ص ١٥٠، ت : ٢٣١.

المقتضية^(١)، وقد وصفه ابن سعيد فقال: «هو الآن عظيم الأندلس في الكتابة، وفي فنون من العلوم، وقد كتب عن زيان بن مردنيش والي مرسية»^(٢).

وقد برز من قيسية شرق الأندلس عدة شخصيات لعبت دوراً هاماً في الحياة العلمية وشاركت في دفع الحركة العلمية بشرق الأندلس في الفترة موضوع الدراسة نذكر منها الفقيه عمر بن محمد بن ونجب القيسي البلسني (ت: ٥٥٧هـ) صاحب الأحكام ببلنسية، وقد استقضى بآخر عمره في دانية في ولاية محمد بن سعد بن مردنيش^(٣)، والمحدث أحمد بن أبي الحسن محمد بن عمر بن محمد بن واجب بن عمر بن واجب القيسي البلسني (ت: ٦١٤هـ) الذي استقضى بشاطبة ثم ببلنسية مرتين، وعرف بالعدالة^(٤)، والفقيه محمد بن عبد العزيز بن محمد بن واجب القيسي البلسني (ت: ٥٣٣هـ)، ولي القضاء بقسنطينة وغيرها من جهات شرق الأندلس^(٥)، ومحمد بن عمر بن محمد بن واجب القيسي البلسني، ولي القضاء بعدة مواضع من بلنسية، وقدم للشورى والخطبة بمسجدها الجامع، كما تولى النيابة في الأحكام^(٦)، ومحمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن طاهر القيسي من أهل مرسية، وتقلد رئاستها إبان الفتنة التي أعقبت سقوط دولة الملتهمين بفترة قصيرة ثم تخلى عنها بعد ذلك^(٧). ومحمد بن عمر بن محمد بن واجب بن عمر بن واجب القيسي (ت: ٥٤٠هـ) الذي تولى قضاء أوريولة والش من كورة بلنسية^(٨). وعمر بن عبد العزيز بن خلف بن أبي العيش من أهل لورقة الذي تولى قضاءها فترة^(٩).

ومن قضاءها ظهر عدد من الشخصيات البارزة في المجتمع البلسني نخص بالذكر منهم سليمان بن موسى بن سالم بن حسان بن سليمان بن أحمد ابن عبد السلام الحميري الكلاعي (ت: ٦٣٤هـ)، والذي يصفه ابن عبد الملك بأنه «كان بقية

(١) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الأول، القسم الأول، ص ١٥٠؛ وانظر أيضاً في ترجمته: ابن الخطيب، الإحاطة، ج ١، ص ١٧٣؛ القبريني، عنوان الدراية، ص ١٧٨؛ ابن سعيد، اختصار القدر المعلي، ص ٦٢، ت: ٦.

(٢) ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ٣٦٣.

(٣) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الخامس، القسم الثاني، ص ٤٦٧، ت: ٨١٧؛ وراجع أيضاً: ابن الآبار، التكملة، ص ٦٥٥، ت: ١٨٢٤؛ ابن الزبير، صلة الصلة، ص ١٦٥، ت: ٣٢١.

(٤) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الأول، القسم الثاني، ص ٤٧٠، ت: ٧١٣.

(٥) ابن الآبار، التكملة، ص ٢٠٧، ت: ٧٠٣، وقسنطينة قرية من أعمال مدينة دانية؛ راجع: ابن الآبار، التكملة، ص ٣٨٨، ت: ٩٨٨.

(٦) ابن الآبار، نفس المصدر، ص ٢٥١، ت: ٨١٣.

(٧) نفس المصدر، ص ٢٣٨، ت: ٧٧٤.

(٨) ابن الآبار، التكملة، ص ١٧٦، ت: ٦١٨.

(٩) الضبي، بغية الملتمس، ص ٣٩٥، ت: ١١٦٧.

الأكابر من أهل العلم يصتق الأندلس الشرقية ، حافظًا للحديث مبرزًا في نقده تام المعرفة بطرقه ضابطًا لأحكام أسانيده، ذاكرًا لرجاله وتواريخهم وطبقاتهم^(١)، كما كان كاتبًا بليغًا وشاعرًا مجيدًا وخطيبًا مصفعا، تولى الخطبة بجامع بلنسية فترة، كما تولى القضاء بها^(٢)، ومنهم عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القضاعي (ت : ٦١٩هـ)، وأصله من أئده واستوطن بلنسية، وهو والد الكاتب المؤرخ أبي عبد الله بن الآبار، وكان القاضي أبو الحسن بن واجب يستخلفه على الصلاة بمسجد السيدة بلنسية^(٣)، ومنهم محمد بن علي بن الزبير بن أحمد بن خلف بن أحمد بن عبد العزيز بن الزبير القضاعي وأصله أيضًا من بلدة أئدة واستوطن مريبطر ، وكانت له مشاركة في علم الفرائض والحساب^(٤)، ونختتم شخصيات هذه الأسرة بالأديب الكاتب المؤرخ محمد ابن عبد الله القضاعي ابن الآبار الذي سنتحدث عن سيرته في الفصل الثالث من هذا الباب.

أما بنو حارث، فقد استوطنوا أئدة، وظهر منهم عبد الله بن سليمان بن داوود ابن عبد الرحمن بن سليمان بن عمر بن خلف بن حوط الله الأنصاري الحارثي (ت : ٥٤٩هـ)، الذي كان إمامًا في صناعة الحديث، وتولى في أوقات مختلفة قضاء قرطبة وأشبيلية ومرسية وسبتة وسلا وغيرها من حواضر المغرب والأندلس^(٥)، وداوود بن سليمان بن داوود بن عبد الرحمن ابن عمر بن خلف بن عبد الله بن عبد الرؤوف ابن حوط الله الأنصاري الحارثي (ت : ٥٢١هـ) الذي تولى قضاء الجزيرة الخضراء وغيرها، ثم ولى قضاء بلنسية، فمالقة حيث توفي^(٦).

كان عرب شرق الأندلس ومعظمهم من اليمينية يشتغلون إما بالفلاحة أو بالتجارة كما أن بعضهم اشتغل بالأدب والعلم ، وقد ترك العرب في شرق الأندلس بصماتهم واضحة في أسماء بعض القرى الحالية التي كانوا ينزلون بها مثل بنى قيس وبنى خلف وبنى كلاب وبنى سليم وبنى خليل وبنى عمر وبنى لمط وبنى محمد وغيرها^(٧). ويكفي أن نشير في هذا المجال إلى أسرة أبي العباس المرسى التي تنتسب إلى الخزرج وكانوا يعملون بالتجارة وظل شقيق أبي العباس المرسى حتى وهو في

(١) ابن عبد الملك، المصدر السابق، بقية السفر الرابع، ص ٨٣، ت : ٢٠٣.

(٢) نفس المصدر والسفر والصقحة؛ وراجع أيضًا: ابن الآبار، التكملة، ص ٧٠٨، ت : ١٩٩١، ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ٣١٦، وله أيضًا: اختصار القدر المعلق، ص ١٩١، ت : ٥٨.

(٣) ابن عبد الملك، نفس المصدر، بقية السفر الرابع، ص ١٧٦، ت : ٣٢٩.

(٤) ابن الآبار، التكملة، ج ١، ص ٣٣٦، ت : ٩٨٤.

(٥) ابن الآبار، المصدر السابق، ص ٥٠٦، ت : ١٤٣٥.

(٦) نفس المصدر، ص ٦٣، ت : ٢٠٥.

(٧) Miguel Asin Palacio, Contribucion de la Toponimia Arabe de Espana, pp.

أفريقية يشتغل بالتجارة في حين تفرغ أبو العباس نفسه للمعرفة والتصوف. ولا ننسى أن العناصر اليمينية أثرت الاشتغال بفلاحة الأرض والزراعة بحكم انتمائهم إلى بلاد عرفت قبل الإسلام بتقاليدها الزراعية كالأزد ولخم ومعافر^(١).

ب- البربر:

تحمل البربر الصدمات الأولى في فتوح الأندلس، وعليهم وقع العبء الأعظم في هذه الفتوح، ذلك أن الجيش الذي قاده طارق كان قوامه الرئيسي من العناصر البربرية، التي ازداد حجمها بعد أن تكشفت نتائج المعارك الأولى مع القوط^(٢)، فتطأير إلى الأندلس عدد هائل من البربر التحماساً للفتن أو بهدف الاستقرار في هذه البلاد الغنية، ومنذ ذلك الحين أخذت طلائع البربر تتوافد إلى الأندلس^(٣)، وأخذت تشكل العنصر الإسلامي الرئيسي في أرض الأندلس والطائفة المتفوقة في جملة الطوائف التي يتألف منها مجتمع الأندلس. وقد أورد ابن خلدون أسماء قبائل أربعة كان يتألف منها جيش طارق عند دخول الأندلس، هي قبائل مطغرة، ومديونة، ومكناسة، وهوارة وكلها من بطون زناتة^(٤)، ثم يضيف ابن حزم قائمة أخرى بقبائل البربر التي وفدت إلى الأندلس من بينها: مغيلة وملزوزة ونفزة، وأورية، ومصمودة^(٥). وقد اتخذت هذه القبائل منازلها في مناطق مختلفة من الأندلس بعضها يتسم بسهولة أرضه والبعض الآخر بوعوره وكثرة جباله أو قلة موارده، فبينما نزل بنو البرزالي بقرمونة، وبنو اليفرن بنردة وبنو هرزون في شريش وبنو ذى النون بويدة، وبنو رزين بالسهلة، وبنو عميرة بشاطبة، نزل بنو فرفرن بماردة ومدلين، وبنو الياس بشذونة واستوطن بعضهم الشفور، وبنو سالم بمدينة سالم، وبنو عوسجة، وبنو صيرون بن شبيب، وبنو وهب بن عامر، وبنو عزون، وبنو نعمان في نواحي هذه المدينة وفي مناطق تضم شنتمرية والسهلة ووادي الحجارة، وتمتد شرقاً إلى تيروال والبونت وغرباً إلى مناطق طلبيرة وماردة وقوريه حتى المحيط عند قلنيره^(٦)، كما سكن عدد كبير من البربر شمالي نهري تاجه والدوير^(٧).

(١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، مؤسسة الثقافة الجامية، الإسكندرية، ١٩٧٤، ص ٧-٨.

(٢) لعل ذلك كان سبباً في أن يتسم فتح الأندلس بالصفة الإسلامية بدلاً من العربية إلى حد أن أحدهم صنف كتاباً عنوانه «Les Arabes n'ont jamais conquis l'Espagne» يشتمل على كثير

من المغالطات التاريخية إذ استبعد العرب من عملية الفتح.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، وآثارهم في الأندلس، ص ١٢٢.

(٤) ابن خلدون، الجبر، ج ٦، ص ١٨٠ وما بعدها.

(٥) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٤٦٣، ص ٤٦٧.

(٦) حسين مؤنس، فجر الأندلس، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٣٨٤ وما بعدها؛ لطفى عبد اليليع، الاسلام

في أسبانيا، العدد الثاني من سلسلة المكتبة التاريخية، القاهرة، ١٩٥٨، ص ٣٢، السيد عبد العزيز

سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٣٨.

(٧) أخبار مجموعة، ص ٣٨.

ومن المسلم به أن البربر لعبوا دوراً واضحاً ملموساً في تاريخ الأندلس فإليهم يرجع الفضل في نشر الإسلام والجهاد في سبيله، ثم أنهم اختلطوا بأهل البلاد اختلاطاً وثيقاً، وكانوا أعواناً للعرب في تحقيق النقلة على نحو تجاوز كل تقدير في الحسبان^(١). وبهمنا أن منطقة شرق الأندلس كانت أقل مناطق أسبانيا التي نزلها البربر، والظاهر أن سياسة الولاة العرب كانت تستهدف إزالتهم في المناطق الوعرة وإقصائهم عن المناطق الخصبة التي استأثرت بها القبائل العربية وهذا يفسر ندرة أسماء القبائل البربرية التي استوطنت هذه المنطقة، واقتصارها على قبيلة نفزة التي نزلت بشاطبة وبرز منها عدد من الفقهاء والأدباء تولوا بعض الوظائف بها، من بينهم الفقيه محمد بن عبد الرحمن ابن عبد الله بن مطرف بن أبي سهل بن ياسين النفزي (ت : ٥٩٠هـ)، وكان معدوداً في الفقهاء والأدباء^(٢)، ومحمد بن سليمان بن سليمان بن خلف النفزي (ت : ٥٥٣هـ) وكان فقيهاً حافظاً للمسائل بصيراً بالفتوى أسندت إليه خطة الشورى بشاطبة^(٣)، ومحمد بن أحمد بن عبيد الله النفزي (ت : ٦١٦هـ)، وكان فقيهاً جليلاً حافظاً للرأى والمسائل مدرساً لها ثقة عدولاً^(٤)، وإذا كان هناك من بين البربر من اشتغل بالأدب والفقه فإن العدد الأعظم ممن استقر منهم بشرق الأندلس وعلى الأخص بشاطبة كان يعمل بالرعى.

ونضم إلى هذين العنصرين العربى والبربرى جماعة الموالى الذين استقر بعضهم بشرق الأندلس منذ أواخر عصر الولاة، ومعظمهم وفد إلى الأندلس في جملة من نزل الأندلس في طاعة بلج بن بشر، وألفوا تكتلاً موالياً لبنى أمية وكانوا عنصراً رئيسياً اعتمد عليه عبد الرحمن الداخل عندما نزل بالأندلس، وكان معظم هؤلاء الموالى من أهل الشام أو المغاربة البربر الذين دخلوا في طاعة بنى أمية أو عمالهم^(٥). وقد لعب الموالى دوراً هاماً في تاريخ الأندلس في العصر الإسلامى إذ اعتمد عليهم بنو أمية وقلدوهم مناصب الدولة الهامة لتفانيهم في خدمتهم وإخلاصهم لهم^(٦).

وقد برز من هؤلاء في منطقة شرق الأندلس، محمد بن جعفر بن خيرة مولى رزق لابن فطيس القرطبي، بلنسى (ت : ٥٤٧هـ) وصاحب الصلاة والخطبة بجامعها^(٧)، ومحمد بن محمد بن أبي السداد واسمه موفق مولى زاك اللمتوني (ت

(1) Levi - Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, t. I, Paris, 1950;

وانظر أيضاً: حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ٣٩٠.

(٢) ابن الآبار، التكملة، ص ٢٦٤، ت : ٨٣٧.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٠٥، ت : ٧٠٠.

(٤) نفس المصدر، ص ٣١٧، ت : ٩٤٧.

(٥) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ١٢٢.

(6) Levi - Provençal, L'Espagne Musulmane au xe siecle, Paris, 1932,

p.106, No. 10.

(٧) ابن الآبار، التكملة، ص ١٩٧، ت : ٦٧٣.

: ٦٤٢هـ)، من أهل مرسية ، تولى قضاء مرسية والنيابة في الأحكام^(١) ، ومحمد بن يوسف بن سعادة مولى سعيد بن نصير مولى عبد الرحمن الناصر من أهل مرسية (ت : ٥٦٦هـ) ، وسكن شاطبة ، ودارسلفه بلنسية وإليه أسندت خطة الشورى بمرسية مضافاً إليها الخطبة بجامعها^(٢)

ج- المسألة والمولدون :

كان لسياسة التسامح الحكيمة التي انتهجها الفاتحون المسلمون مع المغلوبين في أعقاب الفتح عظيم الأثر في دخول عدد كبير من الأسبان في الإسلام، وبذ كثير من أهل الذمة دينهم المسيحي، واعتنقوا الإسلام إما عن إيمان صادق بهذا الدين السمع الذي يدعو إلى المساواة والعدل والتكافل والتسامح بعد أن عانوا كثيراً في العهود البائدة من الانقسامات الدينية والمظالم الاجتماعية التي كانت تفرضها عليهم الكنيسة القوطية أو تحقيقاً لمكاسب ذاتية يقتضيها الإقرار بالأوضاع الجديدة وإن كانوا لم يكرهوا قط على اعتناقه. والواقع أن الفاتحين لم يتعرضوا لأهل الذمة بضر، ولم يفرضوا عليهم الإسلام قهراً^(٣) ، باعتبارهم من أهل الكتاب^(٤) . وعلى هذا النحو أقبل كثير من أهل أسبانيا على اعتناق الإسلام، وأصبحوا يشكلوا قسماً رئيسياً في البناء السكاني الإسلامي في شرق الأندلس، وساهموا بنصيب وافر في تاريخ وحضارة هذه المنطقة.

وإلى جانب العناصر الإسلامية السابقة من عرب وبربر ومسالمة، ظهرت طبقة جديدة من المولدين كانت ثمرة مصاهرة المسلمين للأسبان^(٥) منذ اللحظات الأولى من الفتح الإسلامي عندما أقبل الفاتحون على الزواج من الأسبانيات جرياً على السياسة التي انتهجها الفاتحون العرب في الشام ومصر والعراق، وهي سياسة أثبتت فعاليتها في تثبيت الفتوح العسكرية، إذ أن المعاهدات مع المغلوبين كانت عاملاً رئيسياً في تأليف القلوب وكسبها، وتلاحم الغالب بالمغلوب ونشر الإسلام بإتاحة ظهور جيل من المولدين المسلمين ثمرة هذا التلاحم الذي فرضه زواج المسلمين ببنات المغلوبين. وعلى الرغم من أن هؤلاء المولدين كانوا يتعصبون لأصولهم الأسبانية مثل بنو مردنيش وبنو همشك في شرق الأندلس، كما كانوا يميلون إلى القشتاليين أو الأرغونيين ويرتبطون معهم بعلاقات سياسية ويتشبهون بهم متمسكين بذلك بأصولهم الأندلسية

(١) نفس المصدر ، ص ٣٥٧ ، ت : ١٠٢٧ .

(٢) نفس المصدر، ص ٢٢٣ ، ت : ٧٤٦ .

(3) Lévi - Provençal, op.cit., p. 32'

وراجع أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ١٢٧ .

(4) Lévi - Provençal, Histoire, t. I, p. 73.

(٥) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ١٢٨ .

سيما بعد أن تغلبت على الأندلس عناصر بربرية مرابطية وموحدية ، وهذا ما يدعوننا إلى الاعتقاد بأن عصر الطوائف ظل قائماً خلال عصرى المرابطين والموحدين بدليل الثورات العنيفة التى قام بها أهل الأندلس فى كل مناطق الأندلس على المرابطين وبدليل المقاومة العنيفة التى قادها بنو مردنيش ضد كل سلطة الموحدين فى شرق الأندلس.

ثانياً - العجم أو المستعربون :

وهم النصارى الأسبان الذين عاشوا مع المسلمين ، يتكلمون لغتهم ويصطنعون ثقافتهم مع احتفاظهم بدينهم وحرية إقامة شعائرهم الدينية ، فعرفوا بالمستعربين أو المعاهدة، وعرفوا أيضاً بعجم الذمة ، وكان المستعربون يؤلفون طبقة كبيرة فى بداية الفتح الإسلامى للأندلس، غير أن عددهم أخذ يتناقص تدريجياً بازدياد حركة الدخول فى الاسلام، وإشار عدد كبير من المستعربين الانتقال بثقافتهم العربية إلى المناطق الشمالية فيما حول الدويرة حيث أقاموا كنائسهم المستعربة المتأثرة معمارياً بالأسلوب الإسلامى القرطبى بحيث يصعب تمييز أسلوب عمائرهم من الأسلوب المعمارى الإسلامى^(١). ولقد لعب من بقى من هؤلاء المستعربين فى دار الاسلام دوراً بالغ الخطورة فى شرق الأندلس وفى غرناطة قبيل قيام الملك ألفونسو الأول المحارب بحملته الطويلة على الأندلس كما سبق أن رأينا ، وما كان من صدور قرار الأمير علي بن يوسف ابن تاشفين فى شأن تغريبهم.

وما سبق يتضح لنا أن العصبيتين العربية والمولدة كانتا تشكلان الأكرية العديدة فى منطقة شرق الأندلس وأنهما استأثرتا بأهم الوظائف فى حواضر هذه المنطقة ، ولعل ذلك يفسر جنوح هذه المنطقة كثيراً إلى الانتزاع وإثارة القلاقل فى وجه الأميين والمرابطين والموحدين ، أنفة من السيطرة البربرية الطارئة وتفوق النزعة الطائفية الأندلسية فى شرق الأندلس منذ انهيار سلطان الخلافة القرطبية وقيام دويلات الطوائف على النحو الذى أشرنا إليه عند حديثنا عن المولدين.

وينبغى قبل أن نترك هذا الموضوع الإشارة إلى أن هذه العناصر المولدية والمستعربة كانت تشتغل على السواحل بالملاحة وكان معظمهم من البحريين الذين أفادهم أصلهم الأسبانى بالاتصال بالسواحل المسيحية القطلانية والإيطالية والغالية، والاشتغال بالتجارة البحرية مع أهالى هذه السواحل، وقد سبق أن لعبوا دوراً هاماً فى قيام البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس فى عصر الدولة الأموية وعصر

(١) انظر : جوميث مورينو، الفن الإسلامى فى أسبانيا، ترجمة الدكتور لطفى عبد البديع والدكتور السيد عبد العزيز سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٤٢٥.

الطوائف^(١)، كذلك اشتغل بعض هؤلاء المولدين والمستعربين أحياناً بالفنون الصناعية لا سيما صناعة الخزف المزدهرة في بلنسية ومنيشة وبطرنة وكانت من الصناعات الأندلسية التقليدية.

ثانياً - الزي

ارتبطت الأزياء بالإنسان ولازمته في كل أدوار حياته، وكانت تختلف من صقع إلى آخر باختلاف ظروف البيئة والمناخ.

وعلى الرغم من اختلاف مناطق الأندلس الساحلية مناخياً عن المناطق الداخلية ، فإن السمة الغالبة هي الحرارة العالية خلال شهور الصيف والبرودة الشديدة خلال فصل الشتاء، وقد كان لذلك أكبر الأثر في تباين الثياب الصيفية عن الشتوية، كذلك تختلف الأزياء باختلاف الظروف الاجتماعية في المجتمع الأندلسي، فاستمت ثياب الخاصة بالأبهة والفخامة من حيث المادة والزخرفة في حين غلب مظهر البساطة على ثياب العامة، وهذا التقسيم ينعكس على دار طراز الخاصة المخصصة للسلالطين والخلفاء وكبار رجال الدولة ودار طراز العامة التي كانت أنوالها تخصص انتاجها لعامة السكان.

(أ) البسة العامة:

كان الرجال والنساء يرتدون في فصل الصيف فوق الجسم مباشرة أقمصصة مصنوعة من الكتان أو القطن يليها سراويل^(٢) طويلة وضيقة لا تتجاوز الركبة ويحكم السروال بشريط أو حزام، وكان في الإمكان استبدال القميص برداء فضفاض من النسيج الأبيض، وبينما يرتدى الرجال فوق ذلك صدرية من الشرب وهي نسيج رقيق Gilala, Malham، فإن النساء كن يلبسن قمصاناً من أنسجة رقيقة^(٣).

أما في الشتاء ، فكانوا يلبسون أقبية ثقيلة محشوة بالقطن أو حلالاً من أفرية الخراف أو الأرناب^(٤).

(١) راجع : السيد عبد العزيز سالم (بالاشتراك مع أحمد مختار العيادي)، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، بيروت، ١٩٦٩، ص .

(٢) سروال والجمع سراويل، مشتق من الاصطلاح الفارسي شلوار ويعرف بالأسبانية Zara-guelles، راجع؛

Dozy (R), Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les arabes, Amsterdam, 1845, pp. 203-204.

(3) Lévi - Provençal, Espana musulmana, en Historia de Espana, dirigida por Roman Menéndez Pidal, tercera edición, Espana, calpe, t. V, 1973, p. 275;

وانظر أيضاً؛ السيد عبد العزيز سالم، صبور من المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة في علب العاج، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد التاسع عشر، ١٩٧٦/١٩٧٨، ص ٨٠.

(4) Lévi-Provençal, op.cit., t. v., p. 275.

وفيما يتعلق بكسوة الأقدام والسيقان، فكانت تتخذ الجوارب الصوفية الطويلة لكسوة الساق حتى أعلى الركبتين ثم ينتعلون نعالاً من الجلد مبطنة باللباد وذلك في فصل الشتاء، في حين يتخذون نعالاً من الخشب^(١)، أو من القنب أو الحلفاء مزودة بمشبك وتعرف بالقرق في فصل الصيف^(٢).

أما غطاء الرأس، وهو الذي يميز بين الرجال والنساء، فالأكثر شيوعاً في شرق الأندلس أن الرجال يتركون رؤوسهم مكشوفة، وفي ذلك يقول ابن سعيد: «وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم، لاسيما في شرق الأندلس وقد تسامحوا بشرقها في ذلك، ولقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر عالم بمرسیه حضرة السلطان في ذلك الأوان، وإليه الإشارة، وقد خطب له بالملك في تلك الجهة، وهو حاسر الرأس، وشبيه قد غلب على سواد شعره، وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من ترك بعمه في شرق منها أو في غرب، وابن هود الذي ملك الأندلس في عصرنا رأته في جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة^(٣). والأقلية منهم من يغطيها بكوفية من الكتان أو شاشية^(٤) من اللباد.

أما غطاء الرأس عند المرأة فكان أكثر تعقيداً، إذ كن يضعن على رؤوسهن قبل كل شيء لفاف تدور حول الرأس ثبتت بها طرحة فضفاضة تسمى المقنعة^(٥)، تتدلى على الكتفين، أو خمار^(٦) من الحرير، يغطين به رؤوسهن ينسدل على الوجه فيغطيها، وفي بعض الأحيان كن يضعن على رؤوسهن طرحة تحجب العينين وتنسدل على الكتفين^(٧).

أما الريفيون فكانوا يلبسون شاية فوق قميص من القطن يعرف باسم دراعة^(٨) أو يتخذون جبة^(٩) سميكة أو رداء من الصوف مفتوح كله أو معظمه من الأمام.

(1) Ibid, p. 276.

(2) قرق والجمع قركات، وبالأسبانية Alcorque، انظر: Dozy, op.cit., p. 53.

(3) في: المقرئ، نفع الطيب، ج ١، ص ٢٠٧.

(4) شاشية وهي الطاقية التي يضمها الفرد فوق الرأس ويلف حولها قطعة من القماش لتكون بهذه

الطريقة العمامة، راجع: Dozy, op.cit., p. 240.

(5) عرفت المقنعة في الأندلس باسم Alquinal، راجع: Dozy, op.cit., p. 378.

(6) خمار والجمع خمر، والخمار كل ما خمرت به المرأة رأسها من شقاق الحرير، انظر: عبد العزيز الأهواني، ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الثالث، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٣٠، وراجع أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المربة الإسلامية، ص ١٥٨.

(7) Lévi - Provençal, op.cit., pp. 179-214.

(8) دراعة والجمع دراريع، وهي جبة من صوف مشقوقة المقدم، شاية والجمع شايات وتعرف بالأسبانية

Saya - Sayo من اللاتينية Sagum، فسرهما دوزي عباءة طويلة بدون أكمام كان يرتديها

الفلاحون الأسبان وتسمى Sayo أيضاً جيب اللينات، راجع: Dozy, op.cit., pp. 179-214.

(9) وهي بالأسبانية Aljuba-Jupa, Chupa, Jubon، وبالبرتغالية Aljuba، وبالإيطالية Guippone

Guippa، وفي الفرنسية Jupe et Juppon.

يضاف إلى هذا الزيّ في فصل الشتاء صدرية لا أكمام لها^(١).

والأحذية كانت لا تعدو قباقيب من الخشب مزودة بأشرطة من أفرية الشياة أو الأرتاب تعرف بـ Qirgasa، وأحياناً يستخدمون النعال، أما لباس الرأس في الرأس فيقتصر في الصيف على القلائس المصنوعة من القش المضفور وتنتهي من أدنى بحواف عريضة^(٢).

أما ثياب البيازرة فكانت أقمصمة تصل حتى تغطي الركبتين تتكسر ثنيتها، أكمامها ضيقة عند المعصم وتختلف في ذلك عن أكمام الجباب الواسعة ومن تحتها كانوا يرتدون سراويل ضيقة تصل حتى الأقدام^(٣).

ب- لباس الخاصة :

أخذت التقاليد البغدادية ابتداءً من القرن الثالث الهجري (٩م)، تترك بصماتها على ملابس الطبقة الخاصة الثرية في الأندلس، إذ تدفقت منتجات دور الطراز البغدادية على الأندلس مع التجار المشارقة الوافدين إلى الأندلس، فضلاً عما أدخله المغني زرياب من نظم مستحدثة في الأزياء نخضع لعوامل الحرارة وتناسب مع فصول السنة^(٤).

كان هذا التوجيه الإيجابي نحو التأنيق في الأردية باعثاً على إقبال المسلمين في الأندلس نحو تطوير ملايسهم وأزيائهم، وقد ساعد على ذلك توفر الحرير الطبيعي والدياج والحلل المشوية بقرطبة وبجانة والمريه واشتغال هذه المدن بصناعته^(٥). فمن

(1) Lévi - Porvençal, op.cit., p. 276.

(2) Ibid, p. 276.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، صور من المجتمع الأندلسي، ص ٧٩.

(٤) «فقد رأى أن يكون ابتداء الناس للباس البياض وجعلهم للملون من يوم مهرجان أهل البلد المسمى عندهم بالعنصرة الكائن في ست بقين من شهر يولييه الشمسي من شهرهم الرومية، فيلبسونه إلى أول شهر أكتوبر الشمسي منها ثلاثة أشهر متوالية ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة، ورأى أن يلبسوا في الفصل الذي بين الحر والبرد المسمى عندهم الربيع من مصبغهم جباب النخر والملحم والمحرر والدرايع التي لا بطلان لها لقرها من لطف ثياب البياض الظهائر التي ينتقلون إليها لخفتها وشبهها بالمحاشي ثياب العامة وكلما رأى أن يلبسوا في آخر الصيف وعند أول الخريف المحاشي المروية والثياب المصمتة وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ذوات الحشو والبطلان الكثيفة، وذلك عند قرص البرد في الغدوات، إلى أن يقوى البرد فينتقلون إلى أنخن منها من الملونات، ويستظهرون من تحتها إذا احتاجوا إلى صنوف القراء».

راجع: المقرئ، نفح الطيب، ج٤، ص ١٢٤.

(5) Salem (Elsayed Abdel Aziz), Algunos aspectos del Florecimientos economico de Almeria islamica durante el periodo de los taifas y de los Almoravides, Madrid, 1979, pp. 20-21.

المعروف أن صناعة الوشى والديباج كانت مزدهرة بقرطبة^(١). كما ازدهرت بها صناعة الديباج^(٢)، أما الموشى المذهب الذى «يتعجب من حسنه أهل المشرق إذا رأوا منه شيئاً»^(٣) فقد اشتهرت به مدينة مرسية، ثم اختصت المرية بصناعة الحرير الطبيعى لتوفر دود القز وأشجار التوت المقومان الرئيسيان لهذه الصناعة^(٤). ومن الواضح أن صناعة النسيج تطورت فى عصر دولة المرابطين تطوراً تشهد به النصوص التاريخية فيشير الإدريسي إلى أن طرز الحرير أو الأنوال وأنواع المنسوجات الحريرية بلغت فى المرية خلال الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى ثمانمائة نول، وشملت أنواع المنسوجات الحريرية، الحلل والديباج والسقلاطون والأصبهاني والجرجاني والسقور المكلفة، والثياب المعينة والخمر والعتابي والمعاجر^(٥). وتسجل القطع التى وصلت إلينا من عصر الموحدين وعصر دولة بنى نصر بتقدم صناعة النسيج وغلبة التأثيرات المشرقية مصرية وعراقية وفارسية، وقد ترتب على ذلك أن اتخذت النساء الحلل الموشية ملاحف وأردية مرصعة بصنوف الجواهر، وتفننت النساء فى صباغتها بالألوان الزاهية ومختلف أنواع الزخارف.

أما بالنسبة للرجال فقد كانوا حاسرى الرؤوس بوجه عام إلا أن بعضهم كان يضع الطيلسان^(٦) أو غفائر الصوف^(٧) الحمراء أو الخضراء، لأن الغفارة الصفراء كانت قاصرة على اليهود الذين حرم عليهم استخدام العمائم^(٨).

ونستدل من النقوش الآدمية المحفورة على علب العاج الأندلسية من عصر الطوائف على أن الخاصة كانوا يرتدون جباياً فضفاضة تدور بأكمامها أشرطة مزخرفة، أما الرؤوس فحاصرة، ولكن شعورهم كانت تسدل على أصداعهم وجباههم لا فرق فى ذلك بين الرجال والنساء، وكانت للنساء ثياباً واسعة أشبه بالملاحف مشقوقة من الأمام ولكن كن يخمرنها بزنانير^(٩).

(١) المقرئ، المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٣٤.

(2) Lévi - Provençal, la description del Al-Andalus, Vol. XVIII, 1953, p. 65.

(٣) المقرئ، المصدر السابق، جـ ١، ص ١٨٧، جـ ٤، ص ٢٠٧.

(4) Salem, op.cit., p. 21.

(٥) الإدريسي، صفة المغرب، ص ١٩٧، وراجع أيضاً: الحميرى، الروض المطاوع، ص ١٨٤؛ المقرئ، نفح الطيب، جـ ١، ص ١٥٤.

Salem, Ibid, p. 21.

(٦) نقاب أو حجاب مقور، مصنوع من الموسيلين يوضع فوق العمامة أو على الأكتاف ويتدلى على الظهر؛ راجع : Dozy, op.cit., p. 254, 278.

(٧) الغفارة عند ابن سعيد المغربى لا تعنى طاقية، ويرى دوزى أن الأندلسيين أطلقوا اسم غفارة على ما يعرف فى المغرب بشاشية مائلة من الصوف الأحمر يلبسونها عادة دون عمامة؛ راجع؛

Dozy, Ibid, p. 314.

(٨) المقرئ (نقلا عن ابن سعيد)، المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٠٨.

(٩) السيد عبد العزيز سالم، صور من المجتمع الأندلسى، ص ٨٠-٨١.

ثالثاً - الأطعمة والأشربة

ظلت كتب الحسبة في الأندلس ^(١) مصدرًا رئيسيًا لاطلاعنا على الحياة الاقتصادية وعلى طبيعة الأطعمة والأشربة في هذه البلاد، وبالإضافة إلى ما يتضمنه الشعر الأندلسي وبعض رسائل الأدباء من ذكر لبعض الأطعمة والأشربة المعروفة في الأندلس خلال الفترة من القرن الثالث وحتى السابع الهجري، إلى أن ظهر مخطوط مجهول المؤلف، قام بتحقيقه المستعرب البلنسي الأستاذ أويشي ميراندا عنوانه «كتاب الطبخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين» ^(٢)، والكتاب يتضمن مجموعة من البطاقات التي تصف ألوانًا من الأطعمة والأشربة الشائعة في المغرب والأندلس في عصر دولة الموحدين، وترجع أهميته إلى أن مؤلفه يتحدث فيه حديث العارف المطلع بدقائق الطعام ^(٣).

ومن الجدير بالذكر أن الرخاء الاقتصادي الذي عمّ الأندلس بصفة عامة وشرقه بصفة خاصة قد انعكس على شتى مناحي الحياة، فأثر في طبائع الناس، وقد عبر العذري خلال حديثه عن مدينة بلنسية، عن هذه الظاهرة أصدق تعبير حين قال: «لا تكاد ترى فيها أحدًا من جميع الطبقات إلا وهو قليل الهم، مليًا كان أو فقيرًا» ^(٤)، فلقد كان لوفرة الانتاج الزراعي وتنوعه بالإضافة إلى تقدم الانتاج الصناعي وما صاحب ذلك من نشاط تجاري شمل حركة الصادر والوارد أعظم الأثر في اطمئنان الناس إلى معاشهم وتطلعهم إلى الاستزادة من العلوم والآداب، والإقبال على المتع والترف وشهوات النفس والتأنق وتنمية الإحساس بالقيم الجمالية السمعية والبصرية وذلك بالإقبال على الطرب ومجالس الأنس وسماع الموسيقى والفناء، ويعبر العذري عن ذلك بقوله «ولا تكاد تجتد فيها (أي بلنسية) من يستطيع على شيء من دنياه إلا وقد اتخذ عن نفسه مغنية وأكثر من ذلك، وإنما يتفاخر أهلها بكثرة الأغاني» ^(٥).

ومن الطبيعي أن يواكب هذا الرخاء الاقتصادي والازدهار الفني والأدبي التي

(١) السقلى (أبو عبد الله بن أبي محمد)، كتاب في آداب الحسبة، نشر جورج كولان وليفى بروفنسال، باريس، ١٩٣١.

Lévi - Provençal, Le traité d'Ibn Abdun, en Journal Asiatique, T. CCXX IV, Avril, Juin, 1934.

(٢) كتاب الطبخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، لمؤلف مجهول، تحقيق الأستاذ امبروزيو ميراندا، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٥.

(٣) راجع: كتاب الطبخ، ص ١٧-١٨ من مقدمة المحقق.

(٤) العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٨.

(٥) العذري، ترصيع الأخبار، ص ١٨؛ وانظر أيضًا: السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ج ٢، ص ١٠٩.

تعبّر عنها مجالس الطرب والأدب لون من ألوان الترف الغذائي التي تتناسب مع هذه المجالات من حيث الأصناف المقدمة ومحتوياتها وطرق تقديمها خاصة عند طبقة أثرياء القوم.

ويتمثل هذا الترف الغذائي المذكور في كتاب «الطبخ» المشار إليه ويحتوى أوصافاً كاملة ودقيقة لكل أنواع الأطعمة والأشربة التي كانت تقدم فى ذلك العهد، وفيما يلي عرض موجز لبعض أنواع الأطعمة والحلوى الشائعة فى الأندلس فى عصر الموحدين:

(١) الأطعمة:

تعددت أصناف الأطعمة التي اختص بها أهل الأندلس زمن الموحدين كما وردت فى كتاب الطبخ، فمنها اللحم المدقوق: مثل المركاس والبنادق والأحرش، ثم أطباق الشواء فاللحم المطهى، فاللون الأطعمة المطهية، وأطباق التفايا والمجنبات والمخبزات والجنبيصة وأطباق الخضر المختلفة كالباذنجان والبيض المحشو السكباچ، بالإضافة إلى مختلف أطباق الحيتان والأسماك.

أما أطباق اللحم المدقوق، ومنها المركاس وهو أقرب ما يكون النقانق (السجق) فيؤخذ من لحم الفخذ أو السن من الضأن ويدق ثم يعجن فى قصعة مع قليل من الزيت والمرى النقيع مع إضافة فلفل وكزبرة يابسة وسنبل وقرفة، ثم يضاف إليه قدر ثلاث أرباعه من الشحم المقطوع أو المضروب على اللوح ويقلب الجميع حتى يمتزج، ثم تأخذ هذه الخلطة ويحشى بها المصران المفسول المجرى بالخليط بآلاته المصنوعة لحشيه، ويصور أحجاماً صغيرة وكبيرة، ثم بعد ذلك يلقى بالزيت، فإذا نضج واحمر صبت عليه مرقة مكونة من خل وزيت ويقدم للأكل ساخناً^(١).

أما البنادق، فمن الأطعمة الشائعة والمشهورة بجودتها وحسن مذاقها، وتؤخذ من اللحم الأحمر المنقى من عروقه، ويدق ويوضع فى طبق ويضاف إليه قليل من ماء البصل ويسير من الزيت والمرى النقيع بالإضافة إلى بعض التوابل كالفلفل والكزبرة اليابسة والكمون والزعفران، مضافاً إليها عدة بيضات، ويحرك الجميع حتى يمتزج ويندق الجميع كباراً كأنها قطع من اللحم، ثم يوضع فى قدر نظيفة بها قليل من الزيت والخل ويسير من المرى والثوم والتوابل ويرفع على النار فإذا غلا يترك ساعة حتى يتم طبعه، ثم يرفع من على النار ويضاف إليه بيض مضروب وزعفران وفلفل، ويترك حتى يعقد، ثم يقدم للأكل^(٢).

ويؤخذ الأحرش ويعرف بمراكش باسم الأسفيرييا من لحم الغنم الأحمر ويدق

(١) انظر: كتاب الطبخ، ص ٢١.

(٢) كتاب الطبخ، ص ٢٢-٢٣.

دفاً شديداً، ثم يعرك بالمرى النقيع والتوابل ويضاف إليه الشحم المقطع واللحم المقشر مدقوق ومقسوم وقليل من البيض قدر ما يلتف به الجميع ، ثم يصنع منه قرص على قدر الكف أو أصغر قليلاً، ويقلى في الزيت حتى يحمر، ثم يصنع له مرق بخل وزيت وثوم، ويترك بعضهم دون مرق (١).

أما أطباق الشواء فمتعددة منها شواء في الطاجين، وشيّ الدجاج والخراف والأرانب ، أما أهم هذه الأطباق جميعاً فهي العجل المشوى الذى قدم إلى السيد أبى العلاء عند وروده إلى مدينة سبته، وهو أن «يؤخذ كبش فتى سمين مسلوخ منظم يفتح بين فخذه فتحاً ضيقاً ويخرج جميع ما فى جوفه من أحشائه برفق، ثم يدخل فى جوفه أوزة مشوية ، وفى جوف الأوزة دجاجة مشوية، وفى جوف الدجاجة فرخ حمام مشوى ، وفى جوف الفرخ زرزور مشوية وفى جوفه عصفور مشوى أو مقلو، كل ذلك شوية مدهونة بالمرقة الموصوفة للشعراء ويخاط ذلك الفتحة ويدخل الكبش فى التنو حى، ويترك حتى ينضج ويحمر ويظلم بتلك المرقة ثم يدخل فى جوف عجل ق د منظم ويخاط عليه ويجعل فى تنور محمى ويترك فيه حتى ينضج ويحمر ثم حرج ويقدم » (٢).

ويتضمن كتاب الطبخ ألواناً متعددة من اللحم المطبوخ منها ثردة من لحم وثردة من لحم وباذنجان وثردة من لحم بلفت وجوز ، وثردة من خروف بحمص وثردة برؤوس من سلق (٣).

أما أطباق التفايا فلون من ألوان الطعام المعروفة فى الأندلس زمن الموحدين ومنها أنواع متعددة، كالتفايا البيضاء الساذجة المسماة أسفيد باجة، والتفايا البيضاء باللوزو والتفايا المقلية المعروفة فى مراکش باسم «تأحصصت» (٤).

هذا غير أطباق الخضر المختلفة المطبوخة، كما اشتهر طبق «البقية» (٥) Paella الذى يعتمد فى تكوينه على الأرز الموجود بوفرة فى إقليم بلنسية ، فضلاً عن الزعفران الذى تنتجه بكميات كبيرة.

أما أطباق الحيتان والأسماك، فقد حظيت أيضاً بنصيب وافر من اهتمام أهل شرق الأندلس فتعددت أصنافها وتنوعت تنوعاً شديداً وأصبحوا يتخذون من الأسماك ثريداً (٦) أو يحشونها فكان هناك الحوت المروج والحوت المعفر والبنادق والأحرش من

(١) نفس المصدر، ص ٣٢-٣٣.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) كتاب الطبخ، ص ١١٤-١١٥.

(٤) نفس المصدر، ص ٨٦-٨٧.

(٥) هكذا يميل الباحثون إلى تسمية أصل هذا الطبق البلنسى المشهور باعتباره شكلاً من بقايا الأطعمة المختلفة، راجع: حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس، ص ٤٨٦.

(٦) كتاب الطبخ، ص ٧٥.

الحوت، والبرانية بالحوت وطبق بيض السمك^(١).

ب- أصناف الحلوى:

تعددت أصناف الحلوى في شرق الأندلس فكان يصنع منها الخبز المورق والقطايف والسكريات^(٢)، والكسكسو والأرز والهرايس والفداوش والرفيس^(٣) والكعك^(٤)، والهريسة بأنواعها^(٥).

ج- الأشربة:

بجانب الأطعمة وأطباق الحلوى وجدت أصناف متعددة من الأشربة كشراب العسل^(٦)، وشراب الحرير والتنع^(٧)، وشراب الورد والبنفسج والريحان^(٨) والعناب والتمر هندي والجزر والتفاح^(٩) وغيرها.

رابعاً - فن الغناء والموسيقى

حظيت الحركة العلمية والفنية بالأندلس باهتمام خاص من أمراء قرطبة وخلفائها، فتألفت الفنون وازدهرت العلوم والآداب وارتفعت الأذواق لدى الخاصة والعامة. ولقد اعتبر فن الغناء والموسيقى والرقص في الأندلس منذ طليعة القرن الثالث الهجري أكثر وسائل اللهو شيوعاً وتفشياً في المجتمع الأندلسي، كما أن الرغبة في التحصيل العلمي والاطلاع شملت جميع طبقات المجتمع الأندلسي في مختلف أصقاع الأندلس، فلم تقتصر على طبقة معينة على نحو ما كان معروفاً في المشرق، وإنما عمت الشعب كله، وليس أدل على ذلك مما ذكره القزويني من أن غالبية أهل شلب Silves يعنون بالأدب، ويستطيع المرء أن يجد حراثاً قادرين على ارتجال الشعر^(١٠)، ولم تكن مجالس الأُنس التي يعقدها الكبراء والأعيان بقرطبة مجالس حقيقية ما لم يصحبها غناء على نغم عود أو مزمار وما يلي ذلك من حركات إيقاعية راقصة بطبيعة الحال^(١١).

(١) نفسه، ص ١٧٦ وما بعدها.

(٢) نفسه، ص ٩٠ وما بعدها.

(٣) نفسه، ص ١٧٩ وما بعدها.

(٤) نفسه، ص ٢٣١.

(٥) نفسه، ص ١٩١، ص ١٩٢.

(٦) كتاب الطبخ، ص ٢٣٨.

(٧) نفسه، ص ٢٤٠.

(٨) نفسه، ص ٢٤١ وما بعدها.

(٩) نفسه، ص ٢٤٦ وما بعدها.

(١٠) القزويني، آثار العباد، تحقيق وستفلد، جوتنجن، ١٨٤٧، ص ٣٦٤.

(11) Lévi - Provençal, Histoire, t. III, p. 448;

وانظر أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج ٢، ص ٧٨.

ولا شك أن وفود المغني زرياب إلى الأندلس في إمارة عبد الرحمن الأوسط يمثل ثورة فنية واجتماعية كبرى في الأندلس تركت بصماتها على فنون الغناء والطرب في الأندلس فيما تبع ذلك من عهود ، يؤكد ذلك قول ابن خلدون « فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف ، وطما منها بأشبيلية بحر زاخر، وتناقل منها بعد ذهاب غضايرتها إلى بلاد العدة بأفريقية والمغرب»^(١).

ومن المؤكد أن الاستقبال الحافل الذي قوبل به زرياب، وإنزاله منزلة حسنة في بلاط الأمير، وضممان راتب شهري له يقدر بمائتي دينار فضلاً عن تخصيص عشرين ديناراً شهرياً لكل فرد من أبنائه، بالإضافة إلى ثلاثة آلاف دينار كان يتسلمها كل عام بمناسبة الأعياد دون احتساب ثلاثمائة مد من الشعير والقمح كانت تمنح لها، وتخصيص دور بالحاضرة بمستغلاتها وبساتينها وضياعها مما يقدر بأربعين ألف دينار^(٢) قد هياً جواً ملائماً لزرياب ليخرج ما عنده ويعطى بدون حدود، مبتدعاً ومبتكراً في فنون الموسيقى والغناء حتى أصبح صاحب مدرسة تسامى مدرسة إسحاق الموصلي في بغداد، «وزرياب عندهم كان يجرى مجرى الموصلي في الغناء وله طرائق أخذت عنه، وأصوات استفيدت منه، وألفت الكتب بها، وعلا عند الملوك هنالك بصناعته وإحسانه فيها علواً مفرطاً ، وشهر شهرة ضرب بها المثل في ذلك»^(٣)، حتى أن أحد الكتاب الأندلسيين ويدعى أسلم بن أحمد بن سعيد بن القاضي أسلم بن عبد العزيز صنف كتاباً في أغانيه ، وفي طرائق غنائه وأخباره^(٤).

ولسنا بصدد الحديث هنا عن الابتكارات الفنية التي استحدثها زرياب^(٥) وفضله في ترسيخ قواعد فنون الغناء والموسيقى في الأندلس^(٦)، وإنما أود أن أؤكد هذا النشاط الفني الذي ترتب على قيام مدرسة زرياب قد صادف هوى في نفوس كافة أهل الأندلس، حتى لقد أصبح من المؤلفين مشاهدة جماعة من الرجال أو النساء في ظاهر المدن أو في البساتين والمنتزهات وأبهاء القصور والمنتزهات في ليالي الصيف الأندلسية يتطارحون الأشعار ويتساجلون النظم والإنشاد أو يطربون على المثاني والمثالث وما يسمعونونه من الغناء^(٧).

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٧٦٦.

(٢) راجع: المقرئ، المصدر السابق، ج٤، ص ١٢١.

(٣) راجع: الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة)، بغية الملتمس، دار الكاتب العربي، ص ١٩٦٧، ترجمة ٣٢٧.

(٤) الحميدى، جذوة المقتبس ، ص ١٧٢، ابن حزم، كتاب طوق الحمامة في الألفة والآلاف، ص ١٨٦.

(٥) راجع: المقرئ، المصدر السابق، ج٤، ص ١٢٢.

(٦) المقرئ، نفس المصدر والجزء، ص ١٢٤، وانظر أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ج٢، ص ١٩٠، إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، بيروت، ١٩٦٠، ص ٣٩.

(٧) عبد الرحمن الحجي، تاريخ الموسيقى الأندلسية، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٩، ص ٣٥.

ولا نشك في أن مدرسة زرياب وفقت كل التوفيق في غرس بذورها وترسيخ أصولها : في سائر أنحاء الأندلس، ولم تلبث القيم الفنية الزريبية أن تعرضت مع مضى الزمن لعوامل التطور بعد أن امتزجت بالتقاليد المحلية الأمر الذي ترتب عليه قيام مدارس متعددة للغناء والموسيقى، وساعد على هذه النهضة الفنية الكبرى ظهور الشعر الغنائي الشعبي وأعنى به الموشحات والأزجال^(١).

وعلى الرغم من أن عصر الطوائف يمثل قمة الاضمحلال والتفتت السياسي في الأندلس إلا أنه كان عصر ازدهار وتقدم في مجال العلوم والفنون والآداب، فقد تنافس ملوك الطوائف فيما بينهم على اجتذاب أشهر فناني عصرهم وفحول أدباء الأندلس وشعراؤهم وكتابهم، وحاطوا أنفسهم بهالات من الفخامة والأبهة، وتشبهوا بالملوك والخلفاء، واستغرقوا في ملذات الحياة، ومتع النفس دون أن يعبأوا بخطر الاسترداد المسيحي الوشيك، ويعبر ابن الكردبوس عن هذه الظاهرة بقوله : «وصادف أيامه (أى ألفونسو السادس ملك قشتالة) نفاقاً كثيراً بين المسلمين واختلافاً عظيماً، وضعف بعضهم عن بعض إلا بمعونة الروم فبدلوا للفن ما يحبه من الأموال ليعينهم على مناوئتهم بأجناد الرجال، واللعين في أثناء ذلك، لما بينهم في الفتنة، مسرور، وهم مع ذلك مشغولون بشرب الخمر واقتناء القيان، وركوب المعاصي وسماع العيدان»^(٢).

ازدهرت الفنون والآداب في بلنسية في عهد بنى عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر ازدهار لم تشهده من قبل، وكان لسحر طبيعة هذه الحاضرة من وفرة منازحه ونخمائيل وكثرة سواقي وجداول مع رخاء شامل وعيش رغد ورفه كامل أعظم الأثر في شيوع ألوان الترف بين الخاص والعام وإقبال على فنون الطرب والعلوم والآداب والإكثار من ارتياد مجالس الشراب في نطاق هيأة الطبيعة الفاتنة بين الأدواح والخضرة والجداول، هذا الميل إلى المتع والملذات ينعكس تماماً على أهل هذه الحاضرة فعرفوا بمرحهم وإقبالهم على الدنيا، وفي ذلك يقول العذرى: «وقد اطبعت مدينة بلنسية بقلة الهم، لا تكاد ترى فيها أحداً من جميع الطبقات إلا وهو قليل الهم، مليكاً كان أو فقيراً، وقد استعمل أكثر تجارها لأنفسهم أسباب الراحة والفرج، ولا تكاد تجد فيها من يستطيع على شيء من دنياه إلا وقد اتخذ عن نفسه مغنية وأكثر من ذلك، وإنما يتفاخر أهلها بكثرة الأغاني، ويقولون : عند فلان عودان وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك، وقد أخبرت أن مغنية بلغت في بلنسية أكثر من ألف مثقال طيبة، وأما دون الألف فكثيرات»^(٣).

غير أن هذه الحياة التي تفيض بالمتع والمسرات ومجالس الطرب والأنس

(١) جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٨٦.

(٢) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس، ص ٧٧.

(٣) العذرى، المصدر السابق، ص ١٨.

والمساجلات الأدبية لم تلبث أن توقفت إلى حين في بداية عصر دولة المرابطين، وفي هذا المناخ المشبع بتأثير الفقهاء «استحال الفكر الحر، وذوت الثقافة والعلم»^(١)، فكف الشعراء عن التغنى وعزفوا عن وصف مجالس الطرب وتوقف المفاون والمفنيات عن الغناء والإنشاد، فكسدت دولة الفنون وأصببت الحركة الفنية فى السنوات العشر الأولى من عصر دولة المرابطين بنكسة موقوتة، ولكن تلك النكسة لم تستمر طويلا إذ سرعان ما أخذ ولاية المرابطين بمظاهر الترف وطوتهم حضارة الأندلس طيًّا، فتخلوا سراعًا عن خشونتهم ونبذوا ما ألفوه فى المغرب من حياة الزهد والجفاف وراقتهم حياة الترف والفخامة ومتع النفس، فسبحوا فى بحرها الطامى، وعبوا من فيض ثقافتها وفنونها الزاهرة، واصطنع يوسف بن تاشفين فحول شعراء الأندلس واستقدمهم إليه بحاضرتهم مراكش إلى حد أنها أشبهت حاضرة بنى العباس فى صدر دولتهم، وتبدل بلاطه فى أمد قصير من بلاط يتسم بالخشونة والبساطة إلى بلاط متأنق^(٢). ثم أقبل المرابطون فى عهد ابنه عليّ على حياة الترف ولم يلبثوا إلا قليلا حتى شغفوا بتذوق هذا الترف، وبرع فى فن الموسيقى فى هذا العصر الموسيقى الأديب أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الدانئ الأشبيلي (ت : ٥٢١هـ وقيل ٥٢٣هـ) وكان متقنًا لعلم التلحين^(٣).

أما الموحدون فقد نهجوا نهجهم وبالغوا فى إقبالهم على حضارة الأندلس فتقدمت فى عهدهم الفنون وتألقت الآداب.

ولم تكن منطقة شرق الأندلس بمنأى عن هذا النشاط الفنى، فقد حظى فن الغناء والموسيقى برعاية حكامه، وفى إمارة محمد بن سعد بن مردنيش تقدمت هذه الفنون بفضل تشجيعه ورعايته، وأقبل هو نفسه على حياة الترف ومجالس الأنس والرقص، «وانهمك فى حب القيان والزمم والرقص ... قالوا وكان له فتى اسمه حسن، ذو رقة سمينة، وقفا عريض، فإذا شرب، كان يرزّ، ويعطيه بعد ذلك عطاء جزيلًا»^(٤). وفى ذلك يقول كاتبه المعروف بالسالمى وكان يحضر شرايه ويخمر :

أدر كـؤوس المدام والرزّ .: فقد ظفروا بدولة العزّ
ونعم الكفّ من قفا حسن .: فإنها فى ليانة الخزّ
وصاحب إن طلبت أخدعه .: فلم يكن فى بذله بمعتزّ
انحنى على إخداعى فأطربتى .: وهزّ عطفى أهما هزّ^(٥)

(1) Nicholson (R. A), A Literary History of the Arabs, London, 1907, p. 431.

(٢) لى بروفنسال، الاسلام فى المغرب والأندلس، ص ٢٤٧، راجع أيضًا: السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، جـ٢، ص ١١١.

(٣) المقرئ، المصدر السابق، جـ٢، ص ٣٠٨، راجع أيضًا: حسن حسنى عبد الوهاب، رقات عن الحضارة العربية بأفريقية، قسم ٢، تونس، ١٩٦٦، ص ٢٢٧ وما بعدها.

(٤) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٢، ص ١٢٣.

(٥) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٢، ص ١٢٣.

وليس أدل على شغف أهل شرق الأندلس بالموسيقى عامتهم قبل خاصتهم فقيرهم قبل غنيهم، مما أورده ابن الخطيب في الإحاطة، وملخصه أن رجلاً من أهل شاطبة، هاجر إلى مرسية واشتغل بالبناء ثم التقى ذات يوم بقوم من أهل بلده ومن قرابته فدعاهم للمبيت عنده، واحتفى بهم «فاشترى لحماً وشراباً وضرب دفاً» (١)

وكان المغنون والمغنيات ينشدون الشعر أو الموشح أو الزجل على نغمات الموسيقى تصاحبهم الجوقة الموسيقية التي كانت في أغلب الأحيان تتكون من عازف على العود، وعازف على الناي وضارب على آلة الدف أو بالصنج، وكانت هذه الجوقة تصحب المغنى أو المغنية حتى إذا وصل إلى الجزء الرابع من كل بيت رددته معه البطانة (٢).

أما عن الآلات الموسيقية المستخدمة في الأندلس في عهد الموحدين، فقد عد الشفندى الآلات الموسيقية المستعملة في أشبيلية وحدها وكانت تستعمل في غيرها من بلاد الأندلس فيقول: «وقد سمعت ما في هذا البلد من أصناف أدوات الطرب، كالخيال والكرباج والعود والروطة والرباب والقانون والمؤنس والكنيرة والفنار والزلامي والشقرة والنورة وهما مزماران الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه، والبوق، وإن كان جميع هذا موجوداً في غيرها من بلاد الأندلس، فإنه فيها أكثر وأوجد، وليس في بر العدو من هذا شيء إلا ما جلب إليه من الأندلس، وحسبهم الدف وأقوال والهيرا وأبوقرون ودبدبة السودان وحماقى البرابر» (٣).

خامساً - الاحتفالات والأعياد

كان أهل شرق الأندلس يحتفلون بعيدى الفطر والأضحى مثل سائر غيرهم من أهل الأندلس، فعيد الفطر يحتفل به عند ظهور هلال شوال الذى يعلن نهاية صيام شهر رمضان، أما عيد الأضحى فيحتفل به في اليوم العاشر من ذى الحجة (٤).

وكان الاحتفال بكلا العيدين، إلى جانب أداء الشعائر الدينية، يأخذ صفة الأعياد الشعبية، إذ يخرج الناس إلى الشوارع والميادين والمتنزهات والأماكن العامة مرتدين أفخم الملابس، وغالباً ما تكون جديدة ابتهاجاً بالعيد، فضلاً عن تجهيزهم

(١) ابن الخطيب، الإحاطة، ج٢، ص ١٢٤.

(٢) ليفى بروفنسال، الاسلام في المغرب والأندلس، ص ٢٨٢.

(٣) في: المقرئ، نفع الطيب، ج٤، ص ٢٠٠، وانظر أيضاً: محمد المنونى، العلوم والآداب والفنون في عهد الموحدين، معهد مولاي الحسن، تطوان، ١٩٥٠، ص ٢٣٩، عرف العود بأسماء مختلفة كالزهر والبربط، راجع: فارمر (هنرى جورج)، تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة دكتور حسين نصار، ص ٢٥.

(٤) عن هذين العيدين، راجع دائرة المعارف الاسلامية (مقال) (E. Mittwoch)، ج٣، ص ١٠٣٢-١٠٣٣.

منزلهم، على حسب إمكانية كل أسرة، موائد تضم أصنافاً متعددة من أطباق الأطعمة الشهية والحلوى (١).

إلى جانب هذين العيدين ، كانوا يحتفلون ببعض المناسبات الدينية كالاحتفال بليلة القدر والأعياد الأخرى كعيد العنصرة والنيروز، أو على الأقل يشاركون المستعربين فى بعض أعيادهم.

من هذه المناسبات الاحتفال بليلة سبع وعشرين من رمضان ، ليلة القدر بشراء الحلوى، فيقول الطرطوشى : «ومن البدع اجتماع الناس بأرض الأندلس على ابتغاء الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان » (٢).

ومن الأعياد المسيحية التى كان يشارك فيها أهل شرق الأندلس والأندلس المستعربين فى الاحتفال بها، أو كما يسميها ليفى بروفنسال الأعياد الفلكية منها : عيد النوروز أو النيروز، وهو من أصل فارسي، اتخذته الفرس لإحياء العام الجديد، ويوافق الاحتفال به أول السنة الجديدة عندهم فى التقويم الشمسى الفارسي، ويقع عند الاعتدال الربيعى ودخول الشمس فى برج الحمل أو عند ابتداء فصل الربيع (٣).

أما عن ميعاد الاحتفال بعيد النيروز فى الأندلس، فيقول الأستاذ ليفى بروفنسال أنه كان يجرى فى يوم الاعتدال الربيعى (٤). ومن جهة أخرى فإن الأستاذ هنرى بيرس، يحدده باليوم الأول من شهر يناير (٥).

ولقد وصلت إلينا بعض الأخبار المتناثرة عن مظاهر الاحتفال بهذا العيد فى الأندلس، فكانت الليلة التى تسبق عيد النوروز أكثر ملائمة للدخول بالزوجة، وكانوا يضعون فى هذا اليوم خبزاً على شكل المدائن يقطعونه ويوزعونه كعطية، كما كان يخصص لكبار الشخصيات الأندلسية قصائد مديح شعرية (٦). وهو نفس العيد الذى كان يحتفل به فى شهر يناير ، وعن هذا الاحتفال يقول صاحب كتاب الدر المنظوم فى مولد النبى المعظم : «وأضافوا للتحفى عنها بالسؤال والمحافضة عليها والإقبال، من بدع وشنع ابتدعوها ، وسنن واضحة أضاعوها، بموائد نصبوها لأنبائهم ونسائهم

(١) انظر : Lévi - Provençal, Espana musulmana, tomo, v. pp. 282-284.

(٢) الطرطوشى (أبو بكر محمد)، كتاب الحوادث والبدع، تحقيق محمد الطالبي، تونس، ١٩٥٩، ص ١٤٠-١٤١.

(٣) انظر : دائرة المعارف الإسلامية ، مقال (R. Levy)، ج٣، ص ٩٤٩ وما بعدها.

(4) Lévi - Provençal, Espana musulmana, t.V, p. 229.

(5) Pères (H), La poesie andalusen arabe classique au XIe siecle, Paris, 1953, p. 303.

(٦) وانظر أيضاً:

Pérès, Ibid, pp. 303-304; Fernando de la Granja, Fiestas cristianas en Al-Andalus, Vol. XXX IV, Fasc I, Separata, 1969, p. 2.

وضعوها، وتخيروا فيها أصناف الفواكه وأنواع الطرف وجمعوها، وتهادوا فيها بالتحف التي انتخبوها، والمدائن التي صوروا فيها الصور واخترعوها، ونصب ذو اليسار نصبات في الديار كما نصب أهل الحوانيت، فنضدوها، فقوم أباحوا أكلها ليايهم وقوم منعوها، وجلوها كالعروس لا تغلق دونها الأبواب، وفي منصتها رفعوها، وبعضهم أكل من أطرافها، ثم باعوها، ولقد ذكر لنا غير واحد من المسافرين أن النصبه ببعض بلاد الأندلس - جبرها الله وأمنها - يبلغ ثمنها سبعين ديناراً، أو يزيد على السبعين، لما فيها من قناطير السكر وأرباع الفانيد وأنواع الفواكه، ومن غرائب التمر واعدال الزبيب والتين على اختلاف أنواعها وأصنافها وألوانها، ومن ضروب ذوات القشور من الجوز واللوز والجلوز والقسطل والبلوط والصنوبر إلى قصب السكر ورائع الأترج والناخب والليم» (١). وعن أسباب هذه البدعة يقول العسفي: «وأرى أنه ما جرّ على أهل الأندلس هذا إلا جوار النصارى - دمرهم الله من جيران - ومخالطتهم لتجارهم ومكاشفتهم عند الكيتونة في إسارهم ولذلك حذرنا من ترائي النيران» (٢)، ويضيف: «وأقوى دواعيها مطاوعة الرجال للنساء على الاستعداد لها والفخيم لشأنها وانقيادهم لهن في ذلك عاماً بعد عام حتى رسخت في صدورهم وتصورت في عقولهم وتاقت إليها أنفسهم» (٣).

أما العيد الثاني فهو عيد المهرجان، وهو أيضاً من أصل فارسي، كان الفرس يحتفلون به في آخر السنة حسب تقويمهم الشمسي، ويسمونه روز ميهـر ومعناه مجبة الروح، وكان من أكبر أعيادهم (٤) وموعد الاحتفال به في الانقلاب الخريفي ويسميه الأندلسيون بعيد العنصرة (٥)، وقد أورد القاضي عياض في ترتيب المدارك نصاً يشير إلى احتفال خلفاء الأندلس وسلاطينهم بهذا العيد جاء فيه أن «الناصر قد أُنذر الخطباء والشعراء بحضور خيل الحلبة في المهرجان، قال ابن هذيل: فجاءني الأمر بذلك، عشى نهارها، فخلوت بقية يومي والنصف من ليلتي، لم أنظم كلمة، فأويت إلى فراشي، فأخذتني عيني، فكنت أرى شخصاً في المنام يقول لي: ترقد يا أبا بكر ولم يفتح عليك، ثم يقول:

مشاهد يلزمنا حضورها .: للخيل حتى تنقضي أمورها

(١) العسفي (أبو العباس وأبو القاسم)، كتاب الدر المنظوم في مولد النبي العظيم، نشر فرناندو لا جرانخا، مجلة الأندلس، العدد ٣٤، ١٩٦٩، فصله، ص ٢٠-٢١.

(٢)

(٢) نفس المصدر، ص ٢١-٢٢.

(٣) العسفي، المصدر السابق، ص ٢٨.

(٤) راجع: البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد)، الآثار الباقية عن القرون الحالية، طبعة إدوارد سخاو، ليبزج ١٨٧٨/١٨٧٩، ص ٢١٦-٢١٧.

(5) Enc. Islam, I, pp., 531, (Art de PH. Marçais).

وهبت سريعاً وقد توقد خاطري وافتتحت بهذا الابتداء ، وانثالت على القوافي ،
فجئت بأرجوزة حسنة ، غدوت بها أول منشد ^(١) .

ونخرج من هذا النص الهام بحقيقة أن الخليفة كان يشارك في الاحتفاء برعاياه
المستعربين في عيدهم ، إلى جانب إقامة سباق الخيل ومسابقات شعرية ، وهذا يدل على
مدى تعاطف السلطة الإسلامية الأندلسية ومشاركتهم رعاياهم المستعربين في
احتفالاتهم .

وصفوة القول أن الأندلسيين بمشاركتهم إخوانهم المستعربين في أعيادهم
بتناولهم مأكولاتهم والمساهمة في إقامة بعض الألعاب والمسابقات ، إنما يدخل من
جانب الإسهام الاجتماعي والتسامح الديني .

(١) القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي ، ترتيب الممارك وتغريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب
مالك ، نشر أحمد باكثير محمود ، المجلد الثاني (مجلدين في أربعة أجزاء) ، بيروت (بدون تاريخ) ، ص
٥٥٢-٥٥٣ ، وانظر أيضاً ؛

Fernando de la Granja, Fiestas Cristianas en Al-Andalus, Vol. XXXV,
Fasc I, 1970, p. 126.

الفصل الثانى

الحياة الاقتصادية والفنية

- أولا : الزراعة.
- ثانيا : الصناعة.
- ثالثا : التجارة.
- رابعا : التنظيمات الاقتصادية.

أولا - الزراعة

١ - عوامل وفرة المحاصيل الزراعية في شرق الأندلس:

كان لاتساع رقعة أبارية (شبه جزيرة أيبيريا) واتخاذها شكل مثلث، يشغل الطرف الغربى من قارة أوروبا وارتباطها بقارة أفريقيا عن طريق مضيق جبل طارق، وإطلال سواحلها الشرقية على البحر المتوسط والغربية على المحيط الأطلسى واختلاف طبيعة سطحها ما بين وديان وهضاب وسلاسل جبال، أعظم الأثر فى تنوع مناخها والتحكم فى نسبة أمطارها وفى اتجاه مجارى أنهارها نحو الغرب أو الشرق وبالتالي فى توزيع ثروتها الزراعية، ومن المعروف أن وفرة مياه أباريه واتساع سهولها على الأخص فى شرق الأندلس وجنوبه، وتنوع درجات الحرارة فى مختلف الفصول كان من العوامل التى ساعدت على وفرة الانتاج الزراعى الذى تميزت به هاتان المنطقتان بوجه الخصوص.

ولقد أدرك الجغرافيون العرب هذا التباين فى طبيعة السطح وفى المناخ وفى الانتاج الزراعى، فهذا أحمد الرازى يعبر عن ذلك فى قوله: «الأندلس أندلسان فى اختلاف هبوب أرياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها: أندلس غربية، وأندلس شرقى، فالغربية منهما ما جرت أوديته إلى البحر المحيط الغربى وتمطر بالرياح الغربية...، والشرقى المعروف بالأندلس الأقصى وتجرى أوديته إلى الشرق، وأمطاره بالريح الشرقية»^(١).

ونستنتج من هذا النص أن أباريه تنقسم إلى إقليمين مناخيين أحدهما رطب والآخر جاف، وعلى هذا الأساس يمكننا القول أن أغلب الأندلس يقع فى المنطقة الجافة باستثناء الغرب البرتغالى الحالى والمنطقة التى تطل على المحيط الأطلسى. ولهذا فإن الزراعة ازدهرت فى الأندلس فى العصر الإسلامى.

وعلى الرغم من توافر المقومات الأساسية لقيام الزراعة فى الأندلس فإن تنمية الانتاج الزراعى لا يعتمد على هذه المقومات وحدها وإنما يستلزم الأمر رعاية خاصة من جانب الدولة الحاكمة ومن جانب الأفراد القائمين بالزراعة على السواء، وتقتضى دراسات عملية لأنواع النباتات والمحاصيل وخواصها وطرق استنباط أسرار نباتية جديدة

(1) Lévi - Provençal, La description de L'Espagne D'Ahmad Al-Razi, Al-Andalus, Vol. XVIII, 1953, p. 66'

وراجع: ما أورده ابن غالب الأندلسى (نقلا عن الرازى)، فرحة الأنفس، ص ١٦، المقرئ، نفع الطيب، ج ١، ص ١٢٨-١٢٩، وقارن ما قاله أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم المعروف بابن النظام فى: المقرئ، نفس المصدر والجزء، ص ١٢٩-١٣٠.

كما يقتضى أن يتعهد الأفراد الأرض بالعناية اللازمة لكي تحتفظ بخصوبتها وصلاحية تربتها، وهذا العامل قد توفر كذلك، فلم يقتصر علماء المسلمين على دراسة تاريخ النبات وأسمائه، وصفاته وخواصه مما نقلوه عن الروم والنبط والفرس ومن الشرق الإسلامى، بل اهتموا بتطبيق ما نقلوه عملياً بالنبات من حيث غراسه، وتتبع مراحل نموه وطريقة معاملته ومعدلات تسميده، ومواعيد زراعته وحصاده، أى أنهم اهتموا بالفلاحة ودونوا ذلك فى مصنفاتهم التى أفادت بلا شك العاملين فى الحقل الزراعى، ككتاب «الزراعة» لابن وافد الطليطلى^(١)، وكتاب «الفلاحة» لأبى عبد الله محمد ابن إبراهيم بن بصال المعروف بابن بصال الطليطلى^(٢) وكتاب «عمدة الطبيب فى معرفة النبات لكل لبيب» لمؤلف مجهول^(٣)، بالإضافة إلى كتاب تقويم باللغتين العربية واللاتينية بمعرفة العارب بن سعد والراهب المستعرب الذمى ربيع بن زيد، وهذا التقويم يشتمل على أخبار هامة حول أوجه النشاط الفلاحي فى كل شهر، وقد امتد أثر هذا التقويم الفلاحي فى كثير من مؤلفات علماء الفلاحة من الأسبان المستعربين^(٤)، وكتاب «زهر البستان ونزهة الأذهان» لأبى عبد الله محمد بن مالك المعروف بالغرناطى، المعروف باسم الحاج الغرناطى^(٥)، وكتاب «الفلاحة الأندلسية» لأبى زكريا بن محمد بن أحمد بن العوام الأشبيلي^(٦). هذا إلى جانب عديد من المصنفات التى وضعت فى الفلاحة فى الأندلس ولم تصل إلينا. كذلك نستدل مما أورده ابن جلجل أن عدداً من الأطباء الباحثين كانوا يعنون بعلم النبات لاستخدام بعض النباتات فى علم المرضى واستنباط العقاقير ويعرف هؤلاء الأطباء الصيادلة

(١) انظر :

Millas (Jose M.), Un Manuscrito arabe de la obra de agricultura de Ibn wafid, Tamuda, 2, 1954, pp. 87-96, 339-344;

Vernet (Juan), la cultura hispano-arabe en Oriente y Occidente, وراجع أيضاً: editorial Ariel, Barcelona, 1978, p. 254.

(٢) نشر هذا الكتاب وترجمه إلى الأسبانية وعلق عليه خوسيه ماري ميكروسا ومحمد عزيمان، معهد مولاي الحسن، تطوان، ١٩٥٥.

(٣) راجع مقال آسين بلاثيوس Asin Palacios، Glosario de las vocas registrados por un botanica anonimo hispano-musulmana (Siglo XI-III) Madrid, 1943.

(٤) Dozy (R), Le Calendrier de cordouc de l'année 961, Leyden, 1873; راجع: وانظر أيضاً: خوسيه ماريه مياس ميكروسا، علم الفلاحة عند المؤلفين العرب بالأندلس، تعريب عبد اللطيف الخطيب، تطوان، ١٩٥٧، ص ١٤.

(٥) راجع مقال: Millas (Jose M), Un nuevo manuscrito de la obra agronomica del al-tignari, tamuda, Vol. I, 1953, pp. 85-86.

(٦) قام بنشره وترجمته إلى الأسبانية Benqueri عام ١٨٠٢، ثم ترجمه إلى الفرنسية Glement Mallet ونشره بباريس فى جزئين سنة ١٨٦٤-١٨٦٦.

بالشجارين منهم من كان حرف زمى الناصر الأموى بالبسباس وأبو عثمان جـر.
وعبد الرحمن بن إسحاق بن هيثم^(١)

ومما لاشك فيه أن ظهور المصنفات المتعلقة بفلاحة الأرض والتشجير ساعد على وفرة المحاصيل الزراعية وغلبة الخضرة فى كافة أنحاء الأندلس، وأدى ذلك بالتالى إلى امتداد العمران، ويعبر ابن سعيد عن ذلك بقوله: «فأكثر فيها الخصب والعمارة من كل جهة، فمتى سافرت من مدينة إلى مدينة لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع، والصحرى فيها معدومة، ومما اختصت به أن قراها فى نهاية من الجمال لتصنع أهلها فى أوضاعها وتبييضها، لثلا تنبو العيون عنها»^(٢). فهى كما وصفها الوزير ابن الحمار :
لاحق قراها بين خضرة أيكها .: كالدربين زبرجد مكنون^(٣)

كانت بلاد شرق الأندلس أكثر أراضي الأندلس خصوبة فكانت بستان الأندلس بمعنى الكلمة فى العصر الإسلامى وعليها تعتمد أسبانيا فى الوقت الحاضر فى التسويق الداخلى والخارجى، وقد ساعد على ذلك طبيعة أرضها السهلية، واعتدال مناخها، وتوافر المياه لكثرة أنهارها الجارية، فكورة بلنسية وحاضرتها مدينة بلنسية أرضها سهلية مستوية^(٤)، على نهر جار ينتفع به ويسقى المزارع ولها عليه البساتين والجنات^(٥)، ولخصوبة أرضها وصلاحتها للفلاحة عرفت بـ «مدينة التراب»^(٦)، ويقعنها بقعة طيبة^(٧)، كثرت بها البساتين والنبات، فأطلق الأندلسيون عليها «مطيب الأندلس»^(٨)، وفيها يقول شاعرها ابن غالب أبو عبد الله الرصافى :

خليلى وما للبيد قد عبققت نثرًا .: وما لرؤوس الركب قد رنحت سكرًا
هل المسك مفترقًا بمدرجة الصبا .: أم القوم أجروا من بلنسية ذكرًا^(٩)

(١) السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، جـ ٢، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(٢) فى المقرئ، نفع الطيب، جـ ١، ص ١٩٠.

(٣) نفس المصدر والجزء، ص ١٩١.

(٤) الحميرى، المصدر السابق، ص ٤٧.

(٥) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩١؛ وانظر أيضاً: الحميرى، المصدر السابق، ص ٤٧.

(٦) L'évi - Provençal. La description de l'Espagne D'Ahmad Al-Razi, pp. 71-72.

وراجع أيضاً: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٦؛ ياقوت الحموى، معجم البلدان، م ٢،

ص ٢٧٥؛ المقرئ، المصدر السابق، جـ ١، ص ١٦٨؛ حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية

والجغرافيين، ص ٦٦، ص ٦٨.

(٧) مخطوط جغرافية الأندلس لمؤلف مجهول، لوحة رقم ٣٣، ٣٤.

(٨) ابن سعيد، المغرب، جـ ٢، ص ٢٩٧؛ المقرئ، المصدر السابق، جـ ٤، ص ٢٠٧.

(٩) فى: ابن سعيد، نفس المصدر، جـ ٢، ص ٢٩٨.

وتميزت أعمال هذه الكورة بالخصب وتعدد الضياع والبساتين، فشقر Jucar مدينة حسنة البقعة، كثيرة الأشجار والشمار والأنهار^(١)، ويصفها صاحب «معجم البلدان» بقوله: «هى أتره بلاد الله وأكثرها روضة وشجرًا وماء»^(٢). وشاطبة مدينة عامرة بالبطاح والأنهار^(٣)، كان يخرق بطاحها واد أقيمت عليه النواعير وكانت بساتينها ممتدة فيما حولها كما كانت تتميز بالزرع والضرع والثمرة^(٤). وأما مريبطر، فهى قرى عامرة بالضياح والأشجار والمياه المتدفقة^(٥). كذلك كانت لتربة تدمير مميزات طبيعية متعددة^(٦)، فهى كريمة البقعة، طيبة الثمرة^(٧)، وجميع أرضها يروى عن طريق النهر على نفس طريقة نهر النيل فى مصر^(٨)، فهى تجمع بين مزايا البحر والبر وبها السهول الخصبة^(٩). وأما حاضرتها مرسية فأرضها سهلة تقع على ضفة النهر الأبيض، وواديها قسيم وادى أشبيلية، كلاهما ينبع من شقورة^(١٠)، تحيط به المنازل والبساتين من كل ناحية^(١١)، ولكثرة جنتها أطلق عليها «البستان»^(١٢)، وما زالت تعرف حتى اليوم باسم البستان La huerta murcian، ومن أعمال هذه الكورة لورقة Lorca، وهى مدينة خصبة^(١٣)، وفيها يقول ابن سعيد نقلا عن المسهب: «قد مرت على هذه المدينة، فلم أر أحسن من بساطها وبهجة واديها وما عليه من البساتين»^(١٤)، ودانية مدينة تكثر بها البساتين والمزارع والخيرات والقواكه^(١٥). وأما أرويلة فتقع على ضفة النهر الأبيض، ولها عليه البساتين والجنات والرياض، غنية بفواكهها^(١٦)، وقرطاجنة الحلفاء، مدينة أيضاً خصبة يثمر فيها الزرع بسقية مطرة واحدة^(١٧).

(١) الحميرى، المصدر السابق، ص ١٠٢.

(٢) ياقوت، المصدر السابق، م، ص ٢٨١.

(٣) ابن غالب، المصدر السابق، ص ١٦.

(٤) العدرى، المصدر السابق، ص ١٩.

(٥) الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٩١.

(6) Lévi - Provençal, op.cit., p. 70.

(٧) العدرى، المصدر السابق؛ وانظر أيضاً: ابن غالب، المصدر السابق، ص ١٦.

Lévi - Provençal, op.cit., p. 70.

(٨) العدرى، المصدر السابق، ص ١، ص ١٦؛

(9) Lévi - Provençal, Ibid, p. 70.

(١٠) المقرئ، المصدر السابق، جـ ٤، ص ٢٠٧ (رسالة القلقشندى).

(١١) الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٩٤-١٩٥؛ وانظر: أبى الفداء، تقويم البلدان، ص ١٧٩،

مخطوط جغرافية الأندلس، لوحة ٣٣، الحميرى، المصدر السابق، ص ١٨٢.

(١٢) المقرئ، المصدر السابق، جـ ١، ص ١٥٥.

(١٣) الحميرى، المصدر السابق، ص ١٧١.

(١٤) ابن سعيد، المغرب، جـ ٢، ص ٢٧٥.

(١٥) مخطوط جغرافية الأندلس، لوحة رقم ٣٢.

(١٦) الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٩٩؛ وراجع أيضاً: الحميرى، المصدر السابق، ص ٣٤.

(١٧) الإدريسى، نفس المصدر، ص ١٩٤؛ وراجع أيضاً: الحميرى، نفس المصدر، ص ١٥١.

كذلك تميزت الجزائر الشرقية (البليار)، ميورقة ومنورقة وبابسة، بأرضيها السهلة الخصبة وصلاحيتها للزراعة، ونستنتج من رسالة الشقندي في وصف جزيرة ميورقة كبرى جزر البليار أنها غنية بمنتجاتها الزراعية التي تكفي حاجة سكان الجزيرة بل وفيض فيصدر باقى محصولها إلى بلاد أخرى، يقول: «أخصب بلاد الله أرجاء، وأكثرها زرعاً ورزقاً وماشية، وهى على انقطاعها عن البلاد مستغنية عنها، يصل فاضل خيرها إلى غيرها»^(١).

٢ - أهم المحاصيل الزراعية:

يشكل القمح المحصول الرئيسى فى شرق الأندلس فى العصر الإسلامى باعتباره من العناصر الغذائية الرئيسية التى يعتمد عليها السكان، ولذلك انتشرت زراعته فى شرق الأندلس فى إقليم مرسية^(٢)، وفى شيرب^(٣)، وفى إقليم لورقة بفحص شنتفيرة^(٤) الذى جادت زراعته فيها.

وهناك أنواع كثيرة من القمح، حدّد السقطى نوعين منه: الأول وهو الأجود ويسمى درمك Darmak، وهو يعطى دقيقاً ناصع البياض، والآخر يسمى المدهون - ويطلق عليه بالأسبانية Almodon^(٥) - أقل منه جودة، هذا بالإضافة إلى أنواع أخرى عرفها أهل الأندلس بنفس أسمائها الرومانية مثل القمح الريون Ruyun - المعروف اليوم Rubio نسبة إلى لونه الأحمر الذهبى -، والقمح الترجال - بالأسبانية Trechal - وهو نوع من القمح الربيعى، والقمح أراكا - بالأسبانية Alaga - وهو ذو حبة طويلة، ولونه ضارب إلى الحمرة^(٦). كذلك عرفت مرسية زراعة الشعير فانتشرت زراعته بها^(٧). وإلى جانب القمح والشعير عرفت بلاد شرق الأندلس الأرز على الأخص فى إقليم بلنسية، نظراً لتوافق هذا البلد ومياهه الغزيرة وتربته الخصبة مع طبيعة زراعة الأرز، وكان أهل بلنسية يعتمدون على الأرز كثيراً فى أطعمتهم فكان لذلك مع القمح يؤلفان أهم المحاصيل الزراعية، فانتشرت زراعة الأرز على نطاق واسع فى

(١) فى: المقرئ، المصدر السابق، جـ ٤، ص ٢٠٧.

(٢) مخطوط جغرافية الأندلس، لوحة ٣٣.

(٣) ابن غالب الأندلسى، المصدر السابق، ص ١٦؛ وشيرب حصن من حصون بلنسية.

(٤) Garcia Gomez (Emilio), Sobre agricultura arabigo andaluza, Al-Andalus, X, Fasc I, 1945, p. 127.

(٥) السقطى (أبو عبد الله محمد بن أبى محمد)، الملقى الأندلسى، كتاب فى آداب الحسبة، نشر ليفى برونفسال وكولان، باريس، ١٩٣١، ص ٢٦؛ وراجع صفحات ٢٨-٢٩ من Glosario بنفس المصدر.

(٦) وانظر أيضاً: Garcia Gomez, op.cit., p. 127 yss; Lévi - Provençal, Espana musulmana, en Historia de Espana dirigida por R. Menéndez Pidal, Espasa Calpe, p. 154.

(٧) مخطوط جغرافية الأندلس، لوحة ٣٣.

بلنسية^(١)، ومن الجدير بالذكر أن أشهر وجبة أسبانية اليوم وتسمى بالبائية أو «البقية» تعتمد أساساً على الأرز.

كذلك يتمتع الزيتون منذ أقدم العصور وعلى الأخص في العصرين الروماني والإسلامي في الأندلس بأهمية كبرى لأهميته الغذائية ولزيتته الذي يستخدمه أهل الأندلس في سائر أطعمتهم وحتى في حلواهم، وقد كثرت زراعته في كل من إقليمي دانية^(٢) ومربيطر^(٣).

كما حظيت أشجار الكروم باهتمام خاص عند أهل الأندلس وانتشرت زراعتها على نطاق واسع في أغلب بلاد شرق الأندلس، لا سيما في مربيطر^(٤)، وبوريانة^(٥)، ومرسيه^(٦)، ودانيه^(٧)، ولقنت^(٨)، وجزيرة يابسة^(٩).

والى جانب الزيتون والكروم، اختص إقليم شرق الأندلس بزراعة الفواكه، وتمدنا كتب الجغرافية بالعديد من أصناف الثمار التي اشتهرت بها هذه البلاد، ففي بلنسية كان يزرع نوع من الكمثرى تسمى الأرز في قدر حبة العنب تجمع بين حلاوة الطعم وذكاء الرائحة^(١٠)، والقراسيا^(١١). وفي مرسيه توفرت فواكه الكمثرى والرمان والسفرجل^(١٢)، والتين^(١٣)، وكان التين من الفواكه التي شاعت زراعتها في كل من دانية^(١٤)، ولقنت^(١٥)، واشكونى التي جادت فيها أيضاً غراسه أشجار التفاح والرمان^(١٦). وفي قرطاجة الحلفاء كان يزرع السنبل الجيد^(١٧)، كما اشتهرت جزيرة يابسة بأشجار الصنوبر الجيد العود^(١٨)، أما الزعفران الذي يستخدم في كثير من

(١) العذري، المصدر السابق، ص ١٧.

(٢) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩٢؛ انظر أيضاً: ابن غالب، المصدر السابق، ص ١٦.

(٣) الحميري، المصدر السابق، ص ١٨٠.

(٤) نفس المصدر، ص ١٨٠.

(٥) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩١؛ الحميري، نفس المصدر، ص ٤٤.

(٦) الإدريسي، نفس المصدر، ص ١٩٤؛ الحميري، نفس المصدر، ص ١٨١.

(٧) الإدريسي، نفس المصدر، ص ١٩٢؛ ابن غالب، نفس المصدر، ص ١٦.

(٨) الإدريسي، نفس المصدر، ص ١٩٣؛ الحميري، نفس المصدر، ص ١٧٠.

(٩) الإدريسي، نفس المصدر، ص ٢١٤؛ الحميري، نفس المصدر، ص ١٩٨.

(١٠) المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٨ (نقلا عن ابن سعيد).

(١١) ياقوت الحموي، المصدر السابق، م ٢، ص ٢٧٩.

(١٢) العذري، المصدر السابق، ص ١.

(١٣) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩٤؛ وراجع أيضاً: الحميري، المصدر السابق، ص ١٨١.

(١٤) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩٢؛ انظر: ابن غالب، المصدر السابق، ص ١٦.

(١٥) الإدريسي، نفس المصدر والصفحة؛ وراجع أيضاً: الحميري، المصدر السابق، ص ١٧٠.

(١٦) الحميري نفس المصدر، ص ٢٢٠.

(١٧) الحميري، نفس المصدر، ص ١٥١.

(١٨) الإدريسي، المصدر السابق، ص ٢١٤؛ وراجع أيضاً: الحميري، نفس المصدر، ص ١٩٨.

الأطعمة الأندلسية فكان ينبت في أرض بلنسية^(١).

ولما كانت منطقة شرق-الأندلس حافلة بالنباتات والبساتين فقد زرع فيها أنواع لا تحصى من الأزهار منها الروز الأبيض^(٢)، والقرمز^(٣)، كما اشتهرت بلنسية بالياسمين^(٤).

٣- نظم الري:

كان لاختلاف مواسم سقوط المطر في الأندلس أثر كبير في تصنيف أراضيها إلى نوعين : نوع يعتمد على المطر في سقيها ويسمى «بعلى» ، والآخر يعتمد في سقيها على مياه الأنهار ويسمى «أرض السقيا»^(٥).

فأما الأراضي البعلية، فكانت تزرع مرتين كل ثلاث سنوات، وتترك مرة على الأقل لمدة عام دون زراعة بعد زراعتها عامين متصلين، وذلك لإزالتها ومن ثم تطلق فيها الماشية لتنقيتها من الأعشاب الضعيفة الموجودة فيها، وهذا النظام كان متبعاً في بلاد المغرب^(٦).

أما الأراضي التي تعتمد في ريها على الأنهار الجارية، فقد استلزم الأمر توافر المياه على نحو متواصل وبالمناوبة، فكان لا بد من نظام محكم للري، لتوزيع المياه بقدر الحاجة على الأراضي المنتشرة، وهذا النظام قد مارسه الأندلسيون في العصر الإسلامي في جنوب وشرق الأندلس، ويرى المستعرب الأسباني خوليان ريبيرا أن هذا النظام ليس من اختراع العرب^(٧)، حقاً لقد استفاد العرب من نظم الري الرومانية التي استعملها القوط بعد ذلك ووجدها العرب عند افتتاحهم الأندلس، ولكنهم لم يقفوا عند حد استعمالها كما هي بل أضافوا إلى هذه النظم واستكملوها مستوحين ذلك مما كانوا يعرفونه في بلاد اليمن قبل الإسلام وفي المشرق الإسلامي في أرض السواد بالعراق وفي جلق والجابية بالشام وفي أراضي الحوف بدلتا مصر^(٨). ويؤكد ليفي برونفسال أن

(١) العذري، المصدر السابق، ص ١٧، وراجع مخطوط جغرافية الأندلس، لوحة ٣٣/٣٤، ياقوت

الحموي، المصدر السابق، م ٢، ص ٢٧٩؛ المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ص ١٦٨ (نقلاً عن ابن سعيد).

(٢) مخطوط جغرافية الأندلس، لوحة ٣٣/٣٤.

(٣) البكري (أبو عبيد)، جغرافية الأندلس وأوروبا، تحقيق الدكتور عبد الله الرحمن على الحجى، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٩٦٨، ص ١٢٣؛ المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٨.

(٤) ابن بصال، كتاب الفلاحة، ص ١٤ (من المقدمة).

(5) Lévi - Provençal, Espana musulmana, p. 152.

(6) Lévi - Provençal, op.cit., p. 152.

(٧) انظر: Ribera (J), El sistema de riegos en la huerta valenciana, en Disertaciones: y opusculos, t. II, p. 309-303.

(8) Torres Balbas (L.), Las norias Fluviales en Espana en Al-Andalus, V. , 1940, p. 195-208.

هذه النظم كانت معروفة فى العالم الإسلامى حسب مسيل المياه وكميتها وطبيعة الأرض المراد ريهها، وقد سجل الجغرافيون فى مصنفاتهم بعض هذه النظم باختصار، فضلا عن مصنفى كتب الزراعة الأندلسية، الذين ذكروا نظمًا مشابهة لما هو موجود حاليًا فى الأندلس وكذلك فى المغرب الإسلامى (١).

وكان نظام الرى المستخدم فى شرق الأندلس أقل تعقيدًا وأكثر فعالية، فلقد أقيمت على أنهار الوادى الأبيض وشقر أعداد لا تحصى من النواعير، وكانت حيازة الأرض تعطى لصاحبها الحق فى مياه الرى، ولذلك فقد سن تشريع إسلامى فى شرق الأندلس لتنظيم حقوق المستفيدين، وأنشئت هيئة تشريعية تسمى «محكمة الماء»، وهى نوع من المجالس التأديبية ذات الصفة العائلية، اختصاصها أن تبت فى كل ما يتعلق بالنزاعات الناجمة عن توزيع المياه أو فى المخالفات التى حرّمها العرف (٢)، ويفهم من نص ابن حيان أنه فى سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م عين اثنان من الموالى الفتيان مبارك ومظفر من قبل الحكومة المركزية بقرطبة فى وكالة السقيا وذلك لمراقبة نظم الرى (٣).

ثانيًا - الصناعة

كانت الصناعة أحد مظاهر النهضة الحضارية التى تميز بها شرق الأندلس فى عصر الموحدين، فقد قامت فى بلاده صناعات من أهمها صناعة السفن وصناعة الخزف، والصناعات القائمة على الزراعة، بالإضافة إلى صناعات أخرى.

(أ) الصناعات القائمة على الثروة الزراعية والنباتية:

١ - صناعة السفن:

كان لطبيعة شبه جزيرة أيبيريا بسواحلها الممتدة هذا الامتداد الكبير شرقًا على البحر المتوسط وجنوبًا وغربًا على المحيط الأطلسى وشمالًا على خليج بسكايّا، أعظم الأثر فى تطلع سكانها عبر حقبة التاريخ إلى البحر، واشتغال أهلها بالملاحة والنقل البحرى، واعتمادها فى الدفاع عن سواحلهم على الأساطيل الحربية والدفاع البحرى. ولقد أدرك الأمير عبد الرحمن الأوسط منذ التجربة القاسية التى تعرضت لها سواحل الأندلس الجنوبية والجنوبية الغربية للغزو النورماندى فى سنة ٢٣٠هـ إلى أهمية

(1) Lévi - Provençal, op.cit., pp. 161-162.

(٢) وانظر أيضًا:

Lévi - Provençal, op.cit., p. 163; Torres Balbas, Las noris Fluviales en España, Al-Andalus, V, 1940.

(٣) فى: ابن عذارى، البيان المغرب، ج٣، ص ١٥٨.

الأساطيل، فأنشأ دار الصناعة بأشبيلية، ثم تعاقب على حكم الأندلس أمراء اهتموا بصناعة السفن لمواجهة الغزو النورماندى (كالأمير محمد) الذى أصبح للأندلس فى عهده أسطول ضخم من ستمائة سفينة^(١)، إلى أن تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد فازداد اهتمامه بصناعة السفن واستكثر من إنشاء دور الصناعة فى مختلف أنحاء الأندلس لإنشاء القطائع والأساطيل مستهدفاً مواجهة الدولة الفاطمية الفتية التى كانت تتطلع إلى غزو الأندلس^(٢)، وعلى هذا النحو أقيمت دور صناعة متعددة فى مختلف سواحل الأندلس ودانية ولقنت والمريه وشلب وطرطوشة وقصر أبى دانس ومالقة وبلنسية وغيرها^(٣). وقد ساعد الخليفة على ذلك توافر خامات الخشب والحديد وكل المقومات الرئيسية لإنشاء القطع البحرية فى الأندلس^(٤).

ومنذ مطلع القرن الخامس الهجرى (١١م)، اشتهرت دار صناعة دانية، وبلغت فى عهد أميرها مجاهد العامرى شأواً كبيراً ولعل ذلك يرجع إلى تطلع مجاهد إلى غزو سواحل فرنسا الجنوبية وإيطاليا الغربية وقطالونية^(٥)، بالإضافة إلى سياستها التوسعية التى استهدفت ضم الجزائر الشرقية (البليار) على نحو يتحقق فى رمضان عام ٤٠٥هـ / ديسمبر ١٠١٤م، كذلك نجح مجاهد فى الاستيلاء على قسم كبير من جزيرة سردينيا Cerdana عام ٤٠٦هـ / سبتمبر ١٠١٥م^(٦). ويصف الإدريسي دار صناعة دانية بقوله : «وهى مدينة تسافر إليها السفن وبها ينشأ أكثرها لأنها دار إنشاء السفن»^(٧). وكانت دار الصناعة بدانية تعتمد فى انتاجها على خشب الصنوبر الوارد إليها من قلصة التى يكثر بجبلها شجر الصنوبر ويقطع منها ويلقى فى الماء إلى جزيرة شقر ومنها إلى حصن قلييرة، وفيها تفرغ كتل الخشب على البحر وتقل بالمرالكب إلى دانية لصناعة السفن الكبار والمراكب الصغار^(٨). كذلك كان الصنوبر الجيد

(١) انظر : السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس، ص ٣٧.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس، ص ٣٧، وله أيضاً : تاريخ مدينة المرية الإسلامية، ص ٤٢، وله أيضاً : المغرب الكبير، ج ٢، العصر الإسلامى، ص ٦١٠ وما بعدها.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس، ص ١، وانظر أيضاً : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، ص ٢٨٥.

(٤) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس.

(٥) أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط، ترجمة أحمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٣١٣-٣١٤.

(٦) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسى، ص ٢١٩، كليلى سارنلى، مجاهدى العامرى، قائد الأسطول العربى فى غرب البحر المتوسط فى القرن الخامس الهجرى، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٩٥؛ أحمد مختار العبادى، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣١١.

(٧) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩٢؛ وراجع أيضاً : الحميرى، المصدر السابق، ص ٧٦.

(٨) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩٥، وقلصة : حصن منيع شرق قونكة، تكثر به أشجار الصنوبر، راجع : الإدريسي، نفس المصدر والصفحة.

للإنشاء وعدة المراكب ينبت على حد قول الحميرى بجزيرة يابسة (١). وقد واصلت دار صناعة دانية انتاجها للسفن طوال عهد المرابطين ولم تلبث فى عصر الموحدين أن استعادت شهرتها القديمة فى هذه الصناعة، ويشير الحميرى إلى أن الخليفة الموحدى الناصر محمد بن يعقوب المنصور وجه لمحاربة ابن غانية صاحب ميورقة قطعاً من أساطيل الموحدين، وأمر باتخاذ قاعدة دانية مركزاً لبدء عملياته الحربية ضد ميورقة، فاجتمع فى مينائها ثلاثمائة جفن، منها سبعون غراباً وثلاثون طريدة، وخمسون مركباً كبيراً (٢).

كذلك اشتغلت دار صناعة لقنت Alicante بانتاج السفن فى عصر الموحدين وقد اقتصرت هذه الصناعة بانتاج المراكب السفرية والحرايق (٣). ولا نشك فى أن بلنسية كانت من بين القواعد الرئيسية لصناعة السفن فى عصر الموحدين.

٢ - استخراج الدقيق:

صاحب زراعة القمح، بطبيعة الحال، عملية طحن القمح لاستخراج الدقيق اللازم لإعداد الخبز وصناعة الحلوى، ومن أجل ذلك ابتكرت الطواحين التى تعتمد فى تشغيلها على الهواء، ومع أن المصادر العربية لم تتحدث عن طواحين الهواء باستثناء طواحين طركونة، فمن المحتمل أن هذه الطواحين كانت تقوم فى السهول المرتفعة، وإلى جانب طواحين الهواء، استخدم أهل شرق الأندلس نوعاً من الطواحين تديره دواب الحمل إلا أن أكثر الطواحين شيوعاً فى شرق الأندلس فى هذا العصر هى طواحين الماء، السواقي المعروفة بالأرحاء أو النواعير وكانت تنصب على حافة مجارى المياه سواء على ضفة نهر أو قناة، ويفعل ضغط الماء وقوة مسيله تتحرك عجلة أو ثنتان من عجلات الرحى أو سوائيه فتدور الرحى وبالقوة الناتجة من دورانها يتم طحن القمح (٤). ولقد تناول السقلى فى كتابه «آداب الحسبة» أنواعاً متعددة من الحيل التى استعملها الطحانون فى غش الطحين ومنها، يقول السقلى: «ومنهم الطحانون وغشهم بأن يخلطوا الردى مع الطيب ليأخذوا من الطيب ويجعلوا الردى ويخفى

(١) الحميرى، المصدر السابق، ص ١٩٨.

(٢) الحميرى، نفس المصدر، ص ١٨٩، راجع أيضاً: أحمد مختار العبادى، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٦٧.

Torres Balbas (L.), Atarazanas hispano - Almohades, Al-Andalus, Fasc I, 1946, p., 185.

(٣) الإدريسى، المصدر السابق، ص ١٩٣، راجع أيضاً: الحميرى، نفس المصدر، ص ١١٧٠.

Lévi - Provençal, Enc. Isl, Vol. IV, pp. 856-857.

(4) Lévi - Provençal, Espana musulmana, t. V, pp. 163-164.

فعلهم»^(١)، ويضيف: «ويغشون أيضاً بأن يأخذوا من القمح ويجعلون عوضه ما يمكنهم من العظام وشوائب البحر ومحره فى بلد الساحل والتراب الأبيض والكذبان الرخص»^(٢)، ومنها أيضاً: «ويغشون بأن يأخذوا من الدرملك ما شاءوا ويعرضون عنه شنيه بيضاء مغريلة بعد الطحن ولا يكاد يشعر بذلك إلا عند اختبار الخبز منه فإنه لا يرتفع فى الخمير ارتفاع الدرملك السالم»^(٣).

٣- استخراج الزيت:

قامت على محاصيل الزيتون الوفيرة فى المناطق السهلة بشرق الأندلس قيام صناعة استخراج الزيت، وهى مباني كانت تقوم فيها معاصر لشجر الزيتون تعرف بالمسالكب، وقد كان الزيت من أهم الصادرات التى تعتمد عليها الأندلس فى ثروتها الاقتصادية، ويحدثنا الإدريسي والحميرى عن شهرة زيت الأندلس فى المشرق الإسلامى. وإلى جانب هذه الصناعة وجدت صناعة تجفيف الكروم وأخرى لعصره، فمن الكروم المجفف يتخذ الزبيب الذى شاع استخدامه فى شرق الأندلس فى المطابخ والأطعمة، ومن عصير العنب كانت تقوم صناعة الأنبذة.

٤ - صناعة الورق :

تشير المصادر العربية إلى شهرة شاطبة فى صناعة الورق، فالإدريسي يقول أنه كان «يعمل بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض وبعم المشارق والمغرب»^(٤).

ب- الصناعات الفنية:

١ - صناعة الخزف:

تعتبر الفنون القائمة على الصلصال كصناعة الخزف بأنواعه والأواني الفخارية من أهم الحرف الفنية الهامة التى شهدت تطوراً واضح المعالم فى العصور الوسطى، ومن المعروف أن هذه الصناعة كانت من بين الصناعات الأساسية الأصيلة فى الشرقيين الأقصى والأدنى، وحظيت بشهرة عالمية فى العصور الوسطى الإسلامية، وتأثرت بها الصناعات الخزفية فى الأندلس بحيث تردد صداها فى عصر الخلافة، وكان من خصائصها أن المرحلة النموذجية فى حياتها لم يكن مصدرها الفن الإسلامى المشرقى المعروف بل استمدت كياناتها عن تيار يزنطى ولكن مع تطور فى التكوين فاق النماذج

(١) السقطنى، كتاب فى آداب الحسبة، ص ٢١.

(٢) السقطنى، المصدر السابق، ص ٢٢.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٢، وشنيه بيضاء هى نوع من الغلال يستخدم فى عمل الخبز أقل جودة من القمح الدرملكى، وهى مشتقة من اللاتينية Centenum، راجع: نفس المصدر Glossario، ص ٤٠.

(٤) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩٢.

المحتدأة، واتخذ تعبيرات زخرفية تعبر عن أشكال وتصاوير لتبث الحياة فيه (١).

ومما لا شك فيه أن ما بلغه فن صناعة التحف الزخرفية المزينة بالزخارف في عصر الخلافة الأموية بقرطبة يعد أمراً رائعاً يتجاوز في قيمته الفن المسيحي الأوروبي بما في ذلك الفن البيزنطي الخالي من الإبداع والصنعة الفنية، وهذا يسوغ ما يحتمل من ازدهار تجارة الصادرات مما أدى إلى التيقن من وجود أوان خزفية شبيهة بالأندلسية في جزيرة يابسة Ibiza والجزائر وصقلية ومالطة وربما بلغت القسطنطينية، وبعث في نفس الوقت على ظهور مصانع في أسبانيا في ترويل Teruel وقطلونية وبطرنة Paterna ومنيشة Manisas (٢). وكان لتأثر حضارة شرق الأندلس بالتقاليد الرومانية البيزنطية أثر كبير في ظهور أساليب متعددة في صناعة الخزف، أخذت في التطور من العصور القديمة حتى العصور الحديثة (٣).

أ - التصنيف الفني للخزف:

يمكن تصنيف الخزف إلى عدة مجموعات:

المجموعة الأولى: الفخار المحروق مع زخرفة محزوزة أو بارزة

Ceramica Bizcochada con Adornos inciso o en relieve

تتضمن هذه المجموعة على تحف تم تشكيلها ثم زخرفت وبطانتها ماتزال لينة بعد بمنقاش، أو وضعت في قوالب أو اسطوانات من الخشب أو الطين المحروق. وبهذه الطريقة تدخل التحفة في مرحلة النقش الزخرفي المحزوز أو البارز الذي لا يخرج عن تعبيرات زخرفية، أغلبها متأثر بالأساليب الفنية المسيحية أو تتخذ أشكالاً نجمية أو تسجل كتابات إما دينية مستمدة من القرآن الكريم أو مجرد أسماء، وما أن ينتهي الخزاف من عملية النقش توضع التحف في الفرن للمرة الأولى والأخيرة. هذا هو الأسلوب المألوف في صناعة وتزيين التحف المصنوعة من الفخار ذات الأحجام الكبيرة كحواجز المياه، والخوابي أو الأزيار المخصصة لحفظ المياه أو الزيت (٤)، انظر الشكل (١).

(١) مانويل جوميث مورينو، الفن الاسلامي في أسبانيا، ترجمة الدكتور لطفى عبد البديع والدكتور السيد عبد العزيز سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٣٦٩.

(٢) مانويل جوميث مورينو، المرجع السابق، ص ٣٦٩.

(3) Gonzalez Marti (Manuel), Ceramica del levante Espanol , tomo I, editorial labor, Barcelona, 1949, p. 39.

(4) Ibid, T. t, p. 40.

المجموعة الثانية: الخزف المزين بأكسيد المنجنيز

Ceramica Decorada con manganeso :

بعد أن تتم عملية تشكيل الإناء، يترك ليجف في الظل، ثم يتولى النقاش نقش زخارفه بقلم غليظ أو بمقبض ذى ثلاثة أو أربعة أقلام ناعمة جداً، وهذه الزخارف عبارة عن خطوط متوازية أو مستقيمة أو متعرجة حسب حركة اليد مع استخدام مادة المنجنيز أو أكسيد الحديد، ثم تطور هذا الأسلوب، نتيجة استخدام مديّة صغيرة للجزر أو مجرد ريشة لرسم موضوعات بسيطة متكررة ذات طابع شعبي، مخططة باللون الأسود بهدف وحدة السياق، وهذا النوع من الخزف ينتمى إلى تقاليد إيبيرية، وفي بعض الأحيان يستخدم النقاش أكسيد الحديد الأحمر Almazarron، الذى يتمتع بخصائص أساسية للغاية فى رسم الخطوط المتفرقة، ولقد اهتم فخارى بطرنة ومنيشة بالبحث عن موارد جديدة لزخرفة أطباقهم وجرارهم التمسوها بمزج أكسيد الحديد الأحمر بلون أصفر طفالى (تراب حديدى) وبالمنجنيز^(١) شكل (٢).

المجموعة الثالثة: الخزف المزين بمادة الأنجوبى:

Ceramica decoradas con Engobes

الأنجوبى Engobe، مادة طينية أو ملونة بها عرق معدنى، تغطى بها التحف الخزرفية قبل تلميعها لتغطية اللون الطبيعى، وهى مادة تذوب فى الماء، ولا تنصهر بفعل النار، وتستخدم لتزيين الخزف طريقتان :

الأولى: أن يوضع الإناء المشكل من الطين النئى فى وعاء بسائل الأنجوبى لتغطية بطانته بهذا السائل الملون، وأما الثانية: فتقتصر على غمس الريشة فى مزيج مادة الأنجوبى السائل ودهان العناصر الخزرفية على سطح الإناء بهذه المادة، وبهذه الطريقة تتشكل الحلية على سطح الإناء من لونين أحدهما اللون الأصلى للعجينة أو البطانة وأعنى به اللون الطبيعى لمادة الإناء والثانى الزخارف الملونة المرسومة عليه.

ومن المعروف أن لون الزخارف يتوقف أساساً على نوع التراب المستخدم فى مادة الأنجوبى فلزخارف الخزف ذى اللون الأحمر، يستخدم التراب الحديدى الأحمر أو Almazaron، وللخزف ذى اللون البنفسجى، يمزج قليل من الرمل مع نسبة معينة تبلغ ضعف مادة الرمل من مادة البوتاسيوم ثم نسبة الرمل من المنجنيز، وللخزف ذى اللون الأصفر، تمزج نسبة جزء من الرمل من مادة البوتاسيوم ثم نسبة الرمل من المنجنيز، وللخزف ذى اللون الأصفر، تمزج نسبة جزء من الرمل مع نسبة جزئين من البوتاسيوم ونسبة جزء الصفار المعروف بـ نابوليس Amarillo de Napoles، وللخزف

(1) Gonzalez Marti, op.cit., t. I, p. 41.

الأزرق، تمزج نسبة ستة أجزاء من كربونات النحاس، ويتم حرقه إلى أربع مرات حتى يتكلس، ويضاف إليه نسبة نصف جزء من أكسيد الرصاص الأحمر واثني عشر جزءاً من التراب الأبيض، وللخزف ذي اللون الأخضر، تستخدم خلطة زرقاء وصفراء مع تراب أبيض، أما الأنجوبي الأسود فتحصل عليه بمزج نسبة خمس أجزاء من المنجنيز المحروق وبرادة البرونز ونسبة واحد من العشرين من الجزء من التراب الأبيض^(١).

وقد عثر في مقبرة على ميمون في بلنسية على قطع متنوعة من هذا الأسلوب الخزفي، انظر شكل (٣).

المجموعة الرابعة - الخزف المكشوط: Ceramica Esgragiada

هذا النوع من الخزف يشابه الخزف الذي استخدمت فيه مادة الأنجوبي فبعد أن يكسو الخزف السطح الخارجي للإناء بمادة طينية ذات ألوان تختلف عن البطانة الداخلية، يوضع الإناء في الفرن ثم يطلع عليه الرسم المطلوب ويحفر الزخارف حفراً غائراً يزيل الطبقة السطحية ويصل إلى الطبقة الداخلية، وما أن تتم هذه العملية حتى يدهن بطبقة لامعة ثم يدخل الفرن من جديد للمرة الأخيرة ويتمثل هذا النوع من الخزف في بعض الأمثلة المصرية من العصر المملوكي التي ترجع إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي، وفيها تظهر الزخارف المكشوفة مغطاة بمادة الأنجوبي، وقد انتقلت هذه الطريقة بعد ذلك من مصر إلى الفن القبرصي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر^(٢).

ومن الغريب أن ينتشر هذا النوع من الخزف في العالم الإسلامي حتى إيران ويتمثل ذلك فيما يعرف بخزف جابري الذي نشهده في بعض الأكواب الخزفية والأطباق الكبيرة المزينة بموضوعات هندسية وحيوانية بسيطة للغاية^(٣)، وقد انتقل هذا النوع من الخزف إلى شمال إيطاليا عن طريق الجنوئين واللومبارديين، انظر شكل (٤).

المجموعة الخامسة - الخزف ذو الفواصل الجافة: Ceramica de cuerda seca

هو نوع من الخزف المزجج كانت تحدد على سطحه مساحات تغطي بطبقة من أكسيد المنجنيز الخام تذوب على هذا السطح وتكسو مسطحه أثناء وضعه في الفرن^(٤). وكان يضاف إلى الزجاج أكسيد النحاس يكسب الإناء المراد زخرفته بريقاً معدنياً أخضر اللون أو فيروزى نتيجة إضافة محلول قلوي^(٥). كما كانت تستخدم مع

(1) Gonzalez Marti, op.cit., t. I, p. 41.

(1) Gonzalez Marti, op.cit., t. I, p. 43-44.

(2) Ibid, p. 48.

(3) Ernesto Diaz, Arte del Islam, editorial Labor, Barcelona, p. 104.

(٤) مانويل جوميث مورينو، الفن الاسلامي في أسبانيا، راجع صفحات ٣٩٤، ٤٩٢.

(٥) نفس المرجع، ص ٣٨٤، راجع أيضاً: محمد عبد العزيز مرزوق، الفنون الخزفية الاسلامية

المادة التي تغطيها La Cubierta أكاسيد مختلفة^(١).

ولقد تطور هذا الأسلوب الفني في صناعة القخار في مصانع الفخار الأندلسية، بيباسة وبلنسية، ويرجع الأستاذ Gestos y Pérez هذا الأسلوب الفني من الخزف ذي الفواصل الجافة إلى أواخر القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر باعتباره ضرب من التبسيط^(٢) بينما ينسبه الأستاذ جوميث مورينو إلى القرن الحادي عشر والثاني عشر مستنداً في رأيه إلى أنه قد اكتشفت بعض أمثلة من هذا النوع من الخزف في البيرة Elvira ومدينة الزهراء ويباسة^(٣). ولما كانت مدينة الزهراء قد تعرضت للتدمير والتخريب في بداية القرن الحادي عشر فإن الخلاف بين الرأيين يجعل فارقاً زمنياً كبيراً في استخدام هذا النوع من الخزف. انظر شكل (٥).

المجموعة السادسة: الخزف المنقوش بمادة الأنجوبي البيضاء ويزدان بزخارف خضراء وبنفسجية:

Ceramica con Engobe blanco, decorada sobre él con verde y morado y recubierta de barniz plumbífero

لما كان هدف الخزاف المسلم الوصول بانتاجه إلى الكمال في الأداء الفني والزخرف من حيث اتقان الصناعة وإجادة الزخرفة مع تناسق الألوان، فإن هذا الأسلوب الفني المتطور في صناعة الخزف يتيح تغطية سطح الجرة بعد تشكيلها وإدخالها في الفرن للمرة الأولى، بمادة الأنجوبي البيضاء، ثم إدخالها مرة أخرى بعد نقش زخارفها بألوان خضراء وبنفسجية، وطلائها بعد ذلك بطلاء رصاص، بحيث تبرز زخارفها الخضراء والبنفسجية على أرضية بيضاء^(٤). هذا الأسلوب الفني الجديد من أصل شرقي أو غرناطي وصل تياره بسرعة إلى مصانع ميورقة وبلنسية، وحظي بشهرة كبيرة في المشرق الإسلامي^(٥).

المجموعة السابعة: الخزف المطلي بطلاء من القصدير:

Ceramica con rudimentaris barniz estannífero

يتميز خزف هذه المجموعة باستخدام حجر الزنك في دهانه وتستخلص هذه المادة من القصدير، وكانت هذه المادة معروفة لدى أهل البندقية منذ أمد بعيد واستخدموها

(١) اصطلاح La Cubierta في لغة الخزافين، دهان يكسب السطح بريقاً ويتكون من مزيج من أكسيد الرصاص بنسبة عشرة أجزاء، وعشرة أجزاء رمل وملع؛ راجع:

Gonzalez Martí, op.cit., p. 64, No. 6.

(2) José Gestos y Pérez, Historia de los barrios vidriados sevillanos, p. 108.

(3) جوميث مورينو، المرجع السابق، ص ٣٨٥.

(4) Gonzalez Martí, op.cit., t. I, p. 54.

(5) Ibid, p. 58.

فى صناعة البرونز، ويتخذ الإناء بهذه الكسوة المعدنية اللون الأبيض النقى، ولما كان هذا النوع من الخزف باهظ التكاليف، فقد استعمل فخاريو منيشة مادة الزرنيخ ومادة الكريوليتا Creolita (مزيج من الألومنيوم والصوديوم) الذى يكسب الخزف لوناً أبيض غير براق يماثل الأثر الذى يحدثه كسوته بمادة القصدير^(١).

المجموعة الثامنة - الخزف المخضب : Ceramica Jaspeada

هو نوع من الخزف المدهون الذى يماثل الحصى أو المرمر، وكان يستخدم فى دهانه مادة دهنية توضع فى وعاء كبير ملىء بالماء، وتظل هذه المادة طافية على سطحه، ثم يضاف لون أو ألوان مختلفة تمزج فيما بينها ويطلّى بها الإناء ثم يوضع على أثر ذلك فى الفرن وعندما تنتهى هذه العملية يطلّى بمادة الرصاص التى تكسبه لون هذه المادة، ثم يوضع الإناء فى الفرن للمرة الثانية ليتخذ صورته النهائية حيث يكتسب مسطحه طبقة زجاجية تتخللها عروق متعرجة^(٢).

ب - مراكز صناعة الخزف فى شرق الأندلس :

٩ - بطرنة Paterna

يتميز خزف بطرنة ببساطة زخارفه التى تعتمد فى معظم الأحوال على موضوعات الصور الحيوانية من طيور وأرانب وخنازير برية بالإضافة إلى بعض التصاوير الإنسانية^(٣). ولقد تأثر خزاف بطرنة بطبيعة بلده فكانت مصدر الهامه ووجيه فحاكى المناظر الطبيعية التى تحيط به من أشجار وأزهار وأصداق بحرية وصور حيوانية، وانعكس تأثير الطبيعة فى فنه على الألوان التى استخدمها فى أعماله الخزفية مؤثراً اللون البنفسجى القاتم على بطانة خضراء، هذا إلى جانب الخزف المزين بزخارف نتيجة استخدام أكسيد الكوبلت فى الحليات والزخارف الزخرفية خلال القرن الثالث عشر، وقد بلغ هذا الاتجاه الخزفى مرحلة متقدمة من الانتقان، غير أن غلبة الطابع التجارى على صناعة الخزف البطرني أدى إلى نبذ هذا الأسلوب الشعبى فى فنون الخزف، والاتجاه إلى استخدام أكاسيد النحاس والمنجنيز فى إنتاج النوع المعروف بالغضار المذهب^(٤) الذى يتميز بزخارفه الزرقاء ذات البريق المعدنى، وهذا النوع من الخزف ازدهر بوجه خاص فى مالقة وقرطاجنة^(٥) انظر أشكال ٦، ٧، ٨.

(1) Gonzalez Marti, op.cit., t. I, p. 58.

(2) Ibid, p. 63.

(3) Ibid, p. 212.

(٤) الغضار المذهب Ceramica de reflejo metalico، وهو عبارة عن خزف زخارف ذات بريق

معدنى ناتج من اختراق أكاسيد المعادن؛ راجع: جوميث مورينو، المرجع السابق، ص ٤٩٢.

(5) Gonzalez Marti, op.cit, t. I, p. 215.

يكاد يكون تاريخ صناعة الفخار في هذه المدينة محدداً، فهو لا يكاد يتجاوز القرن الرابع الميلادي وإن كان من الثابت في أحد المصادر التي وصلتنا أن صناعته ترجع إلى أواخر القرن الرابع عشر، وقد تردد نفس ما جاء في هذا المصدر مع بعض تعديلات بسيطة فيما أورده عدد من المؤرخين اللاحقين في بدايات القرن الحالي وذلك عند تعرضهم لنتائج الدراسات والأبحاث الفنية التي أجروها في مواضيع محددة وأسفرت عن وضع صورة واضحة لتطور فن صناعة الخزف في مدينة منيشة^(١).

ومن الجدير بالملاحظة أن مؤرخي الفن قدموا خزف بطرنة على خزف منيشة من حيث القدم، معللين ذلك بأن منطقة منيشة غنية بالصلصال الضروري لصناعة الفخار بعد مزجه بكميات قليلة من المواد الكلسية المتوفرة في منطقة بطرنة، ونظراً لصعوبة نقل الصلصال من منيشة، فقد وجد خزافو بطرنة ضرورة إنشاء معامل للخزف في منطقة منيشة وكان ذلك هو السبب في بدء ظهور اسم منيشة كمركز رئيسي لصناعة الخزف^(٢).

. واسم منيشة حسبما يشير إسكولاني Escolano في مؤلفه «عشرات السنين» Décadas من أصل عربي ويفسر ذلك بأن العرب عندما شرعوا في حصار بلنسية نزل فارس عربي شريف إلى ريف منيشة، فأعجبه طبيعة المكان، وقال منزلي Manicel، بمعنى أنه اختار منزلاً له، ثم تحول اللفظ بمرور الزمن إلى Manises ثم إلى Manicel منيشة^(٣).

وقد ذاعت شهرة هذه المدينة في صناعة الخزف عندما شرع الملك خابمي الأول الفاتح بتقسيم أراضيها التي آلت ملكيتها إلى دون أرتال دي لونا Don Artal de luna غير أن هذه المنطقة لم تلبث أن آلت ملكيتها في عهد خابمي الثاني Jaime II إلى أسرة Boil، التي تمتعت بحظوة كبيرة في البلاط الملكي وظفرت بامتيازات كبيرة، فاهتم نبلاؤها أعني سادة منيشة بتشجيع صناعة الخزف بها لا سيما الخزف ذي الغضار المذهب الذي اشتهرت به مدينة غرناطة وكذلك الخزف المألقي، وبذلك تطورت صناعة الخزف بمنيشة على أيدي هؤلاء السادة، وفاقت الخزف الذي كانت تنتجه منطقتا الضيعة Aldea والألكواس Alacuas، وهو من النوع العسادي ذي الاستعمال الشائع^(٤)، ولقد أسفرت حفريات منيشة عن كشف بعض الأصص المزينة

(1) Ibid, p. 213.

(2) Ibid, p. 213.

(3) Gonzalez Marti, op.cit., t. I, p. 213.

(4) Ibid, p. 214.

برخارف حصراء أو بمسجنية ذا كنة تتجاوب في زخارفها مع بعض الأواني الخزفية النادرة التي كشف عنها في بطرنة. انظر أشكال ٩، ١٠، ١١.

جـ - الخزف الجزائري الشرقي

شاعت الزخارف الحيوانية على التحف الخزفية التي تنتجها مصانع الخزف الميورقي ويتمثل ذلك في الصفحة الرائعة المزججة التي يظهر فيها شكل أرنب يرى زخرفي الشكل يحتفظ به متحف ميورقة، هذا بالإضافة إلى تحفتين خزفيتين غير كاملتين، إحداهما عثر عليها في بلعة بجزيرة ميورقة والأخرى كشف عنها في موضع غير معروف الاسم بجزيرة يابسة محفوظ اليوم في مخازن المتحف الأهلي لهذه المدينة، وترجع هاتان التحفتان في الظاهر إلى تاريخين أكثر قدماً ولعلهما يرجعان إلى نهاية القرن العاشر أو يرجع تاريخهما إلى السنين العشرة الأولى من القرن الحادي عشر^(١)

وقد عثر على صفحة من الخزف المزجج عليها رسم تخطيطي هندسي للأرنب البري الذي أشرنا إليه، عثر عليه سنة ١٩٦٧، في البئر رقم ٣ في كنيسة Sant Cate-lina de sena، وينتمي شكله إلى النوع المعروف باسم مجموعة الطيفور Atalfor^(٢)، وذلك خضوعاً للنظام الذي اقترحه الباحث الأثري الميورقي السنيور روسيوس بوردوي عام ١٩٧٥. وبطانة الصفحة المزججة بيضاء اللون ولكن الشكل الهندسي المخطط للأرنب مرسوم باللون الأخضر والمنجيزي، ووضع الأرنب كما نشاهده في هذا الرسم في صورة يبدو فيها متحركاً أي أنه يتخذ شكل أرنب يعدو ورجله اليمنى الأمامية مرفوعة في حين تبدو إحدى رجله الخلفيتين متراجعة والأخرى متقدمة، أما عنقه فيظهر رشيقاً مرتفعاً كالزرافة في حين تتميز أذناه الطويلتان برشاقتها ويغطي بدن الأرنب وعنقه وعضلاته زخارف من دوائر وأشكال بيضية بلون منجيزي منقوشة في وسطها، أما المناطق المحيطة بالرسم فخضراء اللون، وفي هذه المناطق تستطيع أن تميز بعض الزخارف النباتية من أوراق نباتية ثلاثية القروع وفروع نباتية تسهم جميعاً في تزيين الصفحة وتعبير عن المنطقة المزروعة التي يتمثل فيها الأرنب الموضوع الرئيسي للزخرفة. ويؤكد السنيور روسيو بوردوي في بحثه الذي خصصه لدراسة الزخارف ذات الرسوم الحيوانية في الجزائر الشرقية بالأندلس على أن شكل الأرنب وطبيعة لون رسمه من نفس خصائص الخزف الألييري بدليل أن النموذج الأقرب إلى هذا الرسم يتمثل في القارورة المنسوبة إلى العالم الأثري دون مانويل جوميث مورينو والتي عثر عليها في موقع بينوس بونيتي وتزدان برسوم تمثل أرانب برية، وهذه التحفة محفوظة اليوم في متحف الآثار بمدينة غرناطة^(٣).

(1) Rossello - Bordoy (Guillermo), Decoracion Zoo Marfica en los islas orientales de Al-Andalus, Palma de Mallorca, 1978, p. 15.

(2) Rossello - Bordoy (G), Ensayo de Seslematizacion de la ceramica arabe en Mal-lorca, Palma de Mallorca, 1978, p. 15, 105.

(3) Rosseio Bordoy (G), Decoracion Zoo morfica en las islas orientales de Al-Andalus, p 16:

وبما يتعلق بالقارورة المذكورة أعلاه، راجع جوميث مورينو، الفن الاسلامي في أسبانيا، ص ٣٧٣

٢ - صناعة النسيج :

. تشير المصادر العربية إلى قيام صناعة النسيج في مدن شرق الأندلس، فاشتهرت صناعة نسيج الكتان بمدينة بلنسية، فيقول ابن سعيد: «فيها تقصر الثياب الغالية من الكتان وتنسج»^(١)، ولا شك أن نسيج الكتان كان من الصناعات الهامة الضرورية لتجهيز الملابس. كما اشتهرت بلنسية أيضاً بصناعة النسيج^(٢).

كما قامت صناعة البسط في تنطاله التي نسبت إليها^(٣). وصناعة الوطاء بمرسيه وفي ذلك يقول العذري : «وفي عمل تدمير الطراز العجيبة والصناعة الغريبة للوطاء والبسط»^(٤). كما اختلفت شاطبة بصناعة النسيج الأرجواني والحريز^(٥).

٣ - صناعات أخرى:

تشير المصادر العربية إلى قيام صناعات أخرى في مدن شرق الأندلس في مقدمتها صناعة الآلات والتحف المعدنية التي اختلفت بها مرسية، ومنها صناعة الأسرة المرصعة وآلات الصفر والحديد من السكاكين والأقفاص الذهبية، كذلك اختلفت بصناعة الحصر الفتانة وآلات العروس والجندي^(٦). وإلى جانب هذه الصناعات عرفت مرسية صناعة الزجاج الغريب العجيب^(٧).

ولم يكن غريباً أن تشتهر شرق الأندلس بصناعاتها العديدة مع كونها مناطق سهلة معروفة بشهرتها الزراعية، فقد كانت تتوفر في بلاد شرق الأندلس كل المواد الخام الضرورية لقيام هذه الصناعات، فمعدن الفضة كان يتوفر بكورة مرسية^(٨)، ومعدن الرصاص^(٩)، ومعدن الحديد في أندة^(١٠)، وحجر اللازورد اللازم لأعمال

(١) كتاب الجغرافيا، ص ٢٠٥.

(٢) المقرئ، نفح الطيب، ج٤، ص ٢٠٧.

(٣) المقرئ، نفس المصدر، ج١، ص ١٨٦؛ وراجع أيضاً: ج٤، ص ٢٠٧ (عن رسالة الفلقشندي).

(٤) العذري، المصدر السابق، ص ٩٠، المقرئ، نفس المصدر، ج١، ص ١٨٧.

(5) Miret y sans en Itinerari de Jaume I, «el conqueridor», apud, torres Balbas, Jativa y los restos del palacio de pinahermosa, Al-Andalus, Vol. XXIII, Fasc I, 1958, p. 146.

(٦) المقرئ، المصدر السابق، ج١، ص ١٨٦؛ ج٤، ص ٢٠٧.

(٧) المقرئ، نفس المصدر، ج١، ص ١٨٦.

(٨) ابن غالب الأندلسي، فرحة الأنفس، ص ١٦؛ راجع أيضاً: الحميري، المصدر السابق، ص ١٨٢؛ المقرئ، نفس المصدر، ج١، ص ١٣٨؛ السيد عبد العزيز سالم، مدينة مرسية، ص ٢٢.

(٩) العذري، المصدر السابق، ص ٢.

(١٠) ابن غالب الأندلسي، المصدر السابق، ص ١٦؛ راجع أيضاً: المقرئ، المصدر السابق، ج١، ص ١٧٠.

الترصيع والحلى ومعدن البلور المادة الأساسية لصناعة التحف البلورية فى لورقة^(١)،
وحجر المغناطيس الجاذب للحديد بكورة ندمير^(٢).

ثالثاً - التجارة

كان لازدهار الزراعة والصناعة فى شرق الأندلس أكبر الأثر فى نشاط الحركة التجارية فى داخل الأندلس وخارجه، وقد ساعد على نشاط حركة الصادر والوارد داخلياً، وجود شبكة متصلة من الطرق البرية والنهرية، وخارجياً توافر طرق التجارة البحرية عن طريق موانئ شرق الأندلس بين المشرق والمغرب.

ريهمنا أن نتحدث فى مجال التجارة عن طرق التجارة الداخلية والخارجية ثم عن حركة الصادر والوارد.

١ - طرق التجارة:

أ - طرق التجارة الداخلية:

الطرق البرية : كانت تربط مدن الأندلس شبكة متصلة من الطرق البرية الرئيسية والفرعية، وكانت أغلب هذه الطرق الرئيسية تتبع تقريباً نفس الطرق الرومانية القديمة^(٣). وقد حدد لنا ابن حوقل طرق التجارة الرئيسية التى كانت تتفرع من قرطبة الحاضرة، وهذه الطرق هى : الطريق من قرطبة إلى أشبيلية فقادس فالجزيرة الخضراء، وعند أشبيلية يتفرع طريق آخر يذهب إلى شلب، ثم الطريق من قرطبة إلى طليطلة فسرقسطة فلاردة، والطريق من قرطبة إلى مالقة مروراً باستجة ثم إلى مرسية، والطريق من قرطبة إلى المعدن إلى قورية فسلمنقة فسموره، والطريق من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء مروراً باستجة ومورور شذونة^(٤).

هذا وقد زدنا كل من العذرى والإدريسى بتفاصيل تتعلق بشبكة المسالك الرئيسية والفرعية التى تربط مدن الأندلس بشرقها محددة بالمراحل التى كانت كل مرحلة فى العادة لا تتجاوز ثلاثين كيلو متراً^(٥).

(١) ابن غالب الأندلسى، نفس المصدر، ص ٤٠، راجع أيضاً: الحميرى، المصدر السابق، ص ١٧٠، المقرئ، نفس المصدر، ج ١، ص ١٣٨، ص ١٥٨.

(٢) المقرئ، نفس المصدر، ج ١، ص ١٣٨.

(3) Torres (M), Espana Romana, en Historia de Espana, dirigida por Roamon Menendez pidal, t. II, Espana Calpe, 1935, pp. 569-571.

(٤) ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن على البغدادى النصيبى)، صورة الأرض، تحقيق كرامرز، ١٩٣٨، ص ٤٦، راجع أيضاً: حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ٢٨٧ وما بعدها.

(5) Lévi - Provençal, Espana musulmana, t. V, p. 189.

ونخرج من كل هذا بأن وجود شبكة الطرق البرية قد سهل الانتقال وتداول السلع بين مدن شرق الأندلس وحواضر الأندلس الأخرى.

ولما كانت الرحلات البرية طويلة إلى حد ما ومرهقة وقد تستغرق أياماً عديدة، اقتضى الأمر التوقف بين كل عدد من المراحل للاستراحة، ولهذا السبب أقيمت الفنادق في نهاية كل مرحلة لقضاء الليل ولإراحة الدواب وتزويد الرحالة بالمياه والمؤن، هذا بالإضافة إلى ضرورة أداء الصلوات في مواعيدها، وكثيراً ما كانت أديرة المستعربين تفتح أبوابها في المناطق النائية عن العمران لاستقبال الرحالة والمسافرين المسلمين^(١). ولسنا نظن أن النظام المعماري للفندق في عصر الموحدين كان يختلف كثيراً عن النظام الذي نشهده في المشرق الإسلامي في مصر والشام في عصر دولة المماليك كخان الخليلي وخان الشراكسة في القاهرة، وخان الصابون بطرابلس أو حتى في مدن الأندلس نفسها كفندق الفحم بغرناطة وإن كان تاريخه يرجع إلى القرن الرابع عشر، فكان يتألف من فناء مركزي مستطيل الشكل تتوسطه أحواض للسقاية وتدور به بوائك تطل عليها غرف متصلة تتخذ مخازن للسلع والمتاجر ويعلو هذا الطابق غرف صغيرة لمبيت التجار والمسافرين^(٢).

الطرق النهرية : إلى جانب الطرق البرية، كانت هناك شبكة من الطرق النهرية لها دورها في ربط التجمعات العمرانية في شرق الأندلس فيما بينها، ومن أهم هذه المجارى المائية والقنوات وادى طوربه Turia، ونهر شقر Jucar، وشقورة Segura، وادى أندرش في شرق الأندلس، وادى تاجة Tago، وادى آنة Guadiana، والوادى الكبير Guadalquivir في غربها، وكان لهذه الوديان أثر كبير في تسهيل حركة النقل النهري لا سيما ما يتعلق بالمواد ذات الأحجام الضخمة كأخشاب الصنوبر الذي كان يقطع من الجبال المحيطة بحصن قلصة، ويلقى في النهر إلى جزيرة شقر ومنها إلى حصن قلبييرة، ويفرغ هناك على البحر فيحمل في المراكب إلى دانية وبلنسية^(٣)، أو ما كان يقطع من غابات طرطوشة ويحمل في المراكب إلى سواحل بلنسية.

كما كان لنشاط دور الصناعة الأندلسية في بناء السفن دور كبير في ازدياد

(1) Lévi - Provençal, op.cit., t. V, p. 189.

(2) راجع:

Torres Balbas (L.), Las alhondigas hispano musulmana y el carral del carbon de Garnada, Al-Andalus, Vol. XI, Fasc 2, 1946, pp. 447-449;

السيد عبد العزيز سالم، العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، مقال بمجلة عالم الفكر، المجلد الثامن، العدد الأول، أبريل - مايو - يونيو ١٩٧٧، ص ١٣٤؛ وله أيضاً: العمارة المدنية بالأندلس، دائرة معارف الشعب، العدد ٦٤، ١٩٥٩، ص ١٤٣.

(3) راجع: الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩٥.

نشاط حركة الملاحة النهرية بالأندلس، وما لاشك فيه أن اعتراض الجبال المرتفعة بين شرق الأندلس وبين جنوبه أو وسطه كان له أعظم الأثر في فعالية الاتصال بين شرق الأندلس وما يجاوره من مناطق عن طريق الملاحة النهرية، ولم يكن النقل التجارى النهري يقتصر على الأخشاب فحسب وإنما تجاوز ذلك إلى السلع التى اختصت بها بعض مدن الداخل والجنوب كزيت الزيتون والغضار الأندلسي.

ب- طرق التجارة الخارجية:

ساهمت القوافل التجارية بنصيب كبير فى سد احتياجات شرق الأندلس من السلع الضرورية للاستهلاك المحلى، عن طريق البر إلى المغرب وأسبانيا^(١)، وهذا الطريق البرى كان يبدأ من بلاد الأندلس إلى الجزيرة الخضراء أو طريف إلى طنجة عبر مضيق جبل طارق مجتازاً المغرب الأقصى مروراً بسبتة والمغربين الأوسط والأدنى عن طريق تلمسان ووهران والمهدية وتونس والقيروان إلى طرابلس وبرقة حتى الإسكندرية، ومن المغرب فى القوافل إلى السودان وزويلة وغانة^(٢).

أما بالنسبة للطريق البحرى فمن الجدير بالذكر أن التجارة البحرية خضعت منذ أوائل القرن الثانى عشر الميلادى لسيادة المدن الإيطالية البحرية التى غدت مراكز الوساطة الكبرى للتجارة بين الشرق والغرب فيما بين سواحل الأندلس وسواحل الشام^(٣). ومن ثم فقدت البحرية التجارية الإسلامية منذ ذلك الوقت تفوقها فى حوض البحر المتوسط، ومع ذلك فقد كانت المراكب التجارية الإسلامية تساهم بنصيب وافر فى هذا المجال وقد ساعد على نشاط التجارة البحرية فى شرق الأندلس توافر المراسى الهامة كمرسى دانية الذى يقول فيه الإدريسي: «وهى مدينة تسافر إليها السفن... ومنها تخرج إلى أقصى المشرق»^(٤) أو كمرسى قرطاجنة الحلفاء ومراسى جزائر البليار التى تبحر منها السفن التجارية إلى سواحل المغرب^(٥).

(1) Heyd (W), Histoire de commerce du levant au moyen age, t. I, Amsterdam, 1959, p. 48.

(٢) راجع: ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيد الله)، المسالك والممالك، تحقيق دى غويه، بريل ١٨٨٩، مكتبة المتنى ببغداد، ص ١٥٤.

(٣) راجع: أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارة فى حوض البحر المتوسط، ص ٣٩٣؛ السيد عبد العزيز سالم، البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس، ص .

(٤) الإدريسي، صفة المغرب، ص ١٩٢.

(5) Lévi - Provençal, op.cit., p. 193;

وانظر أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس، ص .

٢ - حركة المصادر والوارد:

أ- التجارة الداخلية :

قامت التجارة الداخلية على أساس تبادل المنتجات الزراعية والصناعية بين مدن شرق الأندلس وقواعد الأندلس الأخرى، وقد ساعد على نشاط حركة التجارة الداخلية مع إقليم شرق الأندلس في عصر الموحدين أن معظم مدنه كانت عامرة بالتجارات، وأعظمها مدينة بلنسية التي يشير الإدريسي إلى أنها كانت « عامرة القطر كثيرة التجار والعمار، وبها أسواق وتجارات وحط وأقلاع بينها وبين البحر ثلاثة أميال »^(١). وفي بلنسية يقول العذري : « قد استعمل أكثر تجارها لأنفسهم أسباب الراحة والفرج ولا تكاد تجد فيها من يستطيع على شيء من دنياه إلا وقد اتخذ عند نفسه مغنية وأكثر من ذلك... »^(٢). كما كانت مرسية على حد قول الحميري ذات « حمامات وأسواق عامرة، وهي راحية أكثر الدهر رخيصة الفواكه كثيرة الشجر والأعشاب وأصناف الثمار »^(٣). أما دانية، فكانت أيضاً « على البحر عامرة حسنة لها ريض... والسفن واردة عليها هادرة عنها »^(٤). وكانت قرطاجة الحلفاء فرضة مرسية « كثيرة الخصب والرخاء المتتابع.... ولها إقليم يسمى الفندون وقليل ما يوجد مثله في طيب الأرض وعدوبة الماء »^(٥)، أما لقنت فكانت « مدينة عامرة... ويتجهز منها بالحلفاء إلى جميع بلاد البحر »^(٦). وكانت لورقة من أعظم مدن شرق الأندلس وأكثرها نشاطاً في التجارة البحرية، « وكانت تتوفر بها معادن مغرة تحمل إلى كثير من الأقطار »^(٧). وكانت أوريولة مدينة ذات « رخاء شامل وأسواق وضياح »^(٨). وكانت بريانة الواقعة بالقرب من عقبة أنيسة (إقليم بلنسية) « مدينة جليلة عامرة كثيرة الخصب والأشجار والكروم »^(٩). وفي شاطبة يقول العذري : « وفيها يتجهز التجار بالأمتعة إلى غانة وبلاد السودان وإلى جميع بلاد المغرب »^(١٠).

ازدهرت التجارة الداخلية في شرق الأندلس في عصر الموحدين وشجع على ذلك تنوع الثروات الزراعية والصناعية في كل صقع من الأندلس الأمر الذي ساعد

(١) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩١.

(٢) العذري، المصدر السابق، ص ١٨.

(٣) الحميري، المصدر السابق، ص ١٨٢.

(٤) نفس المصدر، ص ٧٦.

(٥) نفس المصدر، ص ١٥١.

(٦) نفس المصدر، ص ١٧٠.

(٧) الحميري، المصدر السابق، ص ١٧١.

(٨) نفس المصدر، ص ٣٤.

(٩) نفس المصدر، ص ٤٤.

(١٠) العذري، المصدر السابق، ص ١٩.

على وجود تكامل اقتصادى بين مختلف مدنه.

أما المنتجات الزراعية والصناعية التي كانت تصدرها مدن شرق الأندلس إلى مختلف قواعد الأندلس فهي على النحو الآتى: من بلنسية كان يحمل الأرز إلى جميع مدن الأندلس^(١)، ومن شاطبة الكاغد الجيد ويحمل منها إلى سائر بلاد الأندلس^(٢)، ومن بكيران، كانت تحمل الثياب البيضاء إلى مدن الأندلس^(٣)، ومن لقنت الحلفاء^(٤)، ومن جنجاله الأوطية الصوفية^(٥)، ومن لورقة معادن تربة صفراء ومعادن مفررة^(٦)، ومن مرسية الأسرّة المرصعة والحصر الفتانة الصفة وآلات الصقر والحديد من السكاكين والأقاص المذهبة^(٧).

وكانت منطقة شرق الأندلس تستورد من المدن الأندلسية الأخرى فى مقابل ذلك القطن والعصفر من أشبيلية^(٨). وجلد النسر العجيب من الجزيرة الخضراء^(٩)، والمراسى الحديدية من شلطيّش^(١٠)، والعزفران من مدينة وادى الحجارة^(١١)، والغضار المذهب من قلعة أيوب^(١٢)، والزبيب الشاطبي من قرية شاط (عمل مالقة)^(١٣)، والقصاع والمخابى والأطباق الخشبية من حصن قيشانة (عمل جيان)^(١٤)، والحديد من فرنجولش^(١٥)، ومعادن الزئبق من حصن أبال (شمال قرطبة)^(١٦).

-
- (١) نفس المصدر، ص ١٩١.
 - (٢) ياقوت الحموى، معجم البلدان، المجلد الخامس، ص ٢١٤.
 - (٣) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩٢.
 - (٤) نفس المصدر، ص ١٩٣.
 - (٥) نفس المصدر، ص ١٩٥.
 - (٦) نفس المصدر، ص ١٩٦.
 - (٧) المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ص ١٨٦، ج ٤، ص ٢٠٧.
 - (٨) العذري، المصدر السابق، ص ٩٦.
 - (٩) العذري، المصدر السابق، ص ١٢٠.
 - (١٠) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٧٩.
 - (١١) نفس المصدر، ص ١٨٩.
 - (١٢) نفس المصدر والصفحة.
 - (١٣) نفس المصدر، ص ١٩٩.
 - (١٤) نفس المصدر، ص ٢٠٣.
 - (١٥) نفس المصدر، ص ٢١٣.
 - (١٦) نفس المصدر، ص ٢١٣.

ب- التجارة الخارجية :

سبق القول أن المدن الإيطالية البحرية كانت منذ أوائل القرن الثاني عشر الميلادى، تقوم بدور الوساطة التجارية بين الشرق والغرب، فمن طريقها كانت منتجات الأندلس الصناعية تحمل إلى المشرق، وإليه كانت ترسو بمراسى شرق الأندلس مشحونة بالسلع الشرقية التى كانت تحتاجها الأندلس، وبذلك نشطت موانئ شرق الأندلس بحركة السفن التجارية التى ترد عليها، فكانت بلنسية تصدر إلى أقطار المغرب أنواعاً شتى من التجارات من أهمها النسيج البلنسى^(١)، والزعفران والقرمز الذى يوجد فى أرضها ويحمل إلى الآفاق^(٢)، وكانت شاطبة تصدر الكاغد الذى لا يوجد له نظير بمعمور الأرض وبعم المشارق والمغرب^(٣)، ومنها يتجهز التجار بالأمتعة إلى غانة وبلاد السودان وإلى جميع بلاد المغرب^(٤)، وكانت مرسية تصدر إلى بلاد أفريقية والمغرب وغيرها آلات الصفر والحديد من السكاكين والأقراص الذهبية وغير ذلك من آلات العروس والجندي ما يبهز العقل^(٥)، وكذلك البسط التنتلية التى تسفر لبلاد الشرق^(٦)، وهى بسط تنسب إلى تنتالة أو جنجالة من عمل مرسية، وكان يغالى فى ثمنها بالمشرق^(٧)، وكانت لورقة تصدر معادن تربة صفراء ومعادن مغرة تحمل إلى كثير من الأقطار^(٨)، كما كانت لقنت تجهز الحلفاء وتصدره إلى جميع بلاد البحر المتوسط^(٩).

أما عن واردات شرق الأندلس الخارجية فقد أجملتها المصادر العربية فكانت الأندلس تستورد من صقلية الثياب المقصورة الجيدة، ومن أفريقية الزيت والفسق

(١) المقرئ، المصدر السابق، ج٤، ص ٢٠٧.

(٢) البكري، جغرافية الأندلس وأوروبا، ص ١٢٧، ص ١٣٩؛ المقرئ، المصدر السابق، ج١، ص ١٦٨؛ وراجع أيضاً:

Montavez (Pedro Martinez), Islam Cristiandad en la economia mediterranea de la baja edad media (XIII), Congress International de ciencias historicos, Mosco, 1970, p. 45.

(٣) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩٢؛ راجع أيضاً: ياقوت الحموي، المصدر السابق، مجلد ٢، ص ٢١٤؛ المقرئ، المصدر السابق، ج١، ص ١٥٦.

(٤) العنزي، المصدر السابق، ص ١٩.

(٥) المقرئ، المصدر السابق، ج١، ص ١٨٧؛ وراجع أيضاً: حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ٢٨٩.

(٦) المقرئ، نفس المصدر، ج٤، ص ٢٠٧.

(٧) نفس المصدر، ج١، ص ١٨٧.

(٨) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩٦.

(٩) نفس المصدر، ص ١٩٣.

واللوز والبرقوق والمزاد والأنطاع والقرب، ومن فاس التمور وغيره^(١)، ومن الهند المسك والكافور والعود^(٢).

وصفوة القول أن عناية الخلفاء الموحدون بالتجارة وحرصهم على تبادلها وتحسين طرقها البرية والبحرية وسعيهم الدائم إلى نشر الأمن في ربوع شرق الأندلس ووضع حد للحركات الثورية، كان له أكبر الأثر في تنشيط التجارة الداخلية والخارجية في مراسى الأندلس بصفة عامة وشرقه بوجه خاص.

رابعاً - التنظيمات الاقتصادية

١ - الأسواق والقيساريات والفنادق :

اشتهرت مدن شرق الأندلس بأسواقها العامرة وتجارتها الزاهرة فجميع المصادر الجغرافية تشير إلى تألق عمران مدن شرق الأندلس ورخائها بالأسواق والمتاجر^(٣)، والفنادق، وقد اختصت بعض مدنها بكثرة انتاجها الزراعى كالزيتون والفواكه والفلال، وأخرى بوفرة إنتاجها الصناعى كالمنسوجات والبسط والحصر والفضار المذهب والصابون واستخراج الزيت وصناعة آلات الصفر والحديد من السكاكين والأمقاص وما إليها، ولذلك تقدمت الأسواق في مدن الأندلس من ذلك أن مدينة لورقة كانت تتميز بأسواقها المتعددة، فالحميرى يذكر أن «بها أسواق وريض في أسفل المدينة، وعلى الريض سور وفي الريض السوق»^(٤)، وكانت بشقر وبلنسية أسواق وفنادق^(٥).

وكانت الأسواق تمتد عادة حول المساجد الجامعة، وكانت البضائع القيمة والسلع تباع في بناء كبير مستطيل الشكل بداخله دروب ضيقة تتوزع فيها الحوانيت على كلا جانبيها. وكان يطلق على هذه الأبنية اسم قيساريات، وهى كلمة يونانية معربة وتعنى السوق القيصرى التابع للدولة^(٦). وكانت لبلنسية قيسارية في النصف الثانى من القرن الثانى عشر^(٧). وكانت القيسارية بوجه عام تضم أسواقاً منها سوق الثياب وسوق الخياطيين والصباغين والسقاطين وسوق الصاغة. أما العطارين فكان سوقاً

(١) راجع: المقدسى (المعروف بالبشارى)، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، الطبعة الثانية، نشر De Goeye، ليدن، ١٩٠٦، ص ٢٣٧.

(٢) المقرئ، المصدر السابق، جـ ١، ص ١٣٩ (نقلا عن المسعودى).

(٣) راجع: العزرى، المصدر السابق، ص ١٧، الإدريسى، صفة المغرب، ص ٢٠٨، الحميرى، المصدر السابق، ص ١٧١.

(٤) الحميرى، نفس المصدر، ص ١٧١.

(٥) نفس المصدر، ص ٤٧، ص ١٠٣.

(٦) السيد عبد العزيز سالم، العمارة المدنية بالأندلس، مقال بدائرة معارف الشعب، العدد ٦٤، ص ١٤٥.

(٧) راجع: ابن الأبار، التكملة، ترجمة ١٤٣٤ لعبد الله بن إبراهيم بن الحسن بن منتبىال الوراق، وانظر أيضاً: Torres Balbas (L), Ciudades Hispano - Musulmanas, t. I, p. 347.

قائمة بذاتها تقام عادة قريباً من المسجد الجامع، كما كانت هناك أسواقاً للخشابين أو النجارين وأسواقاً للأطعمة المتعددة وما إلى ذلك.

أما الفنادق فقد كانت تكثر في موانئ شرق الأندلس لتيسير نزول التجار القادمين من وراء البحار، ويشغل الفندق في مدن شرق الأندلس مكانة هامة في العمران الاقتصادي، ولذلك كانت الفنادق تكثر عادة في أهم المراكز العمرانية بالمدينة حيث تزداد كثافة السكان، وقد بلغت من الكثرة في الموانئ التجارية حداً لا يمكن أن نتصوره في غير موانئ الأندلس، فالمرية كان بها في النصف الأول من القرن الثاني عشر ما يقرب من ٩٧٠ فندقاً^(١).

٢- النظام النقدي:

كانت العملات في العصر الوسيط القاعدة الأساسية للتعامل بين الأفراد والأهم في البيع والشراء، ولذلك كانت لها أهمية اقتصادية كبيرة في التبادل التجاري.

كانت عملات الأندلس قبل عهد عبد الرحمن الأوسط تخضع للنظام الأموي في المشرق الإسلامي، فكانت تحمل اسم الخليفة الأموي وتاريخ الضرب والموضع الذي ضربت فيه دون الإشارة إلى أسماء أمراء بني أمية في الأندلس، نقشت بحروف كوفية^(٢).

وعندما تقلد عبد الرحمن الأوسط الإمارة بقرطبة أحدث دار السكة بقرطبة، وضرب الدراهم باسمه لأول مرة منذ أن دخل المسلمون الأندلس^(٣). وفي سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م أجرى الخليفة عبد الرحمن الناصر تغييراً في العملة، فأمر بإثبات عبارة الناصر لدين الله أمير المؤمنين في دنانيره ودراهمه، واتخذ دار السكة في قرطبة، وعند اكتمال بناء مدينة الزهراء نقل دار السكة إليها وعظمتها في قرطبة^(٤). وقد أورد

(١) الإدريسي، صفة المغرب، ص ١٩٨؛ الحميري، المصدر السابق، ص ١٨٤.

(٢) راجع: Casto Ma del Rivero, La moneda Arabigo Espanola, Madrid, 1933, p. 4؛ وانظر أيضاً: ناصر السيد محمود النقشبندی، الدينار الإسلامي في المتحف العراقي، الجزء الأول، بغداد ١٩٥٣، ص ١١، ص ٢٧.

(٣) راجع: ابن القرطبي (أبو بكر محمد القرطبي)، تاريخ افتتاح الأندلس، نشره خوليان ريبيرا بعنوان: Historia de la conquista Espana، مدريد، ١٩٢٦، ص ٦٢، ابن سعيد المغربي، المغرب، ج ١، ص ٤٦؛ السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ج ١، ص ٥٦.

(٤) راجع: ابن حيان، المقتبس، الجزء الخامس، تحقيق بدر شالميتا وآخرين، مدريد، ١٩٧٩، ص ٤١٢؛ وراجع أيضاً: نص الخطاب الذي وجهه الخليفة الناصر بهذه المناسبة في: ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ١٩٨، ص ١٩٩؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ص ٣٠؛ الحلال الموشية، ص ١٨-١٩، وعن انتقال دار السكة إلى الزهراء، انظر: ابن حيان، نفس المصدر، ص ٢٤٤؛ ابن عذاري، نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٢١؛

Francisco Codera y Zaidin, Titulos y nombres propios en las monedas Arabigo - Espanolas, Madrid, 1878, p. 56.

ابن حيان نصاً عن الرازي يفهم منه أن ضرب النقود كان معطلاً في الأندلس قبل الناصر بدهر^(١)، ولعل ذلك يرجع إلى الاضطرابات السياسية التي سادت الأندلس خاصة في عهد الأمير عبد الله، ثم استمرت العملات تضرب في الأندلس حتى انتهاء رسم الخلافة الأموية سنة ٤٢٢هـ.

وكان من الطبيعي أن تتشابه عملات عصر الطوائف في المرحلة الأولى مع عملات الخلافة الأموية، ولكن هذه العملات لم تلبث قرب أواخر عصر الطوائف أن اتسمت بسمات جديدة تختلف مع عملات الأمويين كل الاختلاف^(٢)، وإن كان أغلب العملات التي وصلتنا من عصر الطوائف فلوساً نحاسية وهذا لا ينفي وجود عملات ذهبية وفضية ولكن بكميات قليلة^(٣).

وفي عصر المرابطين استحدث نظام نقدي يختلف عن النظام النقدي العربي لا سيما ما يتعلق بالدرهم، أما فيما يتعلق بالعملات الذهبية فلاختلاف لا يكاد يلحظ، وقد أطلق على الدينار زمن المرابطين بالمرابطي^(٤)، أما النقش الكتابي على وجهي العملة، فبجانب أسماء الله وتحميده والصلاة على نبيه، نقش اسم الخليفة العباسي، وأمير المسلمين المرابطي^(٥)، ولم تقتصر العملات المرابطية على الدينار والدرهم، وإنما ضربوا بسبب الرخاء الاقتصادي الذي ساد دولتهم^(٦) وتسهيلاً للمعاملات التجارية في خارج دولتهم عملات من فئة نصف الدرهم وربعه وثلثه و ١ منه، وكانت هذه العملة الأخيرة تسمى خروبة (بالأسبانية Algorroba)^(٧)، واستمر النقش بالخط الكوفي السمة الغالبة على عملات المرابطين لما تتميز به حروفه من الجمال والرشاقة^(٨).

(١) ابن حيان، نفس المصدر، ج ٥، ص ٢٤٣.

(2) Antoni Vives y Escudero, Monedas de las dinastías Arabigo - Españolas, Madrid, 1898, p. 32

(3) Codera y Zaidin, op.cit., p. 4; Casto, M^a del Rivero, op.cit., pp. 22-24.

Vives y Escudero, op.cit, p. 7; Casto M^a del Rivero, (من المقدمة)،
Ibid, p. 32.

(٥) راجع: ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ٨٨؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٤، ص ٣٥٠.

(٦) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٠٨؛ وانظر أيضاً: حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧، ص ٤١٢.

(٧) راجع: المراكشي، المعكب، ص ٢٠٧؛ وانظر أيضاً:

Francisco Codera, Decadencia, p. 22;

وعن أنواع ومعايير العملة المرابطية راجع:

Vives y Escudero, op.cit., p. 71; Calve y C.M. del Rivero, Catalogo sumario del museo orqueologico nacional, Madrid, 1926, pp. 187-188.

(8) Codera, Ibid, p. 220.

(أ) عملات شرق الأندلس (إمارة كل من ابن هود وعبد الله بن عياض ومحمد ابن محمد بن مردنيش):

كانت إمارة مرسية من أهم الإمارات التي استقلت عقب انهيار الدولة المرابطية، وقد تعاقب على رياستها، كل من أحمد سيف الدولة بن هود، والأمير عبد الله بن عياض، والرئيس عبد الله بن فرج، وقد وصلت إلينا عملات لكل هؤلاء الأمراء سكت بأسمائهم ولا تختلف هذه العملات عن العملات المرابطية سوى في الألقاب واسم الأمير المستقل، وكانت دار السكة قائمة بمرسيه باعتبارها المركز الرئيسي لإمارة شرق الأندلس، وسنكتفي بذكر أمثلة لبعض العملات التي عثر عليها ووردت في مصنفات النقود الأندلسية، وفيما يلي عرض لها:

(١) دينار باسم أحمد بن هود، ضرب بمرسيه عام ٥٤٠هـ:

نقش على الوجه	نقش على الظهر
لا إله إلا الله	الإمام
محمد رسول الله	عبد
الأمير المستنصر	الله
بالله أحمد بن هود	أمير المؤمنين

(٢) دينار باسم الأمير عبد الله بن عياض، ضرب بمرسيه عام ٥٤٠هـ:

ويدور حول حافة الوجه:	ويدور حول حافة الظهر:
ومن يبتغ غير الإسلام ديناً	بسم الله الرحمن الرحيم
فلن يقبل منه وهو في الآخرة	ضرب هذا الدينار بمرسيه
من الخاسرين	أربعين وخمس مائة (١)

(٣) دينار باسم الرئيس عبد الله بن فرج، ضرب بمرسيه عام ٥٤١هـ:

نقش على الوجه	نقش على الظهر
لا إله إلا الله	الإمام
محمد رسول الله	عبد الله
الأمير عبد الله بن عياض	أمير المؤمنين

(1) Vives y Escudero, op.cit., p. 320, No. 1920.

نقش حول حافة الظهر بمدينة مرسية سنة إحدى وأربعين وخمسة مائة (١)

(٤) دينار باسم الأمير عبد الله بن عياض (توليته للمرة الثانية)، ضرب بمرسية عام ٥٤١هـ

ويدور حول حافة الوجه: ويدور حول حافة الظهر:

ومن يبتغ غير الإسلام ديناً	بسم الله الرحمن الرحيم
فلن يقبل منه وهو في الآخرة	ضرب هذا الدينار بمدينة
من الخاسرين	مرسية سنة أربعين وخمسة
	مائة (٢)

نقش حول حافة الظهر : بمرسية سنة إحدى وأربعين وخمسة مائة (٣)

ويلاحظ أن النقوش الكتابية على العملات السابقة تتشابه تماماً مع عملات المرابطين ففيها نلاحظ استمرار تبعية الأمراء المستقلين بمرسية روحاً للخلافة العباسية، ولا تختلف هذه العملات بشرق الأندلس عن العملات إلا في استبدال الأمير المرابطي باسم الأمير المستقل بإمارة مرسية، كما يلاحظ أن نقوش محيط الحافة تقتصر فقط على ذكر موضع السكة وتاريخ السك منقوشاً على ظهر العملة. وقد أعانتنا العملات التي عثر عليها لهذه الفترة في تسليط مزيد من الضوء على الغموض الذي يحيط بهذه الفترة القصيرة المعقدة الغامضة التي تبعت سقوط دولة المرابطين إلى قيام محمد بن سعد بن مردنيش بتولي السلطة في إمارة مرسية زهاء خمس وعشرين عاماً.

ظلت إمارة شرق الأندلس تحت سلطة ابن عياض إلى أن توفي، وتولى السلطة بعده محمد بن سعد بن مردنيش، وقد عثر على عملات متعددة يرجع تاريخها إلى عهده وتتبع نفس أسلوب عملات من سبقه على إمارة مرسية، نقش عليها اسمه الأمير محمد بن سعد. وقد تمكنا بفضل ما وصلنا من هذه العملات التوصل إلى معرفة دار السكة بهذه الإمارة والتاريخ الذي سكّت فيه عملات ابن سعد، وقد اتضح من نقوش هذه العملات أن هناك دارين للسكة في إمارة شرق الأندلس هما مدينتا مرسية وبلنسية، ولكن دار السكة بمرسية كانت دار السكة الرئيسية، فقد عثر على عملات ضربت بمرسية بدون انقطاع من سنة ٥٤٢هـ إلى سنة ٥٦٦هـ، أما عملات بلنسية التي وصلت إلينا فتؤرخ ما بين سنة ٥٤٤هـ، سنة ٥٤٦هـ، سنة ٥٤٨هـ، سنة ٥٥٠هـ، كذلك نستدل من نقوش هذه العملات أن تعديلاً هاماً طرأ في النقوش الكتابية في العملة الذهبية فمن الملاحظ أنه ابتداء من سنة ٥٤٧هـ

(1) Ibid, p. 322, No. 1926.

(2) Vives y Escudero, op.cit., p. 323, No. 1928.

(3) Ibid, p. 323, No. 1929.

أضيف إلى وجه العملة عبارة «يعتصم بحبل الله»، كما أضيف إلى اسم محمد بن سعد كنيته (أبو عبد الله)، أما اسم ولقب الإمام العباسي فقد اختصر في ظهر العملة على النحو التالي:

النقش في العملات السابقة	نقش على الظهر
الإمام أبو عبد الله محمد المقتفى لأمر الله أمير المؤمنين العباسي	الإمام عبد الله العباسي (١)

ولعل هذا التغيير قد حدث نتيجة للظروف السياسية التي مرت بها إمارة شرق الأندلس إبان صراعها مع الخلافة الموحدية، ولعل ابن سعد أراد في البداية أن يتقرب أكثر إلى الخلافة بتمجيد الخليفة العباسي ضمناً لالتفاف أهل هذه المنطقة حوله ولإضفاء الصفة الدينية والشرعية على إمارته، فنقش اسم الخليفة العباسي وكنيته كاملاً ولكنه عندما أحس بتفوق قوة الموحدين على قوته واشتداد الضغط الموحدي على منطقة شرق الأندلس واستشعر بحتمية خضوع إمارته للموحدين اكتفى بذكر اسم الخليفة العباسي مجرداً من كنيته، كما نلاحظ أنه بدأ يظهر على وجه العملة ابتداء من سنة ٥٦٤هـ نقش كتابي يحمل اسم ولقب ولّى عهده هلال (٢). ونلاحظ أن العملات الفضية «القراريط» التي ترجع إلى عهد ابن مردنيش فتختلف بشكل واضح عن العملة القبطية سواء من حيث الوزن أو المقياس (٣). أما العملات النحاسية أو الدراهم فنادرة ذلك أنه لم يصلنا منها كاملاً سوى درهم واحد، أما باقي الدراهم فقد عثر على أجزاء منها بعضها قد محيت نقوشه، ولكن يمكننا الاستدلال منها أن دار السكة هي مرسية، وأن ما ضرب منها بدار السكة ببلنسية يعد نادراً (٤).

وفيما يلي عرض لبعض العملات الذهبية والفضية والنحاسية من عهد ابن مردنيش:

(١) دينار باسم محمد بن سعد ضرب بمرسيه في عام ٥٤٣هـ

نقش على الوجه	نقش على الظهر
الله لا إله إلا الله محمد رسول الله الأمير محمد بن سعد	الإمام عبد الله أمير المؤمنين

(1) Vives y Escudero, op.cit., p. 76.

(2) Ibid, p. 70.

(3) Ibid, p. 77.

(4) Vives y Escudero, op.cit., p. 77.

نقش على دائرة الظهر:

بسم الله الرحمن الرحيم
ضرب هذا الدينار بمرسيه سنة
ثلاثة وأربعين وخمسمائة (١)

(٢) درهم من الفضة عيار ٦٥، جرام لا تحمل اسم دار السكة

نقش على الظهر
الأمير
محمد بن سعد
ولى عهده هلال (٢)

نقش على الوجه
الله
لا إله إلا الله محمد
رسول الله

(٣) درهم من النحاس باسم محمد بن سعد، دار السكة مرسية عام ٥٥٦هـ

نقش على الظهر
حسبى الله
فوضت أمري إلى الله تعالى
نقش على الظهر
بسم الله ضرب هذا الدهم
بمرسية سنة ست وخمسين
 وخمس مائة (٢)

نقش على الوجه
لا إله إلا الله
محمد رسول الله
الأمير أبو عبد الله محمد
بن سعد
أيده الله

كما عثر في عام ١٩٥٠ في بوسات Busat (لقنت) على دينار لمحمد ابن سعد
أمير شرق الأندلس يحمل تاريخ سنة ٥٥١هـ (٤).

(ب) العملة الموحدية:

غير الموحدون نظام العملة تغييراً تاماً في كل مظاهرها، في الوزن والحجم
والنقوش الكتابية، وحتى في شكل العملة نفسها، فاتخذت عملاتهم الفضية الشكل
المربع، أما العملات الذهبية فعلى الرغم من استدارتها إلا أننا نلاحظ أنه يتوسط العملة

(1) Casto Ma del Rivero , op.cit., pp. 166-167., No. 123.

(2) Vives y Escudero, op.cit., p. 330, No. 1972.

(3) Vives y Escudero, op.cit., p. 330, No. 1973.

(4) Felip Mateu y Llopio, Hallazgos numismaticos musulmana, (IV) Al-Andalus, Fasc I, 1951, p. 207.

المستديرة مربع نقشت فيه الكتابات الرئيسية، كما نقشت كتابات أخرى خارج دابر المربع في أركانها الأربعة^(١)، وتؤكد المصادر العربية هذا التغيير الذي أقدم عليه الموحدون في نظام العملة واتجاههم إلى تربيعةها من ذلك ما أورده ابن خلدون بقوله «ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سنه لهم المهدي اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل، وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه، ويملاً من أحد الجانبين تهليلاً وتحميذاً، ومن الجانب الآخر كتب في السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده، ففعل ذلك الموحدون، كانت سكتهم على هذا الشكل لهذا العهد ولقد كان المهدي مما ينقل ينعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربع نعتة بذلك المتكلمون بالحدثان من قبله»^(٢). ويقول صاحب الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة: «وكانت الدراهم قبل ظهور الدولة الموحدية كلها مدورة، فأمر المهدي أن تكون دراهمه مربعة، فكانت كذلك»^(٣). وبالإضافة إلى تغيير شكل العملة استبدل الموحدون في النقوش الكتابية على العملة الخط الكوفي بالخط النسخي^(٤). كما أبطل الموحدون عادة تسجيل تاريخ سك العملة، ومحل الضرب، وإذا ظهر في عملاتهم فإنه ينقش في مكان ثانوي أدنى الوجه، أو في ظهر العملة منقوشاً بحروف صغيرة^(٥).

أما عن دور السكة الموحدية فقد تعددت في المغرب، ومن الجدير بالملاحظة أن عملات الموحدين حتى عام ٥٦٨هـ لم تكن تحمل اسم أي من داري السكة بمرسيه أو بلنسية ويرجع ذلك إلى أن نفوذ الموحدين لم يكن قد امتد بعد إلى شرق الأندلس، على أننا بدأنا نلاحظ أن اسم دور السكة في مدينة بلنسية ومرسيه ودانية أخذ يظهر بعد وفاة ابن مردنيش.

وكان الدينار الموحدى ضعف الدينار العادى، ولذلك عرف في المصادر الأسبانية باسم Dobra غير أن الموحدين لم يلبثوا في عهد أبي يوسف المنصور أن ضربوا نصف دينار موحدى يزن ديناراً عادياً عرف في المصادر الأسبانية باسم نصف دبله Media do-bla، كذلك ضرب الموحدون ربع الدينار المعروف عند النصارى الأسبان باسم ربع دبله Cuarta dobra أما فيما يتعلق بعيار هذه العملات الموحدية فيمكننا أن نجعلها فيما يلي :

(1) Codera y Zaidin, op.cit., p. 5; Vives y Escudero, op.cit., p. 80; Casto Ma del rivero, op.cit., p. 51; Catalogo sumario del museo arqueologico Nacional , p. 188.

(٢) ابن خلدون، العبر، المجلد الأول، ص ٤٦٤-٤٦٥؛ وانظر أيضاً: ابن أبي زرع، روض القوطاس، ص ١٦٧-١٦٨؛ المنونى، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص ٢٥٨.

(٣) أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، مطبوعات المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٠، ص ٥٠.

(4) Casto Ma del Rivero, op.cit., p. 50.

(5) Ibid, p. 50.

أ- العملات الذهبية:

- ١ - الدينار الموحدى Dobra عياره يتراوح ما بين ٤,٤٨ و ٤,٧٠ جم
- ٢ - نصف الدينار Media dobra عياره ٢,٣٢ جم
- ٣ - ربع الدينار Cuarta dobra عياره ١,١٤ جم

ب- العملات الفضية:

- ١ - الدرهم يتراوح عياره ما بين ١,٥٠ ، ١,٥٥ جرام
 - ٢ - نصف الدرهم يتراوح عياره ما بين ٠,٧٥ ، ٠,٧٧ جرام (١)
- ولعل من الضروري إيراد بعض نماذج العملة الموحدة، ثم تتبعها بإيراد بعض العملات التي ضربت في دور السكة بشرق الأندلس.

(١) دينار موحدى باسم الخليفة عبد المؤمن بن علي

نقش على الظهر
بسم الله الرحمن الرحيم
لا إله إلا الله
محمد رسول الله
المهدي إمام الأمة
مــــــــــــــــراکش

نقش على الوجه
القايم بأمر الله
الخليفة أبو محمد عبد
المؤمن بن علي أمير
المؤمنين

نقش على داير الظهر
الأمير الأجل - أبو عبد الله
محمد بن - أمير المؤمنين (٢)

نقش في داير الوجه
والهكم - إله واحد -
لا إله إلا هو
الرحمن الرحيم

(١) راجع عن العملات الموحدة وعيارها ومقاييسها:
(من المقدمة)

Vives y Escudero , op.cit., p. 80.

Casto Ma del Rivero, op.cit., p. 51;

الدوحة المشتبكة ، ص ٥٠ ، هـ ١ ، كما ورد في المصادر العربية ذكر لدرهم منسوب لعبد المؤمن أطلق عليه درهم مؤمنى، راجع: المراكشي، المصدر السابق، ص ٢٣٠.

Vives y Escudero, op.cit., p. 364, No. (1)

(٣) راجع:

(٢) نصف دينار موحدي باسم اخليفة عبد المؤمن بن علي

نقش على الظهر
لا إله إلا الله
محمد رسول الله
المهدي إمام الأمة

نقش على الوجه -
القايم بأمر الله
الخليفة أبو محمد عبد
المؤمن بن علي أمير
المؤمنين

نقش على داير الظهر
أمير المؤمنين - أبو يعقوب
يوسف بن - أمير المؤمنين^(١)

نقش في داير الوجه
والهكم - إله واحد - لا
إله إلا هو
الرحمن الرحيم

(٣) ربع دينار موحدي

نقش على الظهر
لا إله إلا الله
محمد رسول الله
المهدي إمام الأمة

نقش على الوجه
المهدي خليفة الله
أمير المؤمنين أبو
محمد بن علي

نقش على داير الظهر
أمير المؤمنين - أبو يعقوب -
يوسف بن - أمير المؤمنين^(٢)

نقش على داير الوجه
أمير المؤمنين - الوائق -
المعتمد - أبو العلي

(٤) درهم موحدي

نقش على الظهر
لا إله إلا الله
الأمر كله لله
لا قوة إلا بالله^(٣)

نقش على الوجه
الله ربنا
محمد رسولنا
المهدي إمامنا

(1) Vives y Escudero, op.cit., p. 349, No. 2069.

(2) Ibid, p. 354, No. 2085.

(3) Ibid, p. 355, No. 2088.

ومن الجدير بالملاحظة أن معظم العملات التي ضربت في شرق الأندلس ووصلتنا نماذج منها فضية من الدراهم وأنصاف الدراهم وتحمل دور السكة بيلنسية (١) وميورقة (٢) ومرسيه (٣) ودانية (٤)

وقد استمر نظام العملة الموحدة على هذا النحو إلى أن تولى إدريس المأمون بن يعقوب المنصور الموحدي الخلافة فأمر بإسقاط المهدي من الدنانير والدراهم ودور الدراهم المركنة الموحدة (٥)، ولكن ابنه وخليفته الرشيد أعاد رسوم المهدي التي كان قد أزالها أبوه (٦).

جـ - عملات عصر طوائف ما بعد الموحدين بشرق الأندلس:

. كانت إمارة مرسيه من أهم الإمارات الأندلسية التي خرجت عن السيطرة الموحدة بزعماء المتوكل على الله محمد بن يوسف بن هود وولده الوائلي، وقد وصلتنا من هذا العهد عملات تحمل اسم الأميرين المذكورين، ومن بينها دينار، ونصف دينار، وقطعتين فئة ربع الدينار طابعها موحدي مع اختلاف جذري في النقوش الكتابية، فقد أسقط اسم المهدي وحل محله الخليفة العباسي، وخلا الدابر بوجهي العملة في أغلبه من النقوش الكتابية، في حين احتفظ بتاريخ المكان الذي ضربت فيه (٧).

كذلك وصلت إلينا مجموعة من الدراهم وأنصاف الدراهم ذات الطابع الموحدي سواء من حيث الشكل أو النقش باستثناء إقاط اسم المهدي وإحلال اسم الخليفة العباسي مكانه، ولقب أمير المسلمين (٨).

وفيما يلي نماذج من عملات هذا العصر:

(1) Vives y Escudero, op.cit., p. 356, No. 2090.

(2) Ibid, p. 356, No. 2093.

(3) Ibid, p. 357, No. 2096.

(4) Ibid, p. 356, No. 2094

(٥) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص ١٦٧-١٦٨؛ وانظر أيضاً: ابن خلدون، العبر، المجلد السادس، ص ٥٣٠.

(٦) ابن خلدون، نفس المصدر، المجلد السادس، ص ٥٣٣.

(٧) (من المقدمة) Vives y Escudero, op.cit., p. 84

(8) Casto M^a del Rivero, op.cit., p. 58.

(١) نصف دينار:

نقش على الظهر
لا إله إلا الله محمد رسول الله
الأمر كله لله لا قوة إلا بالله
وفي داير الظهر
لا إله إلا الله محمد رسول الله
ال خليفة العباسي إمام الأمة^(١)

نقش على الوجه
المتوكل على الله أمير المسلمين
محمد بن يوسف بن هود
وفي داير هذا الوجه
بسم الله الرحمن الرحيم صلى
الله على محمد وعلى آله وسلم
تسليماً

(٢) نصف درهم يحمل اسم دار السكة (شاطبة)^(٢).

(٣) درهم يحمل اسم دار السكة (مرسيه)^(٣)

(٤) نصف دينار

نقش على الظهر
الوائق بالله المعتصم به
أمير المسلمين محمد
ابن محمد بن هود

نقش على الوجه
لا إله إلا الله
محمد رسول الله
الأمر كله لله لا قوة إلا بالله

وفي داير الظهر
القايم بدعوة الخليفة العباسي
أمير المؤمنين إمام الأمة^(٤)

وفي داير هذا الوجه
بسم الله الرحمن الرحيم صلى
الله على محمد وعلى آله وسلم تسليماً

(٥) نصف درهم

وفي داير الظهر
الوائق بالله المعتصم به أمير المسلمين
نقش في داير الظهر
مرسيه^(٥)

وفي داير هذا الوجه
الحمد لله
رب العالمين

(1) Vives y Escudero, op.cit., p. 364, No. 2131.

(2) Ibid, p. 365, No. 2138.

(3) Ibid, p. 366, No. 2145.

(4) Casto Ma del rivero, op.cit., p. 182, No. 149.

(5) Casto Ma del Rivero, op.cit., p. 183, No. 150.

(٦) درهم

نقش على الظهر
الواثق بالله العتصم به محمد ولي
عهد المسلمين

نقش على الوجه
لا إله إلا الله
محمد رسول الله
الخليفة العباسي
أمير المؤمنين
نقش على داير هذا الوجه

شاطبة^(١)

وفي صيف عام ١٧٨٩، عثر في بلنسية على نحو ستمائة درهم موحدي مربع يظهر بينهما درهماً مربعان تشير نقوشهما الكتابية إلى أنهما تنتسبان إلى جميل بن زيان آخر أمير عربي على بلنسية، وهاتان العمليتان مهمتان لأنهما تعطينا الاسم الكامل لزيان الذي تلقب بالمؤيد بالله، المجاهد في سبيل الله بالإضافة إلى ظهور اسم الخليفة العباسي على العملتين^(٢).

٣- نظام المكايل والموازين

استخدمت أنواع متعددة من المكايل والموازين في شرق الأندلس زمن الموحدين، وفيما يلي عرض لأهم المكايل والموازين:

أولاً- المكايل:

أ- المدة Almod

من المحتمل أن يكون هذا الاصطلاح مشتقاً من الاصطلاح اللاتيني Modius الذي وصل إلى الأندلس عن طريق الممالك المسيحية في رأى أحد المستعربين الأسبان^(٣)، وقد يكون من أصل عربي ودخل في اللغة اللاتينية بدليل أنه كان مستخدماً لدى العرب قبل الإسلام وقد فسر دكتور جواد علي بأنه سمي كذلك لكونه ملء كفى الإنسان المعتدل إذا ملأهما ومدّ يده بهما وبه سمي مدّاً^(٤)، وأياً

(1) Ibid, p. 183, No. 151.

(2) Felipe Mateu y Liopis, Hallazgos numismaticos musulmana (IV) Al-Andalus, Fasc I, 1951, pp. 208-209.

(3) Bermejo (Joaquin Vallvé), Notas de metrologia Hispano - arabe, Medias de Capacidad, Al-Andalus, XL II, 1977, p. 76.

(٢) راجع: جواد علي، تاريخ العرب قبل الاسلام، الجزء الثامن، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٦٠، ص ٤٢٤.

ما كان الأمر فالمد نوعان : الأول، المد الشرعى أو مد النبى ﷺ، والثانى، المد الكبير وهو أربع أضعاف الأول فى الحجم.

ففيما يتعلق بالمد الشرعى (مد النبى ﷺ)، لم يتفق فقهاء المسلمين على تحديد وزنه على وجه الدقة سواء بالدرهم أو بالأوقية أو بالرطل. ولا ينبغي حسب رأيهم أن تتجاوز زنته رطلا ونصف الرطل ولا تقل عن رطل وربيع الرطل^(١)، غير أنه أمكن عن طريق ما أقره فقهاء المسلمين عن المقادير الشرعية لأداء الزكاة تحديد عيار مد النبى برطل وثلاث، ولما كان مد النبى ﷺ قد استعمل فى الأندلس كوحدة مكايل وموازين، فإن عياره بلغ إحدى وعشرين أوقية وثلاث، على أساس أن الرطل ١٦ أوقية، وفى ذلك يشير ابن الجياب نقلا عن كتاب «الجواهر» : «أسند عبد الحق إلى عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال ذكر لى أنه عاير مد النبى ﷺ فوجد رطلا وثلاث رطل فى المد»^(٣).

أما المد الكبير، فكان من المكايل الشائعة فى الأندلس، يساوى صاع النبى ﷺ وعياره أربعة من مد النبى ﷺ، ولما كان مد النبى ﷺ عياره رطل وثلاث، فإن المد الكبير عياره أكثر من خمسة أرطال^(٣).

٢- المدى Almudi

يبلغ عياره اثنى عشر قفيزاً، ويزن ثمانية قناطير، ونستدل مما أورده مؤرخو العرب أن استعماله شاع فى الأندلس فى عصر الدولة الأموية^(٤).

٣- الكيل

شاع استخدامه فى الأندلس لكيل الخبواب وقياس الجوامد والمائعات على السواد وشمل استعماله قياس الأطوال والسعة^(٥)، ومن المعروف أن الكيل كان يتخذ فى

(1) Bermejo (Joaquin Vallvé), Notas de metrologia Hispano - arabe, El codo en la Espana musulmana, Al - Andalus, XLI, 1976, pp. 340 yss.

(2) ابن الجياب (أبو طاهر محمد بن عبد العزيز بن يوسف المرادى)، كتاب التقريب والتيسير لإفادة المبتدئين بصناعة مسوح السطوح، مخطوط الأسكوريال، رقم ٩٢٩، لوحة رقم ٩.

(3) نفس المصدر، لوحة رقم ٨.

(4) ذكر المقرئ هذا النوع من المكايل فى نص أورده يتعلق بمقدار الجباية فى مدينة قرطبة زمن الأمير الحكيم بن هشام، راجع: المقرئ، نفح الطيب، جـ ٢، ص ٧٩؛ كما أورده ابن غالب فى فرحة الأنفس عندما تعرض للذكر النفقات على بنيان مدينة الزهراء زمن الناصر، راجع: ابن غالب، فرحة الأنفس، تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، العدد الأول، ١٩٥٥، ص ٣٠٦.

(5) Bermejo (Joaquin Vallvé), Medidas de capacidad, p. 81.

قرطبة لكيال الدراهم القاسمية (١).

وعن عياره، يذكر ابن الجياب أن عيار القدح أو القنطار كان ست مد كبير وزنتها نحو من ٣٢ رطل، وفي الأندلس طابق القنطار أو القدح مع الكيل (٢).

٤- القسط:

جاء أول ذكر لهذا المقياس في العهد الذي عقده عبد العزيز بن موسى بن نصير مع تدمير بن عبدوس، وأورده العذري ومنها : «أن عليه وعلى أصحابه غرم الجزية، من ذلك على كل حر: دينار وأربعة أمداء من قمح، وأربعة أمداء من شعير، وأربعة أقساط خل، وقسطا غسل، وقسط زيت، وعن كل عبد نصف هذا» (٣) والقسط من المكاييل المعروفة عند العرب قبل الاسلام واستخدم في الأندلس منذ الفتح واستمر استخدامه قائماً في الأندلس طوال العصر الإسلامي (٤)، وكان يتخذ لكيال العسل والزيت وعياره حسبما يذكره السقطي ثلاثة أرتال ونصف إذا كان عيار الربرة ٢٨ رطلا (٥) ومن الواضح أن القسط كان مقياساً كبيراً للسوائل.

٥- الثمن Azumbre

يبدو شائعاً في المصادر الأندلسية كلمة الثمن أو ثمن لتحديد ثمن المعيار أو الوزن، فحسب ابن عبدون، «الثمن من ثمن ونصف، وكذا كان فيما تقدم ولا يباع بكيال الزيت» (٦). ويضيف ابن عبدون في مكان آخر، أن جرة الزيت يجب أن يكون عيارها اثني عشر ثمناً (٧). وتعادل الاثنى عشرة ثمناً ربعه ونصف وعلى ذلك تزن الجرة أربعين رطلا ونصف، وفي وجوب اتباع وزن جرة الزيت يقول ابن عبدون : «يجب أن تكون القلة (من الزيت) من اثني عشر ثمناً فإن ما يعمل منها الآن هي صغيرة وتكون وافرة الثقب» (٨). أما السقطي فيزودنا بحقائق مشوقة تتعلق بالثمن فيذكر أن الثمن الشائع في مالقة من الربرة من العمل الأندلسي وذو النوعية الطيبة يزن ثلاث أرتال ونصف (٩).

(١) راجع استخدام هذا الاصطلاح في نص لابن عذارى أورده بمناسبة ذكر ما أنفقه الناصر في بنين صومعة جامع قرطبة وفي بناء مدينة الزهراء؛ البيان المغرب، ج٢، ص ٢٣٠-٢٣١.

(٢) انظر : ابن الجياب، المصدر السابق، لوحة رقم ٩.

(٣) ترصيع الأخبار، ص ٤-٥؛ وانظر أيضاً: الضبي، بغية الملتبس، ص ٢٥٩، ترجمة ١٦٧٥ الحميري، المصدر السابق، ص ٦٢-٦٣.

(٤) العذري، نفس المصدر، ص ٩٣.

(٥) آداب الحسبة، ص ١٣.

(6) Le traité d'Ibn Abdun, publié por Lévi - Provençal, en Journal Asiatique, t. CCXXIV, Avril, Juin, 1934, p. 230 del texto àrabe.

(٧) نفس المصدر، ص ٢٣٠.

(٨) آداب الحسبة، المصدر السابق، ص ٢٣٠.

(٩) السقطي، المصدر السابق، ص ٣٩.

من المقاييس العربية القديمة المستعملة لتقدير كميات الأشياء الجامدة، وعلى الأخص لكيل القمح.^(١) وقد ظهرت منه أنواع مختلفة، فمنه القفيز القرطبي وغياره ٤٨ مد نبى بوزن ٦٤ رطل، وهو يتطابق مع القفيز البلنسى الذى عياره أيضاً ٤٨ مد نبى.^(٢) ويذكر ابن الجياب، أن القفيز فى عصره (ق ٧هـ) كان يتضمن عشرين قدحاً أو قنطاراً، كل قدح عياره ست مد كبير تزن ٣٢ رطل، وكل قفيز يسع ستة مد كبير تزن ٣٢ رطل، ويزن القفيز ٦٤٠ رطلاً وفيه ١٢٠ مد كبير أو ٤٨٠ مد نبى، ويضيف ابن الجياب أن حجم أو سعة هذا القفيز ٤,٥٠ ذراع مكعب حسب الذراع الشائع الاستعمال فى الأندلس لقياس الأقمشة بـ ٤١,٧٩ سم طول^(٣). ونستدل مما سبق أن حجم القفيز يبلغ ٣٢٨,٥٤٣ ديسمتر مكعب، وأما وزنه فـ ٦٤٠ رطل. وكان عيار القفيز الذى استعمل فى القرن السابع الهجرى عشرة أفقرة قرطبية تعادل ٤٨ مد نبى لكل واحد^(٤).

(٧) القدح:

كان يستخدم لكيل الحبوب، وعياره ست مد، كل مد خمسة أرتال وثلاث^(٥)، يذكر السقطنى أن القدح من القمح عياره ٣٤ رطل، ومن الشعير والشنينة ربعاً واحدة ٢٥ رطل أو أقل، والقدح من الكزبرة اليابسة ١١ رطل كل رطل ١٦ أوقية، والأوقية عشرون درهماً^(٦).

ولقد انتقلت كلمة قدح من العربية إلى اللغات اللاتينية المختلفة فى شبه الجزيرة الأيبيرية فعرفت فى القشتالية بـ Alcadafe، وفى البرتغالية Alcadefe وفى كلا اللغتين لها نفس المدلول^(٧).

(٨) طمانى:

يعرف بالقشتالية Celemin يعنى ثمن جزء المكيال الفائق، ويرى الأستاذ خواكين باليه أن اصطلاح Celemin هو ثمن جزء من القفيز الأصفر من ٦٤ رطل وهذا الثمن يزن ٨ أرتال^(٨).

(١) راجع: دائرة المعارف الإسلامية، الجزء الثانى، ص ٦٢٢.

(٢) انظر: مخطوطة رقم ٤٨، من مجموعة de la Junta apud, Bermejo, op.cit, p. 89.

(٣) راجع: ابن الجياب، المصدر السابق، لوحة رقم ٩.

(٤) ابن الجياب، نفس المصدر، لوحة رقم ٩.

(٥) ابن الجياب، نفس المصدر، لوحة رقم ٥ وما يليها.

(٦) السقطنى، المصدر السابق، ص ١١.

(7) Joaquin vallvé , op.cit., p. 97.

(8) Ibid, p. 100.

(٩) الفئقة :

من المكايل المستخدمة لكيل الحبوب أو الغلال، ويقول البكرى أن الفئقة القرطبية عيارها ٢٠ مد نبى^(١)، لكن المقدسى يرى أنها تزن نصف قفيز عياره ٦٠ رطل أو ليكن عيارها ٣٠ رطل^(٢)، وعلى أية حال فإن الفئقة تتحدد مع الربع الشائعة فى الأندلس بـ ٢٧، ٢٨، ٣٠، وحتى ٣٢ رطل^(٣).

(١٠) المكيلة:

يستفاد من كلام ابن عبدون أن الطحان فى أرحية الماء لا يجب أن يأخذ أجراً أكثر من عشرة أرتال لحمل من القمح^(٤). وإذا كان حمل القمح يساوى قفيزاً عياره عشرون قدحاً أو ربعه و ٦٤٠ رطلاً وزناً، فمعنى هذا أنه إذا حصل الطحان على عشرة أرتال من كل قفيز كان نصيبه ٦٤ رطل^(٥).

(١١) تعليقة :

من المحتمل أن التعليقة Talega، كانت تستخدم فى الأندلس لكيل الحبوب وقياس المساحة، على الرغم من أن المصادر العربية لم تذكر شيئاً عنها، أما هذا الاصطلاح فقد ورد فى اللغة البرتغالية مشتقاً من الاصطلاح العربى Tega, Teiga, Tego^(٦).

ثانياً- الموازين:

أما عن وزن المعادن الثمينة من عملات ذهبية وفضية، وبعض المواد النادرة من التوابل، فقد استخدم مثقال من الذهب، ودرهم من الفضة، وكان وزن الدرهم ٣,١٤٨ جراماً، ولذلك طابق تماماً عشر الأوقية، لكن هذه العلاقة الوزنية تغيرت فى القرن الثانى عشر، إذ يذكر السقطى أن عيار الأوقية عشرين درهماً من الفضة^(٧).

أما بالنسبة للمثقال فوزنه الشرعى ٤,٧٢ جراماً، وكان عيار القيراط نصف درهم، والجرام عياره حبة^(٨).

(١) البكرى (أبو عبد الله بن عبد العزيز، المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب، تحقيق البارون دى سلال، الطبعة الثانية، الجزائر، ١٩١١، ص ١١٢-١١٣.

(٢) المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله محمد)، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، مكتبة خياط، بيروت، ص ٢٤٠.

(٣) راجع: Joaquin Vallvé, op.cit., p. 106.

(٤) ابن عبدون، المصدر السابق، ص ٢٤٣.

(٥) راجع: Joaquin Vallvé, op.cit., p. 106.

(6) Ibid, p. 108.

(٧) السقطى، المصدر السابق، ص ١٣.

(8) Lévi - Provençal, Espana musulmana, t. V, p. 137.

وأما الحبة، فهى من العيارات المستعملة فى نظم الوزن، أما وزنها فقد اختلف فيه باختلاف الأزمنة والأمكنة، وقد قدرها بعضهم بسدس ثمن درهم، وهو جزء من ثمانية وأربعين جزءاً من درهم، راجع: جواد علي، المرجع السابق، ج ٨، ص ٤١٥-٤١٦.

الفصل الثالث

الحياة العلمية

- ١ - العلوم الدينية
 - أ - علم القراءات والتفسير.
 - ب - علوم الحديث والفقه.
- ٢ - العلوم اللغوية.
 - أ - الشعر.
 - ب - الموشحات والأزجال.
 - ج - النثر.
 - د - الدراسات النحوية.
- ٣ - علمى التاريخ والجغرافيا.
- ٤ - الطب والرياضيات والهندسة.

حظيت الحركة العلمية والأدبية في قرطبة بنصيب وافر، ومكانة لا نظير لها، حتى غدت بحق قاعدة العلوم ومركز الآداب، وبلغت أقصى ذروتها في عصر الخلافة، وأصبح اسمها يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلم، بل أصبح العلم من معالمها البارزة التي يتفاخر بها أبناء قرطبة^(١).

ومن الطبيعي أن قرطبة لم تصل إلى هذه المكانة الفائقة إلا لكونها حاضرة الخلافة ومركز الحكم فكان نمو الحركة العلمية فيها مبكراً عن حواضر الأندلس الأخرى، وكان عطاؤها العلمي المتنوع غزيراً، إلى أن فقدت سلطتها المركزية كحاضرة للأندلس في أعقاب التفتت السياسي الذي واكب انهيار الخلافة الأموية، فتأثرت الحياة الأدبية فيها بعمق بالكوارث والنكبات التي تلاحقت عليها سريعاً وطحنها طحناً ومزقتها أشلاءً مما دفع بكبار علمائها ومفكرها إلى الهجرة عنها والتماس مجالات أخرى لنشاطاتهم الأدبية في ظل ملوك الطوائف.

ولا شك أن هذه الظروف السياسية كانت خيراً على مناطق كثيرة من الأندلس وبالذات على المشرق الذي أفاد منها أكبر فائدة فكان مركز الهجرة ومحل الاستقرار لما كان ينعم به من هدوء نسبي، ولهذا انتجته علماء قرطبة وكبار مفكرها وانعكس ذلك بطبيعة الحال على الأوضاع الاجتماعية والثقافية في مدنه منذ طليعة القرن الخامس الهجري فنشطت الحركة العلمية فيه نشاطاً تجاز كل تقدير في الحسبان، واستمر هذا النشاط قائماً في العصور التالية، وبلغ الازدهار العلمي أوجاً في ظل الموحدين الذين لم يترددوا في تشجيع العلوم ورفع رايته ورعاية العلماء في كل مجالات الفكر^(٢)، فقد أحاط السادة الموحدين أنفسهم بحشد من أعلام الكتاب والشعراء والمفكرين، وكان لذلك أعظم الأثر في تألق الحياة العلمية وازدهار العلوم، وساعد على هذا الازدهار أن كثيراً من خلفاء الموحدين كانوا من هواة الأدب والعلوم، فأحاطوا بلاطهم بطائفة من عظام شيوخ العصر وكبار مفكره أمثال أبي الوليد ابن رشد، وأبي بكر بن طفيل، وأبي بكر بن عبد الملك بن زهر أعظم علماء الأندلس في هذا العصر^(٣).

وهكذا كانت سياسة الموحدين المباركة بدفع عجلة الفكر في الأندلس واحتضان علمائها ورعايتهم أحق الأثر في ازدهار العلوم والآداب، وحظيت حواضر

(١) راجع : السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج٢، ص ١٥٩.

(2) Nicholson (Reynold, A), A Literary History of the Arabs, Cambridge, 1953, p. 432.

(3) pérès (Henri), La poésie à fés sous les Almoravides et les Almohades, en Hespéris, t. XVIII, 1934, Fascit, p. 40, (No. I).

شرق الأندلس بنصيب وافر من العلماء والمفكرين فى شتى مجالات العلم والمعرفة بل إن الواحد من هؤلاء العلماء كان فى تخصصه يجمع بين العلوم الدينية كالحديث والأصول والتفسير وبين العلوم اللغوية والأدبية كالتحقيق والأدب، بينما وجد منهم فريق كان يجمع بين هذه الدراسات الأدبية والعلوم النقلية كالطب والفلسفة والرياضيات، وتسوق التراجم العديد من هذه الأمثلة.

وفيما يلى عرض لأهم جوانب النشاط العلمى فى شرق الأندلس فى فترة موضوع الدراسة.

(١) العلوم الدينية:

وهى العلوم التى تخدم بشكل مباشر القرآن الكريم والحديث الشريف وتشمل علم القراءات والتفسير وعلوم الحديث والفقه.

١ - علم القراءات والتفسير:

حظيت العلوم الدينية المتصلة بالقرآن الكريم بنصيب وافر من الفكر الإسلامى فى شرق الأندلس على مرّ العصور باعتباره المصدر الرئيسى للشريعة والمنهج الذى ارتضاه المسلم، ولعل ذلك كان باعثاً على تقدم هذه العلوم الدينية وتألقها فكثرت فيها التوايف وبرز عدد كبير من العلوم فى هذا المجال فى شرق الأندلس، ففى علم القراءات نبغ:

١ - محمد بن الحسن بن محمد بن سعيد المقرئ من أهل دانية، يكنى أباً عبد الله ويعرف بابن غلام الفرس (ت فى عام ٥٤٧هـ)، وكان إماماً فاضلاً صاحب ضبط وإتقان مشاركاً فى علوم جمة يتحقق منها بعلم القرآن والأدب، كما عرف بإتقانه للخط وأناقته فى الوراثة ويعتبره ابن الآبار آخر المقرئين (١)، وقد تولى بآخر عمره الخطبة بجامعة دانية (٢).

٢ - علي بن محمد بن علي بن هذيل (ت فى عام ٥٦٤هـ) من أهل بلنسية، «وكان صدر المقرئين وإمام الموجودين، عمراً فانتهدت إليه رئاسة الإقراء بشرق الأندلس فى عصره، متقناً ضابطاً مجوداً حسن الأخذ على القراء مشهور الفضل والزهد» (٣).

(١) ابن الآبار، التكملة، ص ١٩٣ وما يليها، ت ٦٦٩.

(٢) نفس المصدر، ص ١٩٥.

(٣) ابن عبد الملك المراكشى، الدليل والتكملة لكتايب الموصول والصلة، السفر الخامس، القسم الأول، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ص ٣٦٩، ت ٦٣٨.

٣ - أحمد بن علي بن يحيى بن عون الله الأنصارى وكنيته أبو جعفر الحصار، (ت في عام ٦٠٩هـ)، أصله من دانية، وسكن بلنسية، وصفه ابن عبد الملك بقوله : «كان خاتمة المقرئين بلنسية، لم يكن أحد من أهل صناعته يدانيه في الضبط والتجويد والاتقان وحسن الأداء»^(١). انفرد بقراءة «رى الظمان في تفسير القرآن» على مصنفه أبي الحسن بن النعمة، علاوة على اتقانه الخط والوراقة، وكانت وفاته بلنسية حيث دفن بمقبرة الجنان^(٢).

٤ - ومن جلة علماء شرق الأندلس أيضاً الفقيه الحافظ الضرير أبو القاسم ابن فيره بن خلف بن أحمد الرعيني من شاطبة (ت بالقاهرة في عام ٥٩٠هـ) ودفن بالمقبرة الفاضلية بسفح المقطم^(٣). كان واحداً من أعظم علماء شرق الأندلس في عصره وأكثرهم فضلاً^(٤)، رحل إلى مصر وسمع من الحافظ السلفي وابن برى وغيرهما، ويذكر المقرئ أنه «كان إماماً، علامة ذكياً، كثير الفنون، منقطع القرنين، رأساً في القراءات حافلاً للحديث، بصيراً بالعربية، واسع العلم»^(٥)، ألف قصيدتين في القراءات والرسم، «حرز الأمانى»، و«عقيلة أرباب الفضائل»، نالت شهرة كبيرة، وقد امتدحه ابن خلكان بقوله : «أنه أبدع في حرز الأمانى، وهي عمدة قراء هذا الزمان في تعلمهم فقل من يشتغل بالقراءات إلا ويقدم حفظها ومعرفتها، وهي مشتملة على رموز عجيبة وإرشادات لطيفة»^(٦). وفي علم التفسير نبغ :

١ - زيادة الله بن محمد بن زيادة الثقفي المرسى، ويعرف بابن الحلال ويكنى أبا الحسن (ت في عام ٥٥٢هـ)^(٦)، وأصله من مرسية، وكان يقرئ الحديث ويفسره، وقد تولى خطة الشورى ثم استقضى بمدينة بلنسية.

٢ - محمد بن عبد الملك بن محمد بن خلف بن علي بن قاسم الأنصارى، من أهل

(١) ابن عبد الملك المراكشي (أبو عبد الله محمد)، الذيل والتكملة لكتاتبي الموصول والصلة، السفر الأول، القسم الأول، تحقيق الدكتور محمد بن شرفة، دار الثقافة، بيروت، ص ٣٤٢، ت : ٤٣١.

(٢) ابن عبد الملك، نفس المصدر، السفر الأول، القسم الأول، ص ٣٤٢، ت : ٤٣١.

(٣) المقرئ، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٠.

(٤) نفس المصدر والجزء، ص ٢٩٩.

(٥) نفس المصدر والجزء، ص ٢٣١.

(٦) المقرئ، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣١.

(٧) ابن الآبار، التكملة، ص ٧٥، ت : ٢٥١.

بلنسية ويقال أنه من قلعة أيوب ولد في رمضان عام ٥٥٤هـ، وتلقى العلم في بلنسية ونبع في علم التفسير بوجه خاص فكان له «تحقيق بالتفسير وقيام عليه وقعد لذلك بجامع بلنسية وقتاً مع مشاركة يسيرة في النظم والنثر»^(١)، وكانت تغلب عليه طريقة التصوف، وقد صنف عدداً من الكتب من أهمها كتاب «نسيم الصبا في الوعظ على طريقة الجوزي»، وكتاب «بغية النفوس الزكية في الخطب الوعظية»، وتوفي بأرريولة في ٢٢ رجب عام ٦٤٠هـ^(٢).

٣ - محمد بن أيوب بن محمد بن وهب بن نوح الغافقي من أهل بلنسية ولد في سنة ٥٣٠هـ، وقضى صباه في بلنسية حيث تلقى العلم على شيوخها، وبرز ورسخ في علمي التفسير والقراءات، ويصفه ابن الأبار بقوله: «لم يكن في وقته بشرق الأندلس نظير له تفنناً واستبحاراً، كان رأساً في الراسخين من العلماء وصدرًا في المشاورين من الفقهاء... وشارك في التفسير وتحقق بالقراءات، وأما عقد الشروط فإليه انتهت الرئاسة فيه»^(٣)، وولى خطة الشورى كما تولى قضاء بعض أعمال بلنسية، وخطب بجامع بلنسية وقتاً، وتوفي ببلسية في شوال عام ٦٠٨هـ حيث دفن بمقبرة باب الحنش^(٤).

ب - علوم الحديث والفقه:

شغلت دراسة الحديث والفقه مكانة هامة من النشاط العلمي في شرق الأندلس وكان البحث في هذه الدراسات من أهم مظاهر الحركة العلمية في شرق الأندلس الأمر الذي نستدل منه على حرص أهل هذه المنطقة على التحقق من مصادر التشريع وإقبالهم على النظر في أمور المجتمع المختلفة، ولقد برز في مجال هذه العلوم عدد كبير من المحدثين والفقهاء من أثروا المكتبة الأندلسية بعدد من مصنفاتهم في الفقه، وتزخر كتب التراجم الأندلسية بأسماء جمهرة من هؤلاء العلماء نذكر منهم:

١ - المحدث يوسف بن عبد العزيز بن يوسف بن إبراهيم بن فيره بن عمر اللخمي الأندلي، ويكنى أبا الوليد ويعرف بابن الدباغ، ويصفه ابن الزبير بقوله «القاضي الإمام المحدث الجليل أحد الأئمة المهرة المتفنيين في صناعة الحديث وجهابذة النقادة»^(٥)، كما ذكره أبو العطاء وهب بن لب بن نذير، وكان ممن صاحبه بين

(١) نفس المصدر، ص ٣٥٤، ت: ١٠٢١.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) نفس المصدر، ص ٢٩٧، ت: ٩١٢.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) ابن الزبير (أبو جعفر أحمد)، القسم الأخير من كتاب صلة الصلة، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال، الرباط، ١٩٣٨، ص ٢٠٧.

أئمة المحدثين فأشار بأنه «خاتمة أئمة المحدثين»، وعلل ذلك بكثرة شيوخه الذين لذكروهم مصنفًا يتناول تراجمهم، جاء «تأليفًا بليغًا أنبأ عن حفظه وتهممه وإتقانه ورياسته في صفة الحديث وإمامته فيه وقته»^(١). ومن مصنفات ابن الدباغ أيضًا «معجم شيوخ شيخه القاضي أبي علي الصدفى»، وكتاب «الغوامض والمبهمات»، و«طبقات المحدثين والفقهاء»، و«اختصار إيضاح الاشكال لعبد الغنى»، وقد توفي بدانية عام ٥٤٦هـ، ودفن بمرسيه^(٢).

٢ - المحدث عيسى بن محمد بن فتوح الهاشمي (ت في عام ٥٦٠هـ) من أهل شرق الأندلس، أقام بمدينة بلنسية، ويعرف بابن الم رابط، من مؤلفاته كتاب : «التقريب والحرش في أصول قراءة قالون وورش»^(٣).

٣ - المحدث أحمد بن سلمة بن أحمد بن يوسف بن سلمة الأنصاري، من أهل لوزقة (ت : ٥٩٧هـ)، يكنى أبا العباس وأبا جعفر، ذكره ابن عبد الملك في تراجمه بقوله : «كان محدثًا حافظًا كامل العناية بالحديث، ومن أهل المعرفة، به ضابطًا متقنًا وافر الحظ في علم العربية»^(٤).

٤ - المحدث عبد الكبير بن محمد بن عيسى بن محمد بن بقي أبو محمد الغافقي المرسى، (ت في عام ٦١٧هـ) كان فقيهاً محدثاً بصيراً بالشروط متقدماً في الفتيا وصناعة التوثيق وعلم الفروع والطب، وتنسب إليه اختصارات في الطب، ومؤلفات في التفسير، ومختصر في الحديث، وصنف تفسيراً نحا فيه الجمع بين تفسير ابن عطية والزمخشري^(٥).

٥ - المحدث محمد بن عبد الرحمن التجيبي، أبو عبد الله، من أهل لقنت، عاش في النصف الثاني من القرن السادس، ورحل إلى المشرق في طلب العلم والحج، وتلقى العلم على جلة علمائه، ثم قفل من رحلته عائداً إلى وطنه، وألف مصنفات عديدة منها : «أربعون حديثاً في المواعظ»، وأخرى في الفقر وفضله، وفي الحب في الله تعالى، وفي «فضل الصلاة على النبي ﷺ» وكتاب «الفوائد

(١) في : ابن الزبير، نفس المصدر والصفحة.

(٢) نفس المصدر والصفحة، انظر أيضاً: الغبى، بغية الملتبس، ص ٤٧٦، ت : ١٤٤٥.

(٣) نفس المصدر، ص ١٩٨، ت : ٣٩٠، وراجع أيضاً ابن الآبار، التكملة، ص ٧٣٠، ت : ٢٠٦٩.

(٤) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الأول، القسم الأول، تحقيق الأستاذ محمد بن شرفة، دار الثقافة، بيروت، ص ١٢٥، ت : ١٧٧.

(٥) ابن الآبار، التكملة، ص ٦٥٤، ت : ١٨١٢؛ وانظر أيضاً: ابن الزبير المصدر السابق، ص ٤٤، ت : ٦٩.

الكبرى»، و«الفوائد الصغرى»، وكتاب «فضل عشر ذى الحجة»، وكتاب «مناقب السبطيين»، وكتاب «الترغيب فى الجهاد»، وكتاب «المواعظ والرقائق»، وكتاب «مشيخة السلفى»^(١).

٦ - المحدث أبو عمر بن عات، أحمد بن هارون بن أحمد بن جعفر بن عات النفزى الشاطبى، استشهد فى موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ^(٢)، تلقى العلم فى شاطبة ثم رحل إلى المشرق، وأخذ عن كبار علمائه وألف مصنفين أحدهما «اللزعة فى التعريف بشيوخ الوجهة»، والآخر «ريحانة النفس، وراحة الأنفس فى ذكر شيوخ الأندلس»^(٣)، ويصفه ابن عبد الملك بأنه «كان من أكابر المحدثين»، وجلة الحفاظ المسندين للحديث والآداب بلا مدافعة، ويرد الأسانيد والمتون ظاهراً فلا يخل بحفظ شيء منها^(٤).

٧ - المحدث عبد الله بن سليمان بن داود عبد الرحمن بن سليمان بن عمر بن خلف بن حوط الله الأنصارى الحارثى من مدينة أُنْدَه، ولد عام ٥٤٨ هـ، وكان على حد قول ابن الآبار «إماماً فى صناعة الحديث مقيداً ضابطاً بصيراً بها معروفاً بالانقائان لها حسن الخط حافظاً لأسماء الرجال واقفاً على المعدلين والمجرحين يجمع إلى الاحتفال فى الرواية حسن الاستقلال بالدراية»^(٥)، ومن أهم مصنفاته «كتاب فى تسمية شيوخ البخارى ومسلم وأبى داود والنسائى والترمذى» ونزع فيه منزع أبى نصر الكلاباذى ولكنه لم يكمله، توفى بغرناطة فى ربيع الأول عام ٦١٢ هـ^(٦).

٨ - ومن المحدثين المنسوبين إلى أُنْدَه كذلك داود بن سليمان بن داود عبد الرحمن بن حوط الله الأنصارى الحارثى، أخو عبد الله، ولد عام ٥٦٠ هـ، وتوفى بمالقة فى ٦ ربيع الآخر عام ٦٢١ هـ^(٧)، وكان على حد قول ابن الخطيب : «فهيماً بصيراً بعقد الشروط، حاذقاً فى استخراج نكتها تلبس بكتبتها زمناً طويلاً

(١) المقرئ، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٦٠.

(٢) المقرئ، نفس المصدر، جـ ٣، ص ٣٥٨.

(٣) المقرئ، المصدر السابق، جـ ٣، ص ٣٥٧.

(٤) فى : المقرئ، نفس المصدر والجزء، ص ٣٥٨.

(٥) ابن الآبار، التكملة، جـ ٢، ص ٥٠٦، ت : ١٤٣٥، وراجع أيضاً فى سيرته: ابن الخطيب، الإحاطة، جـ ٣، ص ٤١٦، ابن سعيد المغربى، المغرب، جـ ٢، ص ٣١٦.

(٦) ابن الآبار، نفس المصدر، جـ ٢، ص ٥٠٦، ابن الخطيب، الإحاطة، جـ ٣، ص ٤١٧.

(٧) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ ١، ص ٥٠٦.

بمسجد الوحيد من مالقة، وكان محباً في العلم وأهله حريصاً على إفادته إياهم صبوراً على سماع الحديث ^(١).

٩ - المحدث سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الحميري الكلاعي البلسي، أبو الربيع بن سالم، ويعتبر من أئمة المحدثين في عصره، وكان حسيماً يذكره تلميذه ابن الآبار «إماماً في صناعة الحديث، بصيراً به حافظاً حافلاً عارفاً بالجرح والتعديل ذاكرًا للمواليد والوفيات يتقدم أهل زمانه في ذلك، وفي حفظ أسماء الرجال، مع الاستبحار في الأدب والاشتهار في البلاغة، فرداً في إنشاء الرسائل، مجيداً في النظم، خطيباً فصيحاً مفوهاً» ^(٢)، ووصفه ابن عبد الملك بأنه «بقية الأكابر من أهل العلم بصقع الأندلس الشرقي، حافظاً للحديث مبرزاً في نقده تام المعرفة بطرقه ضابطاً لأحكام أسانيده ذاكرًا لرجالهم وتواريخهم وطبقاتهم، ريان من الأدب كاتباً بليغاً شاعراً مجيداً خطيباً مصقعاً» ^(٣) تولى الخطبة بجامعة بلنسية لفترة ما، كما تولى منصب القضاء ومن حيث انتاجه العلمي كان مشهوراً له بالمصنفات العديدة في الحديث والسير والاداب من بينها كتاب «مصباح الظلم في الحديث»، وكتاب «الأربعون عن أربعين شيخاً لأربعين من الصحابة»، وكتاب عنوانه «الأربعون السباعية»، وكتاب «السبعيات من حديث الصدفى»، وكتاب «حلية الأمالي في المراقبات العوالي»، وكتاب «تحفة الوداد ونجمة الرواد»، وكتاب «المسلسلات والإنشاءات»، وكتاب «الاكتفاء في مغازي رسول الله»، و«مغازي الثلاثة الخلفاء»، وكتاب «ميدان السابقين وحلية الصادقين المصدقين في عرض كتاب الاستيعاب»، ولم يكمله ^(٤). وكان أبو الربيع بن سالم فوق علمه، من أولى الحزم والجرأة والبسالة والشهامة، يشارك في الغزوات، ويياشر بنفسه القتال ويلى فيه أحسن البلاء، وشهد موقعة أنيشة التي وقعت في ظاهر بلنسية في ٢٠ من ذى الحجة عام ٦٣٤هـ، واستشهد فيها إلى جانب أبي الربيع عدد كبير من المسلمين، وقد رثاه تلميذه ابن الآبار بقصيده الشهيرة التي مطلعها :

ألم بأشلاء العلى والمكارم :. نقدَ بأطراف القنا والصوارم
وعوجاً عليها مآدبا وحفاوة :. مصارع غصّت بالطلّى والجماجم ^(٥)

(١) نفس المصدر والجزء، ص ٥٠٣.

(٢) التكملة، ج ٢، ص ٧٠٨، ت : ١٩٩١.

(٣) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، بقية السفر الرابع، ص ٨٣، ت : ٢٠٣.

(٤) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٤، ص ٢٩٦-٢٩٧.

(٥) في: ابن الخطيب، نفس المصدر والجزء، ص ٣٠٤، وراجع أيضاً: ابن عبد الملك، الذيل

والتكملة بقية السفر الرابع، ص ٩٠.

- وفي علوم الفقه، برز عدد كبير من علماء شرق الأندلس، نذكر من بينهم :
- ١ - الفقيه أحمد بن محمد بن زيادة الله بن عيسى الثقفي، من أهل مرسية، وكان فقيهاً مشاوراً ذاكراً للمسائل بصيراً بالفتاوى في النوازل، مشاركاً في الأدب، تقلد بعض الوظائف في شرق الأندلس^(١)، منها منصب «قاضي قضاء الشرق»^(٢)، إلى أن سعى به عند محمد بن سعد ابن مردنيش أمير شرق الأندلس آنذاك، فقبض عليه واستصفى أمواله وغربه إلى أندلس، واعتقل بها فترة ثم قتل عام ٥٥٤هـ^(٣).
- ٢ - الفقيه عمر بن أبي الحسن محمد بن واجب بن عمر بن محمد بن واجب القيسي من أهل بلنسية، ولد عام ٤٧٦هـ، من بيت علم، وكان فقيهاً مشاوراً، درياً بالفتيا عارفاً بالأحكام^(٤)، تولى قضاء بعض مدن شرق الأندلس، وكان خاتمة حفاظ الفقه بشرق الأندلس ثم توفي آخر رمضان عام ٥٥٧هـ^(٥).
- ٣ - الفقيه علي بن عبد الملك بن خلف بن محمد بن عبد الرحمن ابن عبد الملك الأنصاري (ت : ٥٦٧هـ)، من أهل بلنسية، وكان على حد قول ابن عبد الملك خاتمة العلماء بشرق الأندلس في عصره، فكان إلى جانب تبحره في العلوم والمعارف «راسخاً في العلم مقرئاً مجوداً، مفسراً محدثاً، راوية حافظاً، فقيهاً مشاوراً، بارعاً في علوم اللسان»^(٦)، ذكره ابن الزبير في صلة الصلة بقوله : «كان مقرئاً جليلاً ونحويًا عارفاً فقيهاً مشاوراً»^(٧) وقال فيه أبو عمر بن
-
- (١) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتايب الموصول والصلة، السفر الأول، القسم الثاني، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، ص ٤٢٥، ت : ٦٢٧.
- (٢) ابن الآبار، المعجم، ص ٤٠، ت : ٢٨.
- (٣) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الأول، القسم الثاني، ص ٤٢٥، وراجع أيضاً: ابن الآبار، المعجم، ص ٤٠-٤١.
- (٤) ابن عبد الملك، نفس المصدر، السفر الخامس، القسم الثاني، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ص ٤٦٨، ت : ٨١٧.
- (٥) نفس المصدر والقسم والصفحة، بينما يقول ابن الآبار أنه توفي سنة ٥٦٠هـ، راجع التكملة، ج ٢، ص ٦٥٥، ت : ١٨٢٤.
- (٦) نفس المصدر، السفر الخامس، القسم الأول، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ص ٢٢٦، ت : ٤٥٥، راجع أيضاً في سيرته: ابن الآبار، التكملة، ص ٦٦٩، ت : ١٨٦٣.
- (٧) ابن الزبير، صلة الصلة، ص ١٠٤، ت : ٢١١.

عات: «إمام بلنسية وفقهها المشاور وأستاذها الذي لا يارز، وخطيبها الذي لا يجاوز، مقرئ فائق، ونحوى حاذق»^(١). ووصفه الكاتب البارع أبو بكر يحيى بن محمد الأركشي في مقامته «قسطاس البيان في مراتب الأعيان» بأنه «فقيه عارف وحامل أدوات ومعارف، وما هو إلا زبدة زمان تمخض العصر عنها، وروضة علم تضرع العطر منها، تلمس أشاتها من عنده وتفتبس، ويفزع إليه في كل ما أشكل منها والتبس، ذهب في اقتنائها أهدي مذهب، وامتطى إلى حاملها صهوة الهجير الملهب، حتى انتهجت له شعابها، وانقادت إلى فهمه صعابها، وما زال متبعا مساقط أثرها، حتى روى من سلسيلها وكوثرها»^(٢). ومن أهم مصنفاته، «رى الظمان في تفسير القرآن»، و«الإمعان في شرح مصنف أبي عبد الرحمن»، الذي بلغ فيه الغاية من الاحتفال وحشد الأقوال»^(٣).

٤ - الفقيه محمد بن أحمد بن عبد الملك، من أشهر فقهاء مرسية، وكان فقيها حافضا عارفا بمذهب مالك، عكف على تدريسه، وكان إلى جانب ذلك حسن البيان، عادلا في الأحكام^(٤). ألف عددا من التوالم من بينها كتاب «نتائج الأبرار ومناهج النظر في معاني الآثار»، وكتاب «إقليد التقليل المؤدى إلى النظر السديد» وبرنامج المقتضب من كتاب الأعلام، و«الأبنا بأبناء ابن خطاب»، وقد تقلد بعض الوظائف في بلده، وتوفى بمرسية في المحرم سنة ٥٩٩هـ^(٥).

٥ - الفقيه عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب، أبو بكر، من بيت جليل مشهور بالقاعدة المرسية^(٦)، وكان من بين الفقهاء الذين لعبوا دورا بارزا في السياسة كما كان بالإضافة إلى تفقهه ذا بصيرة بقرض الشعر^(٧)، وصفه ابن

(١) في: ابن الزبير، نفس المصدر والصفحة.

(٢) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الخامس، القسم الأول، ص ٢٢٨.

(٣) ابن عبد الملك، نفس المصدر والسفر والقسم، ص ٢٢٩، بينما يقول ابن الزبير أنه توفي عام

٥٧٠هـ أو ما بعدها، راجع: صلة الصلة، ص ١٠٤.

(٤) ابن الآبار، التكملة، ص ٢٧٦، ت: ٨٧٠.

(٥) نفس المصدر والصفحة.

(٦) ابن سعيد المغربي، اختصار القدح الممل في التاريخ المحلى، تحقيق الأستاذ إبراهيم الإبياري،

القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٤٦، ت: ٣٣، راجع له: المغرب، ج ٢، ص ٢٥، ت: ٥١٩.

(٧) ابن سعيد، اختصار القدح، ص ١٤٧.

الآبار فقال : «كان من رجالات الأندلس وأهل الكمال، زهد فى أول أمره وأقبل على الآخرة، ثم مآلته به الدنيا وقدم لولاية مرسية فلم تحمد سيرته» (١)، وقد تقلد ولاية مرسية فى دولة محمد بن هود صدر المحرم عام ٦٣٦هـ، وصار إليه الحل والعقد إلى أن لقي مصرعه على يد زيان بن مردنيش فى أول رمضان سنة ٦٣٦هـ (٢).

(٢) العلوم اللغوية:

تأثرت علوم اللغة العربية وآدابها فى شرق الأندلس بطبيعة هذه المنطقة المعروفة بتقلبها واضطرابها من الناحية السياسية وفتحها على البحر وانسباط أراضيها من الناحية الجغرافية، ولذلك فقد كانت آداب شرق الأندلس فى هذه المرحلة التاريخية تعبيراً عن الطبيعة الجغرافية للمنطقة ومرآة صادقة للأحداث السياسية المتلاحقة.

ومما لاشك فيه أن الأدب العربى المشرقى كان معيناً لا ينضب ومصدراً خصباً لآداب الأندلس، فمن الشعر المشرقى استمد الشعراء الأندلسيون أشكاله واقتبسوا قوالبه المعبرة، ومن مادة آدابه استنبطوا أفكارهم وتصويراتهم الأدبية، وقد ساعد على ذلك وفود عدد كبير من الأدباء المشاركة إلى الأندلس أمثال صاعد اللغوى وأبو على القالى واستقدام أعداد كبيرة من المغنيين والمغنيات والجوارى المشرقيات إلى الأندلس أمثال قمر والمجفء وزرياب (٣). إلا أن طبيعة الأندلس الساحرة من مياه جارية، وجبال خضراء وبساتين زاهية رقت من مشاعر أهل الأندلس وهذبت من جفوتهم، وأثارت ملكاتهم الفكرية الحية، فاستخدموا ملكات الحس والخيال فى وصف جمال الطبيعة وفى إجادة تصويرها (٤) والواقع أن ما تشتمل عليه بلاد شرق الأندلس من أراض خصبة وسهول خضراء وجدول وأنهار وفيرة ومناخ معتدل وطبيعة ساحرة كان له أثره على الشعر والشعراء.

ويظهر أثر بيئة شرق الأندلس واضحاً فيما وصل إلينا من الانتاج الأدبى لهذا العصر، فقد سجل الأدباء صورها الخلافة داخل إطارات أدبية بديعة، وعبروا عن رقة حواسهم، وتأثرهم بالطبيعة، وهكذا عشقوا الطبيعة التى أحاطت بقلوبهم (٥).

(١) ابن الأبار، التكملة، ص ٦٩٦، ت ١٩٥٣.

(٢) ابن سعيد، اختصار القديح، ص ١٤٧.

(٣) غرسيا غوميث، الشعر الأندلسى، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٣٣.

(٤) السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ج ٢، ص ١٦٨ وانظر أيضاً: مصطفى الشكعة،

الأدب الأندلسى، موضوعاته ومقاصده، بيروت، ١٩٧٢، ص ٣٠.

(٥) حكمت على الأوسى، الأدب الأندلسى فى عصر الموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٧،

ثم إن أدب شرق الأندلس نظماً ونثراً مرآة صادقة تنعكس عليها جوانب الحياة السياسية والحضارية التي مرت بها هذه المنطقة في العصر موضوع الدراسة، والأدباء على هذا النحو ترمومتر الأحداث يفعلون بها ويتفاعلون معها، ويسجلون آلامهم ومحنتهم وهزائم أمتهم ويسجلون فرحتهم بانتصار أصابوه أو غنم حصلوا عليه، ويتقدون حالة الضعف والهوان التي يتعرض لها الإسلام في شرق الأندلس على أيدي أعدائه، ويستحثون مواطنيهم على النضال ويستنفرونهم للصمود أمام الحن والأخطار أو يتغنون بما حققه رؤسائهم من انتصارات، ويتباهون بذلك في أشعارهم فكان الأدب شعره ونثره تعبيراً عن القضايا السياسية والاجتماعية والأحداث الكبيرة التي عاشتها الأمة^(١). وفيما يلي عرض لبعض جوانب الحياة الأدبية في شرق الأندلس.

أ - الشعر:

تناول شعراء هذا العصر في قصائدهم أغراض الشعر المألوف: المدح والوصف والخمريات والغزل ورناء المدن والاستنفار على النضال والاستنصار بقوى الإسلام في المغرب لإنقاذ الأندلس، والشكوى من الزمان وسوء الحظ، والتوسل الديني، وفيما يلي نماذج من قصائد شعراء شرق الأندلس في هذه الفترة.

١ - المدح:

نظم أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد الكناني^(٢) قصيدة في مدح الأمير أبا يعقوب بن عبد المؤمن تعرض فيها للذكر الأندلس ووصف سوء أحوالها السياسية، منها:

أبت غير ماء بالنخيل وروداً .: وهامت به عذاب الجمام مروداً
وقالت لحاديها أثم زيادة .: على العشر في وردى له فأزيدا
عدمك ما هذا القنوع وما أنا .: عهدتك لا تثنين عنه وريداً
أنونا إذا ما كنت منه قريبة .: وضباً إذا ما كان عنك بعيداً
دوى حضرة الملك الظليل رواقه .: ففيها لعمري تخمدين وروداً^(٣)

(١) غارسيا غوميث، الشعر الأندلسي، ص ٣٠ وما بعدها، راجع أيضاً: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، بيروت، ١٩٩٠، ص ٩٠.

(٢) أحمد بن عبد الرحمن بن أبي أحمد الكناني بلنسي، سكن مالقة، وكان من بيت جليل، سوى الهمة، أديك بارعاً فاضلاً، شاعراً مطبوعاً، كاتباً بليغاً، كتب بجيان عن أبي إسحاق بن همشك، ولما توفي ابن همشك قصد مراكش، راجع: ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، القسم الأول - السفر الأول، ص ١٩٧.

(٣) ابن عبد الملك، نفس المصدر والقسم والسفر، ص ١٩٧.

ومنها يصف حال الأندلس ويبعث على الجهاد:

ألا ليت شعري هل يمدُّ لى المدى .: فأبصر حفل المشركين طريداً
وهل بعد يقضى فى النصارى بنصره .: تغادرهم للمرهفات حصيداً
ويغزو أبو يعقوب فى شنت ياقب .: يعيد عميد الكافرين عميداً
ويلقى على إفرنجهم عبء كلكل .: فيتركهم فوق الصعيد مجرداً
يفادرهم جرحاً وقتلاً مبرحاً .: ركوعاً على وجه الفلا وسجوداً
إلى أن يقول:

لعل أمير المؤمنين يعيدها .: إلى أفضل من حالها فتعودا^(١)

ومن قصيدة لأبى الحسن بن الفضل^(٢)، يمدح ابن هود فى أول دولته:
أحببت فى الناس بان هود .: ملك بنى هود الكرام^(٣)
ولم يزل أمرنا قديماً .: فى آل لخم أو فى جذام

وقال ابن الآبار يمدح أبا زكريا الحفصى^(٤) سلطان أفريقية:
تخلت بعلياك الليالى العواطل .: ودانت لسفياك السحاب الهواطل
وما زنية الأيام إلا مناقب .: يفرعها أصلان بأس ونائل^(٥)
إذ الطول والصَّول استقلا براحة .: ترقى لها نحو النجوم أنامل

ومن شعره أيضاً فى مدح مسعيد بن حكم رئيس منورقة:
سيد أيد رئيس بئيس .: فى أساريه صفات الصباح
قمر فى أفق المعالى تجلّى .: وتخلّى بالسودد الوضاح^(٦)
سلم البحر فى الساحة منه .: لجواد تسمّوه بحر السماح

وقال ابن الآبار يمدح المستنصر الحفصى صاحب أفريقية:
إن البشائر كلها جمعت .: للدين والدنيا وللأثم^(٧)
فى نعمتين جسيمتين هما .: براء الإمام وبيعة الحرم

(١) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، القسم الأول، السفر، ص ١٩٨.

(٢) الشاعر أبو الحسن بن الفضل من أهل أوربولة، سكن أشبيلية، وكان فقيهاً شاعراً ألف عدة تواليف فى الموشحات، راجع فى ترجمته: ابن سعيد، اختصار القدر، ص ١٠٨، ت: ١٦.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) هو الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد مؤسس الدولة الحفصية بتونس، حكم من سنة ٦٢٥-٦٤٧هـ/١٢٢٨-١٢٤٩م، راجع: الزركشى، تاريخ الدولتين الموحدة والحفصية، ص ٢٣ وما بعدها.

(٥) فى: المقرئ، نفح الطيب، ج ٥، ص ١٧.

(٦) المقرئ، نفس المصدر، ج ٥، ص ١٧.

(٧) نفس المصدر والجزء، ص ٢٥٦، حكم المستنصر بن أبى زكريا بن يحيى من سنة ٦٤٧-٦٧٥هـ/١٢٤٩-١٢٧٦م، راجع: الزركشى، تاريخ الدولتين الموحدة والحفصية، ص ٢٣ وما بعدها.

٢ - الوصف:

تزخر كتب الأدب الأندلسي بشواهد عديدة من الشعر الوصفى الذى اختصت به بلاد شرق الأندلس التى كانت مصدراً خصباً استلهم منها الشعراء موضوعاتهم ففى وصف بلنسية يقول الشاعر ابن الزقاق البلنسى:

بلنسية - إذا فكرت فيها .: وفى آياتها - أسنى البلاد (١)
وأعظم شأهى منها عليها .: وإن جمالها للعين بآدى
كساها ربها ديباج حسن .: لها علمان من بحر ووادى
كما شبهها الشاعر مروان بن عبد الله بن عبد العزيز بحسناء تكسوها الخضرة
فقال:
كان بلنسية كعاب .: وملبسها سندس أخضر (٢)
إذا جثتها سترت نفسها .: بأكامها فهى لا تظهر
وبعبر الشاعر محمد بن عياش عن حالة القلق والضيق التى أصابت أهلها عندما
أصبحت بلنسية ثغراً للعدو يصاحبها ويماسيها بهجمات وضاقت الحال فيها، واشتدت
الحال على أهلها وازداد خوفهم على مصيرها ومصيرهم، فيقول:

بلنسية! بينى عن القلب سلوة .: فأنك روض لا أحن لزهره
وكيف يحب المرء داراً انقسمت .: على صارمى جوع وفتنة مشرك (٣)
.:
وكأنما أراد أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن حريق الخزومى (٤) أن

-
- (١) وهو أبو الحسن علي بن عطية، توفى عام ٥٣٠هـ؛ راجع: المقرئ، نفع الطب، ج١، ص ١٦٨.
(٢) فى: المقرئ، نفس المصدر، ج١، ص ١٦٩.
(٣) وابن عياش، شاعر أديب من شعراء الأندلس، عاش فى القرن السادس الهجرى، راجع: المقرئ، نفس المصدر والجزء والصفحة؛ وانظر أيضاً: ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الأول، ص ٢٧٥، ت: ٥٣٣.
(٤) بلنسى، مولده عام ٥٥١هـ، وكان شاعراً مقلداً مجيداً، سريع البديهة بارعاً، كاتباً بليغاً مكثراً من نظم الكلام ونثره، توفى عام ٦٢٢هـ؛ راجع: ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الأول، ص ٢٧٥، ت: ٥٥٣؛ ابن الزبير، صلة الصلة، ص ١٢٩، ت: ٢٦٣؛ ابن الآبار، التكملة، ت: ١٨٩٥.

يناقض ابن عياض ويصحح الفكرة التي يكونها قارئ بيتيه عن بلنسية حين قال:
 بلنسية ا قرارة كل حسن .: حديث صبح في شرق وغرب
 فإن قالوا : محل غلاء سعر .: ومسقط ديمتى طعن وضرب
 فقل هي حفت رباها .: بمكروهين من جوع وحرب (١)
 ويتغنى بها أبو عبد الله الرصافي البلسنى (٢) فيقول:
 بلادى التى ريشت قهيد متى بها .: فريخا وآوتنى قرارتها وكرا
 مهادى ولين العيش فى ريق الصبا .: إلى الله أن أنسى اعتيادى بها خيرا
 إلى أن يقول:
 بلنسية تلك الزمردة التى .: تسيل عليها لؤلؤة نهر (٣)
 ومن شعر الرصافي فى وصف بلنسية:
 ولا كالرصافة من منزل .: سقته السحائب صوب الولى
 أحسن إليها ومن لى بها .: وأين السرى من الموصلى (٤)
 وفى وصف جزيرة ميورقة يقول ابن اللبانة:
 بلد أعارته الحمامة طوقها .: وكساء حلة ريشة الطاووس
 فكأنما الأنهار فيه مدامة .: وكأن ساحات الديار كؤوس (٥)
 وفى ذكر محاسن شاطبة يقول بعضهم:

(١) فى : المقرئ، نفع الطيب، جـ١، ص ١٦٩.

(٢) بلنسى الأصل، سكن غرناطة مدة ثم انتقل إلى مالقة، ويصفه ابن الخطيب بقوله: كان فعلا من
 فعول الشعراء ورئيسا فى الأدباء عفيفا ساكنا، ذا سمت توفى عام ٥٧٢هـ، راجع: الإحاطة،
 جـ٢، ص ٥٠٥ وما بعدها.

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ٢، ص ٥٠٧، المقرئ، جـ٥، ص ١٥٦.

(٤) فى : المقرئ، المصدر السابق، جـ١، ص ١٦٩.

(٥) فى: المقرئ، نفس المصدر والجزء، ص ١٥٨.

نعم ملقى الرجل شاطبة :. لفتى طالت به الرجل
بلدة أوقاتها - سحر :. وصبا - فى ذيله بلل
ونسيم عرفه أرج :. ورياض عضتها تمل
ووجدة كلها غرر :. وكلام كله مثل^(١)
وفى وصف صنم شاطبة يقول أبو عامر البرياتى:

بقية من بقايا الروم معجبة :. أبدى البناء بها من علمهم حكما
لم أدر ما أضمروا فيه سوى أمم :. تتابعت بعد سموه لنا صنما
كالبرد الفرد ما أخطأ مشبهه :. حقا لقد برد الأيام والأما
كأنه واعظ طال الوقوف به :. مما يحدث عن عاد وعن إرما
فانظر إلى 'حجر صلد يكلمنا :. أسمى وأعظ من قس لمن فهما^(٢)
وفى وصف قطعة بحرية يقول محمد بن عبد الله بن سلفير الشاطبي :

ونبت ماء لمسرى الريح جريتها :. تمشى كما مثلت التكاثر والنمل
قد جللوا شرعا مثل ما نشأت :. يظللها من غمام فوقها ظلل
كأنها فوق متين الريح سابحة :. فتخاء يعلو بها طوراً ويشغل^(٣)
٣ - الرثاء:

اشتهر شعراء شرق الأندلس بشعر الرثاء من ذلك قصيدة بليغة لابن الآبار رثى
فيها أستاذه أبا الربيع سليمان الكلاعى الذى استشهد فى موقعة أنيشة عام ٦٣٤هـ،
مطلعها:

ألا بأشلاء العلا والمكارم :. تقد بأطراف القنا والصوارم
وعوجا عليها ماربك ومغازه :. مصارع خست بالكلات والجماجم
تخبي وجوها فى الجنان وجبهة :. بما لقيت حمرا وجوه الملاحم^(٤)

(١) فى: المقرئ، نفس المصدر والجزء، ص ١٧٣ وما يليها.

(٢) فى: المقرئ، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٥٣.

(٣) ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ٣٨٩.

(٤) فى: ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٤، ص ٣٠٤.

ويمثل شعر الاستغاثة لاستنقاذ مدن شرق الأندلس جانباً إنسانياً هاماً من جوانب الشعر في هذه المرحلة التاريخية، فعندما اشتد الخطر على بلنسية وفغرت النصرانية الأسبانية فاما وتخاذلت مقاومة أهلها عن الصمود وتطلعت الأنظار نحو المغرب الحفصى، فنظم الشعراء القصائد يستحثون فيها الحفصيين على نصرة بلنسية وإنجادهاء، ومن هذه الأصوات الحزينة التى انطلقت لتستغفر عزائم الحفصيين صوت ابن الآبار من قصيدة طويلة نظمها مستنجداً فيها بأمير أفريقية أبى زكريا الحفصى، مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا .: إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمت .: فلم يزل منك عزّ النصر ملتصقا
وحاش مما تعانیه حشاشتها .: فطال ما ذاقَت البلوى صباح مسا (١)

كما نظم أبو المطرف بن عميره قصيدة وجهها إلى الشيخ أبى جعفر بن أمية يستغث به حين حل الرء ببلنسية منها:

ألا أيها القلب المصرح بالوجد .: أمالك من بادی الصبابة من بدّ
وهل من سلو یرجى لیتیم .: له لوعة الصادى وروعة ذى الصّد (٢)
كما وجه إلى أمير أفريقية الحفصى يستنجد به:

شاقه غب الخيال الوارد .: بارق هاج غرام الهاجد
صدق وعد للتلاقى ثم ما .: طرقا ألا يخلف الواعد
إلى أن يقول:

إنما الفخر لمولانا أبى .: زكريا بن عبد الواحد
ملك لولا حلاه الفر لم .: يجر بالحمد لسان الحامد (٣)

(١) وردت هذه القصيدة فى مخطوط زواهر الفكر وجواهر الفقر لابن المرباط، لوحات ٨٢، ٨٣، ٨٤،

كما وردت فى المقرئ، أزهار الرياض، جـ ٣، ص ٢٠٤.

(٢) فى: المقرئ، نفع الطيب، جـ ١، ص ٢٨٤.

(٣) نفس المصدر والجزء، ص ٢٨٧.

ويدخل فى نطاق هذا اللون من الشعر، شعر الحنين للوطن، وذلك أنه عندما اشتدت حركة الاسترداد المسيحى وازداد إلحاح العدو على ثغور شرق الأندلس، عمد كثير من أهل شرق الأندلس إلى الهجرة إلى المغرب وأفريقية، وظهر فى شعر المهاجرين عاطفتهم المشوبة نحو وطنهم، فتمثل فى ذلك الحنين المتواصل يناجون به أوطانهم وديارهم التى شهدت أيام لهوهم ومرحهم فلم يسلوها وهم آمنون فى دار هجرتهم، ومن أمثلة هذا الشعر، قول أبى المطرف بن عميرة بعد انفصال عن بلنسية عن وحشة فى ذى القعدة عام ٦٢٨هـ:

أسير بأرجاء الرجا، وإنما .: حديث طريق طارق الحدثان
وأحضر نفسى أن تقدمت خيفة .: لفصن عنان أو لفصن زمان
أبترك حظى للحضيض وقد سرى .: لا مكانة فوق الذرا جبلان (١)
وله أيضاً فى نفس الغرض:

أحنّ إلى نجد ومن حلّ فى نجد .: وما ذا الذى يغنى حنياً أو يجدى
وقد أوطنوها وادعين وخلفوا .: محبهم رهن الصبابة والوجد (٢)
٤- شعرا المجنون:

كان لحياة الترف والرفه التى يعيشها الشعراء فى نطاق طبيعى لا نظير له يحيط ببيئة شرق الأندلس، من رياض تكسوها الخضرة السندسية، وتنبث فيها الرياحين والزهور، وتشققها الجداول الملتوية، والقنوات المنسابة بين هذه الرياض، أعظم الأثر فى إكثار الشعراء وأولى اللهو من مجالس الأُنس يغترفون ما شاءوا من متع الطبيعة، من غناء تشدو به قينة أو لحن يعزفه عواد وكؤوس تعب وأخرى تصب، من ذلك قول أبو جعفر أحمد بن طلحة الوزير (٣)، من جزيرة شقر من عرف بالمجنون والخلاعة بالأندلس:

(١) فى: المقرئ، نفح الطيب، ج٢، ص ٢٩٥.

(٢) فى: ابن الخطيب، الإحاطة، ج٤، ص ٢٩٧.

(٣) أبو جعفر أحمد بن طلحة الوزير الكاتب، من بيت مشهور بجزيرة شقر، كتب عن ولاية الموحدين بشرق الأندلس، ثم استكتبه الأمير محمد بن يوسف بن هود حتى تغلب على الأندلس، راجع: المقرئ، نفح الطيب، ج٤، ص ٢٨٤ وما بعدها.

هات المدام إذا رأيت شبيهها .: فى الأفق يا فرداً بغير شبيهه
فالصبح قد ذبح الظلام بنصله .: فقدت تخصمه الحمام فيه (١)

ب- الموشحات والأزجال:

يذهب الأستاذ خوليان ريبيرا إلى القول بأن أهل الأندلس كانوا يستعملون اللغة العربية الفصحى كلغة رسمية فى المدارس وكتابة الوثائق، ونتيجة لاختلاط عرب الأندلس بالعجم انتشرت لهجة أعجمية من اللاتينية الدارجة أو العجمية El Romance كانوا يستخدمونها فيما بينهم فى شئونهم اليومية وفى أحاديثهم، وكان هذا الازدواج فى اللغة الأصل فى نشأة لون جديد من الشعر المختلط، تمتزج فيه مؤثرات عربية وشرقية (٢). ويخدم هذا الطراز فن الغناء لسهولة وسلاسته وتحرره من قيود الشعر التقليدى وعبودية القافية الواحدة (٣). وذاع أمره وانتشر بين أوساط العوام، حتى أصبح لوناً من الأدب، وقد أخذ هذا الطراز الجديد من الأدب الشعبى صورتين : إحداهما «الموشحة» والثانية «الزجل» (٤).

الموشحات:

تتألف الموشحة من فقرات تسمى الأبيات، كل فقرة منها تكون من عدد من أشطار البيوت فى قافية واحدة، وتعقب كل فقرة خرجة فى بحر أشطار الفصن ولكن فى قافية أخرى، ويلتزم الوشاح قافية هذه الخرجة فى كل خرجات موشحته، أما الأغصان فقد يكون كل منها على قافية ولكن من بحر واحد (٥)، ولغة الموشحة

(١) المقرئ، نفس المصدر والجزء، ص ٢٨٦.

(٢) جنثال بالنبيا (آنخل)، تاريخ الفكر الأندلس، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٥، ص ١٤٢-١٤٣.

(٣) جودة الركائى، فى الأدب الأندلس، دمشق، ١٩٥٥، ص ٣٠٢، وراجع أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ج-٢، ص ١٨٤.

(٤) جنثال بالنبيا، المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٥) نفس المرجع والصفحة، وانظر أيضاً: عبد العزيز الأهوانى، الزجل فى الأندلس، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٦ وما بعدها؛ سيد غازى، فى أصول التوشيح، الطبعة الثانية، دار المعارف، ١٩٧٩، ص ١١.

الفصحى (١). ويمكننا القول بأن لفظ الموشحة يطلق على المذهب من الزجل الذى تستعمل فيه الفصحى أو ينظم فى أسلوب أرفع من أسلوب الأزجال (٢).

ولقد ازدهرت صناعة الموشحات فى شرق الأندلس فى عصر المرابطين وصدر من دولة الموحدين، وظهر من كبار الوشاحين فى هذا العصر الأخير الوشاح ابن موهـد الشاطيى، وكان من أهل مرسية، وقد مدح ابن مردنـيش أمير شرق الأندلس بموشحة محكمة النسيج، مقعمة بالنغم والرشاقة مطلعها:

أما طربت إلى الحميا .: ما بين ندمان وساق
والبدر فى عقب الثريا .: والليل ممدود الرواق
خذها على رغم العذول
خرقاء تلعب بالعقول (٣)

ومن الوشاحين الذين برزوا فى هذا العصر أبو الحسن بن نزار من وادى آش الذى نظم موشحة قدمها لابن مردنـيش يستعطفه فيها ليطلق سراحه مطلعها:

تازعك البدر الـليـاح .: بنت الدنـان
فلم يدع لك اقـتراـح .: على الزمـان
وفـيها يقـول:

يا هل أقول للحسود والعيس تخدى
بالائـمى على السراح كانت أمانى
أخرجها ذات السـماح إلى العـيان (٤)

(١) ليفى بروفنسال، الإسلام فى المغرب والأندلس، ص ٢٨١.

(٢) جوتنالت بالنشيا، المرجع السابق، ص ١٤٣.

(٣) ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ٣٩٠، وانظر: سيد غازى، فى أصول التوشيح، ص ١٦٩، محمد زكريا عنانى، الموشحات الأندلسية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، يوليـه ١٩٨٠، ص ١٣٥.

(٤) المقرئ، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٩-٤٠.

أما الزجل:

فشعر غنائى يصاغ فى فقرات تسمى أبياتاً، وتبدأ مقطوعته ببيت يعرف بـ «المركز» أو «السمطة»، تليه أغصان ذات قافية واحدة ووزن واحد، يتكون الغصن منها من ثلاثة مصاريع أو أكثر، ثم يعقبها بيت فى نفس وزن المركز وقافية حتى يتيسر إنشاده مع المجموعة على نغمات العود أو المزمار^(١)، ولغته دارجة ملحونة^(٢).

ومن أشهر زجالى شرق الأندلس أبو عبد الله محمد بن ناجية اللورقى، الذى ذكره الدباغ فى كتاب الأزجال بأنه «شيخ الزمان وخليفة الإمام ابن قزمان»^(٣)، ومن أزجاله:

كلما ذكرت فيه .: والذى بقى لى أبدع
لم يرا قط من أملح .: لم يرا قط من أشجع^(٤)

جـ - النشر:

من الأهمية بمكان أن نستعرض بادئ ذى بدء المراحل التى مر بها النشر الأندلسى حتى سقوط قواعد شرق الأندلس فى أيدي المسيحيين. ويمكننا القول أن هذا النشر سلك منذ البداية فى تطوره نهج المشرق، فقد تميزت مراحلها الأولى، بالبساطة والبعد عن التعقيد والايجاز فى القول والقصد فى التعبير وندرة التحلية والسجع حتى عصر الخلافة الأموية، ثم انتقل بعد ذلك بتأثير الأساليب الوافدة من المشرق إلى مرحلة تتسم بالميل إلى التطويل والأطناب والبسطة فى التعبير والفخامة فى التراكيب والتفنن فى الأساليب والمراوحة بين السجع والازدواج واستعمال الاقتباسات المختلفة والإشارات والتلميحات إلى الأحداث التاريخية وغيرها منذ أيام دولة العامين حتى أوائل عصر الطوائف، وفى هذه المرحلة ظهر كبار النثرين من أمثال ابن شهيد وابن زيدون، وفى عصر الطوائف والمرابطين وصل النشر إلى مرحلة من الصناعة الدقيقة بلوازمها من سجع وجناس وطباق وغيرها من محسنات البديع وألوان الزخرفة على نحو ما نراه فى كتابات ابن بسام فى ذخيرته وابن خاقان فى مطمحده، وتعتبر هذه

(١) جنتال بالنياء المرجع السابق، ص ١٤٣، عيد العزيز الأهوانى، المرجع السابق، ص ٥١.

(٢) لينى بروفنسال، الإسلام فى المغرب والأندلس، ص ٢٨١.

(٣) ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ٢٨٣.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

المصنفات مثالا حياً لهذا النثر الحافل بمظاهر التوشيه والتنميق^(١). وفي عهد الموحدين دخل النثر الأندلسي مرحلة التكلف والإسراف في الصناعة، ولعل أبرز ظاهرة لاحظناها عند كتاب هذا العصر أنهم كانوا ذوي ثقافة عامة، وقد كان لغلبة ثقافتهم الدينية وهي الثقافة السائدة بصفة خاصة في عصر الموحدين، أثر كبير في أساليبهم الكتابية التي حفلت بالألوان البديعية والمصطلحات العلمية المتنوعة، فقدت بذلك كثيراً من روح الخفة والركة التي كانت نخبها عند كتاب العصور السالفة، وغلب عليها طابع جامد ديني تعليمي، مما كان له أثره في غلبة المسحة الدينية والتعليمية على النثر الأدبي، وكثير من كتاب هذا العصر تناولوا الموضوعات الدينية والزهدية وكان معظمهم من أهل الحديث والفقه قبل أن يكونوا أهل أدب ولهذا كان من الطبيعي أن تنعكس ثقافتهم الدينية في إنشائهم الأدبي، بالإضافة إلى أن طبيعة هذا العصر في المشرق أم في المغرب باعتباره عصر الحركة الصليبية كانت تفرض على الكتاب الالتزام باستخدام شعر الحماسة وموضوعات تعبر عن المشاعر القومية والدينية، وكان لسقوط قواعد شرق الأندلس في أيدي الأراغونيين والقشتاليين أصداء قوية وانعكاسات واضحة على الكتابات الأدبية والشعر، فقد حملت الأدباء على بكاء مدنهم وثناء حواضرهم بل إن بعضهم عمد إلى رثاء الإسلام فيما آلت إليه مصائر المساجد حيث استبدل قرع النواقيس بأذان المؤذنين، وعلقت الصليبان مكان الأهلة، وتحول المسلمون الحاكمون إلى محكومين مستذلين أطلق عليهم اسم المدجنين، وكان لهذا التحول أعظم الأثر في شيوع الزهد^(٢).

تعددت صور الكتابة الأدبية في هذا العصر فهناك الرسائل الديوانية والإخوانية، وأدب المساجلات بين المدن كما تمثله رسالة أبي بحر صفوان بن إدريس التي يناظر فيها بين مدن الأندلس، ورسالة الشقندى في المفاضلة بين العدوتين، وهو الشكل الذي كان ابن حزم قد ابتدأه في رسالة «فضل الأندلس» وتابعه فيما بعد ابن الخطيب في المفاخرة بين مالقة وسلا. أما الرسائل الديوانية لهذا العصر فقد تميزت بوجه عام بميلها إلى الإسهاب والتطويل مع المبالغة في اصطناع المحسنات البديعية والسجع.

ومن الجدير بالذكر أن حركة الموحدين الإصلاحية التي شملت كافة الأنظمة والمؤسسات الثقافية أدركت ديوان الرسائل فتراهم يصنفون الكتاب صنفين : كتاب الإنشاء وكتاب الجيش^(٣)، وأصبحت الكتابة الديوانية على عهدهم ذات رسوم

(١) محمد بن شريفة، أبو المطرف بن عميرة الخزومي، حياته وآثاره، الرباط، ١٣٨٥ هـ، ص ١٧٩ وما بعدها.

(٢) انظر : محمد بن شريفة، نفس المرجع، ص ١٨٠-١٨١.

(٣) انظر : المراكشي، المعجب، ص ٢٤٤.

وتقاليد خاصة، وطريقة تميزت بها عن غيرها، ويذكر المراكشي أن الكاتب أبا عبد الله بن عياش هو الذى ابتدع هذه الطريقة فسلكها الكتاب من بعده ويعبر عن ذلك بقوله : «ولم يكتب لهم منذ قام بأمرهم أعنى من كتابة الإنشاء من عرف طريقتهم وصب فى قلوبهم وجرى على مهيعهم وأصاب ما فى أنفسهم لأبى عبد الله بن عياش هذا فإن القوم لهم طريقة تخالف طريقة الكتاب، ثم جرى الكتاب بعده على أسلوبه وسلوكوا مسلكه لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة» (١). ويستفاد مما أورده القلقشندي فيما يتعلق بمكاتبات الموحدين الرسمية من خلال النماذج التى انتهت إليه، أنها كانت على أسلوبين، الأول أن تفتح المكاتبة بعبارة من أمير المؤمنين فلان ويدعى له بما يناسبه إلى فلان ثم يدعى له بما يليق به، ثم يلى ذلك عبارات السلام والتحية ثم تليها عبارات التحميد والصلاة على النبى ﷺ والترضية عن الصحابة ثم عن إمامهم المهدي، ثم يؤتى الهدف الرئيسى من الرسالة وينتهى بالسلام، ومن الجدير بالملاحظة أن الكاتب يصطنع نون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن الشخص الذى وجهت إليه الرسالة (٢). ونفس هذا الأسلوب هو الأسلوب الشائع فى مجموع رسائل موحدية التى نشرها الأستاذ ليفى بروفنسال (٣).

أما الأسلوب الثانى، فالمكاتبة تفتح فيه عادة بلفظ «أما بعده» ثم يتابع الكاتب فيه نفس ما تقدم فى الأسلوب الأول بعد البعدية (٤).

أما الرسائل الإخوانية، فالمقصود بها الرسائل التى كان يتبادلها الإخوان فى مختلف المناسبات كالتعازى والوصايا والشفاعات والمعاتبات، وكان يقلب على أسلوبها مظاهر الصناعة والتكلف، كما كانت تخلو من روح الخفة والمرح والدعابة والصراحة والانطلاق وهى الصفات التى نجدتها فى إخوانيات المعصور السابقة وبخاصة فى عصر الطوائف (٥).

ومن بين الكتاب الذين برزوا فى شرق الأندلس:

١ - عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد السلمى، من أهل مرسية، وكان يلقب بالكناسى ويكنى أبا محمد (ت : ٥٧١هـ)، عنى بالآداب واشتغل بالكتابة،

(١) المراكشي، المعجب، ص ٢٦٤.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٦، ص ٤٤٣.

(٣) انظر : مجموع رسائل موحدية، نشر ليفى بروفنسال.

(٤) القلقشندي، المصدر السابق، ج٦، ص ٤٤٦.

(٥) محمد بن شريفة، المرجع السابق، ص ١٨٣.

وكان كاتباً لأبي عبد الله بن سعد ولغيره من الأمراء، وصفه ابن سعيد وقال:
«به ختمت البلاغة في الأندلس»^(١).

٢ - علي بن إبراهيم بن محمد بن سعد الخير، من أهل بلنسية، يكنى أبا الحسن،
(ت : ٥٧١هـ)، كان أديباً بارعاً، صنف كتاباً عنوانه «كتاب القرط المذيل
على كتاب الكامل للمبردة»^(٢)، عالماً بالعربية واللغة والآداب إماماً في ذلك^(٣).

٣ - أحمد بن عبد العزيز بن الفضيل بن الخليفة الأنصاري، من أهل شربون ولكنه
أقام في بلنسية، وكان بارعاً في الآداب، شاعراً محسناً أتقى الوراقة بديعها معروفاً
بالانتقان والضبط، توفي عام ٥٧٢هـ^(٤).

٤ - أحمد بن محمد بن جعفر بن سفيان المخزومي يكنى أبو بكر (ت : ٥٨٠هـ)، من أهل
جزيرة شقر، وكان أديباً نابهاً من بيت علم ورئاسة^(٥).

٥ - الكاتب أبو القاسم أحمد بن يامن، من أهل جزيرة شقر، كتب مدة عن أبي
الحسين بن عيسى رئيس شاطبة، وكان سريع النادرة في أنواع المقال وقد
استحسن ابن سعيد فصولاً من رسائل صنفها ابن يامن ووقف عليها ابن
سعيد^(٦).

٦ - محمد بن أبي بكر بن يوسف بن عفيون الغافقي، يكنى أبا عمر من أهل
شاطبة، (ت : ٥٨٤هـ)، ألف كتاباً في عجائب البحر، وكتاباً في أخبار الزهاد
والعباد^(٧).

٧ - عبد الرحمن بن محمد بن مغاور بن حكم مغاور السلمى، من أهل شاطبة (ت
: ٥٨٧هـ) كان في زمنه أحد كبار الكتاب وأبرز شيوخهم وجلة أدبائهم وكان
يتميز بالثقة فيما يكتب وصدق اللهجة وكرم النفس، كما كان بليغاً مفوهاً،
رزق إلى جانب إجادته في الكتابة حفظاً وافراً في نظم الشعر، وفي المشاركة في
الفقه وعقد الشروط، وألف كتاباً عنوانه «نور الكمام وسجع الحمام»^(٨).

(١) ابن الآبار، التكملة، جـ ٢، ص ٥٦٧، ت : ١٦٠٥.

(٢) ابن الزبير، صلة الصلة، ص ٩١، ت : ١٨١.

(٣) ابن الآبار، التكملة، جـ ٢، ص ٦٧١، ت : ١٨٦٧.

(٤) ابن عبد الملك، المصدر السابق، القسم الأول، السفر الأول، ص ٢٤٣، ت : ٣٢١.

(٥) الضبي، بنية المتمس، ص ١٥٦، ت : ٣٧١.

(٦) ابن سعيد، اختصار القدر، ص ٥٣، ت : ٧٧.

(٧) ابن الآبار، التكملة، جـ ١، ص ٢٥٣، ت : ٨١٧.

(٨) نفس المصدر، جـ ٢، ص ٥٧٨، ت : ١٦٢٢.

٨ - علي بن عبد الله بن علي (ت: ٦١٤ هـ)، من بلدة شاطبة ولكنه أقام في مرسية وكان أديباً محدثاً مثقفاً، وفقهياً مشاوراً، ومن مصنفاته «ترتيب أحاديث التقصى على أبواب الموطأ»^(١).

٩ - عبد الله بن حامد بن يحيى بن سليمان بن أبي حامد المعافري، من أهل مرسية (ت ٦٢١ هـ)^(٢)، وصفه ابن الأبار فقال: «كان من رجالات الأندلس وجاهه وجلالة من التحقق بالكتابة والمشاركة في قرص الشعر وإليه كانت رئاسة بلده»^(٣)، وقد اتخذ الخليفة الموحدى العادل كاتباً له، ورافقه ابن حامد في غزوته إلى أشبيلية، فقال من قصيدة منها :

هذه حمص فقد تم الأمل :. سادت الشمس فحلت بالحمل^(٤)

١٠ - أبو الربيع الداني (سليمان بن أحمد بن علي بن أبي الأغلب)، (ت : ٦٣١ هـ)^(٥) من بيت مشهور بدانية، تعلق بطريقة الكتابة فأبلى فيها شبابه، ثم اشتغل بالتوثيق في شيخوخته^(٦).

١١ - حسن بن عبد الرحمن بن محمد الكنانى المعروف بالزفراء (ت : ٦٣٧ هـ)^(٧)، من أهل مرسية، وكان أديباً صاحب مقطعات وتذييلات حسنة مشاركاً في العربة وعلم العروض.

١٢ - محمد بن محمد بن أحمد الأنصارى، المعروف بابن الجنان من أهل مرسية، وكان إلى جانب اشتغاله بالشعر كاتباً بليغاً، محدثاً راوية ضابطاً، استكتبه بعض أمراء الأندلس، وفيه يقول ابن الخطيب: «كانت كتابته شهيرة تضرب بذكره فيها الأمثال، وتطوى عليه الخناصر، قالوا لما عقد أمير المسلمين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود البيعة لابنه الوائى بالإمارة من بعده، تولى إنشاءها وجعل الحاء المهملة سجعها مردفاً»^(٨).

(١) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الخامس، القسم الأول، ص ٢٣٥، ت : ٤٧٠؛

وراجع أيضاً في سيرته: ابن الزبير، المصدر السابق، ت: ١٢٥؛ ابن الأبار، التكملة، ج ٢، ت: ١٨٨٨.

(٢) ابن الأبار، التكملة، ج ٢، ص ٥١٣، ت: ١٤٤٣.

(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٤) ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ٢٥٥-٢٥٦.

(٥) ابن سعيد، اختصار القديح، ص ١٢٣، ت: ٢١.

(٦) ابن الأبار، التكملة، ص ٢٢، ت: ٥٢.

(٧) ابن سعيد : اختصار القديح، ص ٢١.

(٨) الإحاطة، ج ٢، ص ٣٤٨ وما يليها.

ويرى على هؤلاء الكتاب جميعاً في شرق الأندلس شخصيتان عظيمتان هما:

أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة الغزومي، ومحمد بن عبد الله بن الآبار.

أما الأول وهو أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن أحمد ابن عميرة الغزومي^(١)، فأصله من جزيرة شقر بها ولد في عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م، وبها نشأ، وفيها كان بيته وأسرته الغزومية، وإليها كان يعود كلما انتهى من تطوافه في سبيل العلم أو العمل، سكن بلنسية زمناً بغرض الدراسة حيناً وبحكم العمل حيناً آخر، ذلك أنه تقلد ابن عميرة منصب الكتاب بإمارة بلنسية في ولاية السيد أبي عبد الله بن أبي حفص الموحدى، ثم تركها وعاش فترة في أشبيلية في خدمة بعض ساداتها الموحدين ثم عاد إلى بلنسية ليكتب على واليها السيد أبي زيد، ثم عن خلفه الأمير زيان ابن مردنيش، ثم التحق عام ٦٢٨هـ بخدمة أمير المسلمين أبي عبد الله بن هود فكتب زمناً يسيراً عن القائد أبي عبد الله بن مردنيش رئيس شقر ثم شغل بعد منصب القضاء بشاطبة، وانتقل بعدئذ إلى مرسية حيث كتب عن الأمير ابن هود ورافقه في بعض حروبه وقام له ببعض المهمات في أنحاء مملكته، كما كتب عن أبي بكر بن خطاب أثناء توليه على مرسية، وعندما تغلب زيان ابن مردنيش على مرسية ظل مقيماً بها يكتب عنه إلى أن أحس بدنو نهاية إمارته، فتركها متوجهاً إلى المغرب في عام ٦٣٧هـ، وهناك تقلد الكتابة عن الخليفة الرشيد الموحدى بمراكش، ثم تولى منصب القضاء ببعض مدنها إلى أن رحل إلى أفريقية في عام ٦٤٦هـ حيث تولى قضاء بعض أعمالها ثم أصبح مستشاراً للخليفة الحفصى إلى أن أدركته المنية في عام ٦٥٨هـ^(٢)، وقد اشتهر ابن عميرة في صناعة الكتابة والترسل، وانتهت إليه رياستها في عصره وشهد له بالأمانة فيها فنحول الكتاب والمترسلين من معاصريه ومن أتى بعدهم، فوصفه ابن سعيد في القدح، فقال: «شيخ كتاب زماننا، وإمام أدباء أواننا»^(٣)، وقال عنه في المغرب، «هو الآن عظيم الأندلس في الكتابة في فنون من العلوم»^(٤) أما المقرئ فقال عنه «قدوة البلغاء وعمدة العلماء، وصدر الجلة الفضلاء... مال إلى الأدب فبرع براعة «عد فيها من مجيدى النظم، فأما الكتابة فهو

(١) هكذا ورد اسمه كاملاً في، ابن الشاط (قاسم بن عبد الله الأنصاري): كتاب الشرف على أعلى شرف، في التعريف برجال سند البخارى من طريقة الشريف أبى على بن أبى الشرف، مخطوط الأسكوريال رقم ١٧٣٢، ورقة ٣٤.

(٢) راجع: محمد بن شرفة، أبو المطرف بن عميرة، ص ٨٥.

(٣) اختصار القدح، ص ٤٢، ت: ٦.

(٤) ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ٣٦٣.

فارسها الذى لا يجارى وصاحب عينها الذى لا يبارى»^(١). وكتب ابن عميرة العديد من الرسائل الديوانية والإخوانية، ورد بعضها فى المصادر العربية، كما ورد بعضها فى مجموع ألفه أبو العلاء بن المرابط الذى كان معاصراً لابن عميرة وظل قاضياً بأوريولة حتى سقوطها فى أيدي المسيحيين، وبلغ عدد هذه الرسائل نحو أربعين رسالة بعضها لإخواني والآخر ديواني^(٢). وهناك مجموعة أخرى من رسائل ابن عميرة وردت فى «كتاب لباب الألباب من نظم الشعراء ونثر الكتاب»، عدتها عشرة رسائل مما كتبه ابن عميرة إلى الرئيس أبى عثمان سعيد بن حكم القرشى^(٣). ومن هذه الرسائل رسالة يصف فيها ابن عميرة استيلاء المسيحيين على مدينة شقر، ويتوجع لسقوطها ويكى ويتمحسر على عظمتها جاء فيها: «لم زحفت كتيبة الكفر بزرقها وشقرها حتى أحاطت بجزيرة شقرها، فأهاك لمسقط الرأس هوى نجمه، ولفادح الخطب سرى كلمه، وبا لجنة أجرى الله تعالى النهر تحتها، وروضة أجاد أبو إسحاق - يعنى ابن خفاجة الشاعر المعروف - نعتها وإنما كانت داره التى فيها دب وعلى أوصاف محاسنها أكب، ولم تعد بعده محبين قشبيهم إليها، ودمعهم عليها أراقوه»^(٤). أما عن رسائله الديوانية فقد سبق أن نوهنا عنها فى الدراسة السياسية من هذا البحث. وغير كتابة الرسائل، ألف ابن عميرة مصنفات أخرى فى التاريخ وفى العلوم الدينية وفى مجالات أخرى، فمؤلفاته التاريخية سنذكرها فيما بعد، أما فى الدين فله كتاب تعقب فيه على الفخر الرازى فى كتاب المعالم^(٥)، ومن مؤلفاته العامة «كتاب التنبيهات على ما فى التبيان من التموهيات»^(٦)، وهو كتاب ألفه فى الرد على «كتاب التبيان فى علم البيان المطلع على إعجاز القرآن» الذى ألفه أحد معاصريه من المشاركة ويدعى أبو محمد عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكانى^(٧)، و«كتاب التنبيه على المغلطة والتمويه وإقامة الحال، عن طريق الاعتدال بالبرهان الكافى، والبيان الشافى»^(٨).

(١) نفع الطيب، ج١، ص ٢٩٢-٢٩٣.

(٢) وردت هذه الرسائل فى الجزء الثالث من كتاب زواهر الفكر وجواهر الفقر لابن المرابط، مخطوط الأسكوريال رقم ٥٢٠، من الورقة ٩٢ إلى الورقة ١١٦.

(٣) ضمن مخطوط الأسكوريال رقم ٥٢٠، الورقة ٦٥ إلى الورقة ٧٩.

(٤) فى: نفع الطيب، ج١، ص ٢٣٩-٢٤٠.

(٥) نفس المصدر، ج١، ص ٢٩٣.

(٦) نفس المصدر، ج١، ص ٢٩٤، وقد تولى نشر هذا الكتاب الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثى، بغداد، ١٩٦٤.

(٧) راجع: محمد بن شريفة، أبو المعرف بن عميرة، ص ٢٦٠.

(٨) هذا الكتاب لا يزال مخطوطاً، وتوجد منه نسخة فريدة محفوظة بمكتبة الأسكوريال تحمل

رقم ٢٩٦، انظر: محمد بن شريفة، المرجع السابق، ص ٢٦٩.

أما الكاتب الثاني ابن الآبار فهو محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القضاعي بن الآبار، ويكنى أبا عبد الله، ولد ببلنسية في ربيع الثاني عام ٥٩٥هـ، وبها كانت نشأته الأولى، وكانت الكتابة - الديوانية والإخوانية - حرفته، وقام بها لعدد من الولاة بالأندلس وأفريقية، وكان ابن الآبار إلى جانب مزاولته لمهنة الكتابة يقرض الشعر، ذكره ابن سعيد في المغرب فقال: «ورأيت فاضلاً في النظم والنثر والتاريخ وملح الآداب»^(١)، وفي اختصار القدح وصفه بقوله: «كاتب مشهور، وشاعر مذكور»^(٢). كما نعته الغبريني بقوله: «الفقيه المحدث المقرئ النحوي الأديب المجيد اللغوي الكاتب البارع التأريخي له نزعات في الأدب بارعة مستحسنة»^(٣). وكتابات ابن الآبار تنحصر في مؤلفاته ورسائله، ففي مجال التأليف له تصانيف في الحديث والأدب منها: «تكملة الصلة»، و«الحلة السيرة»، و«تحفة القادم»، و«هداية المعترف في المؤلف والمختلف»، و«قطع الرياض وهو كتاب في متخير الأشعار»، و«كتاب التاريخ»^(٤)، و«المعجم في أصحاب أبي علي الصديقي»، و«أعتاب الكتاب». وقد تميز كل كتاب من هذه الكتب بخصائص ومميزات من حيث محتوياته، وأسلوبه وموضوعه، أما رسائل ابن الآبار فنجد بعضها منشوراً منشوراً في كتب الأدب والتاريخ، نهج في أسلوبها منهج كتاب الأندلس من حيث السجع، وتحكم الكلمة في الفكرة، واختيار الكلمة لجرسها ومناسبتها في الجملة، ومن تكرار العبارة المؤدية للفكرة الواحدة، ومن حيث التورية وإن كانت توريته سهلة الإدراك واضحة الإشارة، مع عدم مغالاة في الصناعة اللفظية، ولم يبالغ في الإطناب فيجعل رسائله مملّة، وقد أخذت رسائله الطابع المألوف من البدء عادة بمقدمة والانتهاء^(٥). أما موضوعات رسائله فكانت واقعية خالية من الخيال، بعيدة عن اللهو والعبث ومبعون الحياة التارفة، فضلاً عن أنه لم يتناول من الموضوعات القصص أو الوصف وصف الطبيعة ومظاهر الحياة^(٦)، وربما يرجع سبب ذلك إلى كثرة ما تولاه من مناصب، وإلى الظروف الصعبة التي مرت بها بلنسية في عصره نتيجة اشتداد تضيق النصارى عليها.

(١) المغرب، جـ ٢، ص ٣٠٩.

(٢) اختصار القدح، ص ١٩١.

(٣) عنوان الدراية، ص ١٨٣.

(٤) المقرئ، نفع الطيب، جـ ٣، ص ٣٤٩.

(٥) انظر: عبد العزيز عبد الحميد، ابن الآبار، حياته وكتبه، الرباط، ١٩٥١، ص ٣٢٢.

(٦) نفس المرجع، ص ٣٢٢، ص ٣٣٣.

د - الدراسات النحوية:

أولى نحاة شرق الأندلس علم النحو اهتماماً خاصاً باعتباره الأساس لتفهم قواعد اللغة وأدائها وضبط حركات ألفاظها، فكانوا يتولون تدريسه كما كان منهم من يصنف فيه وفي قواعده المصنفات، ومن هؤلاء محمد بن أحمد بن عامر أبو عامر الشاطبي الذي ألف كتاباً في اللغة (١).

وقد برز من نحاة شرق الأندلس عدد من العلماء نذكر منهم :

١ - عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن فتوح بن محمد بن يحيى بن عبد الله الحضرمي النحوي، من أهل دانية، وأصله من قرية بالمّة، ويعرب بآبن صاحب الصلاة، وكان على حد قول ابن الآبار أديكاً مبرزاً في صناعة العربية مشاركاً في الفقه والأدب وقرض الشعر ظاهر التواضع طاهر الخلق، توفي في عام ٥٨٧هـ (٢).

٢ - عبد العزيز بن محمد اليحصبي المعروف بالباي (ت: ٥٨٠هـ) من أهل مرسية، وكان نحويك عارفاً بأبيات المعاني (٣)

٣ - محمد بن جعفر بن أحمد بن خلف بن حميد بن مأمون الأنصاري (ت: ٥٨٦هـ)، يُلنسى الأصل، كان مبرزاً في النحو، إماماً فيه يعتمد عليه كما كان بارع الأدب، وافر الحظ من البلاغة، والتصريف البديع في الكتابة، ومن توافيه شرح على «إيضاح الفارسي» وآخر على «جمل الرّجّاجي» (٤).

٤ - علي بن يوسف بن محمد بن أحمد الأنصاري، من أهل دانية ولكنه استوطن مرسية ويعرف بآبن الشريك (ت: ٦١٨هـ) (٥).

٥ - أبو عبد الله محمد بن طاهر بن علي بن عيسى الخزرجي، من أهل دانية (ت: ٦١٩هـ) كان نحويك من كبار نحاة شرق الأندلس في عصر الموحدين له من التواليف النحوية كتاب «تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب» (٦).

(١) الضبي، بنية الملتبس، ص ٤٣، ت: ٣٣.

(٢) ابن الآبار، التكملة، جـ ٢، ص ٤٨٩، ت: ١٤٠٢.

(٣) الضبي، بنية الملتبس، ص ٣٧٠، ت: ١٠٨٦.

(٤) ابن الخطيب، الإحاطة، جـ ٣، ص ٧٠ وما بعدها.

(٥) ابن الزبير، صلة الصلة، ص ١٢٨، ت: ٢٦٦، انظر أيضاً: ابن الآبار، التكملة، ت: ١٨٩٣.

(٦) المقرئ، نفع الطيب، جـ ٢، ص ٣٤٢.

٣ - علم التاريخ والجغرافيا:

حظيت الكتابات التاريخية باهتمام علماء شرق الأندلس، فأولوها كثيرًا من عنايتهم، وسجلوا حوادث أيامهم ووقائع عهودهم بين ما سجلوه من وقائع الأندلس، ونبع من هذا الصقع عدد من المشتغلين بالكتابة التاريخية منهم:

١ - محمد بن عبد الله بن سفين بن سيالة النجيبى (ت: ٥٥٨هـ)، من أهل شاطبة، الذى كان عارفًا بالأخبار حافظًا لأسماء الرواة^(١). وصنف كتابًا فى رجال الأندلس وصل به كتاب الصلة لابن بشكوال^(٢).

٢ - محمد بن أحمد بن عامر البلوى، أصله من طرطوشة وسكن مرسية ويعرف بالسالمى نسبة إلى مدينة سالم، ويكنى أبا عمر (ت: ٥٥٩هـ)، وكان إلى جانب معرفته بعلم التاريخ من أهل الأدب والعلم، ومن مؤلفاته التاريخية كتاب عنوانه «درر القلائد وغرر الفوائد»، نقل منه ابن الأبار كثيرًا من الأخبار^(٣).

٣ - خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال (ت: ٥٧٨هـ) وأصله من شربون بشرق الأندلس، ولكنه سكن قرطبة، ويذكر ابن الأبار أنه ألف خمسين كتابًا فى مختلف العلوم أعظمها «كتاب الصلة» الذى سلم له أكفاءه بكفايته فيه، وله تأليف آخر وهو «كتاب النوازع والمبهمات»، يقع فى اثنى عشر جزءًا، اختصره أبو الخطاب بن واجب ورتبه - لم يصل إلينا - ، وكتاب «الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة» ويقع فى عشرين جزءًا - لم يصل إلينا - ، وكتاب «الحاسن والفضائل فى معرفة العلماء الأفاضل»^(٤)، (فى واحد وعشرين جزءًا).

٤ - أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومى، الذى سبق التعريف به، وقد ألف فى التاريخ عددًا من المصنفات منها تأليف فى كائنة ميورقة وتغلب العدو عليها هكذا سماه ابن فرحون فى «الديباج»^(٥)، وابن القاضى فى «جذوة الاقتباس»^(٦)، وسماه المقرئ «تاريخ ميورقة وتغلب الروم عليها» ويؤكد أنه نحا

(١) ابن الأبار، التكملة، ج١، ص ٢١١، ت: ٧١٩.

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٣) نفس المصدر والجزء، ص ٢١٣، ت: ٧٢٥.

(٤) ابن الأبار، التكملة، ج١، ص ٥٤، ت: ١٧٩.

(٥) راجع: ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم بن علي اليفرى)، الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب، القاهرة، ١٣٢٩هـ، ص ٤٧.

(٦) راجع، ابن القاضى (أحمد بن محمد)، جذوة الاقتباس فيمن حل من العلماء مدينة فاس،

فاس، ١٣٠٩هـ، ص ٧٣.

فى الخبر عنها منحى الإمام الأصبهانى فى «الفتح القدسى»، وقد أورد المقرئ فقرات منه فى «النفع»^(١)، أما جوثالث بالنشأ فقد جمعه كتابا فى فضائل ميورقه وتاريخها^(٢). ولابن عميرة مؤلف آخر - فقد للأسف كسابقه - وهو «اقتضاب من تاريخ المريدين» وصفه ابن عبد الملك بأنه اقتضاب نبيل^(٣)، والكتاب اختصار لتاريخ ثورة المريدين الذى ألفه أبو مروان عبد الملك بن محمد بن أحمد الباجى المشهور بابن صاحب الصلاة المتوفى عام ٥٧٧هـ.

ونضيف إلى هؤلاء الأديب الكاتب والمؤرخ البار عبد الله بن الآبار الذى سبق أن أشرنا إليه، وقد أدت كتاباته التاريخية خدمات جليلة للباحثين فى تاريخ الأندلس وعلى الأخص شرق الأندلس، فقد كشف فى «الحلة السيرة» النقاب عن أحداث بلنسية قبل سقوطها فى يد جاقمة، كما سلط أضواء هامة على هذه الفترة، من خلال تراجمه المفصلة الدقيقة لأهل الأندلس.

أما علم الجغرافيا فقد كان مصدر اهتمام علماء شرق الأندلس بوجه خاص فقد ظهر منهم ابن جبير الذى وقف حياته على تسجيل مشاهداته ورحلاته فى المشرق والمغرب، وابن جبير هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني، ويرجع نسب عائلته إلى جدهم الأعلى الذى وفد إلى الأندلس فى طالعة بلج بن بشر بن عياض القيسى القشيري، ونزل بكورة شذونة^(٤)، ولد فى بلنسية وقيل فى شاطبة فى ١٠ ربيع الأول عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م، ودرس فى بلده بادئ ذى بدء، ثم انتقل إلى غرناطة، وبها تقلد بعض الوظائف إلى أن أصبح كاتباً لأبى سعيد بن عبد المؤمن عامل الموحدين على غرناطة، وبما ساعده على تقلد هذه المكانة الممتازة ما كان يتمتع به من علم واسع باللغة والآداب والفقه وقدرة على نظم الشعر^(٥). ويسوق المقرئ رواية لابن الرقيق عن سبب رحلة ابن جبير إلى المشرق ملخصها أن الأمير أبى سعيد ابن عبد المؤمن عامل الموحدين على غرناطة استدعى كاتبه الشيخ محمد بن أحمد بن

(١) نفع الطيب، ج٦، ص ٢١٢، وراجع: نفس المصدر، ج١، ص ٢٩٣.

(٢) جوثالث بالنشأ، المرجع السابق، ص ٣٠٥.

(٣) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الأول، القسم الأول، ص ٧٩، ت: ٩٠.

(٤) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الأول، القسم الأول، ص ٧٩، ت: ٩٠.

(٥) المقرئ، المصدر السابق، ج٣، ص ١٤٣، وراجع أيضاً: حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية

والجغرافيين فى الأندلس، ص ٤٢٩، السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، دار

الكاتب العربى للطباعة والنشر، ١٩٦٧، ص ٢٢٠.

جبير ليكتب عنه كتاباً وهو على شراب، فأراد أن يمزج مع الشيخ فمد له يده بكأس من النبيذ فاعتذر عن قبولها وأبى واسترجع، وعزَّ على هذا الأمير أن ترد دعوته، فأقسم على ابن جبير - تحت تأثير الخمر - أن يشرب منها سبعاً، فخشى الرحيل وشربها انتقاء لما هو أسوأ، فملاً الأمير له الكأس سبع مرات دنائير - بتأثير الخمر أيضاً - فأزمع ابن جبير الحج بهذه الدنائير تكفيراً عما شرب من الإثم^(١).

وأياً ما كان صدق هذه الرواية، فإن ابن جبير قرر القيام برحلة، ويبدو أنه كان يعتزم قبل القيام بها على أن يسجل وصفاً لها، واستعد لذلك فكان أثناء الرحلة يرقب حساب الأيام والشهور في دقة بالغة، ويدون ملاحظاته عما شهد ورأى يوماً بعد يوم، وخاصة في الأوقات التي قاسى فيها من هول الأنواء والعواصف فأخذ يدون مشاهداته ويسجل أحاسيسه عندما تسنح له الفرصة في تفصيلات غاية في الدقة، وصحبه في رحلته صديق له من المشتغلين بالطب يسمى أحمد بن حسان كان يعمل معه في الكتابة في الديوان الموحدي في غرناطة^(٢)، وقد ورد في أول المخطوط الوحيد للرحلة أن اسمها «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار»، وزود في ختامها أن اسمها «اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك»، ولا نعرف أيهما كان عنوان الكتاب، وقد لا يكون العنوان على حد قول كراتشكوفسكي من العبارة الأولى ولا الثانية وإنما مجرد رحلة ابن جبير أو رحلة الكنانى فحسب^(٣). وما لا شك فيه أن كتاب الرحلة لابن جبير يعبر عن دقة ملاحظة ورؤية صادقة ومعارف واسعة تتمثل فيما رواه وسجله عن مشاهداته في أسلوب سهل معبر يبعث على الثقة.

٤ - الطب والرياضيات والهندسة:

لم يقتصر اهتمام علماء شرق الأندلس على الدراسات الدينية والأدبية، بل اهتموا أيضاً بالعلوم التجريبية كالطب والفلك والهندسة والكيمياء وهي من أهم العلوم التي عنى بها المسلمون وحققوا فيها أعظم اكتشافاتهم. وقد برز من علماء شرق الأندلس في علم الطب، محمد بن يحيى بن محمد بن خليفة بن يثق، من أهل شاطبة (ت: ٥٤٧هـ) الذي أخذ عنه أبي العلاء بن زهر علم الطب^(٤). ويحيى بن

(١) في: المقرئ، نفس المصدر والجزء، ص ١٤٥.

(٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق الدكتور حسين نصار، القاهرة، ١٩٥٧، ص: ١ من المقدمة.

(٣) راجع: حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين، ص ٤٣٠.

(٤) راجع في سيرته: ابن الآبار، التكملة، ج١، ص ١٩٨، ت: ٦٧٤، وله أيضاً: المعجم،

ص ١٦٢، ابن سعيد، المغرب، ج٢، ص ٣٨٨.

بقي أبو بكر ويعرف بالسلوى (ت: ٥٦٣هـ)، وكان فقيهاً عارفاً بالتفسير، أديباً وطبيباً، اشتغل فترة بوعظ الناس، وكان الأمير محمد بن سعد بن مردنیش قد خصص له راتباً، ثم قطعه عنه فتفرغ لمهنة الطب وظهر فيها^(١). وأحمد بن عبد العزيز بن محمد بن سعدون، من أهل بلنسية وكان على حد قول ابن عبد الملك طبيباً ماهراً^(٢). وأحمد بن الحسن ابن أحمد بن حسان القضاء المرسى (ت: ٥٩٨-٥٩٩هـ) صنف في الطب مختصراً هاماً سماه بـ «الجمل والتفصيل في تدبير الصحة»^(٣). وعبد الملك بن علي بن سلمة الغافقي البلسي المتوفى عام ٥٧٤هـ أو ٥٧٥هـ^(٤). وأحمد بن علي بن مرطى البلسي، رحل من مرسية عام ٥٨٣هـ، واستوطن مراكش ومارس بها مهنة الطب التي نبغ فيها وفاق أطباء عصره^(٥). وعبد العزيز بن حمد بن العزيز بن سعدون الأزدي الطبيب البلسي المتوفى عام ٦٠٥هـ^(٦). وعبد الكبير بن محمد بن عيسى الغافقي المرسى (ت: ٦١٧هـ)، كان متقدماً في صناعة التوثيق وذكر الفروع مع مشاركة في الطب وله فيه اختصارات^(٧). ويوسف بن أحمد بن علي أبو الحجاج المريطري (ت: ٦١٩هـ) الذي اشتغل بالطب ونبغ فيه ورأس معاصريه وخدم به الأمراء^(٨). ويوسف بن أحمد طحلوس أبو الحجاج، من أهل جزيرة شقر (ت: ٦٢٠هـ)، صاحب أبا الوليد بن رشد، وأخذ عنه علمه، وكان آخر الأطباء بشرق الأندلس مع تحقيقه بعلم الأوائل^(٩).

وفي مجال الرياضيات وعلوم الهندسة بشرق الأندلس نبغ محمد بن يوسف بن عميرة الأنصاري (ت: ٥٤٩هـ)، من أهل أوربولة، وكان عالماً بالفرايض والحساب^(١٠). ومحمد بن منخل بن ريان، من أهل جزيرة شقر، (ت: ٥٥١هـ) وكان متحققاً بالفرايض والحساب بصير بالمساحة^(١١). والفضل بن محمد بن أحمد

(١) الضبي، بغية المتحس، ص ٤٨٣، ت: ١٤٦٤.

(٢) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الأول، القسم الأول، ص ٢٤٤، ت: ٣٢٤.

(٣) نفس المصدر والقسم، ص ٨٧، ت: ١٠٤.

(٤) نفس المصدر والقسم، ص ٢٤، ت: ٥٧.

(٥) نفس المصدر والقسم، ص ٣٤١، ت: ٤٢٧.

(٦) التكملة، ج ٢، ص ٦٣٢، ت: ١٧٦٨.

(٧) ابن الزبير، صلة الصلة، ص ٤٤، ت: ٦٩، راجع في سيره أيضاً: ابن الأبار، التكملة، ص ٦٥٤، ت: ١٨٢١.

(٨) ابن الأبار، التكملة، ج ٢، ص ٧٣٨، ت: ٢٠٩١.

(٩) نفس المصدر والجزء، ص ٧٣٨، ت: ٢٠٩٣.

(١٠) نفس المصدر والجزء، ص ١٩٩، ت: ٦٧٨.

(١١) نفس المصدر، ص ٧٣، ت: ٢٤٢.

بن إسحاق، البلنسى (ت: ٥٦٤هـ) ^(١). وأحمد بن أبي المطرف عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن سعيد بن جزى البلنسى (ت: ٥٨٣هـ) ^(٢). وأحمد بن إبراهيم بن محمد بن عيسى بن سعد الخير الأنصارى البلنسى (ت: ٥٩٣هـ)، مهتر في علوم الحساب والهندسة وفرائض الموارث، «حتى كان لا يداني في ذلك، وتصدر لإفادة ذلك وتعليمه ببلده مدة طويلة فأخذ عنه أهله، وشهر بالعدالة والصلاح والدمائة ووفور العقل» ^(٣). ومحمد بن بكر بن محمد بن عبد الرحمن بكر الفهرى، البلنسى (ت: ٦١٨هـ) وكان متحققاً بعلم الحساب إلى جانب مشاركته في علم الطب ^(٤). وأحمد بن إبراهيم بن علي بن منعم العبدري، الداني (ت: ٦٢٦هـ)، وكان واحداً من النابغين في العدد والهندسة من فنون التعاليم وقد ألف في الفنين تصانيف جليلة، وتلاخيص هامة واستنباطات رائعة، ومن أشهر تصانيفه «فقه الحساب»، ومقاله في استنباط أعداد الوفق، وكتاب «تجريد أخبار كتب الهندسة على اختلاف مقاصدها»، علاوة على دراسة كتاب «الأركان» لإقليدس، كما كانت له مشاركة أيضاً في صناعة الطب وتوفي عام ٦٢٦هـ ^(٥).

(١) نفس المصدر، ص ٢٠٤، ت: ٦٩٨.

(٢) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الأول، القسم الأول، ص ١٩٤، ت: ٢٦٤.

(٣) ابن عبد الملك، نفس المصدر والسفر والقسم، ص ٦٣، ت: ٤٤.

(٤) نفس المصدر والسفر والقسم، ص ٥٩.

(٥) ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، السفر الأول، القسم الأول، ص ٥٩، ت: ٣٦.

الفصل الرابع

العمران والآثار الاسلامية الباقية

فى شرق الأندلس

أولاً : التوسع العمرانى

١ - تخطيط مدينة مرسية.

٢ - تخطيط مدينة بلنسية.

ثانياً : الآثار الاسلامية الباقية فى شرق الأندلس

١ - المنشآت المدنية:

أ - الحمامات.

ب - القصور.

ج - شواهد القبور.

د - صهاريج المياه

٢ - الآثار الحربية:

أ - آثار حصن Olocau بإقليم بلنسية.

ب - قلعة شاطبة.

ج - آثار برج بوفيا.

د - بقايا برج موسى.

هـ - آثار برج Trullars

أولاً - التوسع العمراني

كان تخطيط المدينة الإسلامية سواء في المشرق أو المغرب يتوقف على موقع مسجدها الجامع من البوابة العمرانية، وكان في العادة يتوسط المدينة الإسلامية ويؤلف قلبها النابض بالحياة اجتماعياً واقتصادياً، فحوله يكثر العمران الاجتماعي كالحمامات والمنازل، كما تتوزع الأسواق التجارية والصناعية^(١). وقد جرت العادة أن يخصص لكل صنعة أو حرفة سوق، ويفرد لكل صناعة مكان خاص بها فتعرف صناعتهم فيه^(٢).

وقد اتسمت الأسواق الغربية في المغرب بمراعاة التجانس بين الحرف المتجاورة، فضلاً عن عنايتهم بالفصل بين الحرف التي يخشى منها على بعضها الآخر، ومعنى هذا أنه كان هناك تناسب بين الأسواق، فإلى جانب سوق الأوكسية والثياب توجد دكاكين الرفاتين وإلى جوارهما سوق الكتانين، أما الحرف التي ليس فيها تجانس ويخشى من حصول الضرر على بعضها فإنها تبعد عن بعضها من ذلك من كانت صناعته تحتاج إلى وقود كالخباز والطباخ والحداد، فللمحاسب السلطة في أن يبعد حوانيتهم عن العطارين والبرازين، لعدم المجانسة بينهم وحصول الإضرار^(٣).

وكانت المدينة الإسلامية تضم إلى جانب هذه الأسواق منشآت ذات طابع اقتصادي كالقيساريات والفنادق. وقد شهدت مدن شرق الأندلس في عصر الموحدين توسعاً عمرانياً لم تشهده من قبل لكثرة ما أقيم فيها من منشآت اقتصادية نتيجة لازدهار الحياة الاقتصادية وما تعرضت له من زيادة متواصلة في عدد السكان، وقد رأيت أن أعرض لأهم مدن شرق الأندلس في هذا العصر وأعني بهما مدينتي مرسية وبلنسية.

(١) راجع؛

Torres Balbas (H.), Ciudades Hispano - Musulmana, t. I, p. 9;

السيد عبد العزيز سالم، تخطيط مدينة الإسكندرية وعمرانها في العصر الإسلامي، بيروت، ١٩٦٣، المقدمة؛ وانظر أيضاً؛

التخطيط ومظاهر العمران في العصور الوسطى، مقال بمجلة المجلة، العدد ٩، سبتمبر ١٩٥٧، ص ٥٤ وما بعدها.

(٢) يحيى بن عمر، أحكام السوق، تحقيق الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٥، ص ٢٢.

(٣) يحيى بن عمر، نفس المصدر، ص ٣٣، ٣٤.

١ - تخطيط مدينة مرسية:

ازدهرت مدينة مرسية في عصر الموحدين، فكانت حاضرة شرق الأندلس ومقرًا للوالي الموحدي، وبطبيعة الحال تركزت فيها جميع الإدارات الرئيسية التي تخدم إقليم شرق الأندلس، فامتد عمراتها تبعًا لذلك وفاض خارج أسوارها، وتمثل في ربضها المسور، وكان يتصل بالمدينة عن طريق قنطرة من السفن^(١)، فيذكر الإدريسي أن بمرسية ربض عامر أهل بالسكان تحيط بها وبه أسوار حصينة، وكانت مياه النيل الأبيض تشق هذا الربض، وكان يجاز إلى المدينة من الربض على قنطرة من المراكب^(٢). ويشير أبو الحسن القرطباني إلى ربضين آخرين بمدينة مرسية هما ربض الراحة وربض الرشاقة^(٣).

وربما كان الربض الذي ذكره الإدريسي أحدهما. كما ورد في التكملة إشارة إلى ربض آخر باسم ربض سرحان^(٤).

أما البويرة العمرانية فقد كان يتوسطها المسجد الجامع^(٥)، أساس العمران في المدينة الإسلامية وبالقرب منه كان يقوم قصر الإمارة وحولهما السوق التجاري^(٦) ومنه تتفرع الطرق والدروب المؤدية إلى أحياء بالمدينة^(٧).

وكانت مرسية مدينة مسورة تحيط بها الأسوار^(٨)، وينفتح في هذه الأسوار الأبواب التالية:

(١) انظر: الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩٤، الحميري، المصدر السابق، ص ١٨٢، السيد

عبد العزيز سالم، مرسية الإسلامية، ص ٢١.

(٢) الإدريسي، نفس المصدر والصفحة، وانظر أيضًا: المقرئ، نفع الطيب، ج ١، ص ١٥٥.

(3) Garcia Gomez, observaciones sobre la «quasida maqsura» de Abu- L - Hasan Hazim Al-Qartayani, Al-Andalus, I, 1933, pp. 94-101.

(٤) ابن الأبار، التكملة، ص ٣١٤، ت: ٩٣٩.

(٥) انظر: الحميري، المصدر السابق، ص ١٨١، السيد عبد العزيز سالم، مدينة مرسية، ص ٢١،

وقد حول النصاري عند استيلائهم على المدينة عام ٦٤١هـ/١٢٤٣م المسجد الجامع إلى كنيسة، راجع:

محمد عبد الله عنان، الآثار الإسلامية الباقية في أسبانيا والبرتغال، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٠٠.

(٦) الحميري، المصدر السابق، ص ١٨١.

(7) Torres Balbas, op.cit., pp. 169, 335.

(٨) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩٤، الحميري، المصدر السابق، ص ١٨٢.

- أ - باب ابن أحمد، وكان يفتح في السور الغربي للمدينة (١).
 ب - باب السوق (٢).
 ج - الباب الجديد (٣).
 د - باب الفرج (٤).
 هـ - باب الفارقة (٥).
 و - باب الشريعة (٦).

هذا كل ما ذكرته المصادر العربية عن أبواب مرسية، وكان للمدينة أبواب أخرى مازالت تحمل مسمياتها حتى اليوم منها:

- * باب القبلية La Alquibla الذي سمي بعد ذلك بباب Del toro نسبة لإقامة سرح تجاهه في القرن السابع عشر الميلادي.
 * باب أفريقية، الذي سمي أيضاً بباب القنطرة لأنه كان يطل على قنطرة مراكب كانت تربط المدينة بالربض الجديد الواقع خارجها، وهو ما أشارت إليه المصادر العربية (٧).
 * باب شقورة، ويعرف أيضاً بباب الزجاجين Vidrieros لقربه من محلتهم، وسمى بعد ذلك بباب De Pilar لوجود كنيسة لصيقة.

* باب السقيا، وعرف بعد ذلك بباب القديسة فلورنتينا Santa Florentina

- * باب النية، وأطلق عليه منذ عام ١٦٠٤ اسم باب السوق لإقامة سوق أسبوعي تجاهه.
 * باب أوربولة، وسمى أيضاً بالأبواب السبعة، ومن هذا الباب دخل الملك خايمي الأول مدينة مرسية، وبعد ذلك سمي باب ليون، وذلك لتمثال أسود كان قائماً بجواره

(١) ابن الآبار، التكملة، صفحات ٢٥٦، ٣٥٨، ٤٢٩، ٥٧٥؛ ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٦٤.

(2) Torres Balbas, op.cit., t. I, p. 650.

(٣) ابن الآبار، التكملة، ص ٥٨٠؛ وانظر أيضاً؛ ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٦١.

(٤) نفس المصدر، ص ٢٢٣، ص ٢٢٥؛ ليفي بروفنسال، نفس المرجع، ص ٦٨.

(٥) الضبي، بغية الملتبس، ص ٣٧.

(٦) ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص ٧٤.

(٧) راجع: الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٩٤؛ الحميري، المصدر السابق، ص ١٨٢.

متجهاً بوجهه وجهة أرغون وفي حالة متحفزة.

وكانت المدينة تضم بجانب المسجد الجامع عدة مساجد منها: مسجد الجرف ويقع في غربها على مقربة من باب أحمد^(١)، ومسجد ابن حيون على مقربة من باب الفرج^(٢)، ومسجد الرشاقة^(٣)، ومسجد ابن أبي جعفر^(٤).

أما خارج أسوار المدينة وبالقرب من الطرق المؤدية إلى أبوابها الرئيسية فكان يوجد عدد من المقابر ورد ذكرها في كتب التراجم وهي: مقبرة باب الفرج، وفيها دفن محمد بن حرث بن عمر بن فيره بن حيون بن سكرة الصدفى^(٥)، ومقبرة المصلى الجديد، فيها دفن محمد بن عبد الله بن سليمان بن عثمان بن هاجد الأنصاري عام ٥٩٨ هـ^(٦)، ومقبرة الباب الجديد، بها دفن الفقيه عبد الرحمن بن عبد الله بن موسى بن سليمان الأزدي المعروف بابن برطلة، قاضي دانية وصاحب الصلاة بجامع مرسية عام ٥٥٩ هـ^(٧)، ومقبرة باب أحمد وفيها دفن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف ابن أبي عيسى الأنصاري المعروف بابن حبيش عام ٥٨٤ هـ^(٨). وقد كشف أخيراً في مرسية على مقبرة خارج باب أوربولة، ووجد فيها عظاماً آدمية وهياكل عديدة داخل حفر مستطيلة الشكل موزعة بجوار أسوار المدينة، ونستدل من قطع الخزف التي عثر عليها أثناء الحفر عن هذه المقبرة على أنها ترجع إلى عصر الموحدين.

بجانب المقابر كانت توجد الروضات، فيشير ابن الأبار إلى روضة ابن فرج بربض سرحان^(٩).

(١) ابن الأبار، التكملة، ص ٤٢٩، ت: ٢٣١، ص ٢٥٧، ت: ١٠٢٧، ص ٥٧٣، ت: ١٦١٧.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٢٢، ت: ٧٤٣.

(٣) ابن الزبير، صلة الصلة، ص ١٤٤، ت: ٢٨٨.

(٤) السيد عبد العزيز سالم، دائرة معارف الشعب، العدد ٦١، ص ٥٠.

(٥) ابن الأبار، التكملة، ص ٢٢٢، ت: ٧٤٣.

(٦) نفس المصدر، ص ٢٧٤، ت: ٨٦٤.

(٧) نفس المصدر، ص ٥٧٩، ت: ١٦٢٤.

(٨) ابن الأبار، التكملة، ص ٥٦٧، ت: ١٦٠٥.

(٩) نفس المصدر، ص ٣١٤، ت: ٩٣٩، والروضات مقابر صغيرة خاصة بالأمرء والأثرءاء، كانت

تقع عادة في وسط البستان الملحق بالقصر، انظر:

Torres Balbas, Ciudades, t. I, p. 236.

٢ - تخطيط مدينة بلنسية:

تحتل مدينة بلنسية موقعا ممتازا وسط سهل زراعى خصب^(١)، ترويه شبكة من القنوات المائية. وكانت مركزا إداريا لكورة واسعة، تتبع مرسية حاضرة شرق الأندلس، ونظرا لمكانتها كثنائية حواضر هذه المنطقة ضمت سائر الوظائف الإدارية المختلفة التى تخدم أوجه النشاط المتعددة للكورة.

أما النطاق العمرانى لبلنسية فقد كان يتوسطه المسجد الجامع^(٢)، وتقع لصقه دار الإمارة وحولهما تمتد الأسواق، ومن رحبة الجامع تتفرع الطرق والدروب المؤدية إلى أحياء المدينة المختلفة، وقد وصفها العذرى (ق ٥٥هـ) بقوله: «ولها خطة فسيحة، وهى بلدة منيعة»^(٣). ومن هذه الأحياء حومة ابن جحاف وحومة رحبة القاضى التى كانت تتوسط المدينة تقريبا، وقد ورد ذكرهما بعد سقوط المدينة فى يد نخايمى^(٤).

وكانت بلنسية مدينة مسورة، اهتم بتسويرها المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر، فأتقن تسويرها، وفى منعة أسوارها يقول العذرى: «ولا يعلم ببلاد الأندلس أتقن بناء من سورها ولا أجل منه»^(٥)، وبناءؤه من الحجر والطابية^(٦)، بناء مبارك ومظفر العامريان^(٧)، واتخذت على السور أبراج تكمل مهمته الدفاعية منها برج «القنطرة»^(٨).

وكان يفتح فى سور بلنسية عدد من الأبواب، عدها العذرى خمسة^(٩) بينما ذكر الحميرى أنها أربعة^(١٠)، وهذه الأبواب هى:

- (١) الحميرى، المصدر السابق، ص ٤٧.
- (٢) هذا المسجد الذى حوله السيد الكمبيادور سنة ١٠٩٤ إلى كنيسة، وعقب استرداد المرابطون مدينة بلنسية حولوه إلى مسجد جامع، واستمر كذلك حتى افتتح جاييمى الأول مدينة بلنسية عام ١٢٣٨هـ، فقلب هذا المسجد الجامع إلى كنيسة ألق عليها اسم «مارية العالمة القداسة»، San-tissima Maria، راجع: محمد عبد الله عنان، الآثار الباقية فى أسبانيا والبرتغال، ص ٩٥.
- (٣) العذرى، ترصيع الأخبار، ص ١٨.
- (٤) انظر: ابن الأبار، التكملة، ص ٣٨، ت ١١٨، ص ٣٤٣، ت ١٠٠٣؛
- Bofarull, Repartimiento, apud, Torres Balbas, Ciudades, t. I, p. 192; Menéndez pidal (Ramon), La Espana del Cid, Espasa Calpe, Madrid, 1929, p. 339;
- السيد عبد العزيز سالم، دائرة معارف الشعب، العدد، ٦١، ص ٦٠.
- (٥) العذرى، ترصيع الأخبار، ص ١٧-١٨.
- (٦) الحميرى، المصدر السابق، ص ٤٧ وما بعدها.
- (٧) ابن عذارى، البيان المغرب، نشر ليفى بروفنسال، ج ٣، ص ١٦٠.
- (٨) تاريخ الأندلس لابن كردوس ووصفه لابن الشباط، ص ٩٩.
- (٩) العذرى، المصدر السابق، ص ١٨.
- (١٠) الحميرى، المصدر السابق، ص ٤٧ وما بعدها.

١ - باب القنطرة : كان يفتح فى السور الشرقى ، ويخرج منه على قنطرة قد صنعها المنصور عبد العزيز بن أبى عامر ، ومنها يخرج الناس بأثقالهم وأحمالهم إلى طليطلة وسرقسطة وطرطوشة^(١).

٢ - باب الوراق: ذكره العذرى، وحدد موضعه فى السور الشرقى وكان يخرج منه ويسلك إلى الربض الشرقى على قنطرة خشب^(٢)، وربما أضفى عليه هذا الاسم نسبة إلى صناعة الوراق.

٣ - باب ابن صخر: ذكره العذرى وحدد موقعه فى الجنوب الشرقى^(٣) وهو باب صغير ضيق، ومن المحتمل أنه كان من الأبواب الثانوية.

٤ - باب الحنش^(٤): وكان يفتح فى السور الشمالى، وقد ورد اسمه فى كتاب إعادة تقسيم بلنسية تحت اسم باب الهايش Bab al Haix وكان يقع فى المنطقة التى تعرف اليوم باسم Portal de Valldigno وشارع Salinas وكان يوجد خارجه فندق ومقبرة رئيسية^(٥).

٥ - باب بيطالة: ذكر العذرى أنه كان يفتح فى السور الغربى ويؤدى إلى دانية وشاطبة والجزيرة^(٦). وقد حدد أويشى ميراندا موضعه فقال أنه كان يفتح فى السور الجنوبى فى المنطقة الواقعة بين الشارع المعروف اليوم بسنت فنسنت على مشارف كنيسة سان مارتين وشارع تيرافيرو Cerrafero وشارع ماريا نوبنيوير Mariano Benlliure^(٧) أما اسم الباب فأصله رومانى^(٨).

٦ - باب القيسارية: وكان يفتح فى السور الغربى، ويؤدى إلى دانية وشاطبة والجزيرة^(٩).

(١) العذرى، المصدر السابق، ص ١٨، وانظر أيضاً: ليفى بروفنسال، الاسلام فى المغرب والأندلس، ص ٧٣.

(٢) العذرى، نفس المصدر، ص ١٨.

(٣) العذرى، المصدر السابق، ص ١٨.

(٤) العذرى، نفس المصدر، ص ١٨، وانظر أيضاً: ليفى بروفنسال، الاسلام فى المغرب والأندلس، ص ٦٢.

(5) Rodrigo Pertegas (José), La urba valenciana en el siglo XI, III, congreso de Historia de la coronada Aragon, Memoriast, Valencia, 1923, p. 335.

(٦) العذرى، المصدر السابق، ص ١٨.

(7) Huici Miranda, Historia de Valencia Musulaman, t. I, p. 30.

(٨) ليفى بروفنسال، الاسلام فى المغرب والأندلس، ص ٦٢-٦٣.

(٩) العذرى، ترصيع الأخبار، ص ١٨.

٧ - باب الشريعة: لم يذكره العذري ضمن أبواب بلنسية، ومن المرجح أنه فتح بسور بلنسية في القرن السادس الهجري - أى بعد وفاة العذري - في اتجاه مدينة شاطبة، أما لفظ شريعة فالمقصود به مسجد مكشوف كانت تقام فيه صلاة العيد^(١)، وقد ورد تفسيره في المدونة العامة الأولى «مكان كان العرب يتوجهون للصلاة فيه في أعيادهم ومزاولة شرائعهم الاسلامية»^(٢) وفسره الأستاذ خوليان ريبيرا بمعنى مصلى^(٣)، وحدده Eguilaz بمكان الصلاة عند العرب^(٤)، أما دوزى فيرى أنه المكان الذى يتلى فيه القرآن والوعظ^(٥) وأياً ما كان الأمر فإن هذا الباب كان يفتح على ريع الشريعة الواقع خارج السور الشرقى للمدينة عند منتصفه، وكان ريعاً فسيحاً تؤدي فيه الصلوات وخاصة صلاة العيدين وصلاة الاستسقاء^(٦).

وكان يوجد بلنسية بخلاف مسجدها الجامع، عدداً من المساجد الأخرى منها: مسجد ابن حزب الله^(٧)، ومسجد رحبة القاضى^(٨)، ومسجد الغرفة^(٩)، ومسجد السيدة^(١٠)، ومسجد ابن عيشون على مقربة من باب القنطرة^(١١)، ومسجد ابن غليون، ومسجد أبى عبد الله بن نوح، ومسجد الشراييب ومسجد ابن سرنباق^(١٢).

ولكون مدينة بلنسية ثانية حواضر شرق الأندلس لم يلبث عمرانها أن اتسع اتساعاً كبيراً إلى الأرباض الموزعة خارج أسوارها وعلى ضفتى نهرها الذى أقيمت عليه

(1) Torres Balbas (L.), «Musalla» (Saria) en las ciudades hispano musulmanas, Al-Andalus, XIII, 1948.

(2) Primera cronica General, édic Menéndez Pidal, Madrid, 1905, Cap. 880, p. 551b.

(3) Julian Ribera y Tarrago, Disertaciones y opusculos , t. II, Madrid, 1928, pp. 326-328.

(4) Eguilaz y Ganguas (Leopoldo), Glosario etimologico de las palabras españolas de origen oriental, Granada, 1886.

(5) Dozy, Supplement aux dictionnaires arabes, t. II, Leiden, Paris.

(6) Torres Balbas, ciudades, t. I, p. 174.

(٧) ابن الآبار، التكملة، ص ٢٢، ت ٥١، ص ٢٥٩، ت ٨٢٦.

(٨) نفس المصدر، ص ٣٨، ت ١١٨، ص ٣٤٣، ت ١٠٠٣.

(٩) نفس المصدر، ص ٢٠١، ت ٦٨٥.

(١٠) نفس المصدر، ص ٥١٠، ت ١٤٤١.

(١١) نفس المصدر، ص ٣٠٨، ت ٩٢٩، ص ٥٣٨، ت ١٥١٢.

(١٢) السيد عبد العزيز سالم، دائرة معارف الشعب، العدد ٦١، ص ٦٠.

القناطر لتسهيل انتقال الناس بأنقالهم^(١). فقد اشتهرت بلنسية بكثرة منازلها ومسارحها التي كان يرتادها الولاة وأثرياء القوم للترويح عن النفس وإقامة مجالس الطرب، وكان لروعة هذه المتنزهات وجمالها وما كانت تتمتع به من سحر وجمال في نطاق طبيعي يفوق الوصف عظيم الأثر في إلهام الشعراء، فنظموا فيها أشعاراً تعبر عن روعتها وحسنها وجمالها، ومن أبدع وأشهر منازله بلنسية: الرصافة ومنية أبي عامر^(٢)، ومنية ابن عبد العزيز^(٣).

أ - رصافة بلنسية:

أنشأها عبد الله البلنسي ابن الأمير عبد الرحمن الداخل تقليداً لرصافة الشام التي بناها جده هشام بن عبد الملك شمال شرقى تدمر بالشام^(٤)، وكانت من بين منيات بلنسية المقصودة للفرجة والنزهة، وفيها يقول ابن سعيد: «ورصافة بلنسية مناظر وبساتين ومياه»^(٥). ويحدد الحميرى موقعها جنوب شرقى بلنسية^(٦)، وما زالت هذه المنية تعرف حتى اليوم باسم الرصافة La Rusafa^(٧).

ب - منية ابن أبي عامر:

تنسب إلى المنصور عبد العزيز بن المنصور عبد الرحمن بن المنصور محمد ابن أبي عامر أحد ملوك الطوائف في شرق الأندلس، وكان مقره بلنسية، ويصفها الفتح بن خاقان بقوله: «وهى منتهى الجمال، ومزدهى الصبا والشمال، على وهى بنائها، وسكنى الحوادث برهة بفنائها، فوافيتها والصبح قد ألبسها قميصه، والحسن قد شرح بها عرويصه، وبواسطها مجلس قد تفتحت للروض أبوابه، وتوشحت بالأزرق الذهبية أثوابه، يخترقه جدول كالحسام المسلول، وينساب فيه انسياب الأيم في الطلول، وضافاته بالأدواح محفوفة، والمجلس يروق كالخريدة المزفوفة»^(٨).

(١) الحميرى، المصدر السابق، ص ٤٧.

(٢) ابن سعيد، المغرب، جـ ٢، ص ٢٩٨؛ وانظر أيضاً: المقرئ، نفع الطيب، جـ ١، ص ١٦٨.

(٣) المقرئ، نفس المصدر، جـ ٢، ص ١٨٩.

(٤) نفس المصدر، جـ ٢، ص ١٤.

(٥) فى: المقرئ، نفس المصدر، جـ ١، ص ١٦٩.

(٦) الحميرى، المصدر السابق، ص ٧٨.

(٧) الحميرى، نفس المصدر، الترجمة الفرنسية، ص ٩٧؛ وانظر أيضاً: تاريخ الأندلس لابن

الكرديوس، ص ٨٦، هـ ٤.

(٨) الفتح بن خاقان، فلاذ العقيان، المطبعة الخديوية، القاهرة، ١٢٨٣ هـ، ص ٧٧.

ج - منية ابن عبد العزيز:

تنسب إلى أبي بكر بن عبد العزيز وزير أمير بلنسية ٤٥٦-٤٧٨هـ / ١٠٦٣-١٠٨٥م^(١)، وكانت تقع شمال غربي بلنسية خارج باب الحنش أحد أبوابها، وكانت من المنازل البديعة والمنازه الجميلة^(٢).

وكان يقع خارج أسوار مدينة بلنسية عدداً من المقابر بالقرب من الطرق المؤدية إلى أبوابها الرئيسية منها:

١ - مقبرة باب يظالة: وتقع جنوب مدينة بلنسية بالقرب من الطريق العام المؤدى إلى الرصافة، وفيها دفن جمهور كبير من علماء بلنسية وأعيانها نذكر منهم علي سبيل المثال، الشيخ محمد بن جعفر بن خيرة البلنسي صاحب الصلاة والخطبة بجامعة عام ٥٤٧هـ^(٣)، والفقيه محمد بن حسين بن عبد الله بن عمر بن هرون بن موسى سنة ٦٠٩هـ^(٤)، والنحوي محمد بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الأنصاري سنة ٦١٠هـ^(٥)، وعبد الله بن أحمد بن محمد بن سالم سنة ٦٠١هـ^(٦)، والشاعر علي بن محمد بن أحمد بن حريق الخزومي سنة ٦٢٢هـ^(٧)، وعبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن أحمد بن أبي بكر القضاعي والد أبي عبد الله بن الآبار سنة ٦١٩هـ^(٨).

٢ - مقبرة باب الحنش: وتقع بالقرب من السور الغربي لبلنسية، وفيها دفن محمد ابن يوسف بن مفرج بن سعيد البناني المعروف بابن الخباز عام ٥٩٣هـ^(٩). والفقيه محمد بن أيوب بن محمد بن وهب الغافقي عام ٦٠٨هـ^(١٠) ومحمد بن

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الأندلس، ص ٦٤١، ص ٦٧٠.

(٢) المقرئ، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٩-١٩٠.

(٣) ابن الآبار، التكملة، ص ١٩٧، ت ٦٧٣.

(٤) نفس المصدر، ص ٣٠٢، ت ٩١٧.

(٥) نفس المصدر، ص ٣٠٢، ت ٩١٨.

(٦) نفس المصدر، ص ٥٠٢، ت ١٤٢٦.

(٧) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الأول، ص ٢٧٥، ت :

٥٥٣، وانظر أيضاً: ابن الزبير، صلة الصلة، ص ١٢٩، ت ٢٦٣.

(٨) ابن عبد الملك المراكشي، نفس المصدر، بقية السفر الرابع، ص ١٧٩، ت ٣٢٩.

(٩) ابن الآبار، المصدر السابق، ص ٢٦٨، ت ٨٥١.

(١٠) ابن الآبار، نفس المصدر، ص ٢٩٧، ت ٩١٢.

وهب بن لب بن عبد الملك بن أحمد ابن محمد بن نذير الفهرى خطيب جامع بلنسية سنة ٦١٣هـ^(١)، ومحمد ابن إبراهيم بن مسلم البكرى سنة ٦٢٨هـ^(٢)، والمقرئ عتيق بن علي ابن سعيد بن عبد الملك بن موسى بن عبد الملك بن رزين العبدري عام ٦٠٠هـ^(٣).

٣ - مقبرة المصلى : تقع شرقى المدينة خارج باب الشريعة (أو المصلى) وفيها دفن محمد بن علي بن محمد بن علي بن هذيل من أهل بلنسية، وكان من أهل الصلاح والورع عام ٦١٤هـ^(٤)، والفقيه سعد بن أحمد ابن محمد بن الحسن بن خلف بن يحيى الأموى عام ٦٢٦هـ^(٥).

٤ - مقبرة الجنان: ذكرها ابن عبد الملك فى سيرة أحمد بن علي بن يحيى بن عون الأنصارى الدانى نزىل بلنسية، الذى توفى بها ودفن عام ٦٠٩هـ^(٦).

ومن الجدير بالذكر أن آثار هذه المقابر والروضات قد ضاعت بعد سقوط قواعد شرق الأندلس فى أيدي المسيحيين^(٧)، وشغل مواقعها بمنشآت أخرى مسيحية، ويشير الأستاذ توريس بلباس إلى أن حركة طمس هذه الآثار بدأت من بداية القرن الرابع عشر الميلادى (٨هـ) عندما أزيلت هذه المقابر تمهيداً لبناء أحياء جديدة وكان ذلك فى عهد بدرو الرابع ابتداءً من عام ١٣٥٦م^(٨).

ثانياً - الآثار الاسلامية الباقية فى شرق الأندلس

إن الآثار الاسلامية الباقية فى شرق الأندلس نادرة للغاية ويرجع سبب دثور المنشآت الاسلامية وضياعها إلى ضعف بنيتها وسرعة تهشمها مع رطوبة أراضي شرق الأندلس باعتبارها أرضاً زراعية لا تساعد على حفظ الأبنية، ومع ذلك فقد تبقت آثار قليلة وهامة فى آن واحد بعضها مدنية وبعضها ذو طابع عسكرى، أما الآثار الدينية فلم يتبقى منها شئ بعد أن هدمت تماماً وأقيمت فى مواضعها كنائس.

(١) نفس المصدر، ص ٣١٠، ت: ٩٣٢.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٣٧، ت: ٩٨٦.

(٣) ابن عبد الملك، المصدر السابق، السفر الخامس، القسم الأول، ص ١٢٤، ت: ٢٣٩.

(٤) ابن الآبار، المصدر السابق، ص ٣١٥، ت: ٩٤١.

(٥) ابن عبد الملك، المصدر السابق، بقية السفر الرابع، ص ١٠، ت: ٢٥.

(٦) نفس المصدر، السفر الأول، القسم الأول، ص ٣٤٢، ت: ٤٣١.

(٧) راجع: ابن الآبار، التكملة، ص ١٩٧، ت: ٦٧٣.

(٨) Torres Balbas ciudades, t. I, p. 267.

١ - المنشآت المدنية:

أ - الحمامات:

تعتبر الحمامات العامة من أهم العناصر المدنية في المدن الإسلامية، ولها أهمية كبرى في الحياة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي، فإن عادة الاستحمام متأصلة في سلوك المسلمين، ولقد كانت الحمامات من مرافق المدن الهامة التي تعطي المدينة صفتها الحضارية.

وقد تميزت مدن شرق الأندلس وقراه بكثرة الحمامات، لكن للأسف لم يتبق من هذه الحمامات سوى آثار تذكر منها:

(١) حمام مرسية: عثر في شارع La madre de Dios بمرسية على آثار حمام، كانت تقتصر على قاعات مقبية، إحداها تعلوها قبوة نصف اسطوانية قليلة الارتفاع^(١)، وتفتح في قبوة الممر المؤدى إلى إحدى القاعات التي يتألف منها الحمام مضاروي وهي فتحات نجمية الشكل الهدف منها أن يتسلل الضوء من خلالها إلى داخل قاعات الحمام. والقبوات تركز على عقود ضخمة تجاوزت نصف الدائرة وأقرب إلى حدوة الفرس تكاد تكون مغلقة، وكان يخترق الجدران الفاصلة لهذه القاعات أنابيب تجري فيها المياه لتصب في أحواض الاستحمام، وكان البيت الساخن يقع في موضع قريب من غرفة الخدمة^(٢) وكانت جدران الحمام مقامة من الملاط شديد الصلابة وخليط من الحجر في حين أقيمت القبوات والعقود من الآجر والكلس، ومن المرجح أن تاريخ بناء الحمام يرجع إلى القرن الثالث عشر قبل سقوط المدينة نهائياً في أيدي المسيحيين، وذلك أن ألفونسو العاشر قد منح الحمام والحوانيت وملحقاتها إلى الأسقف دون جارتيا مارتينث Don Garcia Martinez^(٣). وللأسف تعرض هذا الحمام للهدم منذ عشرين سنة وضاعت معالمه تماماً نتيجة للتوسع العمراني الحديث في مرسية.

(٢) حمام توريس توريس: ينسب هذا الحمام إلى بلدة توريس توريس Torres Torres، التي تقع جنوب شارقة Jérica، على بعد ستة أميال من مبريطر وعلى مسافة واحد وعشرون ميلاً شمالي بلنسية، وتقع هذه البلدة في أرض سهلية يشقها وادي بالنشيا وإلى قبليها تقوم آثار حصنها القائم على قمة ربوة شديدة الارتفاع،

(1) Torres Balbas (L.), El bano musulmana de Murica y sus conservacion, Al-Andalus, Fasc 2, 1952, pp., 432-436.

(2) Torres Balbas, op.cit., p. 437.

(3) Ibid, p. 437.

وكان ضمن حصون شارقة وشبرب التي استولى عليها الملك خايمي الأول الملقب بالفاتح قبل أن يقدم على محاصرة بلنسية ويستولى عليها صلحا^(١).

وقد عثر في شمال شرقي توريس توريس على بقايا آثار حمام كان يطلق عليه لاس كوبياس Las Cuevas أى المغاور أو الكهوف، وآثار هذا الحمام تتكون من ثلاثة ممرات متوازية بعرض مترين، و ٢,٩٠ م، ٢,٤٠ م وبطول ٦,٧٥ م تتجه من الجنوب إلى الشمال، وتعلوها قبوات نصف اسطوانية منخفضة يبلغ ارتفاعها ٣,١٥ م، وعلى الممران الثانى والثالث غرفتان يفصلهما عن الممرين المذكورين عقد نصف دائرى من الآجر، أما الممر الأول ويقع إلى الغرب، فكان يتصل عند بدايته بمدخل الحمام، وفي إحدى الغرفتين تنفتح ثلمة فى الجدار توصل إلى الموقد لتسخين المياه، وفي الأخرى مصطبة ومحراب، وبينما كانت الجدران مقامة من الحجر الجيرى، كانت القبوات مشيدة من صفوف حجرية منتظمة من الحجر الجيرى على شكل عقود متصلة، وفي الوقت التي كسيت أرضيات الغرف بفسيفساء صغيرة من الملائط يتراوح طول ضلع الواحدة ما بين ٥ إلى ٦ سم، وكسيت أرضية الممرات بتريعات مزججة يتناوب فيها اللونان الأبيض والأخضر الفاتح، أما الإضاءة فكانت عن طريق طاقات نجمية الشكل أو مشمسة (مضاوى) تنفتح فى القبوات نصف الاسطوانية^(٢). ويحتفظ الحمام بثلاث غرف، أولهما يسمى «البيت البارد»، يتلو «البيت الوسطانى»، ثم «البيت الساخن»، وهذا الحمام من طابع أكثر تواضعا من الحمامات الأخرى الباقية فى مدن الأندلس، وأنموذج طيب للحمامات العادية الريفية يشابه تلك التي عثر عليها فى المدن الصغيرة وقرى شرق الأندلس وبعض قرى الريف الغرناطى^(٣).

(٣) حمام مريبطر: عثر فى مدينة مريبطر على آثار حمام، كان يقع غربى المدينة فى شارع أبريل Calle April إزاء باب لوس جرانتوس Puerta de Los Granotes، وقد تبقى منه ثلاثة ممرات بطول ٩,٨٣ م وعرض ٣,٣٠ م تعلوها قبوات نصف اسطوانية وتتخلها طاقات نجمية الشكل (مضاوى)، وقد آلت ملكية هذا الحمام بعد سقوط المدينة فى يد خايمي الأول إلى اليهودى يوسف شبروط^(٤).

(٤) حمام جزيرة شقر: عثر فى جزيرة شقر Alcira منذ سنوات على ثلاثة غرف مقببة كانت تابعة لحمام اسلامى، وقد ورد فى كتاب إعادة تقسيم بلنسية فى سنة

(1) Torres Balbas El bano de Torres Torres, (Valencia), y otros levantinos, Al-Andalus, fasc (I) 1952, p. 178.

(2) Torres Balbas, op.cit, pp. 181-182.

(3) Ibid, p. 184.

(4) Ibid, p. 187.

١٢٤٢، يشير إلى أن حماماً يقع أمام كنيسة سان نيكولاس San Nicolas آل إلى القس خوان^(١).

(٥) حمامات شاطبة: فى سنة ١٢٥١م منح خايمى الأول سكان ريبض شاطبة الذى سمى مؤخراً بربض القديس خوان San Juan فى جملة ما منحه لفرسانه عدداً من الحمامات، والظاهر أن هذه الحمامات كانت من الكثرة فى شاطبة إلى حد أن أحد أبواب شاطبة كان يطلق عليه اسم باب الحمام، وكان يقع فى نهاية شارع فرانسيسكو فى الميدان الذى يسمى حالياً بميدان اميليو كاستيلار Plaza de Emilio Castelar، وهناك حمام آخر يعرف باسم حمام شاطبة، وكان يقع فى شارع مونكادا Moncada، ويحتفظ متحف الآثار بشاطبة ببعض عناصر زخرفية ومعمارية تم الكشف عنها داخل آثار الحمام^(٢).

٦ - حمامات شنشالة: عثر فى شار إميليو كاستيلار بشنشالة على آثار حمام لا تعدو بقايا ممرات خشنة البنيان تغلوا قبوات نصف اسطوانية^(٣). ومن المعروف أن شنشالة كانت من المواقع الاقتصادية الهامة فى شرق الأندلس اشتهرت بالبسط والأوطية.

٧ - حمامات ميورقة: تقع هذه الحمامات فى شارع سراً وهى بقايا خربة مشوهة من حمامات اسلامية يبدو عليها أثر الاحتراق، عبارة عن مربع فى كل ضلع من أضلاعه ثلاثة عقود، وتحتوى جميعاً على اثنى عشر عقداً رفيعة وتعلو قبة صغيرة عارية من النقوش^(٤).

ب- القصور:

لم يتبق من آثار القصور الاسلامية فى شرق الأندلس غير آثار قصير مرسيه وقصر المدينة بميورقة، وإن كان موقع القصر الكبير فى مدينة مرسيه الذى تشغله الآن كنيسة سانتا كلارا قد عثر فى أرضيته على آثار كثيرة معظمها كسوات زخرفية من الجص والحجارة وقطع عديدة من الخزف.

(1) Prospero de Bofariul, Repartimiento de Mallorca, Valencia y Cerdana, 1856, apud, Torres Balbas, op.cit, p. 185.

(2) Torres Balbas, op.cit, p. 186.

(3) Ibid, p. 186.

(٤) انظر: محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ١٣٢.

١ - قصير مرسية El Castillejo de Murcia :

أسفرت أعمال الحفائر التي أجريت خلال عامي ١٩٢٤-١٩٢٥ في سهل مرسية الخصب على بعد أربعة كيلو مترات شمالي شرقها، وأسفل التل المقام عليه قلعة مونت أقوط Monteagudo على بقايا أساسات جدران قصر، من المرجح أنها تتعلق بإحدى دور السرور التي نوه بها أبو الفدا، ويسمى اليوم القصير El Castillejo^(١).

أما عن تاريخ بناء هذا القصر، فيرى الأستاذ توريس بلباس أنه يرجع إلى عصر محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرق الأندلس ١١٤٧-١١٧١ م^(٢) في حين يؤكد الأستاذ جوميث مورينو أنها ترجع إلى عصر المرابطين مدلا على ذلك بمقارنة طبقات العقود من الجص المحفور ذات التوريقات البارزة بما هو موجود في مسجد تلمسان وتمثل مرحلة متقدمة للفن الأندلسي في الثلث الأول من القرن الثاني عشر، وكذلك تشابه الزخارف التي عثر عليها في هذا الموقع من الزخارف المكتشفة بدار لاشانكا بالمريه وترجع إلى عصر المرابطين^(٣).

ويمثل القصير مستطيلا طوله ٦١ م وعرضه ٣٨ م له أربع واجهات وله مدخلان متقابلان تدعمها أبراج مربعة تشرف على مداخل البهو الذي يشغل أغلب مساحة المبنى^(٤).

أما الآثار الباقية منه فجدران يترواح ارتفاعها ما بين ثلاثة أمتار في بعض الأجزاء، وفي أخرى ما بين ١,٢٠ م، ٨٠,٠ م، بناؤها من الملاط المتماسك الشديد الصلابة بين كتل حجرية غير منتظمة أو من الآجر، يكسوها طبقة من الجير^(٥).

كما تحتفظ القاعات بهذا القصير والأروقة التي تربط بينهما بقسم كبير من وزراتها المطلية بلون أحمر مع زخارف من تشبيكات أقرب إلى التشبيكات السداسية أو الثمانية المعروفة منها إلى تشبيكات دار لاشانكا كما بقيت طبقات عقود من جص محفور كانت تزخرف الأبواب بها توريقات بارزة تشبه تمام الشبه تلك التي في مسجد تلمسان وتقوم على أساس خطوط حلزونية، وهناك بنية خاصة بعقدين توأمين

(1) Torres Balbas (L.), Monteagudo y El Castillejo en la vega de Murcia, Al-Andalus, Fasc II, 1934, p. 868.

وراجع أيضاً: جوميث مورينو، الفن الاسلامي، ص ٣٣٣.

(2) Torres Balbas, Ibid, p. 369.

(٣) جوميث مورينو، المرجع السابق، ص ٣٣٣، ص ٣٣٦.

(4) Georges Marcais, L'Architecture musulmana D'occident, Paris, 1924, p. 214.

(5) Ibid.

مع سنجات ملساء مزخرفة على التعاقب من التقليد الخلافي، ثم سطح ينحصر بين فصوص، كذلك عثر على كوابيل غنية بالزخرفة وقطع أخرى بها نقوش كوفية ونسخية، وبقي أيضاً تاجان من المرمر وفق النوع الكورنثي والمركب، وأوراقهما ملساء ليس فيها جمال ثم قاعدة ذات تقعر شديد الاتساع بين طوقين بارزين^(١).

ويحتفظ متحف الآثار بمدريد ببعض هذه القطع في حين يحتفظ متحف الآثار بمرسيه ببعض الآخر^(٢).

٢ - قصر المدينة Almudaina

كان قصرًا لولاة المسلمين وأمرائهم، شيد فوق أنقاض صرح روماني قديم، واستمر مقرًا لهم حتى سقطت ميورقة في أيدي خايمي الأول وأصبح الآن مقرًا للقيادة العسكرية ودار المحفوظات العامة، أما عن القصر فبداخله فناء كبير مربع ذو عقود عربية من الجهتين، ولم يتبق من آثاره الإسلامية في فناءه - الذي يسمى «فناء الملكة» - سوى نافذتان معقودتان بعقدين إسلاميين وحوض نافورة، وبقايا عقد إسلامي يقوم في أعلى الجدار في أحد ممراته، وتوجد أيضاً عدة قطع زخرفية من أعمدته القديمة^(٣).

ج - شواهد القبور:

أسفرت أعمال الحفريات بمقبرة باب أحمد بمرسيه عن كشف عدد من شواهد قبور، كلها تحمل نقوش عربية خاصة بمسلمين دفنوا في هذه المقبرة، ومن بين هذه الشخصيات الهامة التي دفنت في هذه المقبرة السيدة الفاضلة بنت ذى الوزارتين القائد الأجل المجاهد أبي عثمان سعد بن مردنيش توفيت عام ٥٥٧هـ وذو الوزارتين القائد أبو عمران موسى بن يحيى المدعو بابن الأزرق الفهري، المتوفى سنة ٥٦٦هـ^(٤).

(١) جوميث مورينو، المرجع السابق، ص ٣٣٦، وانظر أيضاً:

Torres Balbas, op.cit., p. 371

أما الوزرة فتعرف بالأسبانية Zocalo وبالفرنسية Socle، وهي كسوة من الرخام مزينة بالزخارف النباتية والتوريق تغطي أسفل الجدار، راجع : جوميث مورينو، المرجع السابق، ص ٤٩٦.

(2) Torres Balbas, Ibid, p. 368.

(٣) انظر : محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص ١٢٨.

(4) Lévi - Provençal, Inscription Arabes D'Espagne, tomo I, Paris, Leyde, 1931, pp. 98-99.

د - صهاريج المياه:

استلزم بناء الحصون إقامة خزانات للمياه بهدف تزويد الحامية بالمياه اللازمة، وقد أمدتنا أعمال الحفائر في حصون وقلاع شرق الأندلس بنظام بناء الخزانات والمادة المستخدمة في تشييده.

ففى حصن Olocau عثر على خزانين للمياه، أحدهما فى حالة جيدة يتخذ شكل مستطيل طوله ٧,٥٠ م وعرضه ٥,٤٠ م، تغطيه قبوة نصف اسطوانية استخدم فى بنائها اللوحات الصخرية والملاط، وقد كسى داخل الصهريج بطبقة سميكة من المصيص الأبيض المدهون باللون الأحمر، وقبوة الصهريج فتحتين لصب المياه فيه من موضعين^(١).

كما عثر فى حصن المنارة Almenara (قسطليون) على ثلاثة صهاريج مياه، استعمل فى بنائها الآجر^(٢).

وفى السور البرانى لحصن شاطبة الكبير أربع صهاريج متحدة فى بناءها مغطاة بقبوات من ألواح صخرية، أما جدرانها فمكسوة بالجص ومدهونة باللون الأحمر، ويتمثل نفس نظام البناء فى هذا الصهريج فى صهاريج عثر عليها بحصون شارقة Jérica، وشرب Segorbe، وحصن Oropesa del mar، وكذلك مر بيتر Murviedro يوجد بها آثار صهاريج مختلفة ذات طابع اسلامى صرف^(٣).

٢ - الآثار الحربية:

كان لوقوع شرق الأندلس فى الطرف الشرقى للأندلس على حدود مملكة قطلونية من جهة ومملكة أرغون من جهة ثانية سبباً فى تعرضها لأخطار الغارات التى كانت تهددها دوماً، كما كان امتداد سواحلها على البحر المتوسط عاملاً لتعرض موانئها للغزو البحرى الذى تمارسه قوى النصرانية، الأمر الذى دعا الموحدين إلى أن يولوها قسماً كبيراً من اهتمامهم ويحرصوا على تحصينها درءاً للخطر المتزايد لاسيما فى المنطقة المتقدمة شمالى بلنسية، وهكذا اهتم الموحدون بتحسين ثغور شرق الأندلس بالأسوار والتحصينات المنيعة وترميم القلاع وتعزيز الأسوار بأبراج قوية.

ومن الآثار الحربية الباقية:

(1) Basilio Pavon Maldonado, El Castillo de Olocau de Valencia, en Al-Andalus, Vol. XLII, Fasc1, Madrid, Granada, 1977, pp. 210-211.

(2) Ibid, p. 212.

(3) Ibid, pp. 213-215.

أ - آثار حصن Olocau ^(١) بإقليم بلنسية:

أمدتنا الحفائر الأثرية التي أجريت عام ١٩٧٦ في بلدة Olocau بحقيقتين هامتين تفيدان كمدخل لدراسة هذا الأثر الهام، الأولى، أن هذا الحصن بنى على قمة صخرية هائلة ومرتفعة ذات مدخل يصعب ارتقاؤه يبعد ثلاثة كيلومترات عن البلدة، ويقع عند خط تقسيم المياه مع بلدة مارينس القديمة Marines el Viejo، وأما الحقيقة الأخرى فهي أن أعمال الحفائر قد أسفرت عن وجود أطلال برج يماثل أبراج العصور الوسطى في سهل بلدة Olocau ذلك أن البنيان الداخلى لهذا البرج يقوم على أساس قطع الحجارة التي تتطابق مع أسوار الحصن الصخرية، ويرجع الأستاذ مالدونادو تاريخ بناء النواة الداخلية لهذا البرج إلى القرن السابع الهجرى (١٣م) ^(٢).

ومن الواضح أن ارتفاع هذا البرج قد ازداد حتى المستوى الحالى بدليل أنه استخدم فى بناء هذه التعلية الحجر والآجر وهى مادة تختلف عن المادة التى بنى بها القسم الرئيسى منه. ومن الجدير بالملاحظة أن تشييد هذا البرج فى أعلى هذه القمة الصخرية المرتفعة قد تسبب فى صعوبة الارتفاع إليه وخطورة ذلك لطبيعة سطح الجبل الجنوبية والغربية، علاوة على منعته من جهة الشمال والشرق حيث يوجد جرف قائم، أما محيط دائرة الحصن فتتخذ مساراً غير منتظم، وتشتمل دائرة الحصن على سورين أحدهما خارجى أو حزام برانى مقام عليه برج فى حالة شبه خربة وعلى مسافة يسيرة منه يقع خزان للمياه ^(٣). أما السور الثانى أو الرئيسى، فقد استخدم فى بناء جدرانه نطع الحجارة المربعة مع ملاط صلب ^(٤)، ويتم تخطيطه إجمالاً عن شكل شبه

(١) فسر آئين بلاسيوس اصطلاح Olocau بمعنى مرتفع أو ربوة أو صخرة جبلية كبيرة، كما فسرهما بأنه مشتق من الاصطلاح العربى العقاب، بينما يرى الياس تيرس أن هذا الاصطلاح مشتق أصلاً من الكلمة العربية De al - Ugab فأصبح Olocau، راجع:

Asin palacio, contribucion a la tomonomia arabe de Espana, p. 126; Basilio Pavon Moldonado, op.cit, p. 208;

هذا وقد ورد اسم حصن العقاب ضمن حصون شرق الأندلس، فابن عذارى فى حديثه عن ثورة القاضى ابن جحاف بلنسية يذكر أن القادر بن ذى النون بعث بعض عياله إلى ابن ياسين قائده على حصن شبرب، وإلى ابن حدير بحصن العقاب؛ راجع: ابن عذارى، البيان المغرب، القطعة الخاصة بالمرابطين، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧، ص ٣١.

(2) Basilio Pavon Moldonado, op.cit, p. 209.

(3) Ibid, p. 210.

(٤) الملاط الصلب، هو مزيج من الجير والرمل وقطع الدبش، راجع: جوميث مورينو، الفن الإسلامى، ص ٤٩٤.

منحرف بأقصى طول ٢٢,٣١ م وعرض ٨,٤٠ م فى أغلب الجانب الشمالى، وكان يشتمل على ثلاثة قطاعات ذات مستويات مختلفة، القطاعان الأولان والداخليان وجدت آثارهما تحت الأنقاض، ولو أنه برزت فى بنية الثانى غرفة غير متصلة بالسور على شكل قاعة فسيحة مستطيلة الشكل تعلوها قبوة نصف اسطوانية اتخذت من ألواح صخرية، وغرفة أخرى صغيرة غير كاملة على شكل مستطيل بطول ١,٩٨ م وعرض متر، ومن المرجح أن هذه الغرفة كانت مؤتة بأثاث استقدم من قصور ومنازل اسلامية ومدججة، واتخذت مخادع للنوم أو مجالس للاستقبال^(١). ومن المحتمل أن يكون القطاع الثانى الذى يؤدى إلى طريق اسطوانى فسيح إلى مدخل الحصن مجلساً للسمر فى حين يمكن أن يكون القطاع الثالث والعلوى ساحة للاحتفالات العسكرية، ويبدو أنه كان مقاماً به برج من طابقين وسطح مما يعطى الناظر إليه من المنخفض الموجود فى الطريق إلى بلدة مرنس القديمة الانطباع بأنه إزاء مرقب أو برج طليعة، والبرج المذكور لا يعدو بهوياً مربع الشكل ٦,٥٠ × ٥,٨٠ م يتصل بهليز منحدر، وتفتح فى جانب منه خوخة تماثل نظيرتها فى خزان الحصن، وقد عثر على درج يقع على عمق قليل يتجه إلى ممر ضيق منخفض الارتفاع لا يستطيع المرء أن يقف فيه على راحته ولو لوقت قليل إذا لم يستند يديه إلى الشرفات التى تتوج الحائط، وجدران البرج تخلو من منافذ السهام التقليدية ولكنها مزودة بفتحات صغيرة، كما عثر داخل البرج على سلم ذا مرقى مزدوج عن طريقه يصعد إلى الطابق الثانى والشرفة، بالإضافة إلى غرفتين ملحقيتين كانتا تستخدمان كمطبخ، ينفذ الضوء إليهما من خلال نافذتين ضيقتين وأعلى النافذتين توجد بعض فتحات لعلها تخلفت من آثار استخدام لوحات الخشب فى بناء الجدران^(٢).

ب - قلعة شاطبة:

تعتبر قلعة شاطبة من أهم قلاع وحصون شرق الأندلس الدفاعية، وهى من بناء الرومان واستمرت تقوم بفضل متانتها وإحكام بنيانها ومنعتها بدورها الدفاعى عن منطقة شرق الأندلس، وقد وصفها الرازى بأنها حصن قديم جداً ويطل على البحر^(٣)، أما العذرى فقد وصفها بالمتعة وأنه لا مثيل لها^(٤)، وألح إليها الإدريسى فى حديثه

(1) Moldonado, op.cit., p. 216.

(2) Moldonado, op.cit., p. 218.

(3) Lévi - Provençal, la description de l'Espane D'Ahmad Al-Razi, Al-Andalus, Vol. XVIII, Fasc I, 1953, p. 7.

(٤) ترميز الأخبار، ص ١٨.

عن مدينة شاطبة بقوله : «لها قصاب يضرب بها المثل في الحسن والمنعة»^(١).

أما المدونات المسيحية فقد أسهبت إلى حد كبير في وصف القلعة وتحديد موضعها، فكتب مارتن دي بتيانا أن القلعة أقيمت على حافة سلسلة جبلية وأنها تتوزع على حصنين، الحصن الكبير تجاه الغرب، والحصن الصغير تجاه الشرق، يطوقها سور واحد، ومدخل واحد، يؤدي إلى أربع ممرات مختلفة، لكل منها مدخل منيع، والحصن الكبير توجد به كنيسة تسمى كنيسة العذراء، وبه برجين كبيرين رئيسيين يطلق على الأول La Vina de Sanct Joergo، والثاني Sancta Fe، بالإضافة إلى عشرين برجاً حصينا موزعة على السور، أما الحصن الصغير، فبداخله كنيسة القديسة آنا Santa Ana، ومزود بشمانية أبراج، والحصنان مزودان بالمياه عن طريق ١٢ صهريجاً كبيراً^(٢).

ويضيف بتيانا أن السور المرتفع الذي يطوق الحصنين كان يسمى بسور البقر، لأنه كان يحيط بمواضع قفراء ترعى فيها الماشية، وقد تبقى السور الأسفل المنخفض الذي يواجه المدينة وتفتح فيه تسعة أبواب: باب قسنطينة، باب البويج، باب بلنسية، باب سانتا آنا Santa Ana، باب ليون، باب فريزا، باب الحمامات، باب القديسة تكلا، باب سان جورج^(٣).

أما ديجو Diago، فقد اهتم بإبراز موقع القلعة، فيقول أن جبل شاطبة ينحدر من الغرب إلى الشرق، وهو جبل عال للغاية يصعب ارتقاؤه من جهة ترامونتا Tra-montana، وتقع مدينة شاطبة على سفح الجبل من هذه الناحية ويمتد عمرانها من الغرب إلى الشرق، أما الحصن الكبير فقد أقيم في أكثر سطوح الجبل ارتفاع وهي الجهة الغربية، وعلى قمة أخرى أقل ارتفاعاً في الجانب الشرقي أقيم الحصن الصغير، ويحدثنا عن صهاريج المياه فيقول أن الحصن الكبير به عشرة صهاريج والحصن الصغير به صهريجين للمياه^(٤).

وقد زودنا اسكولانو Escolano بوصف أقل تعبيراً عن الوصفين السابقين وذكر أن القلعة تتوازي مع مدينة شاطبة، ويتفق مع ديجو في وصف الحصنين والأبواب

(١) الإدريسي، صفة المغرب، ص ١٩٢.

(2) Viciana, Tercera parte de la cronica de valencia, apud, Carols sarthou car-reres; El Castillo de Jative y sus historicas prisioneros, tercera edic, valencia, 1951, p. 15.

(3) Viciana, apud, torres Balbas, Jativa y los restos del palacio de piohermo-so, Al-Andalus, Vol. XXIII, 1958, Fasc I, pp. 149-150.

(4) Carreres, op.cit., p. 16.

والأبراج^(١)، ويصف مادوث Madoz فى قاموسه الجغرافى التاريخى قلعة شاطبة بالمنعة وأن أسوارها مشيدة على قمة جبل برنيسا Bernisa وبها خنادق، وثلاثون برجاً، وإثنى عشرة خزاناً للمياه، بناؤها رائع، ويضيف أن عظمة هذه القلعة قد انتهت على يد فيليب الخامس، الذى أمر بتدميرها، وبقيت منها آثار تشهد بازدهارها القديم^(٢).

ويمتدح خايمى الأول ملك أرغون قلعة شاطبة عندما افتتحها، ويصفها بأنها من أعظم قلاع الأندلس وأنه لا يوجد فى كل الأندلس قلعة أفضل منها^(٣).

هذه بعض أقوال القدماء والمحدثين فى وصف قلعة شاطبة، وبهمننا فى هذا المجال، أن نبرز الأعمال الإنشائية الموحدية التى أضيفت إلى القلعة فقد أسفرت أعمال الحفريات الأثرية على وجود بعض الأسوار والأبراج الصغيرة من الملائط الصلب، خاصة فى الواجهة الجنوبية للحصنين، حيث يصبح انحدار جبل برنيسا أشد وعورة من الجهة المواجهة للمدينة، وهذه الأسوار والأبراج هى الوحيدة التى تنسب إلى العصر الإسلامى بوجه عام وإلى عهد الموحدين بوجه خاص، ويشير اسكولانو Escolano إلى وجود لوحتين من الحجر نقشت عليها كتابات عربية، إحداها نقش بها كتابات دينية بحتة، وأما الأخرى وهى التى تهمننا فنقرأ فيها النص التالى: «بنى هذا البرج بعون الله وقوته لسنة سبع وستمائة»^(٤). ويستفاد من هذا النص أن بناء هذا البرج يرجع إلى فترة السيطرة الموحدية على شرق الأندلس، مما يدل على أن الموحدين قد اهتموا بأعمال التحصينات الدفاعية، فى هذه المنطقة.

ج - آثار برج بوفيا Bufilea

بالقرب من قرية بوفيا وعلى قمة مرتفعة ينتصب برج مربع الشكل طول ضلعه ٦ م وارتفاعه ١٦ م، مشيد من الطابية، وواضح فى بنائه آثار الألواح الخشبية التى كانت تعلو الواحدة الأخرى عند ملئها بالملائط، والقسم العلوى من هذا البرج قد اختفى تقريباً بالإضافة إلى الاطارات التى كانت تحيط بالفتحات وكان يطوق البرج من أدناه قاعدة من البناء مربعة أو منصة فى الجهة الشمالية، الظاهر أنها أقيمت بعد بنیان البرج بفترة ما لأنها أكثر حداثة من بنيانه، كما عثر على بقايا غير متكاملة من سورين، أما بقايا الغرف التى كانت تقع فى منطقة تبعد بنحو ١٥٠ م إلى الشمال

(1) Carreres, op.cit, p. 16.

(2) Madoz, Diccionario Geografico historico, t. IX, Madrid, 1856, p. 601.

(3) Desclot, Cronica, V. cap, XL IX, apud, Torres Balbas, Jativa y Los restos del Palacio de pinohermoso, p. 147.

(4) Escola no, Segundo parte de la decada primera de la historia de la insigne y coronada ciudad y Reyno de Valencia, apnd, Torres Balbas, op.cit., p. 153.

الغربي من البرج فقد أسفرت الحفريات التي أجريت عليها في فترات قصيرة متلاحقة ما بين عامي ١٩٦٩، ١٩٧٢ عن كشف كثير من قطع الخزف يمتد تاريخها إلى القرن الرابع عشر الميلادي^(١). وواضح من بنية البرج أنه لا يختلف من حيث الطابع العام والمادة المستخدمة في البناء عن أبراج الموحديين.

د - بقايا برج موسى:

يقع هذا البرج عند مدخل قرية بني فيو Benifayo مباشرة بعد تجاوز خط السكة الحديدية، وقد وصل إلينا هذا البرج في حالة جيدة جداً ويرجع تاريخ بنائه إلى القرن ١٣م/٧هـ، ويطلق عليه أيضاً اسم برج L'Hort، وواضح أنه أقيم على أسس بنية برج قديم، ويتكون البرج من ثلاثة طوابق، الطابق الأساسي يتخذ شكل مربع مساحته ١٠,٥٠ × ١٠,٦٠ م. ويتراوح ارتفاعه ما بين ٣,٢٥ إلى ٣,٧٥ م، وينأؤه من قطع الدبش غير المنتظمة مع ملاط كثيف، ويليه طابق شبه مربع مساحته ٧,٧ م بارتفاع ٣,٢٠ م، ومداميكه أفقية منتظمة، أما بقية بنية البرج ضمن الطابق التقليدية وتتخللها فتحات مستطيلة الشكل يبدو أنها حديثة، وفي الوجه الشمالي الشرقي فتحة ارتفاعها ٢ م واتساعها ١,٢٠ م يعلوها نافذة معقودة على شكل عقد نصف دائري، ومن الجدير بالملاحظة أن الأركان الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية في أدنى البرج مبنية بناءً لا عناية فيه^(٢).

هـ - آثار برج Trullars

تبقت آثار برج قد سقط معظم بنائه ولم يبق ظاهراً سوى أسسه وبعض كتل من المدمك الأسفل تقع في الركن الأدنى، وبقايا هذا البرج تشبه بقايا برج موسى^(٣).

(1) Andre Bazzane et pierre Guichard; Les tours de defense de la huerte de valence au XIII es, en Melages de la casa de velazquez, tomo XIV, Paris, 1978, p. 87-91.

(2) Anre Bazzane y Pierre Guichard, op.cit, p. 92.

(3) Ibid, p. 91.

المصادر والمراجع

(أ) المصادر المخطوطة:

- ١ - ابن الجيب (أبو طاهر محمد بن عبد العزيز بن يوسف المرادي):
كتاب التقریب والتيسير لإفادة المبتدى بصناعة مساحة السطوح،
مخطوط الأسكوريال، رقم ٩٢٩.
- ٢ - ابن الشباط (قاسم بن عبد الله الأنصاري):
كتاب الشرف على أعلى شرف، فى التعريف برجال سند
البخارى، من طريق الشريف أبى علي بن أبى المشرف، مخطوط
الأسكوريال، رقم ١٧٣٢.
- ٣ - ابن المرباط (أبو العلاء محمد بن علي):
كتاب زواهر الفكر وجواهر الفقر، ضمن مخطوط الأسكوريال،
رقم ٥٢٠.
- ٤ - مؤلف مجهول:

جغرافية الأندلس، مخطوط مصور بالمعهد المصرى للدراسات
الاسلامية بمدريد، تحت رقم ٣٦، عن الأصل الموجود بالخزانة
العامة بالرباط

(ب) المصادر العربية القديمة:

- ١ - أبو الفدا (عماد إسماعيل بن محمد بن عمر):
تقويم البلدان، تحقيق de Slan, Reinaud، باريس، ١٨٤٠م.
- ٢ - أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل):
كتاب المختصر فى أخبار البشر، الجزء الثالث، طبعة بيروت،
١٩٥٩م.
- ٣ - الآبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله): (ت: ٦٥٨هـ/١٢٦٠م):
الحلة السبراء، الجزء الثانى، نشر الدكتور حسين مؤنس،
القاهرة، ١٩٦٣م.
- ٤ - ابن الآبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله): (ت: ٦٥٨هـ/١٢٦٠م):
التكملة لكتاب الصلة، جزءان، طبع بعناية كوديرة وزيدان،
مجريط، ١٨٨٦م.

- ٥ - ابن الآبصار: المقتضب من تحفة القادم، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧.
- ٦ - الإدريسي (أبو عبد الله محمد الشريف السبتي): (ت: حوالي ٥٤٨هـ/١١٥٤م)
المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس، مأخوذة من كتاب نزهة
المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن، ١٦٦٨م.
- ٧ - ابن بصال: (أبي عبد الله محمد بن إبراهيم):
كتاب الفلاحة، نشر خوسيه ماريّا ميكروسا ومحمد عزيّمان،
معهد مولاي الحسن، تطوان، ١٩٥٥.
- ٨ - البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد):
الآثار الباقية عن القرون الخالية، طبعة إدوارد شخاو، ليبزج،
١٨٧٩/١٨٧٨.
- ٩ - التيجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد): (ت: حوالي ٧١٧هـ/١٣١٧م):
رحلة التيجاني، تقديم الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب،
المطبعة الرسمية، تونس، ١٩٥٨.
- ١٠ - ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي الكرم):
الكامل في التاريخ، ج١٠، ج١١، القاهرة، ١٢٩٠هـ.
- ١١ - ابن جبير (محمد بن أحمد الأندلسي): (ت: ٦١٤هـ/١٢١٧م)
رحلة ابن جبير، تحقيق د. حسين نصار، القاهرة، ١٩٥٧.
- ١٢ - ابن حزم (أبو محمد علي بن سعيد):
جمهرة أنساب العرب، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال، دار
المعارف بمصر، ١٩٤٨.
- ١٣ - ابن حزم:
الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج٤، القاهرة، ١٣٢١هـ.
- ١٤ - أبي الحسن علي بن يوسف الحكيم:
الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق الدكتور حسين
مؤنس، مطبعة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمطرد،
١٩٦٠.
- ١٥ - الحميري (أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم):

صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال، القاهرة، ١٩٣٧.

١٦ - ابن حوقل: (أبو القاسم محمد بن علي البغدادى النصيبى):

صورة الأرض، تحقيق كرامرز، ١٩٣٨.

١٧ - ابن حيان (أبو مروان): (ت: ٤٦٩هـ/١٠٧٩م)

المقتبس، الجزء الخامس، نشر الأستاذ بدر شالميتا وآخرون، مدريد، ١٩٧٩.

١٨ - ابن خرداذبة (أبو القاسم عبد الله بن عبد الله): (ت: ٣٠٠هـ/٩١٣م)

المسالك والممالك، مكتبة الثماني ببغداد، مصور عن طبعة بريل، ١٨٨٩.

١٩ - ابن الخطيب (لسان الدين): (ت: ٧٧٦هـ/١٣٧٤م)

الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان، المجلد الأول، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٣.

الإحاطة في أخبار غرناطة، المجلد الثانى، القاهرة، ١٩٧٤.

الإحاطة في أخبار غرناطة، المجلد الثالث، القاهرة، ١٩٧٥.

تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى، والأستاذ إبراهيم الكتانى، الدار البيضاء، ١٩٦٤.

رقم الحل فى نظم الدول، تونس، ١٣١٧هـ.

اللمحة البدرية فى الدولة النصرية، تحقيق الأستاذ محيى الدين الخطيب، القاهرة ١٣٤٧هـ.

اعمال الاعلام، الجزء الخاص بتاريخ اسبانيا، نشر ليفي

بروفنسال، بيروت، ١٨٥٦.

٢٤ - ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد): (ت: ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، المجلد الأول والرابع والسادس، دار الكتاب اللبنانى، ١٩٥٩.

اعمال الاعلام، الجزء الخاص بتاريخ اسبانيا، نشر ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦.

٢٥ - ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد): (ت: ٦٨١هـ/١٣٨٢م):

وفيات الأعيان وأبناء الزمان، تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين
عبد الحميد، جـ ٤، ط ١، ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م.

٢٦- ابن أبى دحية (أبو الخطاب السبتي) : (ت : ٦٣٣هـ/١٢٣٥م)
المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق الأستاذ إبراهيم الإبيارى
وآخرون، القاهرة، ١٩٥٤.

٢٧ - ابن أبى زرع: (أبو الحسن علي بن عبد الله) :
الأنيس المطرب بروض القرطاس، تحقيق كارل ، تورنبرج، أبساله،
١٨٤٣.

٢٨ - ابن أبى زرع: الذخيرة السننية فى تاريخ الدولة المرينية، الرباط، ١٩٧٢.
٢٩ - الزركشى (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم) :
تاريخ الدولتين الموحدة والحفصية، تحقيق الأستاذ محمد
ماصور، تونس، الطبعة الثانية، ١٩٦٦.

٣٠ - ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى) :
رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق الدكتور النعمان عبد
المتعال القاضى، القاهرة، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
٣١ - : اختصار القدرح المعلق فى التاريخ المعلق، تحقيق الأستاذ إبراهيم
الإبيارى، القاهرة، ١٩٥٩م.

٣٢ - : المغرب فى حلى المعزب، جـ ٢، تحقيق الدكتور شوقى ضيف، دار المعارف
بمصر، ١٩٥٣.

٣٣ - السقطى (أبو عبد الله محمد بن أبى محمد) :
كتاب فى آداب الحسبة، نشر جورج كولان، وليفى بروفنسال،
باريس، ١٩٣١.

٣٤ - السلوى (أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى) :
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، جـ ٢، الدار البيضاء،
١٩٥٤.

٣٥ - ابن صاحب الصلاة (عبد الله) : كان حياً سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م :
تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة
وجعلهم الوارثين ، السفر الثانى، دار الأندلس، الطبعة الأولى، ١٩٦٤.

- ٣٦ - الصنهاجي (أبو بكر) المكنى بالبليق : (ق ١٢/هـ ١٢٠٦م) :
كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين تحقيق
الأستاذ ليفي بروفنسال، باريس ١٩٢٨.
- ٣٧ - الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة) :
بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق كوديرا
وزيدان، مجريط، ١٨٨٤.
- ٣٨ - الطرطوشي (أبو بكر محمد) : (تلك ٥٢٠هـ/١١٢٦م) :
كتاب الحوادث والبدع ، تحقيق محمد الطالبي، تونس،
١٩٥٩.
- ٣٩ - ابن عبد الحكم (عبد الرحمن) :
فتوح أفريقية والأندلس، نشر ألبرت جاتو، الجزائر، ١٩٤٧.
- ٤٠ - ابن عبد الملك المراكشي (أبو عبد الله محمد) : (ت : ٧٠٣هـ/١٣٠٤م)
الذيل والتكملة لكتايب الموصول والصلة،
- السفر الأول، القسم الأول، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة
، دار الثقافة ، بيروت.
- السفر الأول، القسم الثاني، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة
، دار الثقافة ، بيروت.
- بقية السفر الرابع، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة
، بيروت.
- السفر الخامس، القسم الأول، تحقيق الدكتور إحسان عباس ،
دار الثقافة ، بيروت.
- السفر الخامس، القسم الثاني، تحقيق الدكتور إحسان عباس ،
دار الثقافة ، بيروت.
- ٤١ - ابن عذارى (أبو العباس أحمد بن محمد) : (كان حياً ٧١٢هـ/١٣١٢م)
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الثالث، تحقيق
الأستاذ ليفي بروفنسال، بيروت.
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قطعة خاصة
بالمرايطين، بيروت.

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، القسم الرابع، تحقيق
الأستاذ أويشى ميراندا وآخرون، تطوان، بيروت.

٤٢ - العذري (أحمد بن عمر بن أنس): (١٤٧٨هـ/٩٨٨م):

نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار،
والبستان في غرائب البلدان والممالك إلى جميع الممالك،
تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني، مطبعة معهد الدراسات
الاسلامية، مدريد، ١٩٦٥م.

٤٣ - العسفى (أبو العباس وأبو القاسم):

كتاب الدر المنظوم في مولد النبي المعظم، نشر الأستاذ فرناندو
لاجرنخا، مجلة الأندلس، العدد ٣٤، ١٩٦٩.

٤٤ - القاضى عياض بن موسى بن عياض السبتي:

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، نشر
الأستاذ أحمد باكير محمود، المجلد الثاني، (مجلدين في أربعة
أجزاء)، بيروت (بدون تاريخ).

٤٥ - ابن غالب (محمد بن أيوب):

نص أندلسي جديد، قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ
الأندلس، تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع، مجلة معهد
المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٥٦.

٤٦ - الغبريني (أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله): (ت: ٧١٤هـ/١٣١٥م)

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية،
طبع بعناية الأستاذ محمد بن أبي شنب، الطبعة الأولى، الجزائر،
١٣٢٧هـ/١٩١٠م.

٤٧ - ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم بن علي اليعمرى): (ت: ٧٩٩هـ/١٣٩٦م)

الدباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، القاهرة،
١٣٢٩هـ.

٤٨ - ابن القاضى (أحمد بن محمد): (ت: ١٢٠٥هـ/١٦١٦م)

جذوة الاقتباس فيمن حل من العلماء مدينة فاس، فاس،
١٣٠٩هـ.

٤٩ - القزويني:

آثار العباد، تحقيق وستفلد، جوتنجن، ١٨٤٧

٥٠ - ابن القطان (أبو الحسن علي بن محمد الكتامي الفاسي): ت: ١٢٢٨هـ/١٢٣٠م

نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق الدكتور محمود علي
مكي، الرباط، ١٩٦٤.

٥١ - القلقشندي (أبو العباس أحمد): ت: ٨٢١هـ/١٤١٨م

صبح الأعشى، ج٦، ج٧، مطبعة دار الكتب المصرية،
القاهرة، ١٣٣٢هـ/١٩١٤م.

٥٢ - ابن القوطية (أبو بكر محمد القرطبي):

تاريخ افتتاح الأندلس، نشره خوليان ريبيرا بعنوان: Historia de
la conquista Espana مدريد، ١٩٢٦.

٥٣ - ابن الكردبوس:

تاريخ الأندلس، نص، نشره الدكتور أحمد مختار العبادي،
مدريد، ١٩٧١.

٥٤ - مجموع رسائل موحدة من إنشاء كتاب الدولة الموحدة، إصدار الأستاذ ليفي
بروفنسال، رباط الفتح، ١٩٤١.

٥٥ - المراكشي (عبد الواحد):

المعجب في تلخيص أخبار المغرب، الطبعة الأولى، تحقيق
الأستاذان محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، المكتبة
التجارية، مصر ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.

٥٦ - المقرئ (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد):

نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب، عشرة أجزاء، تحقيق
الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى، مطبعة
السعادة، ١٩٤٩.

٥٧ - _____ : أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، ثلاثة أجزاء، مطبعة لجنة

التأليف، القاهرة، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م.

٥٨ - مؤلف مجهول:

الحلل الموشية، تونس، ١٩١١.

٥٩ - مؤلف مجهول:

أخبار مجموعة في فتح الأندلس، نشر دون لافونتي القنطرة،
مدريد، ١٨٦٧.

٦٠ - مؤلف مجهول :

كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، تحقيق
الأستاذ امبروزو أويثي ميراندا، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية،
مدريد، ١٩٦٥.

٦١ - ياقوت الحموى (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله):

معجم البلدان، الطبعة الأولى، المجلد الخامس، القاهرة،
١٣٢٣هـ/١٩٠٦م.

٦٢ - ياقوت الحموى (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله):

معجم الأدباء، الجزء الثاني، القاهرة، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

جـ - المراجع الحديثة والمعوية:

٦٣ - إحسان عباس (دكتور):

تاريخ الأدب الأندلسي، (عصر سيادة قرطبة)، بيروت، ١٩٦٠.

٦٤ - أحمد مختار العبادي (دكتور):

دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الطبعة الأولى،
الاسكندرية، ١٩٦٨.

٦٥ - _____ : الموحدون والوحدة الإسلامية، مقال في مجلة التربية الوطنية

المغربية، العددان ١، ٢، مارس - أبريل، ١٩٦٢.

٦٦ - _____ : الصقلية في أسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعبية، مدريد، ١٩٥٣.

٦٧ - أرشيبالد لويس:

القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط،
ترجمة الأستاذ أحمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠.

٦٨ - السيد عبد العزيز سالم (دكتور):

قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الثاني، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢.

تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار المعارف، لبنان، ١٩٦٢.

المغرب الكبير، المؤسسة العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٦٨.
تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي، الإسكندرية، دار المعارف، ١٩٦١.

تاريخ مدينة المريه الإسلامية، قاعدة أسطول الأندلس، الطبعة الأولى، ، بيروت، ١٩٦٩.

صور من المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة في علب العاج، مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية، المجلد التاسع عشر، ١٩٧٦-١٩٧٨.

مدينة مرسية، موطن الشيخ الزاهد العارف بالله القطب الأكبر أبو العباس المرسى، فصله من مطبوعات جمعية الآثار بالإسكندرية، ١٩٦٩.

الجزائر الشرقية، دائرة معارف الشعب، العدد ٦١.

٧٦ - السيد عبد العزيز سالم (دكتور) والعبادي (دكتور أحمد مختار):

تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، بيروت، لبنان، ١٩٦٩.

٧٧ - أنستاس ماري الكرملی البغدادي:

النقود العربية وعلم النميات، القاهرة، ١٩٣٩.

٧٨ - جنثالث بالنشيا (آنخل):

تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٥.

٧٩ - جواد علي:

تاريخ العرب قبل الاسلام، الجزء الثامن، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٦٠.

- ٨٠ - جودت الركابي (دكتور):
في الأدب الأندلسي، دمشق، ١٩٥٥
- ٨١ - حسن إبراهيم حسن (دكتور):
تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الجزء الثاني، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨.
- ٨٢ - حسن أحمد محمود (دكتور):
قيام دولة المرابطين، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧.
- ٨٣ - حسن حسني عبد الوهاب:
ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية، قسم ٢، تونس، ١٩٦٦.
- ٨٤ - حسين مؤنس (دكتور):
فجر الأندلس، القاهرة، ١٩٥٩
تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مطبعة معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، ١٩٦٧.
أربع وثائق جديدة في مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد الحادي عشر، الجزء الثاني، ديسمبر، ١٩٤٩.
- ٨٥ - حكمة علي الأوسي (دكتور):
الأدب الأندلسي في عصر الموحدين مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٥.
- ٨٦ - سعد زغلول عبد الحميد (دكتور):
محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب، والأندلس، محاضرة أُلقيت بجامعة بيروت العربية، بيروت، ١٩٧٣.
- ٨٧ - عبد الرحمن علي الحجى (دكتور):
تاريخ الموسيقى الأندلسية، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٦٩.
- ٨٨ - عبد الرحمن فهمي محمد:
صنع السكة في الاسلام، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٧.

- ٨٩ - عبد العزيز الأهواني (دكتور):
ألفاظ مِغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة،
مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الثالث، القاهرة، ١٩٥٧.
الزجل في الأندلس، القاهرة، ١٩٥٧.
- ٩٠ - عبد العزيز عبد المجيد (دكتور):
ابن الآبار، حياته وكتبه ، الرباط، ١٩٥١.
- ٩١ - عبد الهادي التازي (دكتور):
مهدية المولى إسماعيل، مجلة المغرب، مايو ١٩٦٣.
- ٩٢ - عثمان الكعاك:
الحضارة العربية في حوض البحر المتوسط، مجموعة محاضرات
أقيمت بمعهد الدراسات العربية بجامعة الدول العربية، القاهرة،
١٩٦٥.
- ٩٣ - عمر رضا كحالة:
معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، الجزء الأول، المكتبة
الهاشمية، دمشق ١٩٤٩.
- ٩٤ - غرسيا غوميث :
الشعر الأندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة،
١٩٥٦.
- ٩٥ - فارمر (هنري جورج):
تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة الدكتور حسين نصار، مراجعة
الدكتور عبد العزيز الأهواني، القاهرة.
- ٩٩ - لطفى عبد البديع:
الاسلام في أسبانيا، العدد الثاني من سلسلة المكتبة التاريخية،
القاهرة، ١٩٥٨.
- ١٠٠ - ليفي بروفنسال:
الاسلام في المغرب والأندلس، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز
سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمي، القاهرة، ١٩٥٨.

١٠١ - مانويل جوميث مورينو:

الفن الاسلامى فى أسبانيا، ترجمة الدكتور لطفى عبد البديع
والدكتور السيد عبد العزيز سالم، مراجعة الدكتور جمال محوز
، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧ .

١٠٢ - محمد المنونى:

العلوم والآداب والفنون فى عهد الموحدين، معهد مولاي
الحسن، تطوان، ١٩٥٠ .

١٠٣ - محمد بن شريفة (دكتور):

أبو المطرف بن عميرة المخزومي، حياته وآثاره، الرباط،
١٣٨٥هـ .

١٠٤ - محمد عبد الله عنان :

عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس، القسم الأول،
القاهرة، ١٩٦٤ .

الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال، الطبعة الثانية،
القاهرة، ١٩٦١ .

١٠٥ - مصطفى الشكعة (دكتور):

الأدب الأندلسى، موضوعاته ومقاصده، بيروت، ١٩٧٢ .

١٠٧ - ناصر السيد محمود النقشبندى:

الدينار الاسلامى فى المتحف العراقى، الجزء الأول، بغداد،
١٩٥٣ .

١٠٨ - يوسف أشباح:

تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين، الطبعة الثانية،
ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٥٨ .

د- المراجع الأجنبية:

1. Abdel Aziz Salem (Dr. Elsayed): Algunos Aspectos del Florecimiento Economico de Almeria Islamica Durante el Periodo de los Taifas y de los Almoravides, Madrid, 1979.

2. Aguado Bleye, Manual de Historia de Espana, t. I, Madrid, 1947.
3. Alfred Bel, Les Banou Ghania, Paris, 1903.
4. Alvaro campaner y Fuertes, Bosquejo històrico de la dominacion islamita en las islas Baleares.
5. Andre Bazzane et Pierre Guichard, Les tours de defense de la hu-
erta de Valence au XIII es, en Melanges de la casa
de Velazquez, Tome X IV, Paris, 1978.
6. Anotonio Vives y Escudero: Monedas de las dinatias Arabigo-
Espanales, Madrid, 1893.
7. Bermejo (Joaquin Vallve): Notas de metrologica Hispano - arabe,
El code en la Esapana Musulmana, Al - Andalus
XLI, 1976.
8. : Notas de Metrologia Hispano arabe, Medidas de ca-
pacidad, Al-Andalus, XLII, 1977.
9. Calvo y C. M. del Rivero, Catalogo sumario del museo arqueolog-
ico nacional, Madrid, 1926.
10. Camarena (Miguel Gual), Precendentes de la Reconquista Valen-
ciana, Valencia, 1953.
11. Camarena (Miguel Gual): Precendentes de la reconquista Valen-
ciana, Valencia, 1953.
12. Carlos Sarthou Carreres, El Castillo de Jativa y sus historicos
prisioneros, tercera édic, valencia, 1951.
13. Casto M^a del Rivero: La Moneda Arabigo - Espanola, Madrid,
1933.
14. Chronica Adefonsi Imperatoris de la édicion Luis Sanchez Belda,
Madrid, 1950.
15. Codera (Francisco): Decadencia y desaprcion de los Almoravides
en Espana, Zaragoza, 1899.
16. Codera y Zaidin (Francisco): Titules y nombres Propios en las

- monedas Arabigo - Espanalas, Madrid, 1878.
17. Daydi (Oliver): La Vajilla de Madera y la Ceramica de uso en Valencia y en Cataluna Durante el siglo XIV, Valencia, 1950.
 18. Dozy (R), Recherches sur l'histoire et la litteratura de l'Espagne, t. I, 3ed, Amesterdam, 1865.
 19. : Supplement aux dicctionaires arabes t. II, Leiden, Paris, 1877.
 20. : Diccionnaire Detaille de noms de vetement chez les arabes, Amesterdam, 1845.
 21. Eguliaz y Ganguas (Leopoldo), Glosario etimologico de los palabras espanoles de origin oriental, Granada, 1886.
 22. Fernandez y Gonzalez, Estado Soical y politico des los mudejares de castilla, Madrid, 1866.
 23. Felip Mateu y LLOpis: Hallazgos numasmaticos musulman (IV), Al-Andalus, Fasc I, 1951.
 24. Fernando de la Granja, Fiestas cristianas, en Al-Andalus, Vol. XXXIV, Fasc I, 1969.
 25. Floch -i- torres (Joaquin): Noticia Sobre la ceramica de paterna, Barcelona, 1921.
 26. Garcia Gomez (Emilio): Sobre Agricultura Arabigo-Andaluza, Vol, X, Fasc , I, 1945.
 27. Gaspar Remiro (M), Historia de Murcia musulmana, Zaragoza, Historia de Espana y Africa, por En-Nuguairi, texto arabe y traduccion castellana segun un ms de la R.A. de la Historia, cotijado con otros textos, en (Revista del centro de estudios Historicos de Granada y su Reino, t. VIII, 1918.

28. Gestos y Perés (José), Historia de los barrios vidriados sevillanos.
29. Gomez Moreno (M), Arte arabe Espanol hasta los Almohades.
30. Gonzalez (J), Las conquistas de Ferrando III en Andalusia, Madrid, 1946.
31. Guichard (Pierre): Al-Andalus estructura antropologica de una sociedad islamica en Occidente, Barcelona, 1976.
31. Henri Basset & Henri Terrasse, Sanctuaires et forteresses Almohades, collection, Hesperis, 1932.
32. Heyd (W): Histoire de commerce du Levant au moyen-Age, t.I, Amesterdam, 1959.
33. Huici Miranda (A): Historia de Valencia y su region, tomo, I, III, Valencia, 1969.
34. : Hisotoria Politica del Imperio Almohade, 2 tomos, Tetuan, 1956.
35. Ibars (Andrés Piles), Valencia Aràbe, Tomo I, Valencia, 1901.
36. Isidero Pscense , Espane Sagrada, Tomo XIII.
37. Lane Poole (S), The moors in Spain , with collobaration of Arthur Gilman, 4th ed. London, 1890.
38. Lévi - Provençal, Le traité d'Ibn 'Abdun, en Journal Asiatique, t. CC XXIV, Avril, Juin, 1934.
39. : Espana Musulman, en Historia de Espana, dirigida por Ramon Menendez Pidal , Tercera edicion, Espasa Jalpe, 1973.
40. : Histoire de l'Espagne musulmane, tomo I, Paris, 1950.
41. : Inscriptions arabes D'Espagne, Tomo I, Paris, Leyde, 1931.
42. : La toma de Valencia porel , Al-Andelus, 1948, Fasc I.
43. :La Descripcion de L'Espagne D'Ahmad Al-Razi, en

Al-Andalus, Vol. XVIII, Fasc I, 1953.

44. Lopéz (Emilio Morena): Murcia y el Levante Espanol en el Siglo XIII (1224-1266) a traves de la correspondencia oficial, personal, diplomatioa Universidad de Granada, 1978.
45. Millas (Jose M^a): Un manuscrito arabe de la obra de agricultura de Ibn Wafid, Tamuda 2, 1942.
46. Millet (Rene): Los Almohades , Paris, 1923.
47. Madoz (Pascual): Diccionario Geografico, Estadistico historico de Espana, Segunda edicion, Madrid, 1846.
48. Marçais (Georges), L'Architecture musulmana D'occident, Paris, 1924.
49. Moldonado (Basilio Pavion), El castillo de Olocau de valencia, en Al-Andalus, Vol. XLII, Fasc I, Madrid - Granada, 1977.
50. Nicholson (Reynold, A), A Literary history of the arabes, Cambridge, 1953.
51. Primera Cronica General de Espana, Tomo 2, publicada por Ramon Menéndez Pidal, editorial Gredos, 1955.
52. Pérès (Henri), La poésie à Fes sous les Almoravides et les Almohades, en Hespéris, t. XVIII, 1934, Fasc I.
53. Pérès (Henri), La poésie andalouse en arabe classique au XI e siecle, Paris, 1953.
54. Quadrado, Historia de la conquista de Mallorca, Palma, 1850.
59. Rodrigo Pertegàs (José), La urba vlenciana en el siglo XIV (III Congreso de historia de la corona de Aragon, Memorias I, Valencia, 1923.
55. Simonte (Francisco Javier), Historia de los mozàrabes, Madrid, 1896.

56. Torres (N), Espana Romana, en Historia de Espana, dirigida por Roman Menedez Pidal, t. II, Espasa Calpe, 1935.
57. Torres Balbas (L.), Jativa y los restos del palacio de Pinohermosa, Al-Andalus, Vol. XXIII, Fasc I, 1928.
58. Torres Balbas (L.), A tarazanas hispano - Almohades, en Al-Andalus, Fasc I, 1946.
59. ; El bano musulmán de Murcia y sus conservacion, Al-Andalus, Fasc 2 , 1952.
60. ; Almeria Islamica, en, Al-Andalus, Vol. XXII, 1957.
61. Torres Fontes (Juan), El-obispado de Cartagena en el siglo XIII, 1953.
62. Ximénez de Rada, Opera Historia Arabum, en «Textos medievales», 22, Valencia, 1968.
63. Zurita, Anales de la Corona de Aragon, anotados por A. Ubieto y Ballesteros, Libro I, II.
64. Diccionario de la Lengua Espanola, Real Academia Espanola, Madrid, 1970.
65. Encyclopédie de L'islam, Nouvelle edition, (2edicion) Tomo II, III, 1968.
66. Enciclopedia de la cultura Espanola, Tomo, V. Madrid, 1963.

الملاحق

الملحق الأول

رسالة من الفقيه أبى بكر عزيز بن خطاب الى الخطيب
أبى عبد الله ابن قاسم، يشير عليه فيها بأن يحدث
الرئيس أبا جميل زيان ابن مردنيش للدخول في طاعة
أمير المسلمين أبى عبد الله محمد بن يوسف بن هود^(١)

لوحة ١٦٧ ب : وللفقيه الأجل العالم الحبيب المرفع الأكمل أبى بكر عزيز ابن خطاب رحمه الله تعالى هذه الرسالة، وكان قد كتب بها الى الخطيب الفاضل أبى عبد الله بن قاسم رحمه الله تعالى، يشير عليه فيها بأن يحدث الرئيس الأجل المعظم أبا جميل زيان بن الرئيس الأجل المجاهد المرحوم أبى الحملات مدافع ابن الرئيس الأجل المكرم أبى الحجاج بن سعد، للدخول في طاعة أمير المسلمين أبى عبد الله محمد بن يوسف بن هود رحمه الله تعالى وذلك قبل تحرك أمير المسلمين الى بلنسية أعادها الله تعالى للإسلام، ونسختها من الكتاب الذى كان الفقيه الأجل أبو بكر عزيز المذكور رحمه الله .

لوحة ١٦٨ : تعالى قد وجه به إلى الفقيه أبى عبد الله قاسم المذكور وكان بخط يده يهـ هذه:

سلام كريم عليك أيها الفقيه المعظم الخطيب الزاهد للبر، الورع، التقى، الفاضل المقدم، الحبيب فى الله عز وجل، المكرم أبو عبد الله بن قاسم ورحمه الله تعالى وبركاته، كتب إليك أخوك فى الله تعالى العارف بحقك، المعترف بفضلك، المحب فيك، الناصح لك، عزيز بن خطاب، مستفتحاً الخطاب، مستميحاً للجواب، مستجنجاً للصواب، يقول مذكراً بآيات الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾^(٢)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى...﴾^(٣) الآية، ثم قد علمتم ما فى إصلاح ذات البين من الأجر، وإنه من الفرائض التى يأثم الجميع

(١) قطعة من مخطوط الأسكوريال، زواهر الفكر وجواهر الفقر، لابن المراتب، رقم ٥٢٠.

(٢) قرآن كريم، سورة آل عمران، آية: ١٨٧.

(٣) قرآن كريم، سورة البقرة، آية: ١٥٩.

بحلومهم عن قاييم حده وأعمه أعظمه أجراً، وأتمه، وعلمتم ما فى الأمر بالمعروف وما تنجشم الصالحون فيه، وعلمتم أن المدن المتجاورة المتشاركة فى الدين التى لا تستقل كل واحدة منها بنفسها فى معاشها أو دفاع عدوها الذى يروم الاستيلاء على أهلها واستيصال دينهم الحق، واجب عليها أن تتناصر وتتعاقد على دفاع ذلك العدو ويأمن بعضها من بعض وتنبت بينهما أسباب التواد والتناصر، ويكونوا كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلّمه»، وكما قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، كما يجب ذلك فى المدينة الواحدة بين المنازل وهذا كله بين لا يخفى أنه فرض فى ديننا الذى رضيه لنا ربنا جل وعزّ وهو المراد بقوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾^(٢)، وبين محكوم أن ذلك لا يكون إلا بالاتفاق على مدبر واحد يمكن منه الاطلاع على أحوال جميعها تبعاً (...) مدبر كل واحدة منها، ويقبل منه المصالح المشتركة وينهى إليه ما يخص القوم الذى... بين يديه إذ ذلك تأتلف نفوس

لوحة ١٦٨ ب : الجميع وتكون كل واحدة منها على ثقة من أن المصلحة التى لها فى الأخرى يصل إليها فتسمح هى بالمصلحة التى للأخرى فيها الآن نسبها إلى مدبر واحد نسب متكافية فهو يعنى بها عناية متساوية فيحسن النظام ويقع التعاضد على ثقة من الناصف فإنه إن لم يتفق مدبروها إلى مدبر واحد يمكن منه ما ذكر اختل نظامها الذى به تتعاضد، وأقر كل واحد منهم مصلحته الخاصة على المصلحة التى للآخر ولم يثق أهل مدينة منهم أهل مدينة أخرى فى أن يستأثروا عنهم بما يخصهم، ولم يركنوا إلى مدبر يصرفهم لتساوى عنياته بهم، وهكذا يكونون عند السالم توقعاً فكيف عند ظهور استيثار أو تغالب أو تجاذب على بعض الأطراف ويوجب هذا ولا بد وهنا فى جميعها وتهيئوا لاستيلاء عدوها عليها أن كانت متكافية وكان الخلاف بين كل واحدة وكل واحدة منها، أو هى

(١) سورة آل عمران، آية ١٠٣.

(٢) سورة الأنفال، آية ٤٦.

لمفردة منها إن كان أكثرها منتظماً مقاوماً للعدو ويجب على الصالحين من أهل الدين والرضا أن يسعوا في نظامها ويدعوا إليه ويؤكدوا على المنفردة عن الأكثر أن ترجع عن انفرادها لغير سبب ديني ولا عدل مدني، ويغطوا المدبر والرؤساء في اتباع الهدى العايد عليهم بالخسر المؤدى إن داموا عليه إلى إثبات دياستهم رأساً وانقطاع كلمة الدين عن مدينتهم على يدى عدو دينهم، فإن أجاب الرؤساء والمدبر إلى ذلك وجب على حملة الدين وعلمائه أن يسعوا إلى إعلاء مراتب ذلك المدبر وأولئك الرؤساء ويشوا بينهم وبين المدبر الذى انقادوا إليه أسباب المردة ويؤكدوا عليه استخلاصهم وتمكينهم إذا صلح الله تعالى أهل الدين ونظم شملهم على أيديهم ويشددوا الثقة بهم إذا ترووا الصواب على ما كان بأيديهم طوعاً لله تعالى وإنصافاً من أنفسهم فإن لم يجيبوا إلى ذلك أوجب كتاب الله تعالى والنظر الصحيح على أهل المدن المنتظمة محاربتهم

لوحة ١١٦٩ : بعد الإعذار إليهم، والموعظة لهم حتى يرجعوا إلى الانتظام معهم والتعاهد على عدوهم، وكانت محاربتهم عند الظهور (البغى) عندهم ومفارقتهم الأكثر، وجعلهم لعدو الدين سبيلاً إلى أنفسهم وحريمهم، قال الله تعالى: ﴿ فقاتلوا التى تبغى حتى تفتى إلى أمر الله ﴾ (١)، وأثم من يصاب منهم من المستضعفين ومن لا يعلم من الصالحين على المدبر المنفرد وحجة الله تعالى عليهم للآتي للذين يصيبهم: ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ (٢)، ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شيء ﴾ (٣) ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ (٤). هذا كله بين لا ينكر ذو دين صحته قرآنًا، وسنة، وإجماعًا، ونظرًا، ولا تخفى عليكم حال الأندلس الآن وحال بلنسية منها وبأى أصل من هذه الأصول تلحق، وأى الثغور الواسعة إليها قد ضعفت وشارفت استيلاء العدو وكثير منها قد استشعر ذلك فانتظم مع الأكثر ثقة بأنه الصواب وبقي على أن أعلمكم بأن البلاد

(١) سورة الحجرات، آية : ٨.

(٢) سورة النساء، آية : ٩٧.

(٣) سورة الأنعام، آية : ٣٨.

(٤) سورة مريم، آية : ٦٤.

المصابقة لكم التي انتظمت مع هذه البلاد تأكد الرغبة على أمير المسلمين أيده الله تعالى في النهوض إليها ويقرر أنها قد أحققت بلنسية فلا تأمن عاديتها ولا تتهدف معها ارجاؤها، ويقولون إنما لحقنا بالأكثرين لنصر على عدو الدين فإن أسلمنا إلى ما نخاف من الأقلين كان ذلك أشد لنا كائنا وأبعد من حمياتنا، وأمير المسلمين أيده الله تعالى يرى أنه لا يسعه تركهم ولا تسوخ له إضاعتهم ويكره أن يظأ في أننا أهل بلنسية رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات فيصيبهم معرة بغير علم فيتوددوا ويرجموا إلى الدعاء والضراعة إلى الله تعالى في رفع العين وجمع الكلمة ويكي بحضرتي... رافة بالمؤمنين وإشفافاً على ضعفاء المسلمين ويقول كيف الخلاص قبل إسلام قوم تقوم لهم علينا الحجة ووطئ قوم قبل أن تتم عليهم الحجة على أنه قد استغنى من قبله ما قوى بالنهوض إليهم إلا من شاء الله... توفيقه فأفتاه، بالرفق بهم والآنأة فيهم والموعظة لهم، معذرة للرد عليهم ولعلمهم فإن استمروا على الفرقة فأجلوهم أن تتفق الفتوى على حربهم ويجمع المسلمون على سقوط حرمتهم أعاذنا الله تعالى من التماذى على الفرقة وعصمنا من الاختلاف ودعاني إلى الدخول فى هذا الشأن الذى لم يكن من شئونى إذا ما تعين على من السعى فى إصلاح ذات البين وحذار الائم فى الكف عنه إذا لم أر من يتحرك إليه ويقوم به مع أنه فرض على الجميع، وأنا أدعوك إلى الله تعالى فى أن تعيننى فى ذلك وتلقى الموعظة عنى وعنك إلى الرئيس أبى جميل وتذكره بالله تعالى وبآيات الله، وبأن الدنيا لا تساوى عند الله تعالى جناح بعوضة ولأن يهدى الله تعالى به رجلاً واحداً خير له مما طلعت عليه الشمس وتقوى ما جعل الله تعالى فى قلبه وجبله عليه من اختيار الخير وإتباع معالم الدين، وتضعيف كيد الشيطان بما يريد أن يوقعه من العداوة بين المؤمنين وتذكره ندامة أبى بكر رضى الله تعالى عنه إذ حضرته الوفاة فقال وندمت على أن لم أقذف بالأمر فى عنق أحد الرجلين فيكون أميراً وأكون وزيراً و «من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى جرته ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب» (١)، قضى الله أن يؤتية المشغبة العظمى التى كان رسول الله ﷺ

(١) سورة الشورى، آية : ٢٠.

يُشِرُ بِهَا الْحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَيُفَضِّلُهُ مِنْ أَجْلِهَا، وَيَقُولُ لَهُ ابْنِي هَذَا سِتِيْدَ وَيُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيْمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ، وَتَعْلَمُهُ أَنَّ نَفُوسَ صُلَحَاءِ الْأَنْدَلُسِ يَجْتَمِعُ عَلَى مَحَبَّتِهِ إِذَا دَخَلَ فِيْمَا دَخَلُوا فِيهِ وَيَقْرَأُ لَهُ جَمِيعَهُمْ بِفَضْلِ الْإِنْقِيَادِ إِلَى الْحَقِّ وَتَنْطَلِقُ أَلْسِنَتُهُمْ بِالْدَّعَاءِ لَهُ، وَيُنْشِرُ الْمَلَأُ الْكَبِيرُ فُضَائِلَهُ ثُمَّ لَا يَفُوتُهُ مِنَ الْمَلِكِ إِلَّا كُدْرُهُ وَيَشْرَبُ صَفْوَهُ، وَيَأْخُذُ عَقْدَهُ (عَفْوَهُ)، مُتَمَتِّعًا بِهِ هَنِيْئًا وَرَمَحَ إِلَى ذَلِكَ (فَارَةَ الْأَيْدَى) وَيُنَالُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَمِنْ مَوْدَةِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِيْنَ وَإِخْوَانِهِ كُلِّ مَا يَرْجُو وَمَا أُرْبِحُ صَفْقَةً مِنْ أَتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى الدُّنْيَا فَاشْتَرَى بِهَا

لوحه ١١٧٠

: الْآخِرَةُ فَاعْتَاظُ / مِنْ نَائِلٍ حَقِيرٍ قَلِيلٍ دَائِمًا كَبِيرًا كَثِيرًا، أَيْنَ مِنْ تَرَاخَمَ... رَادَتْهُمْ فِي مَقَامِهِ، أَيْنَ مِنْ تَتَبَعَ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فِي مَأْثَرَتِهِ، هَلْ فِي الْأُمَرَاءِ مِنْ يَفَاخِرُهُمَا، أَوْ فِي الْمُسْلِمِيْنَ بَعْدَهُمَا مِنْ لَا يَرَى تَقْدِيمَهَا وَالتَّوَسُّلَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِهِمَا، أَمَا يَقْنَعُ الرَّشِيدُ السَّعِيدُ أَنَّ يَكُونُ لِهَمَا ثَالِثًا تَالِيًا وَإِلَى عَلَى دَرَجَتَهُمَا رَاقِيًا.

أَيْنَ الْمُتَنَازِعُونَ عَلَى الْمَمَالِكِ، أَيْنَ السَّالِكُونَ مِنْ ظِلْمَةِ الدُّنْيَا فِي شَتَى الْمَسَالِكِ، هَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ، هَلْ وَقِيَهُمْ مِنَ الْمَوْتِ وَاقِيَةً، هَلْ بَقِيَ لَهُمْ مِنْ مَلِكِهِمْ مَا بَقِيَ لِلْحَسَنِ وَابْنِ (أَدَهْمَ) مِنْ أَهْلِهِمَا، أَيْنَ الَّذِينَ قَالُوا لِمَنْ أَتَاهُ الْمَلِكُ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ مِنْكَ، أَيْنَ الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَصَدُّوا عَنْهُ، هَلْ نَحَسَ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا، مَا أَعْلَمُ مِنْ يَسْمَعُنِي بِمَا صَارُوا إِلَيْهِ، مَا أَقْلُ مَا تَنْفَعُهُمُ النَّدَامَةُ فِي مَا نَدَمُوا عَلَيْهِ حِينَ رَأَوْا مَا قَدِمُوا إِلَيْهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْخُذُ بِحَجْرِنَا عَنِ النَّارِ وَنَحْنُ نَتَعَاقَبُ عَلَيْهَا تَعَاقِبَ الْقَرَّاشِ، يَقُولُ لَنَا لَا تَطْلُبُوا الْإِمَارَةَ وَلَا تَتَخَذُوا الدُّنْيَا دَارَ عِمَارَةٍ، وَنَحْنُ لَا نَسْتَقِرُّ مِنْ أَجْلِ طَلِبِهَا عَلَى فَوَائِدِهِ مَا أَغْوَانَا إِنْ لَمْ نَقْبَلْ نَصِيحَتَهُ، مَا أَقْلُ... إِنْ لَمْ نَسْلِكْ طَرِيقَهُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَنْصَحُ النَّاسَ لِلرَّئِيسِ أَبِي جَمِيلٍ، وَأَوَّلَهُمْ لَهُ عَلَى كُلِّ جَمِيلٍ، وَأَسْعَاهُمْ فِي أَنْ يُنَالَ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ، وَأَنْتَ فَكَذَلِكَ يُوْجِبُ عَلَيْكَ الدِّينَ فَتَعَالِ تَتَعَاوَنَ عَلَى نَصِيحَتِهِ فَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ يَحِبُّ أَهْلَ الصَّلَاحِ وَالِدِينَ وَيَأْخُذُ فِي أُمُورِهِ أَخَذَ الْمُهْتَدِينَ... فِي

توصيل الموعظة إليه، وأعرض نصيحتي عليه فمضى الله تعالى أن ينظم شمل المسلمين على يديه وقد أدبت ما لله تعالى على من النصيحة والتنبه على غفلة وبما عرضت ولم يبق مع (الأصول) التي قدمت موضع أشكال، وقد تبين الرشد من الغي، والعدل من البغي، فادعى يا أخى أنت ما عليك كما يقتضيه الحق منك ولا تأخذك فى الله تعالى لومة لائم والله تعالى... على... إن عجزت عنه عملاً، فأنا منتظر جوابك بما ترى، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ (١١).

جعلنا الله تعالى ممن قال الحق وأطاع الله سرّاً وجهراً، وجعل لنا الدنيا طريقاً إلى السعادة فى الأخرى وهدانا من مرضاته إلى الأحق والأخرى عنه، والسلام الكريم ورحمة الله تعالى وبركاته.

الملحق الثاني

رسالة بقلم الفقيه أبي عبد الله بن الجنان من مجاهد الدين
سيف أمير المؤمنين عبد الله المتوكل عليه أمير المسلمين
محمد بن يوسف بن هود بمباينة ابنه أبا بكر الملقب
بالوائق بولاية عهده، لأهل شاطبة ويران ودانية^(١)

لوحة ١٧٢ ب : وللفقيه الأجل أبي عبد الله بن الجنان أعزه الله تعالى وهو تقديم
الفقيه الأجل الحسيب العارف أبي الحسين ابن الوزير الفقيه أبي
جعفر بن عيسى رحمه الله تعالى بشاطبة أعادها الله تعالى.
ومن مجاهد الدين سيف أمير المؤمنين عبد الله المتوكل عليه أمير
المسلمين محمد بن يوسف بن هود أيده الله تعالى بنصر من عنده
وأمدّه بتوفيقه في كل محاول قد شده، وتكفل بإعزاز أمره وإنجاز
وعده إلى أوليائنا الذين صدقت نيّاتهم، واتسقت مزياهم ،
وأصفينائنا الذين خلصت طريقتهم وتخصّصت بالوفاء الخضر
سجياتهم، أولى السوابق المقدمة والخلایق المفكّهة والطرائق المتصفّة
بالحاسن المتممة، الفقهاء والوزراء والقواد والأعيان الجلة الحسباء
المكرمين الأكملين الفضلاء الصّدون العلية المتبرزين والوجوه
المؤثرين والنّبهاء المتميزين بكرم المذاهب، والإنجاد المحرزين غاية السبق
في المتابعة والولاء، المبرزين في حلبة الصادقين النصحاء والكافة
المتعمدين بالاهتمام والاعتناء، المعتمدين بجميل المقاصد فيهم
والآراء بشاطبة وجهاتها وفجاجها، وما انضاف إليها وانتظم معها
من جهة ييران ودانية كلاً الله جميعها بحفظه ووقايته وشملهم
بكرامته ورعايته وأنالهم من إسعاده أسنى نهاية، وعرفهم الخير في
كمال كل أمر وبدائته واطلع عليهم اليمن مع من اختيار لتقلد
أمرهم، وولايته سلام كريم عليكم معشر أوليائنا ورحمة الله تعالى
وبركاته، أما بعد فالحمد لله الذي له الملك في أرضه وسمائه وبإذنه
يتصرف المخلوق في تقديمه وتأخيرهِ وإعادته وابدائه وهو الذي يخار

(١) قطعة من مخطوط الأسكوريال، زواهر الفكر وجواهر الفقر ، لابن المرباط، رقم ٥٢٠.

فيختار ما تكون فيه الخيرة لأوليائه، ومنه ... الرحمن ... التعمي
بوسائط التوسل بأسمائه وصلواته الزاكية الطيبة، وتحياته الهامية
الطيبة على إمام مرسله وأنبيائه محمد رسوله المخصوص بالتقريب
ليلة اسرائه المنصوص على أفراده في المحشر بمقامه المحمود ولوليه
المبعوث بالحق الذي انصدعت غياهب الباطل بأضوائه وعلى آله
وصحبه الهادين واضح سنة..... إلى نصره وابوائه المتلقين ما
جائهم به من ربه بامثاله وارتضائه... بذلك ما شرفهم من ذكر الله
تعالى لهم وثنائه وعلى خليفته المرتضى... ابن خلفائه قسيم النبي
عليه السلام وابن عمه وبقية آبائه سيدنا ومولانا الإمام المستنصر
بالله أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين الذين نستنصر بلوائه ونستقضى
كل شرف

لوحه ١٧٣ ب : لدى شرفه... ونستبصر بنور إمامته في آفاق المعمور وأرجائه وإن هذا
كتابتنا إليكم كتب الله تعالى لكم من... نصيباً موفوراً ومن إكرامه
ما يأتلق وجهه إشراقاً وسنوراً، ومن العناية بكم ما يحسبكم جذلاً
وحجوراً، ومن النظر لكم ما لا تخشى كواكب ميامينه أفولاً
وعزوداً من حضرتنا بمن سيتحرسها الله تعالى، والتوكل على الله
تعالى ملاك أمرنا وعماده وزمامه الذي به انسياق كل خير وانقياده
والاستعانة به ملجأنا الذي إليه رجوع كل مؤمن واستناده، وملاذنا
الذي نأوى إلى ظله فيكنفنا شيعه وامتداده والتوسل إليه بسبيل
الذي توسل به الفاروق في القطر فهمت عبادة وصلنا إلى نصر الله
العزیز الحكيم الصادق ميماده، والشكر والحمد له جل جلاله دأبنا
الذي لا يغيب ولا يغيب معتاد، وشأننا الذي ينال به مستهاد كرمه
الجم ومستفاده والتهم بمن قلدنا الله سبحانه أمره من خلقه، وأسند
إلينا في النظر له القيام بحقه عمل يوفى قصده ونبتهى به الزلفى
وحسن المآب عنده، ولما كنتم في أولياء أياتنا صدوداً وخلصتم في
متابعتنا قلوباً وصدوراً وكرتم في مشايعتنا وروداً وصدوراً واستوجبتم
لدينا الأثر والمزايا وأنصفتكم في أهل مناصحتنا بمشكور السجايا،
جعلنا نخصكم من مقاصد الاحتفاء بالأسمى والأسمى ونستقبلكم
منها بكل ما يعزى إلى سمي الآراء ويتمن، ونلتمس لكم الوجوه

التي ترد عليكم بالخير الأجمع الأهمى فأحق الأولياء يحلل التفاء
أهل الصدق والصفاء، وأولى بسبق فى غرض الاعتناء من جاء
بسبقه الأول إليه السعداء، فتنح إذا ما ذكرنا المخلصين ذكرناكم،
وإذا ما أثرناهم بأمر أثرناكم مما رأينا، وقصدنا

لوحة ١١٧٤

: فيه الخير وثوبناه أن يظهر مكانه هذه البلاد / الشرقية لدينا وكرامة
أهلها الذين نحبهم ويحبوننا، علينا ونحفظ لها الأدمة التي يحفظها
أولى الديار ومشوى الشقة القديمة والاستقرار ومنازل أهل الهجرة
السابقة والانتصار وربوع القوم المعروفين بكرم العهد وحسن الجواد،
فلم نجد فى ذلك أحد سبيلا وأبين شاهداً على الحظوة ودليلاً،
وأجمل فيها وسماً، وأثبت فى رعى ساكنيها رسماً من أن نوليها
ولى عهدنا المتولى لأمر المسلمين من بعدنا ابننا الأمير الموفق
المبارك الميمون السعيد الرشيد، الوائق بالله المعتصم به، أبا بكر
محمد، وفقه الله تعالى توفيقه وهدايته، ومنحه إيجاده، وعضده
وإسعاده، ونملكه جميع أمورها وكافة حواضرها وثغورها، ونقدمه
منها فى بلاد هى منشأة ومنبتة ومبدأ، وفيها رفعت رايات الدعوة
أولا وطلعت فى أفقها أنوار الهداية فكان لها متنا فتضافى هذا
الرأى السعيد إن شاء الله تعالى عواقب الجميل..... استخارة الله
ربنا واسترشاده وسؤاله التوفيق الذى هو من خير ما أفاده، وولينا ابننا
هذا الأمين لولاية العهد وتقلده من بعدنا أمور المسلمين فى يده
وفقه الله تعالى وهداه... فى السعادة مداه، جميع أقطار المشرق
وبلاده، وأغواره، وإيجاده، تولية عامة فى حياتنا، مع أنه المتولى
بحكم العهد الذى ارتضيناه له لكل ممالكنا وطاعتنا، وخصنا هذه
البلاد الشرقية، حاطها الله تعالى بتقديمه فيها.

الملحق الثالث

رسالة موجهة من الأمير زيان بن مردنيش إلى فرناندو الثالث
ملك قشتالة، بقلم أبو المطرف بن عميرة المخزومي

كتب أبو المطرف بن عميرة عن أبي جميل زيان، إلى ملك قشتالة من بلاد
الأندلس في مراودة الصلح.
كتابنا إليكم - أسعدكم الله برضاه، وزدام عزتكم وكرامتكم بتقواه - من
مرسيه، ونحن نحمد الذي لا شيء كمثلته ولنلجأ إليه في أمرنا كله، ونسأله أن يوزعنا
شكر إحسانه وفضله - وعندنا لجنابكم المرفع تكرمة نستوفيها، ومبرة ننتهي إلى الغاية
فيها، وعلمنا بمحلكم الشهير، وكتابكم الخطير، يستدعي الزيادة من ذلكم ويقتضيها،
وقد كان من فضل الله المعتاد، وجميل صنعه في انتظام الكلمة في هذه البلاد ما
اكتنفته العصمة، وكملت به النعمة والمنة، وتيسر بمعونة الله فتح أقر العيون، ورضيه
الإسلام والمسلمون، وكانت مطالعتكم به مما أثرتنا تقديمه، رأينا أن نحفظ من
الأسباب المرعية على التفضيل والجملة (حديثه وقديمة)، وحين ترجمت مخاطبتكم
من هذا المكان، ومفاوضتكم في هذا الشأن، رأينا من تكلمة الميرة وتوفية العناية البرة،
أن نفذ إليكم من يشافهكم في هذا المعنى، ويذكر من قصدنا ما نولع به ونعنى، وهو
فلان في ذلك السلم ومحاولتها، ما يتأدى من قبله على الكمال بحول الله تعالى. وإن
رأيتم إذا انصرف من عندكم أن توجهوا زيادة إلى ما تلقونه إليه من رجالكم
وخاصتكم، في معنى هذا العهد وأحكامه، ومحاولته وإبرامه، فعلمت من ذلك ما
نرغب أثره، ونصرف إليه من الشكر أوفاه وأوفره إن شاء الله تعالى؛ وهو الموفق لا رب
سواه والسلام الأتم عليكم كثيراً.

(١) في: القلقشندي (أبو العباس أحمد)، صبح الأعشى، ج ٧، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة،
١٣٣٢ هـ - ١٩١٤ م، ص ١١٦-١١٧.

الملحق الرابع
حكام بلنسية ومرسيه منذ قيام أهل الأندلس بالثورة
على المرابطين حتى تبعية القاعدتين للحكم الموحدي

بلنسية	بلنسية	السنة	الأحداث
أبو محمد عبد الله بن غانية، آخر وإلى مرابطي (٥٣٩/٥٣٨هـ)		١١٤٣/٥٣٨هـ ١١٤٥/٥٣٩هـ	يحيى بن غانية ، وإلى على بالأندلس
أبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز	أبو محمد بن الحاج ، حكم بضعة أيام أبو محمد عبد الله بن ثعوب الثقفي أبو جعفر محمد بن عبد الملك ابن أبي جعفر الناصر لدين الله عبد الرحمن بن طاهر القيس ، حكم بضعة أيام	١١٤٥/٥٤٠هـ	الثورة على المرابطين
عبد الله بن سعد بن مردنيش ، حكم باسم ابن عياض في بلنسية ، وسيف الدولة أحمد بن هود يحكم مرسيه وبلنسية أبو عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش وإلى باسم ابن عياض ، أمير على بلنسية ومرسيه ٥٤١/٥٤٢هـ	عبد الله بن عياض وإلى مرسيه باسم سيف الدولة أحمد بن هود المستنصر بالله ، سيف الدولة بملك مرسيه وبلنسية عبد الله بن عياض ، يحكم مرسيه وبلنسية باسمه أبو محمد عبد الله بن فرج الثقفي يستلمد حكم مرسيه عبد الله بن عياض يسترد سلطته أبو الحسن علي بن عبيد ، حكم بضعة أيام أبو عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش أبو مرسيه وبلنسية وأماكن أخرى	١١٤٦/٥٤٠هـ ١١٤٧/٥٤٢هـ	وصول الموحدين إلى الأندلس
أبو الحجاج يوسف بن محمد ، وإلى على بلنسية باسم ابن مردنيش أمير مرسيه وبلنسية		١١٤٨/٥٤٣هـ	موت آخر أمير مرابطي ، وفتح المسيحيون الميه يحيى بن غانية يسترجع قرطبة المرابطين
ليرة أبو الحجاج يوسف بن حامد ومتمثلة ، ثم خلفه أبو		١١٤٩/٥٤٤هـ	استيلاء رامون برنجبر الرابع على طرطوش استيلاء رامون برنجبر الرابع على يلارده وأقراغ

الأحداث	السنة	بلنسية	بلنسية
معاهدة تودلين Tudilen	١١٥٢/هـ ٥٤٧م		مروان عبد الملك بن شلبان ضد ابن مردنيش
استرداد الموحيدين مدينة المريه	١١٥٧/هـ ٥٥٢م		أبو الحجاج يوسف بن سعد
فتح جيان وأبده وبياسه بواسطة قوات ابن مردنيش	١١٦٢/هـ ٥٥٧م		واليا على بلنسية باسم محمد بن مردنيش ٥٤٧/هـ ٥٦٧م
قوات ابن مردنيش تحتل غرناطة	١١٧٧/هـ ٥٦٣م		(١١٥٢م/١١٧١م)
روث دى اساجرا، سيد البرازين التي اقطعها له ابن مردنيش، خضوع بلنسية للموحيدين	١١٧٤/هـ ٥٦٦م		مخضوع بلنسية للموحيدين
مخضوع مرسية للموحيدين	١١٧٢/هـ ٥٦٧م	أبو القمرو هلال ٥٦٧/هـ ١١٧٢	أبو الحجاج يوسف بن سعد واليا على بلنسية باسم دولة الموحيدين ٥٦٧/هـ ٥٨٢م

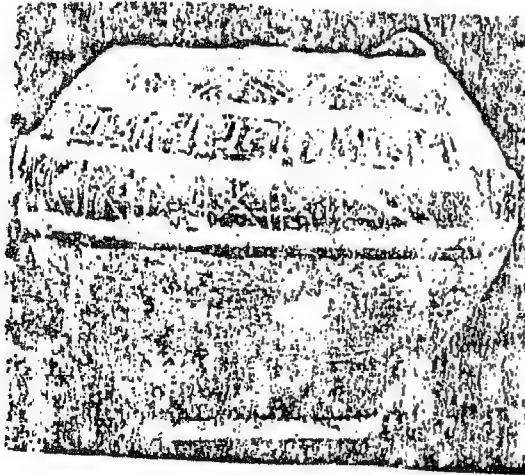
الملحق الخامس

ولاية بلنسية ومرسيه في عصر الموحدين ، ثم حكمها
المستقلين في عصر الطوائف الثالث إلى أن سقطت نهائياً في
أيدي مملكتي أراغون وقشتالة

بلنسية	بلنسية	السنة	الأحداث
عبد الواحد (١٢٢١هـ/١٢٢٤م) خليفة موحدي أبو زيد: والي مستقل إلى سنة ١٢٢٦هـ/١٢٢٩م أبو العلا (١٢٢٤هـ-١٢٢٦هـ) ١٢٢٧م-١٢٢٩م (خليفة موحدي)	أبو عبد الله المادل (خليفة موحدي)	١٢٢٤هـ/١٢٢١م	
زيان بن مردنيش (١٢٢٦هـ - ١٢٣٦هـ) (١٢٢٩ - ١٢٣٨م)	ابن هود المتوكل	١٢٢٦هـ/١٢٢٨م ١٢٢٧هـ/١٢٢٩م	الثورة ضد الموحدين اتفاق هدنة بين زيان وخايي الأول
أبو بكر محمد بن يوسف الوائق عزيز بن عبد الملك بن خطاب زيان بن مردنيش محمد بن هود بهاء الدولة أبو بكر محمد بن يوسف الوائق	سقوط مورلة Morella سقوط بوريانة Borriana معركة أليث Elpuig سقوط بلنسية زيان في داليه	١٢٣٠هـ/١٢٣٢م ١٢٣١هـ/١٢٣٣م ١٢٣٥هـ/١٢٣٧م ١٢٣٦هـ/١٢٣٨م ١٢٣٧هـ/١٢٣٩م	
	سقوط جزيرة شقر خضوع مرسيه ولقنت وأكش وأريولة للمسيحيين اتفاقية المسرة Almizre خضوع شامة لشروط الجزية للمسيحيين نهاية سقوط مدن شرق الأندلس	١٢٤٠هـ/١٢٤٢م ١٢٤١هـ/١٢٤٣م ١٢٤٢هـ/١٢٤٤م ١٢٤٣هـ/١٢٤٥م	



(شكل ١) قدر من الفخار كبير الحجم يزدان بأشرطة تدور حوله تحمل كتابات زخرفية مطبوعة على الفخار على نحو يبرزها عن السطح. عثر عليها في أساسات السوق المركزية ببلنسية.



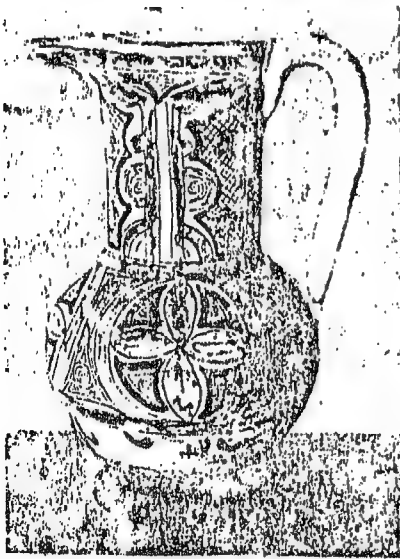
(شكل ٣) إناء غير كامل من الفخار يزدان بأشرطة زخرفية ملونة بأكسيد الحديد الأحمر وبينها ألوان مكنسوه بمادة الانجولى البيضاء عثر عليه في السوق الرئيسى ببلنسية (محفوظ بأكاديمية سان كارلوس ببلنسية).



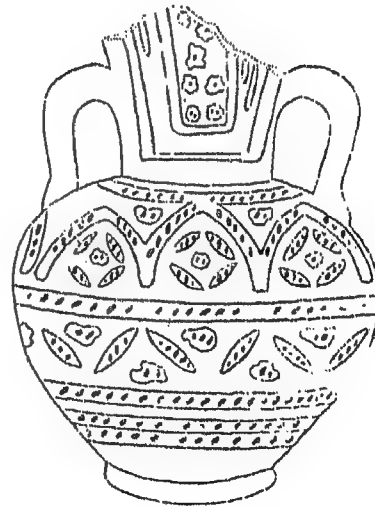
(شكل ٢) إناء من الفخار يزدان بأشرطة زخرفية أفقية ملونة بأكسيد الحديد، حفرت عليها بعض الزخارف الهندسية (بلنسية، أكاديمية القديس كارلوس).



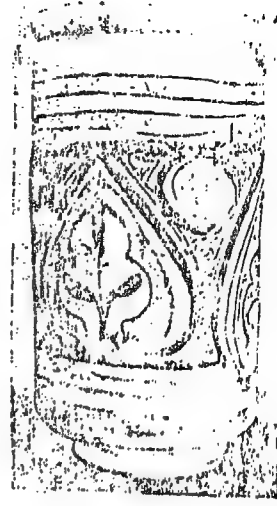
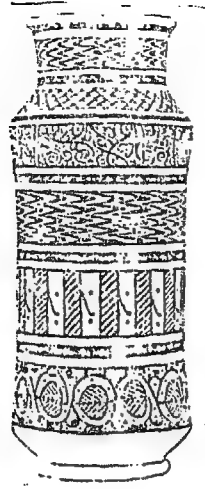
(شكل ٤): طبق من الخزف ذي الزخارف المكشوطه (الفن البيزنطي)
تكسوه حلقة من أكسيد الرصاص. (محفوظ بمتحف اللوفر بباريس)



(شكل ٦): خزف بطرنة من القرنين ١٣،
١٤ م ابريق تزدان زخارفه باللونين الأخضر
والمنجيزي.



(شكل ٥): اناء خزفي زخارفه من نوع
الفواصل الجافة (ق ١٢ - ١٤ م). عثر عليه
فى موقع السوق الرئيسى بهلنسيه.



(شكل ٧): خزف من بطرنة من القرنين ١٣ ، (شكل ٨): خزف من بطرنة من القرنين ١٤ ، ١٥ م قاروره صيدلانية حشد فيها أغلب الموضوعات المميزة لهذا الخزف من خطوط متقاطعة فيما بينها على شكل زجراج ومرامح تخيلية معروضة من وجهها (محفوطة بمعهد بنسبه دون خوان بيدريد).

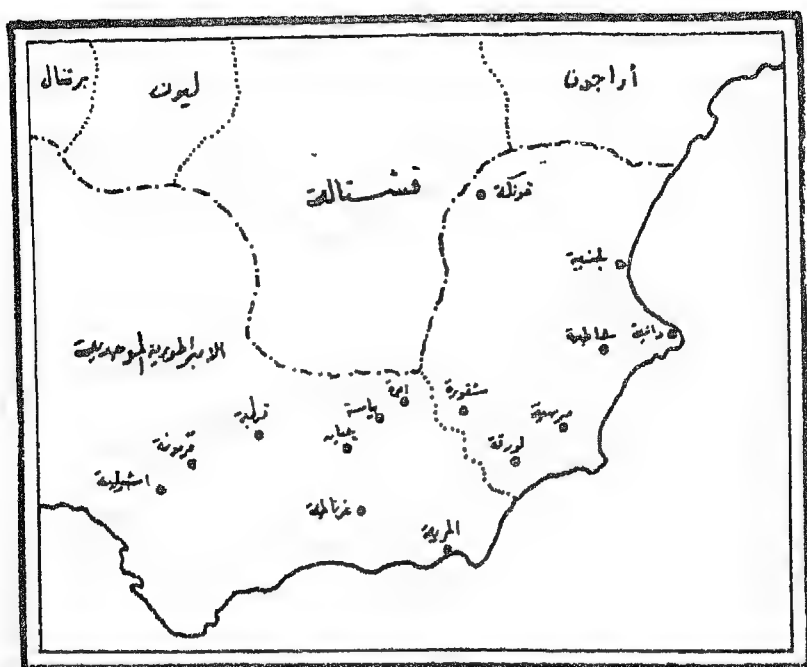


(شكل ١١): خزف مطلي من منيشه باللون الأزرق (ق ١٥ م) قاروره صيدلانية تزدان بصورة عقاب ناشرا جناحيه، ارتفاعها ٢٩ سم (محفوطة بمعهد بنسبه دون خوان. مدريد).

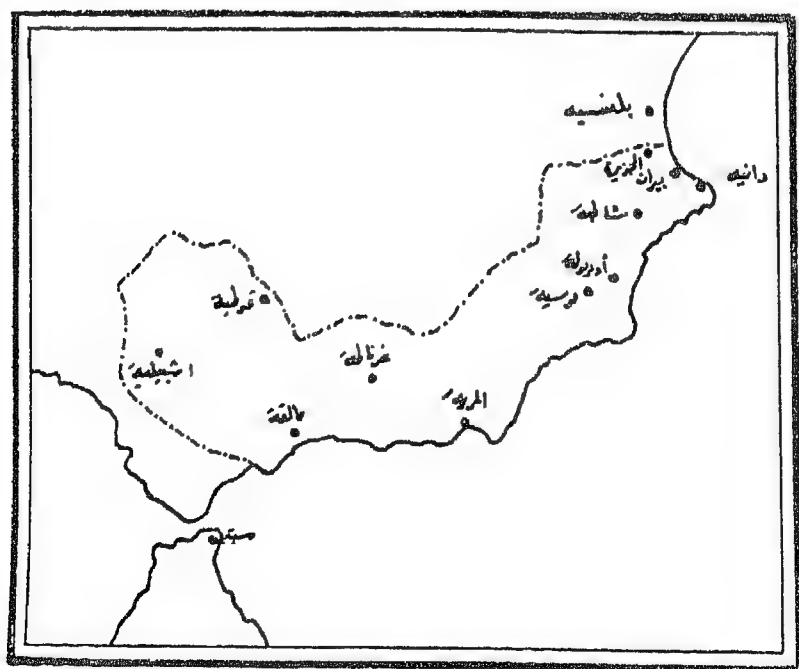
(شكل ١٠): خزف من منيشه، ق ١٥ م، صحفه مقسمة زخرفيا من الوسط وزعت في النصف الأيمن موضوعات زخرفية طابعها من نفس طابع خزف بطرنة وقوامها مرامح التخييل ومناطق تملأها خطوط متوازية يقطعها خطوط زخرفية لولبية ولتقط وفصلات في حين توزعت في النصف الأيسر تزيينات وموضوعات لم تالفها قط في أى مركز لهذه الصناعة الخزفية ويبلغ قطر الصحفه ٢٦ سم.



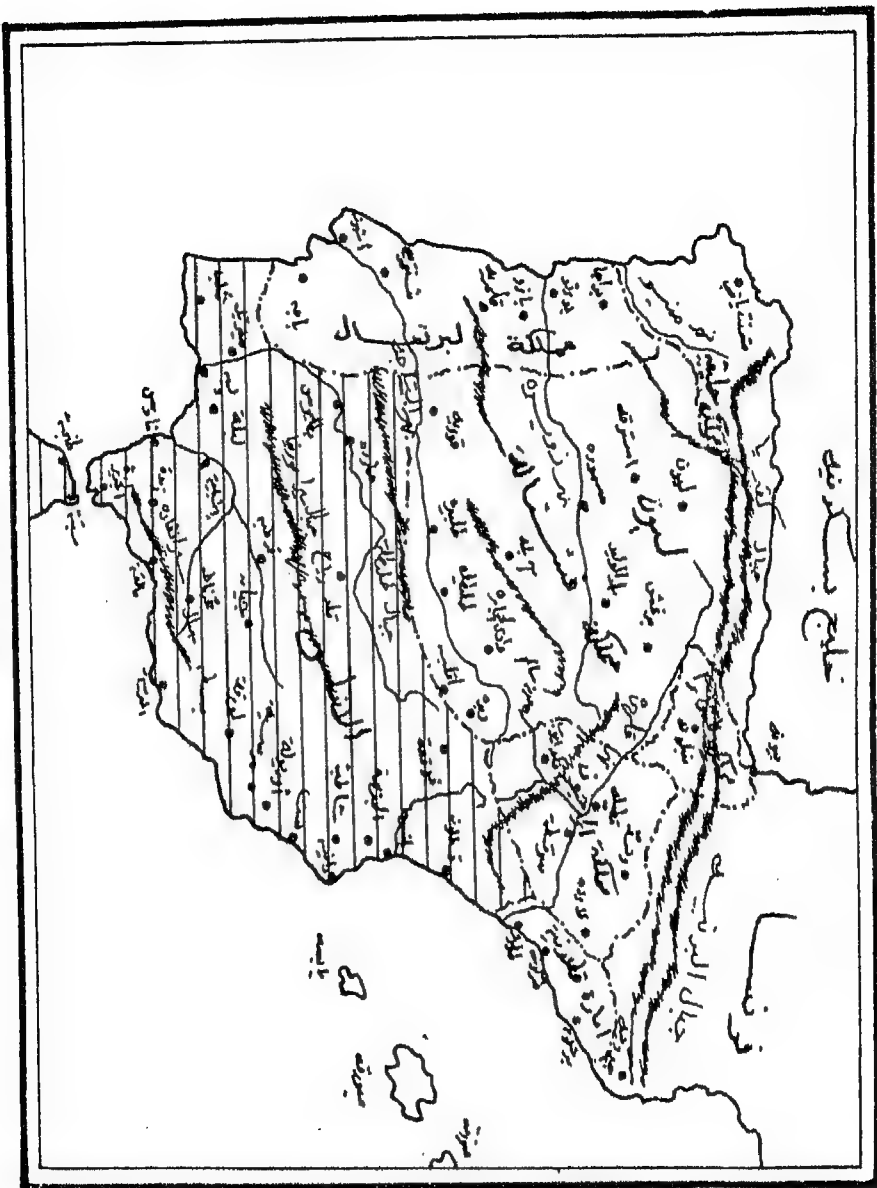
شكل ٢٩: كأس وصحفة من الخزف يزدان بكتابات عربية تدور حول قاعدة نصها:
الحفظ الله والعز جبريل حسيب بن يوسف الميسى اكرمه الله، ويروى توقيع الخزاف
في الوسط.



«دولة محمد بن سعد بن مردنيش»

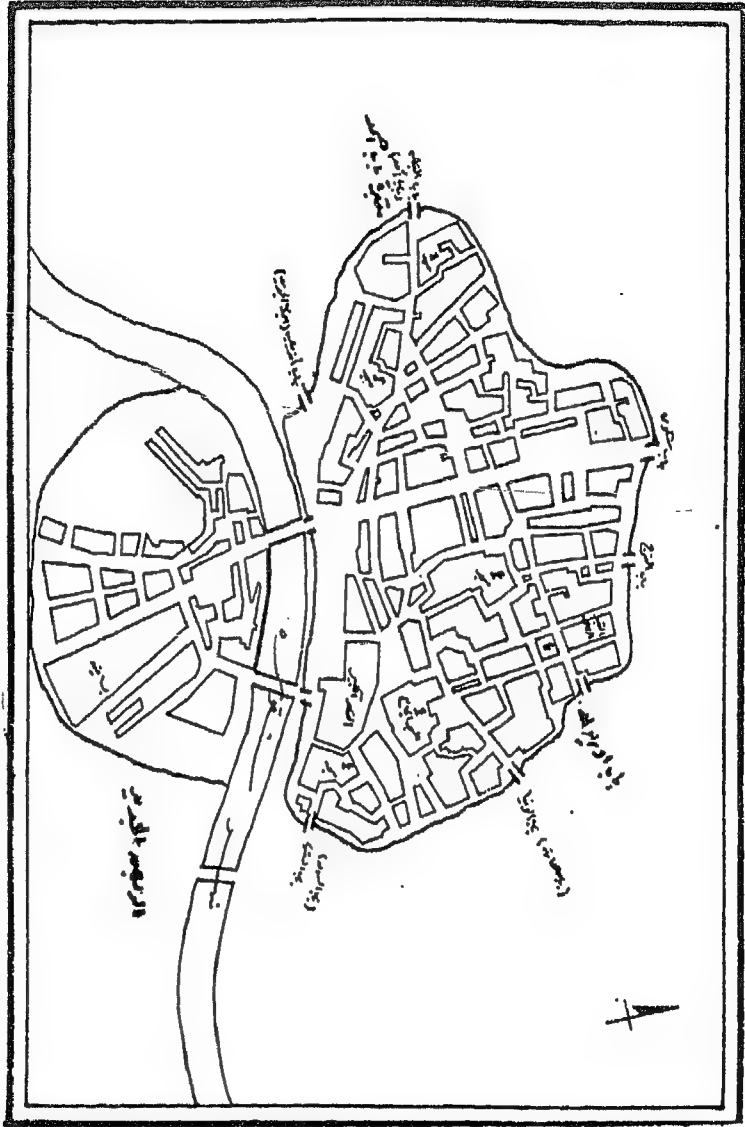


«أقصى اتساع لاملاك المتوكل بن هود»

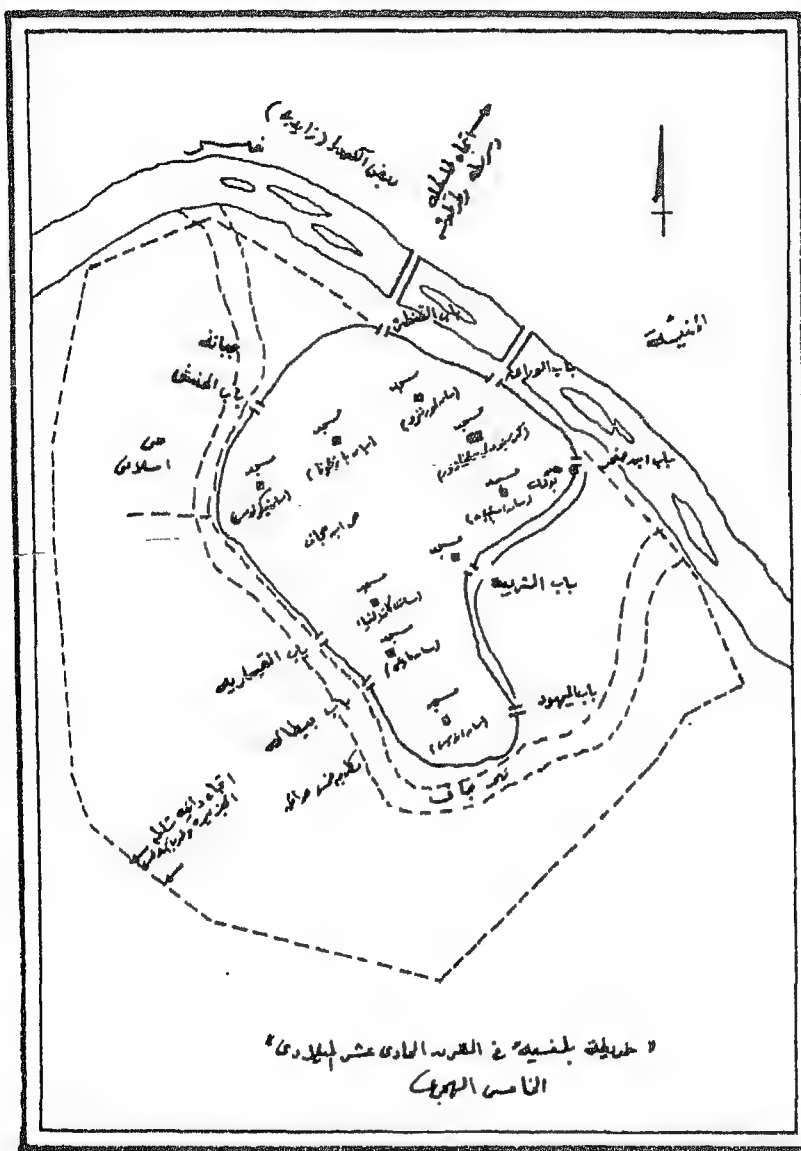


(امتداد املاك الدولة الموحدية في الاندلس)



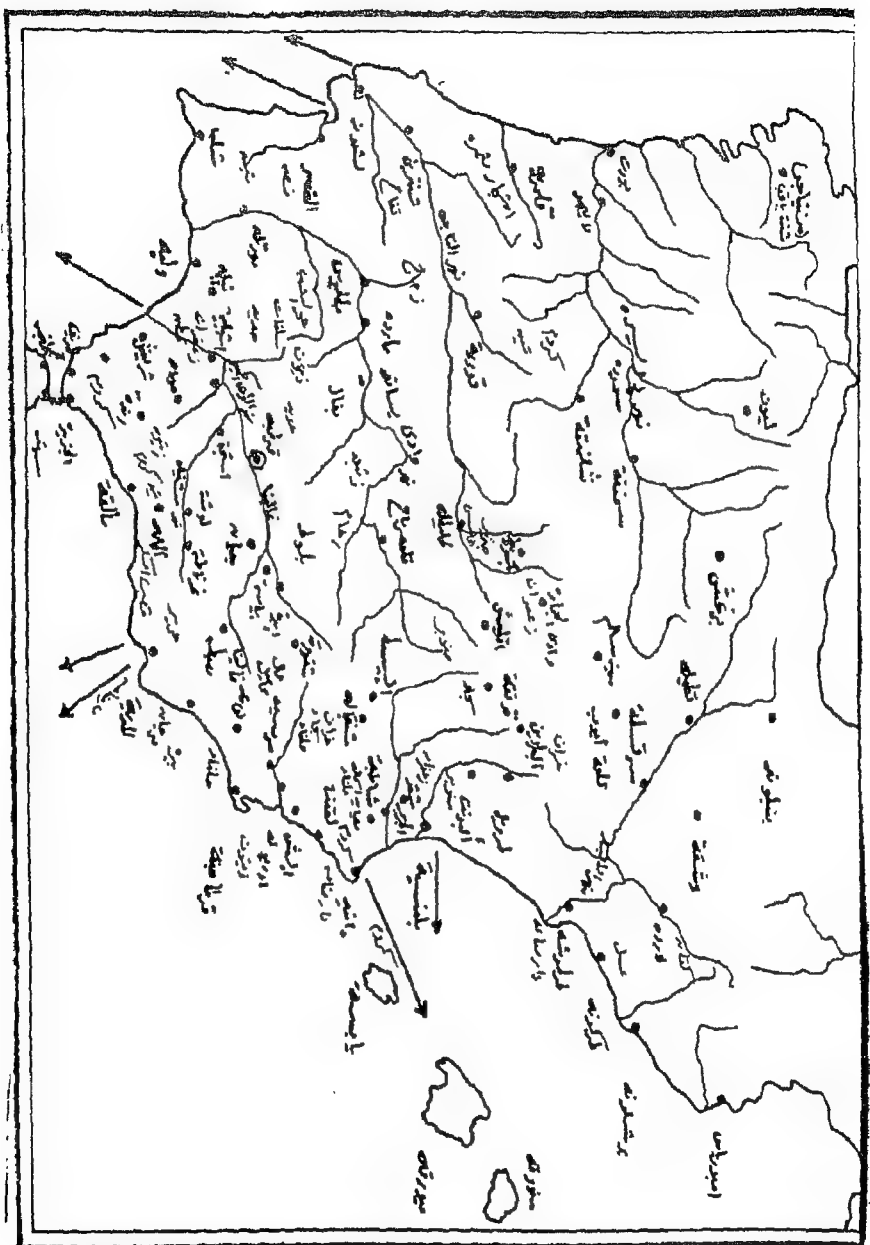


تخطيط مرسية وانتداد عمراؤها في العصر الإسلامي منظره وآثاره وتخطيطها الحديث الوارد في
خريطة Plano de La Ciudad de Murcia والطبوغرافية التاريخية للمدينة



(خريطة بلنسية في القرن الحادي عشر الميلادي)

الخامس الهجري



خريطة اقتصادية لاسيايا العراق

فهرس بموضوعات الكتاب

.....	مقدمة	
٣	أولاً: موضوع البحث ومنهج الدراسة	
١٤	ثانياً: عرض لأهم مصادر ومراجع البحث	
٣٣	دراسة تمهيدية:	
٣٥	أولاً: المسرح الجغرفى	
٤٩	ثانياً: حقائق تاريخية عن دولة الموحدين	
	الباب الأول	
	التاريخ السياسى	
٦١	الفصل الأول: شرق الأندلس فى السنوات الأخيرة من عصر المرابطين	
٦٣	(١) ثورة أهل قرطبة على المرابطين فى عام ٥١٥هـ	
٦٥	(٢) التوسع الأرغونى بعد سقوط سرقسطه عام ٥١٢هـ	
٦٥	أ- حملة الفونسو المحارب ونتائجها	
٧١	ب- موقعة قليبره وما تبعها من حملات أرغونية	
٧٤	(٣) مرحلة الافاقة المرابطية	
٧٤	أ- دور ابن غانية فى انتصارات المرابطين فى افراغة	
٧٨	ب- نتائج انتصار افراغة	
٨١	(٤) ثورة شرق الأندلس على المرابطين وبداية انهيار سلطانهم فيه	
٨١	أ- مقدمات الثورة	
٨٣	ب- ثورة بلنسية على المرابطين	
٨٥	ج- ثورة مرسية	
٨٧	(٥) تطور الأحداث فى شرق الأندلس بعد انهيار سلطان المرابطين	
٨٧	أ- الوضع فى مرسية	
٨٨	ب- اضطرابات الأحوال فى بلنسية	
٩١	ج- ولاية محمد بن سعد بن مردنیش على شرق الأندلس	

الفصل الثاني: موقف الموحدين من ابن مردنيش ٩٥

(١) انتزاع محمد بن سعد بن مردنيش بشرق الأندلس ٩٧

أ- التعريف بابن مردنيش ٩٧

ب- علاقات ابن مردنيش بالممالك النصرانية ٩٩

ج- موقف ابن مردنيش من نصارى أسبانيا بعد سقوط بعض قواعد الثغر الأعلى ١٠٢

(٢) موقف الموحدين من سيطرة ابن مردنيش على بلنسية ومرسية ١٠٤

أ- اشتغال الموحدين بتثبيت دعائم دولتهم بالمغرب عن مواجهة ابن مردنيش ١٠٤

ب- سيطرة ابن مردنيش على الموقف في شرق الأندلس وسياسة التوسعية ١٠٧

ج- الصراع بين الموحدين وابن مردنيش ١١١

د- هزيمة ابن مردنيش في فحص الجلاب ١٢٢

هـ- توحيد ابن هشمك ١٢٧

ر- نهاية ابن مردنيش ١٣٠

الفصل الثالث: موقف الموحدين من بنى غانية في الجزائر الشرقية ١٣٩

(١) بنو غانية أصحاب الجزر الشرقية ١٤١

أ- ولاية محمد بن علي بن غانية على الجزر الشرقية ١٤١

ب- عهد أبي ابراهيم اسحق بن محمد بن غانية ١٤٤

(٢) الصراع بين بنى غانية وبين الموحدين في المغرب وجزر البليار (المرحلة

الأولى) حتى سنة ٥٨٤ هـ ١٤٧

أ- عهد علي بن اسحق ١٤٧

ب- الوضع في الجزر الشرقية أثناء الحرب المغربية ١٥٢

ج- إمارة عبدالله بن اسحق على ميورقة ١٥٤

(٣) الصراع بين بنى غانية وبين الموحدين في المغرب وجزر البليار (المرحلة

الثانية) حتى سنة ٥٩٩ هـ ١٥٥

أ- علي بن اسحق وصراعه ضد الموحدين في افريقية ١٥٥

ب- سقوط الجزر الشرقية في أيدي الموحدين ١٥٧

ج- نتائج سقوط ميورقة في أيدي الموحدين ١٦٠

- ١٦٠ ١- بالنسبة للمالك المسيحية
- ١٦٠ ٢- بالنسبة لبنى غانية فى المغرب
- ١٦٣ الفصل الرابع: شرق الأندلس فى عصر الموحدين
- ١٦٥ (١) قادة شرق الأندلس يشاركون الموحدين فى حركة الجهاد
- ١٦٥ أ- حملة ويزة فى ذى القعدة سنة ٥٦٧ هـ
- ب- اشتراك السيد أبى عبد الله بن أبى يعقوب يوسف والى مرسية
- ١٦٧ فى غزوة شتتين فى ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ
- ١٦٨ (٢) أسرة بنى مردنيش فى خدمة الخلافة الموحدية
- ١٦٨ أ- أبناء محمد بن سعد بن مردنيش فى بلاط الموحدين
- ١٧٠ ب- جهود غانم بن محمد بن سعد بن مردنيش فى خدمة الدولة الموحدية
- ١٧٢ ج- أبو الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش والى بلنسية
- ١٧٤ (٣) شرق الأندلس فى ظل دولة الموحدين
- ١٧٤ أ- مرسية فى عصر الخليفين يوسف ويعقوب المنصور
- ١٧٤ ب- مرسية قاعدة دولة العادل
- ١٨١ ج- الأوضاع فى بلنسية فى عهد الموحدين
- ١٨٧ الفصل الخامس: تفكك شرق الأندلس فى آخر عصر الموحدين وسقوط قواعده
- ١٨٩ (١) الأوضاع السياسية فى الأندلس فى السنوات الأخيرة من دولة الموحدين
- ١٨٩ أ- ضعف الخلافة الموحدية وأثره فى قيام الثورات فى الأندلس
- ١٩٠ ب- انتزاع ابن هود فى مرسية
- ١٩٤ ج- امتداد سيطرة ابن هود على قواعد الأندلس الوسطى والجنوبية
- ١٩٥ د- صدى ثورة ابن هود على الأوضاع فى بلنسية
- ١٩٦ هـ- موقف ابن هود من حركة أبى جميل زيان ببلنسية
- ١٩٨ (٢) فشل ابن هود فى مواجهة المد القشتالى والأرغونى
- ١٩٨ أ- ظهرز محمد بن يوسف بن نصر منافس لابن هود
- ٢٠٠ ب- سقوط جزيرة ميورقه
- ٢٠٤ ج- سقوط جزيرة إيبسه

الباب الثاني

بعض مظاهر حضارة شرق الأندلس

٢٢٥ الفصل الأول: الحياة الاجتماعية
٢٢٧ أولاً: طبقات مجتمع شرق الأندلس
٢٣٩ ثانياً: السزى
٢٤٣ ثالثاً: الأطعمة والأشربة
٢٤٦ رابعاً: فن الغناء الموسيقى
٢٥٠ خامساً: الاحتفالات والأعياد
٢٥٥ الفصل الثاني: الحياة الاقتصادية والفنية
٢٥٧ أولاً: الزراعة
٢٦٤ ثانياً: الصناعة
٢٧٦ ثالثاً: التجارة
٢٨٢ رابعاً: التنظيمات الاقتصادية
٢٩٩ الفصل الثالث: الحياة العلمية
٣٠٢ (١) العلوم الدينية
٣٠٢ أ- علم القراءات والتفسير
٣٠٤ ب- علوم الحديث والفقه
٣١٠ (٢) العلوم اللغوية
٣١١ أ- الشعر
٣١٨ ب- الموشحات والأزجال
٣٢٠ ج- النثر
٣٢٨ د- الدراسات النحوية
٣٢٩ (٣) علمى التاريخ والجغرافية
٣٣١ (٤) الطب والرياضيات والهندسة
٣٣٥ الفصل الرابع: العمران والآثار الاسلامية الباقية فى شرق الأندلس
٣٣٧ أولاً: التوسع العمرانى
٣٣٨ ١- تخطيط مدينة مرسية

- ٢- تخطيط مدينة بلنسية ٣٤١
- ثانيا: الآثار الإسلامية الباقية في شرق الأندلس ٣٤٦
- ١- المنشآت المدنية ٣٤٧
- أ- الحمامات ٣٤٧
- ب- القصور ٣٤٩
- ج- شواهد القبور ٣٥١
- د- صهاريج المياه ٣٥٢
- ٢- الآثار الحربية ٣٥٢
- أ- آثار حصن Olocau بأقليم بالنسية ٣٥٣
- ب- قلعة شاطبة ٣٥٤
- ج- آثار برج بوفيا ٣٥٦
- د- بقايا برج موسى ٣٥٧
- هـ- آثار برج Trullars ٣٥٧
- قائمة بالمخطوطات والمصادر والمراجع العربية والأجنبية ٣٥٨
- الملاحق ٣٧٧
- ملحق رقم (١) رسالة من الفقيه أبي بكر عزيز بن خطاب إلى الخطيب أبي عبدالله بن قاسم ٣٧٩
- ملحق رقم (٢) رسالة بقلم زبي عبدالله بن الجنان من أمير المسلمين محمد بن يوسف بن هود بمباينة ابنه أبا بكر بولاية عهده لأهل شاطبة ويران ودانيه ٣٨٥
- ملحق رقم (٣) رسالة موجهه من الأمير زيان بن مردنيش إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة بقلم أبو المطرف بن عميرة المخزومي ٣٨٨
- ملحق رقم (٤) حكام بلنسية ومرسيه منذ قيام أهل الأندلس بالثورة على المرابطين حتى تبعية القاعدتين للحكم الموحدى ٣٨٩
- ملحق رقم (٥) ولاء بلنسية ومرسيه في عصر الموحدين ثم حكامها المستقلين في عصر الطوائف الثالث إلى أن سقطها نهائيا في أيدي مملكتي ٣٩١
- أراغون وقشتالة ٣٩١
- ملحق الأشكال ٣٩٢
- ملحق الخرائط ٣٩٦

